جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

التفسير التحليلي (١)

GUQR5253

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2011

المحتويات

الـــــــدرس الأول	:	تفسير الآيات (١ - ١٢) من سورة (التوبة)	٧-٢٨
الـــــدرس الثـــاني	:	تفسير الآيات (١٣ - ٢٤) من سورة (التوبة)	٢٩-٤٢
الـــــدرس الثالـــث	:	تفسير الآيات (٢٥ - ٣٧) من سورة (التوبة)	٤٣-٦٥
الـــــدرس الرابـــع	:	تفسير الآيات (٣٨ - ٥٧) من سورة (التوبة)	٦٧-٩٠
الـــــدرس الخـــامس	:	تفسير الآيات (٥٨ - ٨٣) من سورة (التوبة)	٩١-١٢٣
الـــــدرس الـــسادس	:	تفسير الآيات (٨٤ - ١١٠) من سورة (التوبة)	١٢٥-١٥٣
الـــــدرس الـــسابع	:	تفسير الآيات (١١١ - ١٢٣) من سورة (التوبة)	١٥٥-١٨١
الـــــدرس الثـــامن	:	تفسير الآيات (١ - ٣٢) من سورة (النحل)	١٨٣-٢٢٢
الـــــدرس التاســـع	:	تفسير الآيات (٣٣ - ٦٧) من سورة (النحل)	٢٢٣-٢٥٧
الـــــدرس العاشـــر	:	تفسير الآيات (٦٨ - ١٠٠) من سورة (النحل)	٢٥٩-٢٩٦

الدرس الحادي عشر	:	تفسير الآيات (١٠١ - ١٢٨) من سورة (النحل)	٢٩٧-٣٣٣
الدرس الثاني عشر	:	تفسير الآيات (١ - ٣٥) من سورة (غافر)	٣٣٥-٣٩٢
الدرس الثالث عشر	:	تفسير الآيات (٣٦ - ٨٥) من سورة (غافر)	٣٩٣-٤٦٠
الدرس الرابع عشر	:	تفسير الآيات (١ - ٢٩) من سورة (الفتح)	٤٦١-٥٢٦
الدرس الخامس عشر	:	تفسير الآيات (١ - ٢٥) من سورة (ق)	٥٢٧-٥٧٠
الدرس السادس عشر	:	تفسير الآيات (٢٦ - ٤٥) من سورة (ق)	٥٧١-٦٠١
قائمة المراجع العامة	:		٦٠٣-٦٠٧

تفسير الآيات (١ - ١٢) من سورة (التوبة)

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : تمهيد، وتفسير الآيات (١ - ٤) من سورة (التوبة) ٩

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (٥ - ١٢) من سورة (التوبة) ١٩

تمهيد، وتفسير الآيات (١-٤) من سورة (التوبة)

١ـ عدد آيات السورة، وأسماؤها، ومكان نزولها:

أ. عدد آياتها: "سورة التوبة" هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف، وعدد آياتها مائة وتسع وعشرون آية عند الكوفيين، ومائة وثلاثون آية عند جمهور العلماء.

ب. أسماؤها: عرفت "سورة التوبة" بجملة من الأسماء، منها:

١. "التوبة": لتكرار الحديث فيها عن التوبة والتائبين، ومن ذلك قوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٣].

٢. "براءة": لافتتاحها بقوله سبحانه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١].

٣. وهذان الاسمان: "التوبة"، و"براءة"، أشهرُ أسماء هذه السورة الكريمة.

٤. "الفاضحة": لحديثها المستفيض عن المنافقين وصفاتهم وأحوالهم، وسُمّيت بالفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين على رءوس الأشهاد، أخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال: "قلت لابن عباس: "سورة التوبة" قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل، ومنهم من يفعل كذا، ومنهم من يفعل كذا، حتى ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذُكر في هذه السورة، فسُمّيت الفاضحة لذلك".

٥. "المنقرة": لأنها نقرت عما في قلوب المنافقين، والمشركين، فكشفت عما هو موجود في قلوب المنافقين وأظهرته للناس.

٦. "المبعثرة": لأنها بعثرت أسرار المنافقين، أي: بيّنتها وعرّفتها للمؤمنين.

٧. "المثيرة": لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم، يعني أخرجتها من الخفاء إلى الظهور.

٨. "البحوث" لأنها تبحث عن أعمال المنافقين، وورد هذا الاسم عن أبي أيوب الأنصاري.

٩. "الحافرة" لأنها تحفر قلوب أهل النفاق، لمثل قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡ﴾ [التوبة: ١١٠] وقوله تعالى: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٧].

ج- مكان نزولها: هذا كلام اختلف فيه العلماء، فبعضهم قال: إنها مدنية إلا بعض آيات، أو غير ذلك، لكن الرّأي الراجح أن السورة مدنية؛ لأن الذي يستعرض آيات السورة يراها في مجموعها ترسم للمؤمنين ما يجب أن تكون عليه علاقاتهم مع المشركين، ومع أهل الكتاب، ومع المنافقين، ومع غيرهم من الطوائف، وهذا حدث في المجتمع المدني، كما يرى السورةَ ترسم للمؤمنين الطريق الذي يجب عليهم أن يتّخذوه أساسًا لدولتهم، ومنهاجًا لحياتهم، وهذا في مجتمع المدينة حتى تستمرّ عزتهم، وتبقى كلمتهم عالية قوية، بعد أن فتح الله لهم مكة، وأذلّ الشرك وأهله.

أيضًا مما يدلّ على أن السورة مدنية، نرى السورة تتحدّث باستفاضة عن أحداث وقعت خلال غزوة تبوك، أو قبلها، أو بعدها، وغزوة تبوك قد كانت في السنة التاسعة من الهجرة.

٢- لماذا لم تُذكر البسملة في أول السورة؟

الجواب: لم تُذكر البسملة في أول هذه السورة؛ لأن الرسول ﷺ أمر بوضع هذه السورة بعد "سورة الأنفال" وحيًا -أي عن طريق الوحي- فقد أبلغه جبريل # بهذا، وأنَّ الرسول ﷺ حذف "بسم الله الرحمن الرحيم" من أول هذه السورة وحيًا، يعني: أنَّها أُنزلت هكذا بدون ذكر البسملة في أولها.

قال الجلال: لم تُكتب في هذه السورة البسملة؛ لأنَّه ﷺ لم يأمر بذلك، أي أن عدم كتابة "بسم الله الرحمن الرحيم"، أو عدم نطق "بسم الله الرحمن الرحيم" في "سورة التوبة" لا مدخل لرأي أحد في الإثبات والترك، وإنما المتّبع في ذلك هو الوحي والتوقيف؛ حيث لم يبيّن النبي ﷺ ذلك، وقال بعض العلماء: لم تُكتب في أولها البسملة لعدم أمره ﷺ بكتابتها. إذن عدم كتابة البسملة أمر توقيفي، وليس ناتجًا عن اجتهاد.

٣- وجه مناسبة السورة لسورة الأنفال، والمحاور التي تحدّثت عنها:

وجه مناسبة "سورة التوبة" لـ"سورة الأنفال" هو: أنه في "سورة الأنفال" قسمة الغنائم في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] إلى آخر الآية، وجعل خُمسها لخمسة أصناف، وفي "سورة التوبة" أيضًا قسّم الصّدقات، وجعلها لثمانية أصناف، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] إلى آخر الآية.

أيضًا من وجوه المناسبة بين "سورة الأنفال" و"سورة التوبة" أن "سورة التوبة" كالمتممة لـ"سورة الأنفال" في معظم ما قيل فيها من أصول الدين، وفروعه، والسنن الإلهية، والتشريع، وأحكام المعاهدة، فما بُدئ به في "سورة الأنفال" تمّمته السورة الثانية وهي "سورة التوبة".

مثال ذلك: العهود ذُكرت في "سورة الأنفال"، وافتُتحت "سورة التوبة" بتفصيل الكلام فيها، ولا سيما نبذها الذي قُيِّد في الأولى بخوف خيانة الأعداء: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

أيضًا تفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب، في كلّ من سورتي "الأنفال" و"التوبة" ذُكر في الآية الأولى صدّ المشركين عن المسجد الحرام، وأنهم ليسوا بأوليائهم، وجاء في "سورة التوبة" قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [التوبة: ١٧].

أيضًا ذُكر في الآية الأولى من "سورة الأنفال" صفات المؤمنين الكاملين، وذُكر بعد ذلك بعض صفات الكافرين، ثم ذُكر في آخر السورة حكم الولاية بين كلّ من الفريقين، وجاء في السورة الثانية أي "سورة التوبة" مثل هذا في مواضع منها.

٤. المحاور التي تحدثت عنها سورة التوبة:

الحقيقة أنَّ "سورة التوبة" تحدّثت عن محاور كثيرة، من بينها:

١. إعلان براءة الله ورسوله من المشركين؛ بسبب خيانتهم، ومَنح الله الأمان لهم لمدّة أربعة أشهر، استُثني من ذلك أولئك الذين لم ينقضوا عهدهم، وقد أمر الله المؤمنين أن يُتمّوا إليهم مدتهم.

٢. ذكر الأسباب التي دعت إلى البراءة من المشركين، والتي أوجبت على المؤمنين قتالهم.

٣. أن الأمر بقتال المشركين كانت الحكمة فيه هي الامتحان والتمحيص، هل ينتهون، أم لا ينتهون.

٤. الأمر بإيثار محبّة الله ورسوله على محبّة الآباء، والأبناء، والأموال، وتهديد من يُخالف ذلك، محبّة الله والرسول مقدمة على محبة الآباء، والأبناء، والأموال، فإذا ما حدث نزاع أو حرب بين الكافرين والمؤمنين، فالمؤمن لا ينسى أن هناك ضوابط لمثل هذه العلاقة، ولكنه يجب عليه أن يقدّم محبّة الله ورسوله، على محبة أبيه وأخيه، وغير ذلك.

٥. التذكير بنصر الله -سبحانه- للمؤمنين على أعدائهم في مواطن كثيرة، حيث أيّدهم بعونه بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وذلك ما حدث في غزوة حنين، حينما أُعجب المسلمون بقوّتهم وكثرتهم، فكانت الدائرة عليهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، لكن نصر الله، وتأييده جاء ملازمًا للمؤمنين في أوقات الشّدّة.

٦. النَّهي للمسلمين عن تمكين المشركين من قربان المسجد الحرام: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

٧. أيضًا من بين المحاور: تحديد المنهاج الذي يجب أن يسلكه المؤمنون في علاقاتهم مع المنحرفين من أهل الكتاب.

٨. التحذير من سوء عاقبة المتكاسلين عن قتال الأعداء.

٩. الحديث عن المنافقين، والكشف عن أصنافهم، وأوصافهم.

١٠. الحديث أيضًا عن صفات المؤمنين.

٥- التفسير التحليلي للآيات:

إنَّ التفسير التحليلي يعتني بالكشف عن معاني الألفاظ، والتراكيب، والإعراب، والبلاغة، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك من هذه الأمور، وهذه هي الآيات التي سنبدأ بتحليلها.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١ : ٤].

الآثار التي ذكرها المفسرون في هذه الآيات:

قال الإمام ابن كثير: أول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وهَمَّ بالحج، ثم ذكر أنَّ المشركين يحضرون هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنَّهم يطوفون بالبيت عُراة، فكره الرسول ﷺ مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق < أميرًا على الحج لتلك السنة؛ ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركون ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن يُنادي بالناس قول الله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ فلما عاد أتبعه بعلي بن أبي طالب؛ ليكون مبلغًا عنه ﷺ لكونه عصبة له، انتهى كلام ابن كثير.

أولًا: معاني المفردات: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ أصل البراءة: التقاعد عن الشيء والتخلّص منه، يعني معناها أنه تخلّص من العهود التي مع المشركين، ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إعلان البراءة، وإعلان عدم الالتزام بالعهود التي كانت موجودة للمشركين؛ لأنَّ المشركين خانوا هذه العهود.

قوله تعالى: ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ السياحة في الأصل: جريان الماء وانبساطه على موجب طبقته، ثم استُعملت في الضرب في الأرض.

قوله: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ الأذان معناه: الإعلام، بمعنى أنَّ الله يُعلم هؤلاء نبذ العهود معهم.

ثانيًا: إعراب الآيات: والحديث هنا عن الإعراب الذي له أثر في تغيير المعنى:

قوله: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أذان: إعرابها مبتدأ، والخبر قوله: "إلى الناس" يعني: أذان إلى الناس.

نأتي بعد ذلك إلى كلمة "ورسوله" في قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾ بالرفع، فإعرابها مبتدأ، إذن الواو هنا للاستئناف بمعنى: ورسوله بريء، والخبر محذوف أي: ورسوله بريء منهم، وإنما حُذف الخبر؛ للدلالة عليه في قوله تعالى: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

ثالثًا: البلاغة: قوله: ﴿ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الخطاب للمشركين، وفي أول الآية كان يتحدّث عن المشركين بأسلوب الغائب في قوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يتحدّث عنهم بأسلوب الغائب، لكن خاطبهم في قوله تعالى: ﴿ فَسِيحُواْ ﴾، وهذا ما يُسمّى بالالتفات من الغائب إلى الحاضر؛ لأنَّ المخاطب يكون حاضرًا.

أيضًا قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ نجد كلمة "شيئًا" و"أحدًا" نكرة، والتنكير هنا للتقليل.

ثم بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ فَسِيحُواْ ﴾ لماذا عبّر بالسياحة، ولم يعبر بالسير؟ لأنَّ ذلك يدل على كمال التوسعة.

أيضًا التعبير بـ"ثم" في قوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا ﴾ للدلالة على ثباتهم على عهدهم، يعني: ثبات المشركين الذين عاهدوكم وثبتوا على عهدهم، مع تمادي المدة وتطاولها.

رابعًا: بعض الأحكام المستنبطة من الآيات:

١. جواز نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه عهد، متى رأى الإمام مصلحة الأمة في ذلك، كأن خيف منهم خيانة، أو نقضوا شيئًا من شروط المعاهدة.

٢. عقد المعاهدات حقّ للجماعة، يُوافق عليه أصحاب الرأي والاختصاص في موضوع المعاهدة، وما هو في مصلحة الجماعة، ثم يباشر الإمام عقد هذه المعاهدات بعد ذلك نيابة عن الجماعة.

خامسًا: المعنى العام للآيات:

إنَّ الله تعالى قطع ما بينه وبين المشركين من صِلَات، فلا عهد، ولا تعاهد، ولا سِلم، ولا أمان، وتركهم الله تعالى –أي: ترك المشركين- تعمل فيهم سيوف المؤمنين؛ حتى يقوِّموهم أو يبيدوهم، لكن هنا تساؤل: إذا كان الله ﷻ قطع الصلات التي بينه وبين المشركين، وترك سيوف المؤمنين تقوّمهم أو تبيدهم، هل معنى هذا أنَّ رحمة الله العامة قُطعت عنهم؟

لا، لم تقطع -رحمة الله- العامة عنهم التي كتبها على نفسه، من جهة أنَّه الخالق، وأنَّهم المخلوقون، فهو مع هذا التبرّي الذي أعلنه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا يزال من هذه الجهة أي أنَّه خالق، وأنَّهم مخلوقون، لا يزال يرحمهم بمنحهم الحياة، وموارد الرزق، والتمكين من العمل، حسب تقديره العام، وسنته الشاملة في خلقه، ولو أنَّ التبرّي كان على إطلاقه، لما عاش كافر طرفة عين، ولما استطاع كافر أن يقف في وجه مسلم.

إذن هناك إعلان عن نبذ العهود التي كانت بين المسلمين والمشركين، لكن الله ﷻ أباح لهم السير في الأرض مدّة تقدّر بأربعة أشهر، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ ، والأمر في قوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾ للإباحة، والإعلام بحصول الأمان لهم في تلك المدة.

والحكمة في إعطاء المشركين هذه المدة، أربعة أشهر؛ لتمكين المشركين من النظر والتدبر في أمر أنفسهم؛ حتَّى يختاروا ما فيه مصلحتهم، ويعلموا أنَّه ليس أمامهم بعد هذه المدة إلا الإسلام، أو السيف، ولكي لا يُنسب إلى المسلمين الغدر ونبذ العهود دون إعلام أو إنذار، وهذا من سموّ تعاليم الإسلام، تلك التعاليم التي لم تبحْ لأتباعها أن يأخذوا أعدى أعدائهم على غرّة، بل منحت هؤلاء الأعداء مُهلة كافية يدبّرون فيها أمر أنفسهم، وهم آمنون من أن يتعرّض لهم أحدٌ من المسلمين بأذًى.

وقد اختلف المفسرون في ابتداء هذه الأشهر الأربعة، فقال مجاهد، والسدي، وغيرهما: كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر من السنة التاسعة، ونهايتها في اليوم العاشر من شهر ربيع الآخر، من السنة العاشرة؛ وذلك لأنَّ المشركين قد أُعلموا بهذه المهلة يوم النحر من السنة التاسعة على لسان علي بن أبي طالب.

ثم بيّن -سبحانه- أنَّ هذا الإمهال للمشركين لن ينجيَهم من إنزال العقوبة بهم، متى استمرّوا على كفرهم، فقال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي: واعلموا أيّها المشركون أنّكم بسياحتكم في الأرض خلال تلك المهلة لن تُعجزوا الله تعالى في طلبكم، فأنتم حيثما كنتم تحت سلطانه وقدرته، واعلموا كذلك أنه -سبحانه- مُذلّ للكافرين في الدنيا بالقتل والأسرِ، وفي الآخرة بالعذاب المهين.

ثم بيَّن سبحانه بعد ذلك الموعدَ الذي تُعلن فيه هذه البراءة من المشركين؛ حتى لا يكون لهم عُذر بعد هذا الإعلان، فقال تعالى: ﴿وَأَذَانٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: وهذه الآيات

إيذان وإعلان من الله ورسوله إلى الناس عامَّة يوم الحج الأكبر، وأنَّ هذه العهود قد نُبذت إليهم بسبب إصرارهم على شركهم ونقضهم لمواثيقهم، ونلاحظ أنَّ البراءة من الله ورسوله قد عُلِّقت بالذين عاهدوا -أي عاهدهم المسلمون- من المشركين.

وعلَّق الله ﷻ الأذان بالناس حيث قال: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ لأنَّ البراءة مختصَّة بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمَّا الأذان فقام لجميع الناس مَنْ عاهد ومَنْ لم يعاهد، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث.

وقد جاء اختيار يوم الحج الأكبر لما في قوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ﴾ لأنَّ يوم الحج الأكبر، هو يوم النحر الذي يضمّ أكبر عدد من الناس، يمكن أن يُذاع الخبر عن طريقهم في جميع أنحاء البلاد.

وقد اختلف المفسرون حول يوم الحج الأكبر، فقال بعضهم: يوم النحر، وقال آخرون: يوم عرفة، وقيل: هو جميع أيام الحج، لكن الراجح هو يوم النحر، كما رجّحه ابن جرير، وكذلك ابن القيم، وقال ابن القيم: لقد ثبت في (الصحيحين) أنَّ أبا بكر، وعلي أَعْلَمَا الناس بذلك يوم النحر، لا يوم عرفة، وفي سنن أبي داود بأصح إسناد أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((يوم الحج الأكبر يوم النحر)).

ثم أردف سبحانه هذا الإعلان بالبراءة من عهود المشركين بترغيبهم في الإيمان، وتحذيرهم من الكفر والعصيان، فقال سبحانه: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

ثم بيّن الله تعالى للمؤمنين بأنَّ الذين عاهدتم من المشركين ولم ينقضوا عهودهم، فأتمّوا –أي: المسلمون- إلى المشركين عهدهم إلى مدّتهم؛ لأنَّ الوفاء بالعهد إلى

نهايته مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التي يحبّها لعباده، ويحبّهم لسببها، ولذلك يقول الله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

تفسير الآيات (٥- ١٢) من سورة (التوبة)

١. تفسير الآية الخامسة:

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥]

أ. مناسبة الآية لما قبلها: المناسبة بينها وبين ما قبلها من الآيات، فبعد أن قرّرت السورة الكريمة براءة الله ورسوله من عهود المشركين الخائنين، وأمرت بالوفاء لمن وفى بعهده منهم، بعد كلّ ذلك أخذت السورة في بيان كيفيّة معاملة المشركين بعد انتهاء المهلة الممنوحة لهم، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ إلى آخر الآية.

ب. التفسير التحليلي للآيات:

أولًا: معاني المفردات: قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ فانسلخ أي: انقضاء الأشهر الأربعة، يعني: انتهاء الأشهر الأربعة، المدّة الممنوحة، والتي أعطاها الله ﷻ للمشركين الخائنين.

أيضًا نأتي لكلمة ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ أي: امنعوهم مِنَ الخروج، فالحصر هو المنع.

أيضًا نأتي إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ والمرصد: هو الموضع الذي يقعد فيه العدو لمراقبته، يعني: مراقبة العدو.

ثانيًا: الإعراب: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ الأشهر الحرم معروفة أنها: هي المدة التي أعطاها الله للمشركين؛ فـ(أل) هنا للعهد الذكري، وهي الأشهر الأربعة المعطاة مهلة لهؤلاء المشركين بعد قطع ونبذ العهود معهم.

ثالثًا: البلاغة: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ ﴾ انسلاخ الأشهر: استعارة لانقضائها والخروج منها.

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ نلاحظ أنَّ الله ﷻ اكتفى بذكر الصلاة والزكاة عن ذكر بقية العبادات؛ لكون الزكاة والصلاة الأساسين للعبادات البدنيّة والماليّة.

رابعًا: الأحكام المستنبطة من الآية:

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال الإمام ابن كثير: وقد اعتمد الصديق < في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية وأمثالها، حيث حرّمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي: الدخول في الإسلام، والقيام بأداء واجباته.

خامسًا: المعنى العام لهذه الآية: عليكم أيّها المؤمنون إذا ما انتهت أشهر الأمان الأربعة أن تقتلوا المشركين الناكثين لعهودهم أينما وجدتموهم، وأن تأسِروهم، وتحبسوهم، وتُراقبوهم على كل طريق؛ حتى تضعف شوكتهم فينقادوا لكم، فإن

تابوا عن الشّرك بأن دخلوا في الإسلام، فاتركوا التعرض لهم، وكُفّوا عن قتالهم، ولا تعاملوهم بما كان منهم من شرك؛ فإنَّ الإسلام يَجُبّ ما قبله، وإن الله تعالى قد غفر لهم ما سلف من الكفر والغدر بفضله، ورحمته.

٢. تفسير الآية السادسة:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾.

أ. مناسبة الآية لما قبلها: بعد أنْ بيّن سبحانه حكم المصرين على الشرك وهو قتالهم وأخذهم، وحكم من تابوا وهو إخلاء سبيلهم، بعد ذلك بيّن سبحانه حكم المشركين الذين يطلبون الأمان لمعرفة شرائع الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾.

ب. التفسير التحليلي للآية:

أولًا: معاني المفردات: في هذه الآية الكريمة قوله: ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب جوارك وحمايتك من الاعتداء عليه.

ثانيًا: الإعراب: نلاحظ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أن "إِنْ" هنا شرطية، و"أحد" فاعل لفعل مضمر يفسّره الفعل الظاهر وهو: "استجارك" أي: إن استجارك أحد من المشركين فأجره.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ اسم الإشارة في قوله: ذلك، يعود إلى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن، أي: ذلك الأمر بإجارة المشرك وإبلاغه مأمنه، بأنَّهم قوم لا يعلمون.

ثالثًا: الأحكام المستفادة من الآية:

١. المستأمن لا يُؤْذَى، بل يجب على المسلمين حمايته في نفسه وماله وعرضه؛ ما دام في دار الإسلام، وقد حذّر الإسلام أتباعه من الغدر أشدّ تحذير، ومن ذلك ما رواه البخاري، والنسائي، عن النبي ﷺ أنه قال: ((من أمّن رجلًا على دمه فقتله؛ فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافرًا)) ما دمنا أعطينا لهم الأمان وسمحنا لهم بدخول بلادنا، يجب علينا أن نحميهم ونُعاقب من يعتدي عليهم. أيضًا روى الشيخان، وأحمد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: ((لكل غادر لواء، يعرف به يوم القيامة)) فالغدر بمن أعطيناه الأمان لدخول بلادنا هذا شيء ينكره الإسلام.

٢. على الإمام، أو من يقوم مقامه، أن يعطي المستأمن المهلة التي يراها كافية لفهم حقائق الإسلام، وأن يبلغه مَأْمَنَهُ بعد انقضاء حاجته، وألا يمكّنه من الإقامة في دار الإسلام إلا بمقدار قضاء حاجته. هذا عن الأحكام.

رابعًا: المعنى العام للآية: إنَّ استأمنك أيّها الرسول الكريم أحدٌ من المشركين، وطلب جوارك، وحمايتك بعد انقضاء مدة الأمان المحددة له، فأمّنه وأجبه إلى طلبه؛ لكي يسمع كلام الله، ويتدبّره، ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه، من تعاليم مقنعة للعقول السليمة؛ لأنَّ الشرك ظلم عظيم فإن آمن بعد سماعك؛ صار من أتباعك، وإن بقي على شركه وأراد الرجوع إلى جماعته؛ فعليك أن تُحافظ عليه حتى يصل إلى مكان أمنه واستقراره، وهو ديار قومه.

ثم بعد ذلك يُصبح حكمه كحكم المصرين على الشرك، ويعامل بما يعاملون به، ذلك الذي أمرناك به من إجارة المستجير من المشركين، وإبلاغه مأمنه إذا لم يدخل الإسلام؛ بسبب أنَّهم قوم لا يعلمون الإسلام، ولا حقيقة ما تدعوهم

إليه، إنَّهم قوم يحتاجون إلى فترة من الوقت يسمعون كلام الله فيها، وهم آمنون، وبهذا السماع منك ومن أصحابك لا يبقى لهم عذرٌ أصلًا في استمرارهم على الباطل.

عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل من المشركين إلى علي بن أبي طالب فقال: إنَّ أراد الرجل منّا أن يأتي إلى رسول الله محمد ﷺ بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله، أو لحاجة قتل؟ فقال له علي: لا؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

خامسًا: المعنى المستفاد من الآية: وجوب التفقه في الدين، وعدم الاكتفاء بالظنون والتقليد.

٣. تفسير الآيات من الآية السابعة إلى الآية الثانية عشرة:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ٧: ١٢].

مناسبة الآيات لما قبلها: بعد أن بيّن الله ﷻ في الآية السابقة بأنه يجب على المؤمنين أن يؤمّنوا المشرك الذي يريد أن يسمع كلام الله، وأن يحافظوا عليه، بدأ الله ﷻ يبيّن الأسباب التي دَعَتْ إلى نبذ العهود مع المشركين، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ إلى آخر الآيات.

ب. التفسير التحليلي للآيات:

أولًا: معاني المفردات: قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ فالعهد: ما يتّفق شخصان أو طائفتان من الناس على التزامه بينهما، فإن أكّداه ووثّقاه بما يقتضي زيادة العناية بالوفاء به؛ سُمّي: ميثاقًا، وإن أكّداه باليمين خاصّة سُمّي: يمينًا.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ معنى قوله: ﴿يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ويغلبوكم، قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ أي: لا يُراعوا في شأنكم، قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قال بعض العلماء: "إلًّا" تطلق على العهد، قال بعضهم: تُطلق على القرابة، وقال بعضهم: تُطلق على الحَلِف. ولا مانع أن تجمع الكلمة كلّ هذه الأقوال الثلاثة. قوله تعالى: ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: كل أمر لزمك، بحيث إذا صنعته لزمك مذمَّة. قوله تعالى: ﴿نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ نكثوا من النكث بمعنى: النقض والحل، أي: نقضوا عهودهم.

ثانيًا: الإعراب: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يكون: تامة بمعنى: أنها لا تحتاج إلى خبر، وكيف: مفعول به في محل نصب، ويجوز أن تكون "يكون" في الجملة من الكون الناقص، الكون الناقص يعني: تحتاج إلى خبر، فيكون

قوله: "عهد" اسم كان، و"كيف": خبر كان، ونلاحظ هنا أنَّ الخبر قدّم على اسم كان، وهذا التقديم واجب؛ لأنَّ الخبر استفهام والاستفهام له صدر الكلام.

ثالثًا: البلاغة: قوله تعالى: ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا ﴾ استعار كلمة "اشتروا" للاستبدال، فهي استعارة تبعية.

قوله: ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ آيات الله: شيء معنويّ القرآن آيات الله ﷻ فيها ذكر أوصاف الرسول ﷺ لكن اليهود كتموا هذا، واشتروا بآيات الله التي فيها إثبات نبوّة سيدنا محمد ﷺ المناصب والمغانم في الدنيا؛ فآيات الله استعارة مكنية؛ حيث شبه آيات الله بشيء محسوس. قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾ استعارة تبعية أيضًا، حيث شبه النقض والحل بالنكث، أو استعارة مكنية؛ حيث شبه الأيمان بشيء محسوس ينقض ويحلّ.

قوله تعالى: ﴿رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ التعرّض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها، وللإشعار بسبب وجوب الوفاء بها، أيضًا نلاحظ أن كلمة كيف تكررت في آيتين: ﴿ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ ﴾، وأيضًا ﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ ﴾ في الظاهر تكرار لكنه في الحقيقة ليس تكرارًا؛ لأن تقدير قوله تعالى: ﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ ﴾ هنا تقدير كيف لا تقتلونهم، وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمّة، والأولى كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله.

نلاحظ في هذه الآيات أنَّه قد يبدو في الظاهر تكرار لبعض جمل فمثلًا: نجد كلمة ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ تكرّرت في قوله تعالى: ﴿ كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ ﴾ نجد أيضًا في الآية العاشرة: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ ﴾ فالظاهر أنَّه تكرار؛ لكن في الحقيقة ليس تكرار؛ لأنَّ ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ في

الآية الثامنة في المشركين، وقوله: ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ في الآية العاشرة فهي في اليهود، وعلى ذلك ليس هناك تكرار.

رابعًا: الأحكام المستفادة من الآيات: استدلّ بعض العلماء بقوله: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ استدلّوا بهذا على وجوب قتل كلّ من طعن في الدين؛ إذ هو كافر، والطعن أن ينسب إلى الدين ما لا يليق به، أو يعترض معترض بالاستخفاف على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعي على صحّة أصوله، واستقامة فروعه.

أيضًا من الأحكام أجمع عامّة أهل العلم على أن من سبّ النبي ﷺ يُقتل. ومن قال بذلك: الإمام مالك والليث وأحمد وإسحاق والشافعي، ثالثًا: تمسك الإمام أبو حنيفة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ تمسّك بهذه الآية أن الكافر لا يمين له على الحقيقة، وعند الشافعي -رحمه الله- يمينهم يمين، ودليل الشافعي أنَّ الله -سبحانه- وصفها بالنكث في قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ ولو لم يكن منعقدًا لما صحّ وصفها بالنقض والحلّ.

خامسًا: المعنى العام للآيات: لا ينبغي ولا يصحّ أن يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله، لكن الذين عاهدتموهم -أيّها المؤمنون- عند المسجد الحرام من المشركين، ولم ينقضوا عهودهم؛ فاستقيموا لهم مدّة استقامتهم لكم؛ فإنَّ الوفاء بالعهد من تقوى الله، هؤلاء المشركون -أي: الخائنون لعهودهم- إن غلبوكم أيّها المؤمنون؛ فعلوا بكم كلّ الأفاعيل، وتفنّنوا في إيذائكم من غير أنْ يقيموا وزنًا لما بينكم وبينهم من عهود، ومواثيق، وقرابات، وصلات.

أما إذا كانت الغلبة لكم أيها المؤمنون، فإنهم في هذه الحالة يعطونكم من ألسنتهم كلامًا معسولًا إرضاء لكم، وهم في الوقت نفسه تأبى قلوبهم المملوءة حقدًا

عليكم وبغضًا، وأكثر هؤلاء المشركين خارجون عن حدود الحق، منفصلون عن كل فضيلة ومكرمة.

ونجد قول الله تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ أعمّ من قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ لأنَّ هذه الآية بيّنت أنَّ عداوتهم للمؤمنين مقيد بظهورهم عليهم، كما بيَّنت الآية. أما قوله تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ فقد بيّنت أن عداوتهم ليست مقيدة بشيء، فهم متى وجدوا الفرصة اغتنموها في الاعتداء على المؤمنين؛ ولأنَّ الآية قد بيّنت أنَّ عداوتهم للمؤمنين قد اشتملت على كلّ مؤمن مهما كان موضعه.

أما قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ فهي تُخاطب المؤمنين الذين كان بينهم وبين المشركين الكثير من الحرب والدمار، وأولئك المشركون المتّصفون بتلك الصفات السيئة هم المتجاوزون لحدود الله، الخارجون عن كل فضيلة ومكرمة، فإن تاب هؤلاء المشركون عن شركهم، وما يتبعونه من رذائل ومنكرات، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة على الوجه الذي أمر الله به، فهم في هذه الحالة إخوانكم في الدين لهم ما لكم، وعليهم ما عليهم، وهذه الأخوة تَجُبّ ما قبلها من عداوات.

سادسًا: المعاني المستفادة:

- الوفاء بالعهد طالما التزم المشركون ببنود العهد التي أبرمت بينهم وبين المسلمين نجد ذلك في قول الله تعالى: ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾.

- العهد المعتدّ به في شريعة الإسلام، هو عهد الأوفياء غير الناكثين، هذا هو العهد الذي يحترمه الإسلام، إذا كان من قوم قد التزموا بالعهد الذي بينهم وبين

المسلمين، فالإسلام يحترم ذلك العهد ولا ينبذه بأي حال من الأحوال، فالإسلام يُحافظ على العهود، ويرغّب المسلمين في تنفيذ العهود التي بينهم وبين غيرهم.

- الالتزام بالعهود من: تقوى الله التي يحبّها لعباده، ولذلك ختم الله الآية بقوله ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

تفسير الآيات (١٣ - ٢٤) من سورة (التوبة)

عناصر الدرس

العنصر الأول : ن سورة (التوبة) ٣١

العنصر الثاني : تفسير الآيات (١٩ - ٢٤) من سورة (التوبة) ٣٧

تفسير الآيات (١٣- ١٨) من سورة (التوبة)

١ـ تفسير الآيات من الآية الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

أ. مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بيّن الله -سبحانه- الأسباب الموجبة لقتال المشركين في الآيات السابقة، شرع في تحريض المؤمنين على مهاجمتهم، ومقاتلتهم بأسلوب يُثير الحميّة في النفوس، ويحمل على الأقدام، وعدم المبالاة بهم فقال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ ﴾ إلى آخر الآيات.

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات: قوله تعالى: ﴿ نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ ﴾ أي: نقضوا عهودهم، قوله تعالى: ﴿ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾ الهَمُّ: المقاربة من الفعل من غير دخول فيه.

ثانيًا: البلاغة: الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ ﴾ للإنكار وكذلك الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ للإنكار أيضًا.

ثالثًا: المعنى العام للآيات: من أسباب قتال المشركين:

السبب الأول: أنَّهم نقضوا عهودهم، وحنثوا في أيمانهم التي حلفوها لتأكيد هذه العهود، ومن مظاهر ذلك أن هؤلاء المشركين الذين تعاهدوا معكم في صلح الحديبية على ترك القتال عشر سنين، قد نقضوا عهودهم بمساعدة حلفاء بني بكر على قتال حلفائكم بني خزاعة عند أول فرصة سنحت لهم.

السبب الثاني: أنَّ الكفار من قريش همّوا بإخراج الرسول ﷺ من مكة التي وُلد فيها وعاش بها زمنًا طويلًا، لكنهم لم يستطيعوا ذلك، بل خرج الرسول ﷺ باختياره، وبإذن الله له في الهجرة، وإنَّما اقتصر سبحانه في الآية على همَّهم بإخراجه ﷺ، ومن مكة من أنَّ آية الأنفال قد بيّنت أنَّهم قد همّوا بأحد أمور ثلاثة، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] اقتصر على الإخراج في هذه الآية من سورة التوبة؛ لأنَّ الإخراج هو الذي أوقع أثره في الخارج بحسب الظاهر.

أما القتل والحبس فلم يكن لهما أثر في الخارج، وقيل أيضًا: إنَّه سبحانه قد اقتصر على الأدنى وهو الهمّ بالإخراج ليعلم غيره بالطريق الأولى؛ لأنَّ الإخراج أهون من القتل والحبس.

السبب الثالث: أنَّ قريشًا كانت بادئة بقتال المسلمين في أول لقاء بينهم يوم بدر، ثم بعد ذلك أمر الله المؤمنين أن تكون الخشية له وحده، لا لأحد غيره قال تعالى: ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ثم أمرهم الله سبحانه بعد ذلك بمقاتلتهم.

رابعًا: المعاني المستفادة من هذه الآيات:

١. إنَّ قلوب الصحابة كانت مملوءة بالغضب، وبالحميّة من أجل الدين، ومن أجل الرغبة الشديدة في علوّ دين الإسلام، وهذه الأحوال لا تحصل إلا في قلوب المؤمنين الصادقين.

٢. الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم، فقد انتصر المؤمنون، كما أخبر الرسول ﷺ، وأسلم من المشركين أناس كثيرون.

٢ـ تفسير الآية السادسة عشرة:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

أ ـ مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن حرض سبحانه المؤمنين على القتال في الآيات السابقة أتبع ذلك ببيان بعض الحكم التي من أجلها شرع الجهاد في سبيله، فقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن ﴾ إلى آخر الآية.

ب ـ التفسير التحليلي:

أولًا: شرح معاني المفردات: حسب في قوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ يقول الراغب: حسب مصدره الحسبان، وهو أن يحكم الشخص لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الأصابع. وقوله: ﴿وَلِيجَةً ﴾ أي: بطانة ومداخلة. يعلم: المراد بالعلم الإظهار والتمييز. هذا والله أعلم.

ثانيًا: البلاغة: وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ ﴾ الاستفهام للإنكار، فهو استفهام إنكاري.

ثالثًا: المعنى العام لهذه الآية: أحسبتم أيها المؤمنون أن تُتركوا دون أن تُؤمروا بقتال المشركين؟ لا، أيها المؤمنون إن كنتم حسبتم ذلك، فهو حسبان باطل؛ لأنَّ سنة الله قد اقتضت أن يَميز المخلص في جهاده من غيره، وأن يجعل من حكم مشروعية الجهاد الامتحان والتمحيص، إن الله تعالى خبير بجميع أعمالكم، مطّلع على نياتكم؛ فأخلصوا له العمل والطاعة، لتنالوا ثوابه ورضاه وعونه.

٣. تفسير الآيتين السابعة عشرة والثامنة عشرة:

١. الآية السابعة عشرة: وهي قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾.

أ. مناسبة الآية لما قبلها:

بعد أن بيّنت السورة الحكمة من مشروعية الجهاد، أخذت الصورة بعد ذلك في إعلان حكم آخر يتعلّق بتعمير مساجد الله، فبيّنت أنه يحرم على المشركين أن يعمروا مساجد الله، وأن المستحقّين لذلك المؤمنون الصادقون فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية.

ب. سبب النزول: سبب نزول قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى آخره، هو أنَّ جماعة من رؤساء قريش أُسروا يوم بدر: منهم العباس بن عبد المطلب، فأقبل عليهم نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ يعيّرونهم بالشّرك، وجعل علي بن أبي

طالب يوبخ العباس؛ بسبب قتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقيل له: وهل لكم محاسن؟ قال: نعم، نحن أفضل منه إنا لنعمر المسجد الحرام، ونخدم الكعبة، ونسقي الحجيج، ونفكّ الأسير. فنزلت هذه الآية.

ج. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات: قوله: ﴿يَعۡمُرُواْ﴾ يُعمّروا: من العمارة التي هي نقيض الخراب، والمراد بعمارة المساجد هنا: ما يشمل إقامة العباد فيها، وإصلاح بنائها، وخدمتها ونظافتها واحترامها، وصيانتها عن كلّ ما لا يتناسب مع الغرض الذي بُنيت من أجله.

قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي: فَسَدَتْ أعمالهم التي كانوا يفتخرون بها مثل: العمارة، وخدمة الكعبة، والسقاية، وغير ذلك.

وبعد بيان هذه الآية جاءت آية أخرى؛ لتبيّن من هم الذين يستحقّون عمارة مساجد الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

معنى هذا: أنَّ الله ﷻ بيّن أنَّ المؤمنين أهلٌ لأن يعمروا مساجد الله؛ لأنهم هم الذين يخشون الله ولا يختاروا على رضا الله رضا غيره، لتوقع أمر محذور. وهنا تساؤل في هذه الآية طرحه الزمخشري في تفسيره (الكشاف) قال: "فإن قلت: كيف قال الله في صفات المستحقّين لعمارة مساجد الله قال: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ والمؤمن يخشى المحاذير، ولا يتمالك، ألا يخشاها؟ قلت -أي:

الزمخشري- : هي الخشية والتقوى في أبواب الدين، وألَّا يختار على رضا الله رضا غيره، لتوقع أمر محذور، وإذا اعترض أمران، أحدهما: حق الله، والآخر: حق نفسه، آثر المؤمن حقّ الله على حقّ نفسه".

ثم بيّن الله ﷻ في هذه الآية حسن عاقبة المؤمنين الصادقين بقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: فعسى أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة من الإيمان بالله واليوم الآخر، أن يكونوا من المهتدين إلى الجنة وما أُعِدّ فيها من خير ورزق كبير، وذلك لحسم أطماع الكافرين عن الوصول إلى مواقف الاهتداء.

ثانيًا: الأحكام من هاتين الآيتين:

١. أعمال البر الصادرة عن المشركين، كإطعام الطعام، وإكرام الضيف، لا وزن لها عند الله لاقترانها بالكفر، والإشراك به سبحانه.

٢. عمارة مساجد الله من حق المؤمنين وحدّهم، أما المشركون فإنهم لا يصحّ منه ذلك بسبب كفرهم ونجاستهم، فلا يصحّ للمشركين أن يعمروا مساجد الله بدخولها والقعود فيها، فإذا دخل الكافر المسجد بغير إذن من مسلم، عُزِّر أي: عُوقب، وإن دخل بإذنه لم يُعَزَّر، لكن لا بد من حاجة، فيشترط للجواز -أي: لجواز دخول الكافر المسجد- الإذن والحاجة، يعني: هناك حاجة تستوجب دخول هذا الكافر؛ كأن يصلح شيئًا لم يستطع أحد أن يصلحه غيره، أو يبني شيئًا لم يستطع أحدٌ أن يبنيه غيره.

٣. التنويه بشأن المساجد والتعبد فيها، وإصلاحها، وخدمتها، وتنظيفها، والسعي إليها، واحترامها، وصيانتها عن كل ما يتنافى مع الغرض الذي بُنيت من أجله، وقد وَرَدَتْ أحاديث كثيرة في ذلك المعنى، ومن ذلك ما

أخرجه الشيخان، وغيرهما عن عثمان بن عفان < قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((من بنى لله مسجدًا يبتغي به وجهه، بنى الله له بيتًا في الجنة)).

تفسير الآيات (١٩ - ٢٤) من سورة (التوبة)

١. تفسير الآيات من التاسعة عشرة إلى الثانية والعشرين:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أ. مناسبة الآية:

بعد أن بيّن سبحانه في الآيات السابقة أن الذي يصلح لعمارة المساجد هو من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، ولم يخشَ إلا الله، وبيّن بعد ذلك أنَّه لا يصلح أن يسوّي بين هؤلاء المشركين لمجرّد سقايتهم للحجيج، وعمارتهم المسجد الحرام، وبيّن المجاهدين الصادقين فقال سبحانه ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى آخر الآيات.

ب. سبب النزول: ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما رواه مسلم، وأبو داود، وابن جرير، وابن المنذر عن النعمان بن بشير، قال كنت عند منبر النبي ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فقال رجل: ما أُبالي ألا أعمل عملًا بعد

الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبي ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلَّيتم الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيه فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلى آخر الآيات.

ج- التفسير التحليلي للآيات:

أولًا: معاني المفردات:

﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ السقاية هي: المحل الذي يتّخذ فيه الشراب ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: ماكثين في هذه الجنات مكثًا أبديًّا.

ثانيًا: البلاغة: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ للاستفهام الإنكاري المتضمن معنى النهي، يعني: لا تُسَاوُوْا بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وبين الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله.

ثالثًا: المعنى العام للآيات: أجعلتم سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله؟ والخطاب يشمل المشركين الذين كانوا يتفاخرون بأنهم سُقاة الحجيج، وعُمَّار المسجد الحرام، والمقصود من قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إنكار التسوية بين العملين، وبين الفريقين وقد جاء هذا الإنكار صريحًا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يساوي الفريق الأول الفريق الثاني في حكم الله؛ إذ إنَّ الفريق الثاني له بفضل إيمانه الصادق وجهاده الخالص الأجر الجزيل عند الله، ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: والله تعالى لا يوفّق القوم الظالمين إلى معرفة الحق

وتمييزه من الباطل ؛ لأنَّهم قد آثروا الشّرّ على الخير، والضلالة على الهداية، أما الذين آمنوا بالله إيمانًا حقًّا، وهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان، فرارًا بدينهم وجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله بأموالهم وأنفسهم، هؤلاء الذين توفّرت فيهم هذه الصفات الجليلة أعلى مقامًا، وأشرف منزلة في حكم الله وتقديره، من أجل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، ومن كلّ من لم يتّصف بهذه الصفات الأربعة الكريمة، وهي: الإيمان والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، أولئك هم الفائزون بثواب الله الأعظم، وبرضائه الأسمى، الذي لا يصل إليه سواهم لمن لم يفعل فعلهم، هؤلاء يبشرهم ربهم على لسان نبيهم ﷺ في الدنيا، وعلى الملائكة عند الموت برحمة واسعة منه سبحانه، وبرضاه التام عنهم، وبجنات عالية لهم فيها نعيم عظيم لا يزول، ماكثين في تلك الجنات مكثا أبديًّا.

٢. تفسير الآيات من الثالثة والعشرين إلى الرابعة والعشرين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ .

أ. مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بيّن سبحانه ما أعدّه من عطاء عظيم للمؤمنين الصادقين الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، أَتْبَعَ ذلك بتوجيه نداء إليهم، حضّهم فيه سبحانه على أن يجرّدوا أنفسهم لعقيدتهم، وأن يُقاطعوا أعداءهم في الدين، مهما بلغت درجة قرابتهم منه، وأن يفضّلوا حبّ الله ورسوله على كلّ شيء من

زينة الحياة فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ إلى آخر الآيات.

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات: قوله: ﴿ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا ﴾ أي: تجارة تخافون بوارها وعدم رواجها. قوله: ﴿ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا ﴾ أي: اكتسبتموها.

ثانيًا: المعنى العام: يا أيها الذين آمنوا إيمانًا حقًّا لا تتَّخذوا آباءكم وإخوانكم المشركين أولياء وأصدقاء، تُفشون إليهم أسراركم، وتلقون إليهم بالمودّة، فإن ذلك يَتَنَافى مع الإيمان الحقّ ومع الإخلاص للعقيدة، وإيثارها على كل ما سواها من زينة الحياة، والمُراد النهي لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة أيِّ فردٍ من أفراد المشركين؛ لأن الجمع إذا قُوبل بالجمع، يُوزّع الفرد على الفرد كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وخصّ سبحانه الآباء والإخوة؛ لأنه لا قرابة أقرب من ذلك، فنفى الموالاة بينه ليُبيّن أن القرب قرب الأديان، لا قرب الأبدان، ولم يذكر الله الأبناء في هذه الآية؛ إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم تَبَعٌ للآباء، والإحسان والهبة مستثناة من الولاية، بمعنى: أن الإنسان يحسن إلى آبائه الكافرين، لكن لا ينصر آباءه على المؤمنين إخوانه، فلا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الكافرين أولياء إن اختاروا الكفر على الإيمان، وأصرّوا على شركهم وباطلهم، أما إذا أقلعوا عن ذلك ودخلوا في دينكم، فلا حرج عليكم من اتخاذهم أولياء وأصفياء، ومن يتولّهم منكم في حال استحبابهم الكفر على الإيمان؛ فأولئك هم الموالون لهم هم الظالمون لأنفسهم؛ لأنهم وضعوا المولاة في غير موضعها، وتَجَاوَزُوا حدود الله التي نهاهم عنها.

ثمّ أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يُعلن للناس هذه الحقيقة، وهي: أن محبّة الله ورسوله يجبّ أن تفوق كل محبة لغيرهما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي: قل يا محمد لمن اتبعك من المؤمنين: إن كان آباؤكم الذين أنتم بضعة منهم، وأبناؤكم الذين هم قطعة منكم، وإخوانكم الذين تربطكم به وَشِيجَةُ الرَّحم، وأزواجكم اللائي جعل الله بينكم وبينهنَّ مودَّة ورحمة، وأقاربكم الأَدْنَوْنَ الذين تربطكم بهم رابطة المعاشرة والعصبيّة، وأموال اكتسبتموها فهي عزيزة عليكم، وتجارة تخافون بوارها، وعدم رواجها بسبب اشتغالكم بغيرها من متطلّبات الإيمان.

قل لهم يا محمد: إن كان ذلك من الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن، أحبّ إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فانتظروا حتى يحكم الله بحكمه فيكم، وهو العذاب العاجل، أو العقاب الآجل.

والله تعالى قد اقتضت حكمته ألا يوفّق القوم الخارجين عن حدود دينه وشريعته إلى ما فيه مثوبتهم ورضاه، فقوله: ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ تهديد وتخويف لمن آثر محبّة الأبناء على محبة الله ورسوله، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ تذييل قصد به تأكيد التهديد السابق، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

ثالثًا: الأحكام المستنبطة من هاتين الآيتين:

١. تحريم موالاة الكافرين مهما بلغت درجة قرابتهم، واعتبار هذه الموالاة من الكبائر. لوصف فاعلها بالظلم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

٢. قوة إيمان الصحابة، وسرعة امتثالهم لأوامر الله، فإنهم في سبيل عقيدتهم قاطعون أقرب الناس إليهم ممّن خالفوهم في الدين، بل حاربوهم وقاتلوهم.

٣. المؤمن لا يتمّ إيمانه إلا إذا كانت محبته لله ورسوله مقدّمة على كلّ محبوب.

٤. أنه إذا تعرّضت مصلحة من مصالح الدين مع مهمات الدنيا، وجب ترجيح جانب الدين على الدنيا ليبقى الدين سليمًا.

تفسير الآيات (٢٥- ٣٧) من سورة (التوبة)

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول : تفسير الآيات (٢٥-٢٧) من سورة (التوبة) ٤٥

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (٢٨-٣٧) من سورة (التوبة) ٤٨

تفسير الآيات (٢٥-٢٧) من سورة (التوبة)

تفسير الآيات رقم: (٢٥ - ٢٧) أحداث غزوة حنين:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧].

المناسبة:

بعد أن نهى الله سبحانه في الآيات السابقة عن موالاة المشركين مهما بلغت درجة قرابتهم، وعن إيثارهم محبة الآباء والأبناء على محبة الله ورسوله، فبيّن سبحانه بعد ذلك نعمه على المؤمنين، حيث نصرهم سبحانه في حنين وفي غيرها بعد أن ولوا مدبرين، فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ إلى آخر الآيات.

نبذة عن غزوة حنين:

غزوة حنين كانت بعد فتح مكة في شوال سنة ثمانٍ من الهجرة، وذلك أنه لما فرغ ﷺ من فتح مكة بلغه أن قبيلة هوازن جمعوا له، أي: أعدوا العدة له ليقاتلوه، ومعهم قبيلة أخرى هي قبيلة ثقيف بكمالها، وبنو جشم، وبنو سعد بن بكر، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء لفتح مكة وهو عشرة آلاف من

المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، والذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفي رجل، فكون هذا العدد اثني عشر ألفًا.

فأعدت هوازن كمينًا للمسلمين وبادروهم بالهجوم ورشقوهم بالنبال، وحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولى المسلمون الأدبار، وثبت رسول الله ﷺ وثبت معه من أصحابه نحو مائة رجل، فأمر الرسول ﷺ عمه العباس -وكان جهير الصوت- أن ينادي بأعلى صوته: "يا أصحاب الشجرة". فجعل المسلمون يقولون: "لبيك لبيك".

وجاء المسلمون وأمرهم الرسول ﷺ أن يصدقوا الحملة على المشركين، وأخذ الرسول ﷺ قبضة من تراب، ثم رمَى بها القوم فما بقي منهم إنسان إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزم المشركون، وأخذ المسلمون يقتلون ويأسرون منهم.

معاني المفردات:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ ﴿مَوَاطِنَ﴾ أي: الأماكن التي دارت فيها الحرب مثلًا يوم بدر ويوم بني قينقاع، وغير ذلك من الأيام.

قوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: فلم تجز عنهم ما ينفعهم.

قوله: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها. وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ وليتم: من التولي بمعنى الإعراض، مدبرين: من الإدبار، بمعنى الذهاب إلى الخلف. وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ السكينة: الطمأنينة والرحمة.

المعنى العام لهذه الآيات:

لقد نصركم الله أيها المسلمون في أماكن كثيرة، كيوم بدر وبني قينقاع وبني النضير، ونصركم يوم حنين وقت أن أعجبتكم كثرتكم، وسبب هذا الإعجاب أن عددَ المسلمين كان اثني عشر ألفًا، وعدد أعدائهم كان أربعة آلاف فلم تغنِ عنهم الكثرة شيئًا، وضاقت عليهم الأرض مع سعتها بسبب شدة خوفهم، ثم ولى المسلمون الكفار ظهورهم منهزمين، وبعد هذا الخوف الشديد الذي أصاب المؤمنين في مبدأ لقائهم بأعدائهم في غزوة حنين، أتى نصر الله الذي عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ثم أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين رحمته التي تسكن إليها القلوب، وتطمئن بها اطمئنانًا يستتبع النصر القريب، وأنزل الله مع هذه السكينة جنودًا من الملائكة لم يرها المسلمون بأبصارهم، لكنهم وجدوا أثرها في قلوبهم حيث عاد إليهم ثباتهم وإقدامهم، وعذَّب الذين كفروا بأن سلطكم عليهم أيها المسلمون فقتلتم مَن قتلتم، وأسرتم مَن أسرتم، وذلك الذي نزل بهؤلاء الكافرين من التعذيب؛ عقابًا لهم على كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، ثم يتوب الله من بعد هذا التعذيب للذين كفروا في الدنيا على مَن يشاء أن يتوب عليه منهم، بأن يوفقه للدخول في الإسلام، والله تعالى واسع المغفرة، عظيم الرحمة، لا يحاسب الكافرين بعد إيمانهم على ما حصل منهم من كفر، ولقد تاب الله على بقية "هوازن" فأسلموا؛ وذلك بعد تلك الغزوة بحوالي عشرين يومًا.

المعاني المستفادة من الآيات:

١. تذكير المؤمنين بجانب من نعم الله عليهم ومن رحمته بهم.

٢. النصر لا يتأتى لمن أعجبوا بكثرتهم فانشغلوا بها عن الاعتماد عليه سبحانه.

٣. النصر يتأتى لمن أخلصوا لله سرائرهم وعلانيتهم وباشروا الأسبابَ التي شرعها الله سبحانه للوصول إلى الفوز والنصر.

تفسير الآيات (٢٨-٣٧) من سورة (التوبة)

تفسير الآية رقم (٢٨):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

المناسبة:

بعد أن بيَّن سبحانه ما أعده من عطاء عظيم للمؤمنين الصادقين الذين هاجروا وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، أتبع ذلك بتوجيه نداءٍ إلى المسلمين، وحضَّهم فيه على أن يمنعوا المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

كلمة: ﴿ نَجَسٌ ﴾ أي: قذر غير نظيف.

كلمة: ﴿ عَيْلَةً ﴾ بمعنى: الفقر والفاقة.

سبب النزول:

عن عطية العوفي، قال: لما قيل: "((ولا يحج بعد العام مشرك)) قد كنا نصيب من بياعاتهم في الموسم –يعني: نكسب منهم، فنبيع ونشتري- فنزلت الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾".

المعنى العام لهذه الآية:

لا تمكنوا -أيها المسلمون- المشركين من دخول المسجد الحرام بعد هذه السنة؛ لأنَّهم نجس ولا تخشوا الفقر والفاقة بسبب عدم التكسب في تلك المواسم، حيث إنَّكم تتبادلون معهم التجارات والمبايعات؛ لأنَّ الله تعالى قد وعدكم أن يغنيكم من فضله بالعطايا والخيرات التي تكفيكم أمر معاشكم، إنَّ الله عليم بأحوالكم وبمصالحكم، وبما يكون عليه أمر حاضركم ومستقبلكم، حكيم فيما شرعه لكم، فاستجيبوا له لتنالوا السعادة في دنياكم وآخرتكم.

الأحكام والآداب المستفادة من الآية:

١. يرى جمهور السلف والخلف وأصحاب المذاهب الأربعة: أن أعيان المشركين طاهرة؛ لأنَّه من المعلوم أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم، ومع هذا فالنبي ﷺ لم يأمر بغسل شيء مما أصابته أبدانهم.

٢. يرى جمهور الفقهاء أن نجاسة المشركين مرجعها إلى خبث بواطنهم لعبادتهم.

٣. اختلف الفقهاء في المراد بالمسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾:

- قال ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء: "المراد بالمسجد الحرام الحرم كله"، فيشمل المسجد الحرام والحرم ومكة؛ لأن المسجد الحرام حيث أطلق في القرآن فالمراد به الحرم كله، وعليه فالكافر يُمنع من دخول الحرم كله.

- ويرى الشافعي: أن المراد المسجد الحرام بخصوصه؛ أخذًا بظاهر اللفظ.

- ويرى الإمام مالك: أن المراد بالمسجد الحرام بالنص وبقية المساجد تقاس عليه، يعني: حرمة دخول المساجد الأخرى تقاس على حرمة دخول المسجد الحرام؛ لأنَّ العلة -وهي النجاسة- موجودة في المشركين، والحرمة موجودة في كل مسجد.

- ويرى الأحناف: أنَّ المراد بالمسجد الحرام الحرم كله إلا أنَّ النهي ليس منصبًّا على دخول المسجد الحرام، إنَّما هو منصب على المنع من أداء الحج والعمرة، بمعنى: لا تمكنوا -أيها المسلمون- المشركين من أداء مناسك الحج والعمرة.

٤. الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله.

٥. المراد بالمشركين في الآية ما يتناول عبدة الأوثان وغيرهم من أهل الكتاب، ونلاحظ أن الله ﷻ في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ قيد المشيئة في قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾، وهذا التقييد ليس للتردد بل هو لتعليم المؤمنين، ورعاية الأدب مع الله، ولبيان أنَّ هذا الإغناء بإرادته سبحانه وحده، وللتنبيه على أنَّ عطاءَه سبحانه له هو من باب التفضل لا للوجوب؛ لأنَّه لو كان واجبًا ما قيده بالمشيئة.

تفسير الآية رقم (٢٩):

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله سبحانه في الآية السابقة منع المشركين عن دخول المسجد الحرام، ذكر بعد ذلك ما يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من المنحرفين من أهل الكتاب، كما حكت الآية بعضَ أقوالهم الذميمة وأفعالهم القبيحة التي تدعو المسلمين إلى قتالهم، فقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ عَن يَدٖ ﴾ أي: عن طوع وانقياد. قوله: ﴿ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ أي: وهم خاضعون مستجيبون لشرع الإسلام.

المعنى العام للآية:

قاتلوا أيها المسلمون مَن هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يدفعوا لكم الجزية عن طواعية وانقياد، وهم مستجيبون خاضعون لولايتكم عليهم، فإن الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يتخذون الدين الحق دينًا لهم يستحقون هذا الهوان في الدنيا، أما في الآخرة فعذابهم أشد

وأبقى، لكن حينما نقرأ الآية نجد أن الآية تنفي عن أهل الكتاب الإيمانَ بالله، فهم يدَّعون أنهم يؤمنون بالله، وفي الحقيقة هم لا يؤمنون بالله الإيمان الصحيح؛ لأنَّهم لو كانوا يؤمنون به إيمانًا صحيحًا لاتبعوا رسوله محمدًا ﷺ ولأن منهم مَن قال: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ومنهم من قال: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وقولهم هذا كُفْرٌ صريح؛ لأنَّه سبحانه منزه عما يقولون.

فثبت أنَّ أهل الكتاب لا يؤمنون بالله الإيمان الصحيح؛ لذلك نفاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩].

كيف نفى الله عن أهل الكتاب أنهم يؤمنون باليوم الآخر، مع أنهم يدعون بأنهم يؤمنون باليوم الآخر؟

الجواب: أنَّ الله نفى عنهم ذلك؛ لأنهم لم يؤمنوا بالنبي ﷺ فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر كالعدم، فصح نفي إيمانهم باليوم الآخر في هذه الآية.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٢٩] يعني: أنَّ أهل الكتاب لا يحرمون ما حرم الله ورسوله محمد ﷺ لا في شريعتنا ولا في شريعتهم، هم يتعاملون بالربا مع أن شريعتهم تنهاهم عن الربا في قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١] أيضًا النصارى لا يؤمنون بشريعتهم؛ لأن شريعتهم تحرم عليهم الرهبانية، ومع ذلك هم يفعلونها: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا﴾ [الحديد: ٢٧].

لماذا عبَّر عن أهل الكتاب باسم الموصول: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾؟

لم يقل: قاتلوا أهل الكتاب، لكنه عبَّر عنهم باسم الموصول؛ للإيذان بعلية ما في حيز الصلة للأمر بالقتال، أي: العلة في قتالهم أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم

الآخر، ولا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دينَ الحق، فما في حيز الصلة هي العلة في قتالهم؛ لذلك عبر عنهم باسم الموصول.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩] أي: لا يتخذون دين الإسلام دينًا لهم، مع أنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده، والذي لا يقبل سبحانه دينًا سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: خاضعون لقانون الإسلام.

الأحكام المستفادة من الآية:

أولًا: الجزية تؤخذ من أهل الكتاب عند جمهور الفقهاء.

ثانيًا: الجزية مقابل ما تؤدي لهم الدولة الإسلامية من حماية وغير ذلك.

تفسير الآيات (٣٠ : ٣٣): العقائد الباطلة عند اليهود والنصارى:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠- ٣٣].

المناسبة:

بعد أن بيّن سبحانه بعض رذائل أهل الكتاب على سبيل الإجمال، أتبع ذلك بتفصيل هذه الرذائل، فحكى أقوالهم الباطلة وأفعالهم الذميمة ونواياهم السيئة، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآيات.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس، قال: "أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أبي أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك يا محمد وقد تركنا قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله؟ فأنزل الله قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ ". إلى آخر الآيات.

معنى المفردات:

﴿عُزَيْرٌ﴾: هو كاهن يهودي سكن ببابل عام ٤٥٧ ق. م تقريبًا، ومن أعماله أنه جمع أسفار التوراة، وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم الشريعة، وأطلقوا عليه لقب ابن الله؛ لأنه لم يبقَ فيهم بعد وقعة "بختنصر" مَن يحفظ التوراة، وعزير بعد أن أحياه الله بعد مائة عام من موته، أملى عليهم التوراة حفظًا فتعجبوا من ذلك، وقالوا ما هذا إلا أن عزيرًا ابن الله.

قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ أي: يشابهون.

قوله تعالى: ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ المراد بالذين كفروا من قبل: جميع الأمم التي ضلت وانحرفت عن الحق، وأشركت مع الله في العبادة آلهة أخرى.

قوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: لعنهم الله.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ الأحبار: علماء اليهود، جمع حَبر بفتح الحاء، وحِبر بكسر الحاء، والحبر: هو الذي يحسن القول ويتقنه، مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين.

قوله: ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾: جمع راهب، وهم علماء النصارى، والراهب: هو الزاهد في متع الدنيا، المنعزل عن الناس، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله تعالى.

الإعراب:

قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: معطوف على قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ والمفعول الثاني بالنسبة إليه محذوف أي: اتخذوه ربًّا وإلها.

قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ جملة حالية. قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية لقوله: ﴿إِلَٰهًا﴾، أو هو استئناف بياني لتعليل الأمر بعبادة الله وحده، وأنه هو المستحق لذلك شرعًا وعقلًا. قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ استثناء مفرغ، يعني: المستثنى منه غير مذكور، وهو استثناء منفي، فالمعنى: لا يريد شيئًا من الأشياء إلا إتمام نوره.

قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جواب "لو" محذوف، والتقدير: ولو كره الكافرون إتمامه لأتمه.

البلاغة:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾: استعارة تمثيلية حيث شبه سبحانه حالَ أهل الكتاب في محاولة إبطال نبوة النبي ﷺ عن طريق تكذيبهم له بحال مَن يريد أن ينفخ في نور عظيم موجود في الآفاق؛ ليطفئه بنفخه، وروعي في كل من المشبه والمشبه به معنى الإفراط والتفريط، حيث شبه الإبطال والتكذيب بالإطفاء بالفم، ونُسِب النور إلى الله العظيم الشأن، ومن شأن النور المضاف إليه سبحانه أن يكون عظيمًا، فكيف يطفأ هذا النور بنفخ الفم؟!

قوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أظهر النور في مقام الإضمار -مضافًا إلى ضميره سبحانه- زيادة اهتمام بشأنه، وتشريفًا له على تشريف، وإشعارًا بعلة الحكم.

المعنى العام:

نَسَب سبحانه القول إلى اليهود مع أنَّ القائل بعضهم؛ لأنَّ الذين لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم، فكانوا مشاركين لهم في الإثم والضلال، وفيما يترتب على ذلك من عقاب، قالت اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه لم يبقَ فيهم -بعد وقعة "بختنصر"- مَن يحفظ التوراة إلا عزير عندما أحياه الله بعد مائة عام، فتعجبوا من ذلك وقالوا ما هذا إلا لأنَّه ابن الله! وقالت النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، وسبب ذلك أنَّ الله تعالى قد خلق عيسى بدون أب على خلاف ما جرت به سنته في التوالد والتناسل، فقالوا عنه: إنه ابن الله، ولقد ردَّ الله زعمَهم هذا بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

فلعن الله هؤلاء الذين قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ ؛ و﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ؛ لأنَّهم بقولهم هذا صاروا محل مقت العقلاء وعجبهم، إذ كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون لله تعالى ولد، أو والد، أو صاحبة، أو شريك.

إنَّ ما قالوه ظاهر البطلان وهو محل العقلاء واستنكارهم وغضبهم.

وهؤلاء اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ؛ لأنَّهم أطاعوهم فيما أحلوه لهم وفيما حرموه عليه، ولو كان هذا التحليل والتحريم مخالفًا لشرع الله لما سمع عَدي قول الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ فقال: ((لِمَ يعبدوهم يا رسول الله، فقال الرسول ﷺ: بلى، إنَّهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم)).

فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابًا بمعنى الاعتقاد في ألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية لهم، إنَّما اتبعوهم فيما أحلوه لهم، وفيما حرموه عليهم، ولو كان ذلك مخالفًا لشرع الله.

تفسير الآيتين (٣٤، ٣٥):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

المناسبة:

لما وصف الله ﷻ رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترفع على الخلق، وصفهم بعد ذلك بالطمع والحِرص على أخذ أموال الناس؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ من إظهار تلك الربوبية والفخر هو أخذ أموال الناس بالباطل.

معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الصد: هو المنع والصرف عن الشيء، فهم يصرفون الناسَ عن سبيلِ الله، وسبيلُ الله دينُه وشرعُه. قوله تعالى: ﴿يَكْنِزُونَ﴾ من الكنز وأصله في اللغة: الضم والجمع، ولا يختص ذلك بالذهب والفضة.

الإعراب:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ ﴿يَوْمَ﴾: منصوب بفعل محذوف يدل عليه القول، أي: يعذبون يوم يُحمَى عليها، أو منصوب بفعل مقدر تقديره: اذكر يوم يحمى عليها، و ﴿عَلَيْهَا﴾ جار ومجرور في موضع رفعه نائب فاعل.

البلاغة:

قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ المراد بالأكل في قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ مطلق الأخذ والانتفاع، وعبر عن ذلك بالأكل؛ لأنَّه المقصود الأعظم من جمع الأموال، فسُمي الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده على سبيل المجاز المرسل بعلاقة العلِّية والمعلولية.

المعنى العام للآيتين:

يا أيُّها الذين آمنوا، إنَّ كثيرًا من زعماء اليهود والنصارى لَيأكلون أموال الناس بالباطل، وأكلهم أموال الناس بالباطل يتناول ما كانوا يأخذونه من أتباعهم عن طريق الرِّشوة والتدليس، أو التحايل، أو الفتاوى الباطلة كما يتناول ما سوى ذلك.

وأسند سبحانه هذه الجريمة -وهي أكل أموال الناس بالباطل- إلى كثير من الأحبار والرهبان، ولم يسندها إليهم جميعًا إنصافًا للعدد القليل منهم الذي لم يفعل ذلك، فإنَّ كل طائفة أو كل جماعة لا تخلوا من وجود أفراد من بينها يتعففون عن الحرام، ويقيدون أنفسهم بالحلال.

إنَّ هؤلاء الكثيرين من الأحبار والرهبان لا يكتفون بأكل أموال الناس بالباطل، بل إنَّهم ليضيفون إلى ذلك جريمة ثانية من جرائمهم المتعددة، وهي أنَّهم ينصرفون عن الدين الحق -وهو دين الإسلام- انقيادًا لأحقادهم وشهواتهم، ويصرفون أتباعهم عنهم بشتى الوسائل، كأن يصفوا دينَه بأنه دين باطل، أو بأن رسوله ﷺ ليس هو الرسول الذي بَشرت به الكتب السماوية السابقة.

بشر -أيَّها الرسول- أولئك الذين يكنزون الأموال في الدنيا ولا ينفقونها في سبيل الله بالعذاب الأليم يوم الحساب، يوم تُحمى النار المشتعلة على تلك الأموال التي لم يؤدوا حق الله فيها، فتُحرق بها جباههم التي كانوا يستقبلون بها الناس، والتي طالما ارتفعت غرورًا بالمال المكنوز، وتُحرق بها أيضًا جنوبهم التي كثيرًا ما انتفخت من شدة الشبع وغيرها جائع، وتحرق بها كذلك ظهورهم التي نبذت وراءها حقوق الله بجحود وبطر، وتقول لهم ملائكة العذاب: ﴿وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا

﴿ مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي: الملائكة تقول لهم ذلك على سبيل التبكيت والتوبيخ وهي تتولى حرق جباههم وجنوبهم وظهورهم.

وهذا العذاب الأليم النازل بكم في الآخرة هو جزاء ما كنتم تكنزونه في الدنيا من مال؛ لمنفعة أنفسكم دون أن تؤدوا حق الله فيه، فذوقوا وحدكم وبالَ كنزكم، وتجرعوا غصصه، فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم؛ لأنكم لم تشكروا الله على نعمه، بل استعملتموها في غير ما خلقت له.

أسئلة حول هاتين الآيتين:

- لماذا خص الذهب والفضة بالذكر في هذه الآيات؟

خص الذهب والفضة بالذكر؛ لأنَّهما الأصل الغالب في الأموال ولأنَّهما هما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما، ولا يكنزهما إلا من فضل عن حاجته، ومَن كثر عنده حتى يكنزها، فكان ذكر كنزهما دليلًا على ما سواهما.

الأحكام والآداب المستفادة:

١. التحذير من الانقياد لدعاة السوء ومن تقليدهم في رذائلهم وقبائحهم، ووجوب السير على حسب ما جاء به الإسلام من تعاليم وتشريعات.

٢. يرى جمهور العلماء أنَّ المقصود بالكنز في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا ﴾ المال الذي لم تؤدَّ زكاته، أما إذا أديت زكاته فلا يسمى كنزًا ولا يدخل صاحبه تحت الوعيد الذي اشتملت عليه الآية.

٣. يرى بعض الصحابة تحريم اكتناز الأموال التي تفيض عن حاجات الإنسان الضرورية ؛ لِمَا ورد في الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: ((ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبًا يمر عليَّ ثلاثة أيام وعندي منه شيء، إلا دينار أرصده لدَيْنٍ)) فهذا -والله أعلم- هو الذي جعل أبا ذر يقول بهذا القول، أمَّا جمهور الصحابة فقد خالفوه في ذلك، وحملوا الحديث على التطوع.

واستدلوا بحديث طلحة -والذي ورد في (صحيح البخاري)- قال: ((جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، يُسمع دوي صوته، ولا يُفقه ما يقول، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة. فقال: هل عليَّ غيرها؟ قال ﷺ: لا، إلا أن تطوع. قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان. قال: هل عليَّ غيره؟ قال الرسول ﷺ: لا، إلا أن تطوع. قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص. فقال رسول الله ﷺ: أفلح إن صدق)).

تفسير الآيتين رقم (٣٦- ٣٧):

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

المناسبة:

بعد أن بينتْ الآيتان السابقتان استحلالَ كثير من أحبار اليهود ورهبان النصارى لمحارم الله، ذكر الله سبحانه أحوالَ المشركين، وما يشرع من معاملاتهم بعد الفتح -أي: بعد فتح مكة- فقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ إلى آخر الآيتين.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ ﴾ أي: عدد الشهور. قوله: ﴿ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي: في حكمه وقضائه. قوله: ﴿ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أي: اللوح المحفوظ. قوله: ﴿ حُرُمٌ ﴾ في قوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ فحرم: جمع حرام مأخوذ من الحُرمة.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي: القائم الثابت المستقيم الذي لا التواءَ فيه ولا اعوجاج. قوله تعالى: ﴿ كَآفَّةً ﴾ أي: جميعًا. قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّسِىٓءُ ﴾ أي: حرمة تأخير شهر إلى شهر آخر. قوله تعالى: ﴿ لِّيُوَاطِـُٔوا۟ ﴾ أي: ليوافقوا.

الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ صفة لـ﴿ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ﴾ قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ صفة لقوله: ﴿ ٱثْنَا عَشَرَ ﴾ أيضًا قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ اسم الإشارة يعود إلى ما شرعه الله تعالى من أن: عدة الشهور اثنا عشر شهرًا، وأن منها أربعة حرم.

المعنى العام للآيتين:

إن عدد الشهور في حكم الله وقضائه اثنا عشر شهرًا هي الشهور القمرية التي يدور عليها فلك الأحكام الشرعية، فهذا أمر ثابت في نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة، من هذه الأشهر أربعة حرم؛ وذلك لأن الله أوجب على الناس احترامَ هذه الشهور ونهى عن القتال فيها، ولقد أجمع العلماء على أن المراد بهذه الشهور الأربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ.

قال ابن كثير: وإنَّما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد، وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهرًا وهو ذو القعدة؛ لأنَّهم يؤدون فيه الحج ويشتغلون بأداء المناسك، وحرَّم بعده شهرًا آخر هو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرَّم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لِمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره، ثم يعود إلى وطنه آمنا.

ذلك الدين الذي شرعناه لكم من كون عدة الشهور كذلك، ومن كونها أربعة حرم هو الدين القيم، والشرع الثابت الحكيم الذي لا يقبل التغيير أو التبديل لا ما شرعه أهل الجاهلية لأنفسهم من تقديم بعض الشهور وتأخير بعضها؛ استجابة لأهوائهم وشهواتهم، وإرضاءً لزعمائهم وسادتهم، ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ ﴾ - أيها المسلمون- في هذه الشهور: ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ بأنْ تفعلوا فيها شيئًا مما نهى

الله عن فعله، ويقصد بهذه الشهور الشهورَ الأربعة، وإنَّ ظلمَ أنفسنا حرام علينا في كل وقت، لكنَّ الله عظَّم حرمة هؤلاء الأشهر، وشرَّفهن على سائر شهور السنة، فخص الذنب فيهن بالتعظيم كما خصهن بالتشريف، ثم بعد ذلك يحرض الله المؤمنين على قتال المشركين، وقاتلوا -أيها المؤمنون- المشركون جميعًا كما يقاتلونكم جميعًا؛ بأن تكونوا في قتالهم مجتمعين متعاونين متناصرين لا مختلفين ولا متخاذلين.

واعلموا أيها المؤمنون أنَّ الله تعالى مع عباده المتقين بالعون والنصر والتأييد، ومن كان الله معه فلن يغلبه شيء، فكونوا أيها المؤمنون من عباد الله المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى الله عنه لتنالوا عونه وتأييده، ثم بعد ذلك شرع الله في بيان حكم النسيء الذي يفعله المشركون، إنما النسيء الذي يفعله المشركون من تأخيرهم حرمة شهر إلى آخر زيادة في كفرهم؛ لأنهم قد ضموا إلى كفرهم بالله كفرًا آخر هو تحليلهم لما حرمه الله، وتحريمهم لما أحله الله، وبذلك يكونون قد جمعوا بين الكفر في العقيدة، والكفر في التشريع.

هذا النسيء يوقع الذين كفروا بسبب ارتكابهم للنسيء في الضلال، ومن مظاهر ضلال الكافرين أنهم يحلون الشهر المؤخر عن وقته عامًا من الأعوام، ويحرمون مكانه شهرًا آخرَ ليس من الأشهر الحرم، وأنهم يحافظون على حرمة الشهر عامًا آخر إذا كانت مصلحتهم في ذلك، ففعل المشركون ما فعلوه من التحليل والتحريم للأشهر على حسب أهوائهم ليوافقوا بما فعلوه عدد الأشهر الحرم بحيث تكون أربعة في العدد، وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة في شريعة الله، فيحلوا بتغييرهم الشهور المحرمة ما حرمه الله في شرعه، فهم وإن كانوا وافقوا شريعة الله في عدد الشهور المحرمة، إلا أنهم خالفوه في تخصيصها.

هل نُسخت حرمة القتال في الأشهر الحرم لقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾؟

استدل القائلون بالنسخ -أي: بنسخ حرمة القتال في الأشهر الحرم- على ذلك بدليل أن النبي ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام، وهو شهر ذي القعدة.

وأجيب على ذلك: أن حصار الرسول ﷺ أهل الطائف واستصحاب الرسول ﷺ الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، كان من تتمة قبيلة هوازن وأحلافها، فإنهم الذين بدءوا القتال للمسلمين، إذن معنى هذا أنَّ الرسول ﷺ لم ينشئ قتالًا في شهر ذي القعدة حتى نستدل به على نسخ حرمة القتال في الأشهر الحرم، لكن ذلك الحصار لأهل الطائف من جانب رسول الله ﷺ وأصحابه كان من تتمة قتال هوازن وأحلافها، فإنهم الذين بدءوا القتال للمسلمين، فعند ذلك ذهب إليهم رسول الله ﷺ فلما تحصَّنوا -قبيلة هوازن- وأحلافها بالطائف، ذهب إليهم رسول الله ﷺ لينزلهم من حصونهم، فنالوا من المسلمين، وقتلوا جماعة منهم، واستمر حصار المسلمين لهم أربعين يومًا، وكان ابتداؤه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام فاستمروا فيه أيامًا، ثم قفل عنهم؛ لأنه يُغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر.

ولذلك نستطيع القول بأنَّه لا نسخ، وهذا هو الرأي الراجح.

تفسير الآيات (٣٨- ٥٧) من سورة (التوبة)

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : تفسير الآيات (٣٨- ٤٥) من سورة (التوبة) ٦٩

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (٤٦- ٥٧) من سورة (التوبة) ٧٩

تفسير الآيات (٣٨- ٤٥) من سورة (التوبة)

تفسير الآيات من رقم (٣٨) إلى (٤١):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٣٨ - ٤١].

المناسبة:

بعد أن ذكر الله أحوالَ المشركين السيئة، ووجوب مقاتلتهم شرع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر.

نبذة عن غزوة تبوك:

كانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة، وهي آخر غزوة لرسول الله ﷺ. وسبب الغزوة أنَّ الرسول ﷺ قد بلغه أنَّ الروم قد جمعوا له

جموعًا كثيرة على أطراف الشام، وأنَّهم يريدون أن يتجهوا إلى الجنوب لمهاجمة المدينة، فاستنفر ﷺ الناس إلى قتال الروم وكان ﷺ قلما يخرج إلى غزوة إلا مَرَّ بغيرها حتى يبقى الأمر سرًّا، ولكنه في هذه الغزوة صرح للمسلمين بوجهته وهي قتال الروم؛ وذلك لبعد المسافة، وضيق الحال، وشدة الحر وكثرة العدو، ولقد لبى المؤمنون دعوة رسول الله ﷺ لقتال الروم، وصبروا على الشدائد والمتاعب وبذلوا الكثير من أموالهم، ولم يتخلف منهم إلا القليل.

أمَّا المنافقون وكثير من الأعراب، فقد تخلفوا عنها وحرضوا غيرهم على ذلك، وحكت السورة في كثير من آياتها التالية ما كان منهم من جبن، ومن تخذير الناس عن القتال، ومن تحريض لهم على القعود وعدم الخروج، وبعد أن وصل الرسول ﷺ والمؤمنون إلى تبوك لم يجدوا جموعًا للروم، فأقاموا هناك بضع عشرة ليلة، ثم عادوا إلى المدينة. هذه كانت نبذة عن غزوة تبوك.

معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ من النفر وهو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان، قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ أي: تباطأتم، ولم تنهضوا لنجدة المستجير، قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ السكينة من السكون، والمراد بها هنا الطمأنينة التي استقرت في قلب النبي ﷺ قوله: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ الغار النقب العظيم في الجبل، والمراد به هنا غار ثور، وهو جبل في الجهة الجنوبية بمكة، فقد مكث فيه النبي ﷺ وأبو بكر ثلاثة أيام.

الإعراب:

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾: ﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿لَكُمْ﴾ الخبر، ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ حال، وقوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ ظرف لهذا الحال مقدم عليها، قوله: ﴿إِلَّا

﴿نَصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ جواب الشرط محذوف والتقدير: إلا تنصروه، فسينصره الله. أما قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ تعليل لجواب الشرط المحذوف.

قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ حال من الهاء في قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ أي: أخرجه الذين كفروا حال كونه منفردًا عن جميع الناس إلا أبا بكر الصديق ﷺ.

قوله: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ قوله: ﴿ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بدل ثانٍ من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ الضمير يعود إلى النبي ﷺ.

البلاغة:

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام إنكاري. فنحن بصدد بيان البلاغة الموجودة في الآيات قوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ استفهام للاستنكار واستبعاد صدور هذا التنافي منهم مع أن هذا يتنافى مع الإيمان والطاعة، قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا التعبير أسمى درجات البلاغة وأعلى مراتب التصديق؛ لأنَّه بلفظه وجرسه يمثل الجسم المسترخي الثقيل الذي استقر على الأرض، والذي كلما حاول الرافعون أن يرفعوه عاد إليه ثقله، فسقط من بين أيديهم وأخلد إلى الأرض.

المعنى العام لتلك الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بالله ورسوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما الذي جعلكم تباطأتم عن الخروج إلى الجهاد حين دعاكم رسول الله ﷺ إلى قتال الروم، وإلى النهوض؛ لإعلاء كلمة الله ونصرة

دينه؟ وأي شيء حالَ بينكم أيها المؤمنون؟ وبين المسارعة إلى الجهاد عندما دعاكم رسولكم ﷺ إليه، أرضيتم براحة الدنيا؟! إن كان أمركم كذلك، فقد أخطأتم الصواب؛ لأن متاع الحياة الدنيا مهما كثر، فهو قليل مستحقر بجانب متاع الآخرة الباقي، ونعيمها الخالد.

إلا تنفروا أيها المؤمنون للجهاد كما أمركم رسوله الله ﷺ يعذبكم الله عذابًا أليمًا في الدنيا بإنزال المصائب بكم، وفي الآخرة بنار جهنم، ويستبدل بكم قومًا يطيعون رسوله في اليسر والعسر والمنشط والمكره، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقد مضت سنة الله تعالى بأنه لا بقاءَ لأمة تتثاقل عن الدفاع عن نفسها، وحفظ حقيقتها وسيادتها، ولا تتم فائدة القوة الدفاعية والهجومية إلا بطاعة الإمام، فكيف إذا كان الإمام والقائد هو النبي الموعود من ربه بالنصر، وإنكم أيها المؤمنون لن تضروا الله شيئًا بسبب تقاعسكم؛ لأنكم أنتم الفقراء إليه هو سبحانه الغني الحميد، والله تعالى على كل شيء من الأشياء قدير، ولا يعجزه أمر، ولا يحول دون نفاذ مشيئته حائل؛ فامتثلوا أمره؛ لتفوزوا برضوانه.

إنكم أيها المؤمنون إن آثرتم القعود والراحة على الجهاد، وشدائده، ولم تنصروا رسولكم الذي استنفركم للخروج معه، فاعلموا أن الله سينصره بقدرته النافذة كما نصره، وأنتم تعلمون ذلك وقتَ أن أخرجه الذين كفروا من مكة ثاني اثنين أي: أحد اثنين، والثاني أبو بكر الصديق < ووقتَ أن كان هو وصاحبه أبو بكر في الغار، ووقتَ أن كان النبي ﷺ يقول لصاحبه الصديق: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بتأييده ونصره وحمايته، وذلك أن أبا بكر وهو مع النبي ﷺ في الغار أحس بحركة المشركين من فوق الغار، فخاف خوفًا شديدًا على حياة

النبي ﷺ ولم يخف على حياته، فلما رأى النبي ﷺ ذلك أخذ في تسكين روع أبي بكر وجزعه، وجعل يقول له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

فالآيات تعاتب بشدة كلَّ مَن تخلف عن غزوة تبوك، وكل من تباطأ عن اللحاق بالمسلمين في هذه الغزوة؛ ولذلك يعنفهم، ويقول لهم: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ويتوعدهم الله ﷻ بأن لم يستجيبوا لأوامره بالنفرة فإن الله سيستبدل قومًا غيرهم، ومعلوم أن الله ﷻ هو ناصر رسوله ﷺ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾.

أسئلة حول الآيات:

- لماذا نادى الله ﷻ المؤمنين بصفة الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؟

ناداهم سبحانه بصفة الإيمان؛ لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم.

- لماذا أسند الله الإخراج إلى المشركين في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مع أن الرسول ﷺ قد خرج بنفسه بإذن من الله تعالى؟

أسند الله الإخراج إلى المشركين في قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ لأنهم السبب في هذا الخروج حيث اضطروه على ذلك بعد أن تآمروا على قتله.

المعاني المستفادة من هاتين الآيتين:

أولًا: وجوب الجهاد في كل وقت؛ لتخويف الكفار، ولا صحة لقول مَن يقول: إنما يجب الجهاد في الوقت الذي يخاف فيه هجوم الكفار عليه، فنحن وجدنا الرسول ﷺ يجهز الجيش؛ لقتال الروم رغم أنهم لم يهجموا عليه؛ لكي يظهر لهم قوة المسلمين، ولكي يرهب هؤلاء الكفار من أن يعتدوا على المسلمين.

ثانيا: بيان فضل أبي بكر الصديق فإن الآية خرجت مخرج العتاب للمؤمنين ما عدا أبا بكر < فعن الحسن قال: عاتب الله جميع أهل الأرض غير أبي بكر فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ ولأنَّ فيها النص على صحبته للرسول ﷺ ولم يثبت ذلك لأحد من الصحابة؛ لأنه هو المراد بالصاحب في قوله: ﴿ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ وهذا مما وقع عليه بالإجماع.

تفسير الآية رقم (٤٢):

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

المناسبة:

الحديث عن غزوة تبوك، وعتاب المتخلفين عنها.

معاني المفردات:

قوله: ﴿عَرَضًا﴾ العرض ما يعرض للإنسان من منافع الدنيا، وشهواتها. قوله: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ السفر القاصد هو السفر السهل القريب. قوله: ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ الشقة: هي المسافة التي لا تقطع إلا بعد تكبد المشقة والتعب، فهي مأخوذة من المشقة وشدة العناء.

الإعراب:

قوله: ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ هذه الجملة سدت مسد جواب القسم، والشرط.

المعنى العام لهذه الآية:

لو كان الذي دعوتهم إليه أيها الرسول الكريم متاعًا من متع الحياة الدنيا، وسفرًا سهلًا قريبًا؛ لاتبعوك فيما دعوتهم إليه؛ لأنه يوافق أهواءهم ويشبع رغباتهم، ولكنهم حين عرفوا أن ما دعوتهم إليه هو الجهاد في سبيل الله، وما يصحبه من أسفار شاقة وتضحيات جسيمة؛ تعللوا لك بالمعاذير الكاذبة، وتخلفوا عن الخروج معك؛ جبنًا منهم وحبًّا للراحة والسلامة، وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله كذبًا وزورًا، قائلين: لو استطعنا أيها المؤمنون أن نخرج معكم للجهاد في تبوك لخرجنا، فإننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين، فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التي حملتنا على التخلف، إن هؤلاء المتخلفين عن الجهاد يهلكون أنفسهم بسبب حلفهم الكاذب، وجرأتهم على الله في اختلاق المعاذير الباطلة، مع أنَّه سبحانه يعلم أنَّهم لكاذبون في أيمانهم، وفيما انتحلوه من أعذار.

المعاني المستفادة من هذه الآية:

أولًا: التخلف عن الجهاد سبب لهلاك الأمة؛ لأنَّ الأمة إذا لم تجاهد عدوها، فمعنى هذا أنَّ الأمة لم يعد لها كيان، ولم تعد لها شخصية.

ثانيا: الأيمان الكاذبة تؤدي إلى الخسران والهلاك كما فعل هؤلاء المنافقون المتخلفون عن غزوة تبوك: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

تفسير الآية رقم (٤٣):

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

المناسبة:

بعد أن تحدث الله عن المنافقين الذين تخلفوا في غزوة تبوك، عاتب الله نبيه ﷺ عتابًا رقيقًا؛ لأنَّه أذن للمنافقين بالتخلف عن الجهاد حين طلبوا منه ذلك دون أن يتبين أحوالهم، فقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

معاني المفردات:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ العفو يطلق على التجاوز عن الذنب أو التقصير في الفعل المكلف به كما يطلق على ترك المؤاخذة على عدم فعل الأولى والأفضل، وهو المراد هنا، إذا المراد بالعفو يطلق على ترك المؤاخذة على عدم فعل الأولى والأفضل.

المعنى العام لهذه الآية:

عفا الله عنك أيها الرسول، وتجاوز عن مؤاخذتك فيما فعلته مع هؤلاء المنافقين من سماحة، ومن سماحك لهم بالتخلف عن الجهاد معك في غزوة تبوك حين اعتذروا إليك بالأعذار الكاذبة، وكان الأولى بك أن تتريثَ، وتتأنى في السماح لهم بالتخلف حتى يتبين لك الذين صدقوا في اعتذارهم من الذين كذبوا فيه، فقد كانوا إلا قليلًا منهم كاذبين في معاذيرهم، وكانوا مصرين على القعود عن الجهاد حتى ولو لم تأذن لهم به.

اللطائف الموجودة في الآية:

- قدم سبحانه العفوَ على العتابِ في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ وذلك للإشارة إلى مكانته ﷺ عند ربه، قال بعض العلماء: هل سمعتم بعقاب أحسنَ من هذا، لقد خاطبه سبحانه بالعفو قبل أن يذكر المعفو عنه؟!

المعاني المستفادة من هذه الآية:

١. النبي ﷺ كان يحكم بمقتضى اجتهاده في بعض الأحيان فيما لا نص فيه، وهذا لا ينافي عصمة الرسول ﷺ وإنَّما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي وبيانه، والعمل به، فيستحيل على الرسول ﷺ أن يكذب أو يخطئ لما يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل، فيجوز الخطأ في اجتهاد الأنبياء لكن الله تعالى لا يقرهم على ذلك، بل يبين لهم الصواب فيه.

٢. من المعاني المستفادة إن من الواجب على المسلم التريث في الحكم على الأمور.

٣. المراد بالعفو في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ عدم مؤاخذته ﷺ في ترك الأولى والأفضل.

تفسير الآيتين (٤٤، ٤٥):

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

المناسبة:

بعد أن عاتب الله رسوله في الآية السابقة بيّن سبحانه صفات المؤمنين التي يتميز بها المؤمنون الصادقون عن غيرهم ضعاف الإيمان، فقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ المراد بالتردد التحير فالمتردد لا يستقر في مكان، ولا يثبت على حال.

المعنى العام للآيتين:

ليس من شأن المؤمنين الصادقين أن يستأذنوك أيها الرسول في أن يجاهدوا بأموالهم، وأنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وإنما الذي من شأنهم وعادتهم، كما أثبته واقعهم وتاريخهم أن ينفروا خفافًا وثقالًا عندما يدعوا الداعي إلى الجهاد دون أن ينتظر إذنًا من أحد، فَهُم لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم يسارعون إلى الجهاد بقلوب مشتاقة إليه، وبنفوس تتمنى الموت عن طريقه.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمراد بالعلم هنا لازمه، وهو مجازاتهم بالثواب الجزيل على تقواهم، فالله تعالى عليم بأحوال هؤلاء الذين ملأت خشيته قلوبهم، وسيثيبهم على ذلك ثوابًا يرضيهم.

إنما يستأذنك أيها الرسول في القعود عن الجهاد أولئك الذين من صفاتهم أنهم لا يؤمنون بالله إيمانًا كاملًا، ولا يؤمنون بالآخرة، وما فيها من ثواب وعقاب إيمانًا يقينيًّا.

وتخصيص الإيمان بالله وباليوم الآخر في الموضعين في قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، وأيضًا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ للإيذان بأن الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان بالله وباليوم الآخر أو عدم الإيمان بالله وباليوم الآخر، وبجانب عدم

إيمان المنافقين بالله وباليوم الآخر، رسخ الريب في قلوب المنافقين فصاروا يشكون في صحة ما جاء به الرسول الكريم، ويقفون من تعاليمه وتوجيهاته موقفَ المكذب المرتاب لا موقف المصدق المذعن، وهم في شكهم الذي حل بهم يتحيرون.

فتراهم كما وصفهم سبحانه في آية أخرى: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء: ١٤٣].

المعاني المستفادة:

أولًا: ينبغي على المؤمن أن يقوم بأداء الأعمال الحسنة والأفعال الجميلة بدون تردد أو استئذان.

ثانيًا: المؤمن الصادق هو الذي لا يستأذن في القعود والتخلف عن الجهاد.

تفسير الآيات (٤٦- ٥٧) من سورة (التوبة)

تفسير الآيتين: (٤٦) إلى (٤٨):

﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٦ - ٤٨].

المناسبة:

بعد أن بيّن سبحانه في الآيتين السابقتين الصفات التي يتميز بها المؤمنون الصادقون، ذكر سبحانه بعضَ المسالك الخبيثة التي كان يتبعها هؤلاء المنافقون لمحاربة الدعوة الإسلامية، وكيف أنه سبحانه أحبط مكرهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ إلى آخر الآيات.

بيان معاني المفردات:

﴿انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي: نهوضهم وانطلاقهم للخروج بنشاط وهِمة، مأخوذ من البعث، وهو إثارة الإنسان أو الحيوان وتوجيهه إلى الشيء بقوة وخفة.

قوله: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: فمنعهم وحبسهم من التثبيط وهو رد الإنسان عن الفعل الذي همّ به عن طريق تعويقه عنه ومنعه منه. قوله: ﴿إِلَّا خَبَالًا﴾ أصل الخبال الاضطراب والمرض الذي يؤثر في العقل كالجنون ونحوه.

قوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ الفتنة: كل ما يؤدي إلى ضعفِ المسلمين في دينهم أو في دنياهم. قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم. قوله: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ تقليب الأمر: تصريفه وترديده، وإجالة الرأي فيه، والنظر إليه من كل نواحيه لمعرفة الناحية التي توصل إلى الهدف المنشود.

الإعراب في الآيات:

قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ الاستثناء مفرغ متصل والمستثنى منه محذوف، ولا يستلزم أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه؛ لأن الزيادة باعتبار أعمّ العام الذي وقع منه الاستثناء.

البلاغة:

قوله: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ ففي الكلام استعارة تبعية، حيث شبه سرعة إفسادهم لذات البين بسرعة سير الراكب ثم استعير الإيضاع -وهو الإبل- وأصل الكلام: ولأوضعوا ركائبهم ثم حذفت الركائب.

المعنى العام:

ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج معك أيها الرسول إلى تبوك، لأعدوا لهذا الخروج عدته اللازمة له من الزاد والراحلة، وغير ذلك من الأشياء التي لا يستغني عنها المجاهدون في سفرهم الطويل، والتي كان في مقدورهم وطاقتهم، ولكنهم لم يريدوا ذلك؛ لأنَّ الله تعالى كره خروجهم معك فحبسهم عنه؛ لما يعلمه سبحانه من نفاقهم وقبح نواياهم وإشاعتهم للسوء في صفوف المؤمنين.

قوله: ﴿فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ تذييل، المقصود ذمهم ووصفهم بالجبن الخَلِع والهمة الساقطة؛ لأنهم بقعودهم هذا سيكونون مع النساء والصبيان والمرضى والمستضعفين الذين لا قدرةَ لهم على خوض المعارك والحروب. ولو خرج هؤلاء المنافقون معكم أيها المؤمنون إلى تبوك ما زادوكم شيئًا من الأشياء إلا اضطرابًا في الرأي، وفسادًا في العمل، وضعفًا في القتال؛ لأن هذا هو شأن النفوس المريضة التي تكره لكم الخير وتحب لكم الشر. ولأسرعوا بينكم ركائبهم بالوشاية والنمائم، والإفساد حال كونهم باغين وطالبين لكم الافتتان في دينكم، والتشكيك في صحة عقائدكم، والتثبيط عن القتال، والتخويف من قوة أعدائكم، ونشر الفرقة في صفوفكم، وفيكم في ذلك الوقت يا معشر المؤمنين أناس كثير، والسماع لهؤلاء المنافقين سريعي الطاعة؛ لما يلقون إليهم من

أباطيل، والله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوال هؤلاء الظالمين، وسيعاقبهم بالعقاب المناسب لجرائمهم ورذائلهم.

لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاعَ الشرور والمفاسد في صفوف المسلمين من قبل ما حدث منهم في غزوة تبوك، ومن مظاهر ذلك: أنهم ساءهم انتصاركم في غزوة بدر، وامتنعوا عن مناصرتكم في غزوة أحد متبعين في ذلك زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول، ثم واصلوا حربهم لكم سرًّا وجهرًّا حتى كانت غزوة تبوك التي فضح الله فيها أحوالهم.

فالمراد بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذه الغزوة التي كانت آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ أي: أن ما صدر عن هؤلاء المنافقين من مسالك خبيثة خلال غزوة تبوك ليس هو الأول من نوعه، بل هم لهم في هذا المضمار تاريخ مخزي بدأ منذ أوائل عهد الدعوة الإسلامية في المدينة، فهم استعملوا قصارى جهدهم ومنتهى اجتهاداتهم وخلاصة مكرهم، من أجل صدّ الناس عن الحق الذي جاء به الرسول ﷺ هؤلاء المنافقون استمروا على حربهم للدعوة الإسلامية، حتى جاء النصر الذي وعد الله عبادَه به وظهر دين الله وشرعه.

وهم -أيها المنافقون وأشباههم- كارهون لذلك؛ لأنَّهم يكرهون انتصار دين الإسلام ويحبون هزيمته وخذلانه، ولكن الله تعالى خيّب آمالهم وأحبط مكرهم.

الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات:

١. للإمام أن يمنع من يتهم بمضرة المسلمين من الخروج للجهاد؛ حمايةً لهم من شرورهم ومفاسدهم.

٢. إعداد العدة للجهاد أمر واجب، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

٣. الكثرة العددية في الجيوش لا تؤتي ثمارها المرجوة منها إلا إذا كانت متحدة في عقيدتها وأهدافها واتجاهاتها، أما إذا كانت هذه الكثرة مشتملة على عدد كبير من ضعاف الإيمان، فإن ضررها أكبر من نفعها.

تفسير الآيات من رقم (٤٩) إلى (٥٢):

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٤٩- ٥٢].

المناسبة:

بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة بعض المسالك الخبيثة التي كان يتبعها هؤلاء المنافقون لمحاربة الدعوة الإسلامية، ذكر بعد ذلك جانبًا من أعذارهم الكاذبة ومن أقوالهم الخبيثة، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾ من التربص بمعنى الانتظار في تمهل. ومعنى: ﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ مثل الحسنى، والمراد بهما النصر أو الشهادة.

الإعراب:

الفاء في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ للإفصاح، أي: إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا، فإنا معكم متربصون بكم ما هو عاقبتكم، وسترون أن عاقبتنا على كل حال هي الخير، وأن عاقبتكم هي الشر.

سبب نزول هذه الآيات:

قال محمد بن إسحاق: ((قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه -أي: لغزوة تبوك- للجد بن قيس أخي بني سلمة: هل لك أحد في جلاد بني الأصفر -يعني: الروم-؟ فقال الجد بن قيس: يا رسول الله، أَوَ تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن، فأعرَض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك)) ففي الجد بن قيس هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾.

المعنى العام لهذه الآيات:

من هؤلاء المنافقين الذي لم ينته الحديث عنهم بعد: من يقول لك: أيها الرسول، ائذن لي في القعود ولا توقعني في المعصية والإثم بسبب خروجي معك إلى تبوك ومشاهدتي لنساء بني الأصفر، ثم رد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ أي: ألا إن هذا وأمثالَه في ذات الفتنة قد سقطوا، لا في أي شيء آخر مغاير لها، وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين بما جاء من عند الله دون أن يكون لهم منها مَهرب أو مفرّ، وإن تصبك أيها الرسول حسنة مِن نصر أو نعمة أو غنيمة -كما حدث يوم بدر- تسؤهم تلك الحسنة وتورثهم حزنًا وغمًّا؛ بسبب شدة عداوتهم لك ولأصحابك، وإن تصبك مصيبة من هزيمة أو شدة -

كما حدث يوم أحد- يقولوا باحتيال وعجب وشماتة: قد تلقّينا ما يهمنا من الأمر بالحزم والتيقظ من قبل وقوع المصيبة التي حلّت بالمسلمين، ولم نلقِ بأيدينا إلى التهلكة كما فعل هؤلاء المسلمين، وينصرف هؤلاء المنافقون إلى أهلهم وشيعتهم والفرح يملأ جوانحهم، فيبشروهم بما نزل بالمسلمين من مكروه، قل لهؤلاء المنافقين: أيها الرسول على سبيل التقريع والتبكيت: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وقدَّره علينا، هو مولانا الذي تولانا في كل أمورنا ونلجأ إليه في كل أحوالنا، وعليه وحده سبحانه نكل أمورنا وليس على أحد سواه.

قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين أيضًا: إنكم ما تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين التي كل واحدة منهما أحسن من جميع العواقب، وهما إما النصر على الأعداء وفي ذلك الأجر والمغنم والسلامة، وإما أن نُقتل بأيديهم وفي ذلك الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار، وكل منهما عاقبته الحسنى لا كما تزعمون مِن أنَّ ما يصيبنا من القتل في الغزو سُوء؛ ولذلك سررتم به ونحن معشر المؤمنين نتربص بكم أيها المنافقون إحدى السوءين من العواقب، إما أن يصيبكم الله بعذاب كائن من عنده فيهلككم كما أهلك الذين مِن قبلكم، وإما أن يصيبكم بعذاب كائن بأيدينا بأن يأذن لنا في قتالكم وقتلكم، وإذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا فإنَّا معكم متربصون بكم ما هو عاقبتكم، وستَرَوْن أن عاقبتنا على كل حال هي الخير، وأن عاقبتكم هي الشر.

أسئلة حول الآيات:

- لم عبّر ﷻ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بالفعل المضارع: ﴿يَقُولُ﴾؟

وذلك لاستحضار تلك الحال لغرابتها، فإن مثله في نفاقه وفجوره لا يخشى إثم الافتتان بالنساء، إذ لا يجد من دينه مانعًا من غشيان الشهوات الحرام.

تفسير الآيات من رقم (٥٣) إلى (٥٥):

﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٣ - ٥٥].

المناسبة:

بعد أن بين الله سبحانه في الآيات السابقة طرفًا من رذائل المنافقين، بيّن سبحانه أن نفقات هؤلاء المنافقين غير مقبولة؛ لأن قلوبهم خالية من الإيمان، ولأن عبادتهم ليست خالصة لوجه الله، وأن ما ينفقونه سيكون عليهم حسرة، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ إلى آخر الآيات.

شرح معاني المفردات:

﴿ طَوْعًا ﴾ أي: طائعين، ﴿ كَرْهًا ﴾ أي: مجبرين. قوله: ﴿ كُسَالَىٰ ﴾ [التوبة: ٥٤] جمع كسلان مأخوذ من الكسل بمعنى التثاقل عن العمل والفتور في أدائه. قوله: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ الإعجاب بالشيء معناه: أن تسرّ به سرورًا يجعلك راضيًا به ومتمنيًا له. قوله: ﴿ وَتَزْهَقَ ﴾ زهوق النفس خروجها من الجسد بصعوبة ومشقة.

الإعراب:

قوله: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ الاستثناء من أهم الأشياء وأعمّها، والضمير في: ﴿مَنَعَهُمْ﴾ هو المفعول الأول للفعل. وقوله: ﴿أَن تُقْبَلَ﴾ هو المفعول الثاني؛ لأنَّ الفعل "منع" يتعدى لمفعولين، تارة بنفسه كما هنا، وتارة يتعدى إلى المفعول الثاني بحرف الجر وهو حرف "من" أو "عن"، والفاعل ما في حيز الاستثناء وهو قوله: ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾.

المعنى العام:

قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين: أنفقوا ما شئتم من أموالكم في وجوه الخير، حالة كونكم طائعين، أي: من غير إجبار أحدٍ لكم، أو كارهين، أي: لأن تجبروا على هذا الإنفاق إجبارًا، فلن يقبل منكم ذلك الإنفاق أيها المنافقون؛ بسبب عتوّكم في الكفر، وتمردكم على تعاليم الإسلام، وخروجكم عن الطاعة والاستقامة.

ثم بين سبحانه على سبيل التفصيل لمظاهر فسقهم أن هناك ثلاثة أسباب أدت إلى عدم قبول نفقتهم:

السبب الأول: عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ أي: وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا كفرهم بالله وبرسوله ﷺ.

السبب الثاني: عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي: ولا يأتون الصلاة التي كتبها الله عليهم في حال من الأحوال إلا في حال كونهم متثاقلين عنها، دون أن تنشط لها أبدانهم أو تنشرح معها

صدورهم ؛ وذلك لأنَّهم قوم خلا من قلوبهم الإيمان فصاروا لا يرجون من وراء أدائها ثوابًا ، ولا يخشون من وراء تركها عقابًا ، وإنما يؤدونها رياءً أو تقية للمسلمين.

السبب الثالث : عبّر عنه سبحانه بقوله : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ أي : ولا ينفقون نفقة في سبيل الله إلا وهم كارهون لها ؛ لأنهم يعدونها مغرمًا ، ويعدون تركها مغنمًا ، وما حملهم على الإنفاق إلا الرياء أو المخادعة ، أو الخوف من انكشاف أمرهم وافتضاح حالهم ، فإذا كان هذا هو شأن المنافقين فلا تستحسن أيها العاقل ما أعطيناهم إياه من أموال وأولاد ، فإنه نوع من الاستدراج ، إنما يريد الله بعطائهم تلك الأموال والأولاد أن يعذبهم بها في الدنيا ، ويريد كذلك أن تخرج أرواحهم من أجسادهم وهم كافرون ، فيعذبهم الله بسبب كرههم وكفرهم عذابًا أليمًا.

أسئلة حول الآيات :

- كيف أمرهم بالإنفاق في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ؟

الجواب : لأن الأمر : ﴿ قُلْ ﴾ في معنى الخبر ، وجاء الكلام في صورة الأمر للمبالغة في تساوي الأمرين وعدم الاعتداد بنفقتهم ، سواء أقدموها عن طواعية أم قدموها عن كراهية ، أي : لن يتقبل منهم سواء أنفقوا طوعًا أو كرهًا.

- في قوله : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ معروف أنَّ الكراهية خلاف الطواعية ، وقد جعلهم الله طائعين في قوله : ﴿ طَوْعًا ﴾ ثم وصفهم هنا بأنَّهم لا ينفقون إلا وهم كارهون ، فكيف ذلك؟

لأنَّ المراد بخبره عنهم: ﴿طَوْعًا﴾ في بيان لون نفقتهم، فهم ينفقون من غير إلزام من الله أو من رسوله ﷺ فالله تعالى لن يتقبل منهم نفقتهم طائعين أو مجبرين، واختيار أنَّ نفقتهم في جميع الأحوال لا يقصد بها الاستجابة لشرع الله، وإنما يقصد بها الرياء أو المخادعة أو خدمة مصالحهم الخاصة.

الأحكام والمعاني المستفادة:

١. أفعال الكافر إذا كانت خيرًا كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف، لا يثاب عليها الكافر في الآخرة ولا ينتفع بها، بيد أنَّه يطعم في الدنيا - يعني: يأخذ جزاءه في الدنيا- ودليل ذلك ما رواه مسلم عن عائشة > قالت: ((قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال رسول الله ﷺ: لا ينفعه أنه -أي: لأنه- لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين)).

٢. كل مَن أنفق ماله في لغير وجه الله رياءً وسمعة، فإنه لا يقبل منه؛ لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه.

تفسير الآيتين رقم (٥٦، ٥٧):

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧].

المناسبة:

بعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة أن المنافقين قد خسروا في الدنيا والآخرة، ذكر بعد ذلك جانبًا من رذائلهم وقبائحهم، قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿يَفْرَقُونَ﴾ من الفرق بمعنى الفزع الشديد من أمر يتوقع حصوله، هذه هي معنى كلمة: ﴿يَفْرَقُونَ﴾.

كلمة: ﴿مَلْجَأً﴾ الملجأ: اسم للمكان الذي يلجأ إليه الخائن ليحتمي به، سواء أكان حصنًا أم قلعةً أو غيرَهما. وقوله: ﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾ مغارات جمع: مغارة، وهي المكان المنخفض في الأرض أو في الجبل. وقوله: ﴿يَجْمَحُونَ﴾ يجمحون أي: يسرعون.

المعنى العام:

إنَّ هؤلاء المنافقين يحلفون بالله لكم أيها المؤمنون إنهم لمنكم في الدين والملة، والحق أنَّهم ما هم منكم؛ لأنَّهم يظهرون الإسلام ويخفون الكفرَ، فهم كما وصفهم سبحانه في قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١، ٢] هم يحلفون بالله كذبًا وزورًا إنهم لمنكم والحق أنهم ما هم منكم، لكنهم قوم جبناء لا يستطيعون مصارحتكم بالعداوة، هؤلاء المنافقون لو يجدون حصنًا يلتجئون إليه أو مغارات يستخفون فيها أو سردابًا في الأرض يتحجرون فيه، لأقبلوا نحوه مسرعين أشدَّ الإسراع دون أن يردهم شيء.

تفسير الآيات (٥٨-٨٣) من سورة (التوبة)

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : تفسير الآيات (٥٨- ٧٠) من سورة (التوبة) ٩٣

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (٧١- ٨٣) من سورة (التوبة) ١٠٩

تفسير الآيات (٥٨ - ٧٠) من سورة (التوبة)

١ـ تفسير الآيتين رقم (٥٨ ، ٥٩):

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨ ، ٥٩].

المناسبة بين هاتين الآيتين وما سبقهما من آيات:

بعد أن ذكر الله تعالى جانبًا من أعذار المنافقين الكاذبة ومن أقوالهم الخبيثة ذكر الله سبحانه الأقوال المنكرة والأفعال القبيحة التي كانت تصدر عن المنافقين فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ إلى آخره.

سبب النزول:

ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها: ما أخرجه البخاري والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال: ((بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ قِسْمًا إِذْ جَاءَهُ ابْنُ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ؛ فَقَالَ: اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: "وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ" فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَأْذَنُ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْتَقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ؛ فَيُنْظَرُ فِي قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَضِيِّهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ

الْفَرْثَ وَالدَّمَ مِنْهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ أَوْ قَالَ إِحْدَى ثَدْيَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ النَّاسِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾)).

بيان معاني المفردات:

﴿يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيبك ويطعنك، قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كفانا الله فضله.

الإعراب:

قوله: ﴿إِذَاهُمْ﴾ إذا الفجائية قائمة مقام الجزاء في الربط.

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا﴾ جواب "لو" محذوف والتقدير: ولو أنَّهم فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم.

بيان المعنى العام:

ومن هؤلاء المنافقين أيها الرسول من يعيبك، ويطعن عليك في قسمة الصدقات والغنائم، زاعمين أنَّك لست عادلًا في قسمتك، هؤلاء المنافقون إن أعطيتهم أيها الرسول من تلك الصدقات رضوا عنك، وحكموا على هذا العطاء بأنَّه عدل، حتى ولو كان ظلمًا، وإن لم تعطهم منها سخطوا عليك، واتهموك بأنك غير عادل، حتى ولو كان عدم عطائهم هو الحق بعينه، فهم لا يقولون ما يقولونه فيك غضبًا للعدل، ولا حماسة للحق، ولا غيرة على الدين، وإنَّما يقولون ما يقولون من أجل مطامعهم الشخصية ومنافعهم الذاتية.

ولو أنَّ هؤلاء المنافقين الذين يلمزونك ويعيبونك أيها الرسول في الصدقات رضوا ما أعطاهم الله ورسوله من العطاء، وقالوا على سبيل الشكر والقناعة: حسبنا

الله. أي: كفانا فضله وما قسمه لنا، سيعطينا الله في المستقبل الكثير من فضله وإحسانه، وسيعطينا رسوله من الصدقات وغيرها.

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ في أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقات وغيرها من أموال الناس ومن صلاتهم؛ لأنَّه سبحانه له خزائن السموات والأرض، لو أنَّهم قالوا ذلك، أي: قالوا: "حسبنا الله"، أي: كفانا فضله وما قسمه لنا لكان ذلك خيرًا لهم.

الأحكام المستفادة من الآيتين:

أولًا: من طلب الدنيا بطمع وشراهة آل أمره في الدين إلى النفاق.

ثانيًا: من طلب الدنيا بتوسط وبغرض التوسل إلى مصالح الدين؛ فهذا هو الطريق الحق، والأصل في هذا الباب أن يكون راضيًا بقضاء الله ﷻ.

٢- تفسير الآية رقم (٦٠):

نأتي بعد ذلك إلى تفسير الآية رقم (٦٠): أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]

المناسبة بين هذه الآية وما قبلها:

بعد أن بيّن سبحانه المنهج اللائق بأصحاب العقيدة السليمة في طلب الدنيا بيّن بعد ذلك المستحقين للصدقات فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

﴿ٱلصَّدَقَٰتُ﴾: الزكاة المفروضة.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾: جمع فقير، وهو من له أدنى شيء من المال.

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو من لا شيء له، فيحتاج إلى سؤال الناس لسد حاجاته ومطالب حياته، هذا على المعنى الراجح في الفقير والمسكين؛ وإلا فهناك أقوال أخرى غير ذلك.

﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ المراد بهم من كلفهم الإمام بجمع الزكاة وتحصيلها ممن يملكون نصابها، ويدخل فيهم المحاسب والكاتب وحافظ المال.

قوله: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ المراد بهم الأشخاص الذي يرى الإمام دفع شيء من الزكاة إليهم، تأليفًا لقلوبهم واستمالة لنفوسهم نحو الإسلام لكفّ شرهم أو لرجاء نفعهم، وهم أنواع منهم قوم من الكفار كصفوان بن أمية؛ فقد أعطاه النبي ﷺ من غنائم حنين، وكان صفوان يومئذ كافرًا ثم أسلم.

ومنهم قوم كانوا حديثي عهد بالإسلام وكانوا من ذوي الشرف في أقوامهم، فكان النبي ﷺ يعطيهم ليثبت إيمانهم، وليدخل معهم في الإسلام أتباعهم.

ومنهم قوم كانوا ضعاف الإيمان فكان ﷺ يعطيهم تأليفًا لقلوبهم وتقوية لإيمانهم؛ لكي لا يسري ضعف إيمانهم إلى غيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي: فك الرقاب؛ لأنه يعاني المكاتبون بشيء منها عن أداء بدل الكتابة لكي يصيروا أحرارًا.

قوله: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ من الغرم بمعنى الملازمة للشيء، والمراد بالغارمين من لزمتهم الديون في غير معصية الله، ولا يجدون المال الذي يدفعونه لدائنيهم فيعطون من الزكاة ما يعينهم على سداد ديونهم.

قوله: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اختلف العلماء في المراد به، قوم يرون المراد بهم مساعدة المجاهدين والغزاة والفقراء الذين خرجوا لإعلاء كلمة الله، وبعضهم قال: يجوز صرف سبيل الله إلى مريدي الحج، وقال بعضهم: يجوز صرف سبيل الله إلى طلبة العلم، وفسره بعضهم بجميع القربات فيدخل فيه وجوه الخير مثل تكفين الموتى، وبناء القناطر والحصون، وعمارة المسجد؛ لأن قوله: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عامّ في الكل.

قوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المراد بابن السبيل المسافر المنقطع عن ماله في سفره ولو كان غنيًّا في بلده، وقد ألحقوا بابن السبيل كلّ من غاب عن ماله ولو كان في بلده.

الإعراب:

قوله: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بفعل مقدر أي: فرض الله لهم هذه الصدقات.

الأحكام المستفادة:

١. ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ إعطاء هذا الصنف يختلف باختلاف الأحوال، فإن كان الإمام يرى أن من مصلحة الإسلام إعطاءهم أعطاهم، وإن كانت المصلحة في غير ذلك لم يعطهم.

٢. الزكاة ركن من أركان الإسلام.

٣- تفسير الآية رقم (٦١):

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

المناسبة بين هذه الآية وبين الآية التي قبلها:

بعد أن ذكر سبحانه الصدقات التي كان المنافقون يلمزون الرسول ﷺ فيها ويعيبون عليه فيها ذكر الله سبحانه رذائل المنافقين وسوء أدبهم فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ إلى آخر الآية.

سبب نزول هذه الآية:

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات، منها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي: أنها نزلت في جماعة من المنافقين منهم: الجلاس بن سويد بن صامت، ورفاعة بن المنذر، ووديعة بن ثابت وغيرهم قالوا: لم لا نبغي في حقه ﷺ فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغ محمدًا ما تقولونه فيقع فينا. فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإن محمدًا أُذن، فنزل قول الله: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ الأذن الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع كأن جملته أذن.

الإعراب:

قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ الإضافة هنا في ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ على معنى في، أي: هو أذن في الخير والحق، وقيل: هو من إضافة الموصوف إلى الصفة على سبيل المبالغة في المدح كقولهم: رجل صدق أي: قد بلغ النهاية في الصدق والاستقامة.

البلاغة:

قوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ مجاز مرسل أطلق فيه الجزء وأراد الكل؛ لزيادة استماعه في كل ما يقال له.

المعنى العام لهذه الآية:

ومن هؤلاء المنافقين قوم يؤذون النبي ﷺ فيقولون عنه: إنه كثير السماع والتصديق لكل ما يقال له بدون تمييز بين الحق والباطل.

وقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ﴾ ردٌّ عليهم بما يخرس ألسنتهم ويكبت نفوسهم، قل لهم أيها الرسول على سبيل التوبيخ والتبكيت: سلمنا كما تزعمون أني كثير السماع والتصديق لما يقال؛ لكن هذه الكثرة ليست للشر والخير بدون تمييز، وإنما هي للخير ولما وافق الشرع فحسب، وهذه الجملة الكريمة من أسمى الأساليب وأحكمها في الردّ على المرجفين والفاسقين؛ لأنه سبحانه صدقهم في كونه ﷺ أذنًا، ذلك لما هو مدح له ثم أثنى عليه حيث وصفه بأنه أذن خير لا أذن شر، وهذا مدح للنبي ﷺ.

والذين يؤذون رسول الله ﷺ بأي لون من ألوان الأذى لهم عذاب أليم في دنياهم وآخرتهم ؛ لأنهم بإيذائهم له يكونون قد استهانوا بمن أرسله الله رحمة للعالمين، فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تذييل قصد به التهديد للمنافقين وزجرهم عن التعرض لرسول الله ﷺ بأية إساءة.

هنا سؤال: نجد أن الله ﷻ قد عدّى الإيمان به بالباء، والإيمان بالمؤمنين باللام في قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

الجواب: لأن الإيمان المعدّى إلى الله المراد منه التصديق الذي هو نقيض الكفر فعدي بالباء، والإيمان المعدى إلى المؤمنين المراد منه الاستماع والتسليم لقولهم فعدي باللام، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه: ٧١].

٤- تفسير الآيتين رقم (٦٢، ٦٣):

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٦٢- ٦٣].

المناسبة:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن رذائل المنافقين وسوء أدبهم حكى القرآن بعد ذلك لونًا من جبنهم وعجزهم عن مصارحة المؤمنين بالحقائق فقال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾.

سبب النزول:

قال القرطبي: روي أن قومًا من المنافقين اجتمعوا وفيهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس فحقّروه وتكلموا فقالوا: إن كان ما يقول محمد حقًّا فنحن شرٌّ من

الحمير، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقوله محمد ﷺ لحقّ ولأنتم شر من الحمير، ثم أخبر النبي ﷺ بقولهم فحلفوا أن عامرًا كاذب، فقال عامر: هم الكذبة وحلف على ذلك وقال: اللهم لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله هذه الآية.

المعنى العام:

هؤلاء المنافقون يحلفون بالله لكم ليرضوكم، والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء منكم؛ لأن الله تعالى هو خالقهم ورازقهم ومالك أمرهم، هو العليم بما ظهر وبطن من أحوالهم؛ ولأن رسوله ﷺ هو المبلغ لوحيه ﷻ إن كان هؤلاء مؤمنين حقًّا فليعملوا على إرضاء الله ورسوله بأن يطيعوا أوامرهما ويجتنبوا ما نهيا عنه، وإلا كانوا كاذبين في دعواهم، ألم يعلم هؤلاء المنافقين الذين مردوا على الفسوق والعصيان أنه من يخالف تعاليم الله ورسوله فجزاؤه نار جهنم يصلاها يوم القيامة خالدًا فيها، إن كانوا لا يعلمون ذلك على سبيل الفرض فأعلمهم أيها الرسول سوء مصيرهم إذا ما استمروا على نفاقهم ومعاداتهم لله ولرسوله.

معاني المفردات:

﴿ يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ من المحادّة بمعنى المخالفة والمجانبة والمعاداة، مأخوذ من الحد بمعنى الجانب، كأن كل واحد من المتخاصمين في جانب غير جانب صاحبه، نجد هنا استفهام: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ هذا استفهام للتوبيخ والتأنيب وإقامة الحجة.

قوله: ﴿ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَآ ﴾ نجد هنا أن ﴿ مَن ﴾ شرطية مبتدأ وقوله: ﴿ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ في موضع المبتدأ المحذوف الخبر، والتقدير: فحق أن له نار جهنم، فتكون نار جهنم له حق أمر

حق ثابت، وهذه الجملة جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، والجملة الشرطية -أي: مجموع اسم الشرط وفعله والجزاء- خبر "أن" الأولى وهي: ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وجملة "أن" الثانية واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي "يعلم" إن لم يكن "يعلم" بمعنى العرفان ومسد مفعوله الواحد إن كان بمعنى العرفان.

٥- تفسير الآيات من رقم (٦٤) إلى (٦٦):

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٤- ٦٦].

المناسبة بين تلك الآيات والآيات التي قبلها:

ما زالت الآيات تكشف المنافقين وتهتك أستارهم وتبطل معاذيرهم وتتوعدهم بسوء المصير قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم ﴾ إلى آخر الآيات.

سبب النزول:

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات، منها: ما جاء عن زيد بن أسلم: "أن الرجل من المنافقين، قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك: ما أرى قراءنًا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء، فقال له عوف: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، قال زيد: قال عبد الله بن عمر: فنظرت إليه -

أي: إلى المنافق- متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ أي: بحبل ناقة رسول الله ﷺ تؤذيه الحجارة، يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له الرسول ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

معاني المفردات:

﴿نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أصل الخوض الدخول في مائع مثل الماء والطين، ثم كثر حتى صار اسمًا لكل دخول فيه تلوث وأذى، قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ الاعتذار معناه: محاولة محو أثر الذنب، مأخوذ من قولهم: اعتذرت المنازل إذا اندثرت وزالت؛ لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه.

الإعراب:

الضمير في قوله: ﴿نُعَذِّبْ﴾ و﴿عَلَىٰ﴾ يعود على المنافقين، ومنهم من يرى أن الضمير في قوله: ﴿عَلَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿نُعَذِّبْ﴾ يعود إلى المؤمنين.

نأتي بعد ذلك إلى الاستفهام وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم.

المعنى العام:

يحذر المنافقون ويخافون من أن تنزل في شأنهم وحالهم سورة من سور القرآن الكريم تخبرهم بما انطوت عليه قلوبهم من أسرار خفية، ومن أقوال كانوا يتناقلونها فيما بينهم ويحرصون على إخفائها عن المؤمنين، هذا إذا كان الضمير في قوله: ﴿نُعَذِّبْ﴾ و﴿عَلَىٰ﴾ يعود إلى المنافقين، ويجوز أن يكون المعنى:

يحذر المنافقون ويخشون من أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين من أضغان وحقائق، وفسوق عن أمر الله، قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين المذبذبين بين الحق والباطل، قل لهم على سبيل التهديد والتبكيت: افعلوا ما شئتم من الاستخفاف بتعاليم الإسلام، إن الله تعالى مظهر ما تحذرونه من إنزال الآيات القرآنية التي تفضحكم على رءوس الأشهاد، والتي تكشف عن أسراركم وتهتك أستاركم. ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المنافقين عن سبب استهزائهم بتعاليم الإسلام ليقولن لك على سبيل الاعتذار: إنما كنا نفعل ذلك على سبيل الممازحة والمداعبة لا على سبيل الجد.

قل لهم أيها الرسول على سبيل التوبيخ والتجهيل: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم كما تزعمون سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله، الذي جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور، قل لهم أيها الرسول على سبيل التوبيخ والتجهيل أيضًا: لا تشتغلوا بتلك المعاذير الكاذبة؛ فإنها غير مقبولة؛ لأنكم بهذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله قد ظهر كفركم وثبت بعد إظهاركم الإيمان على سبيل المخادعة، فإذا كنا قبل ذلك نعاملكم معاملة المسلمين بمقتضى نطقكم بالشهادتين؛ فنحن الآن نعاملكم معاملة الكافرين بسبب استهزائكم بالله وآياته ورسوله ﷺ.

٦. تفسير الآيتين رقم (٦٧، ٦٨):

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ

ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨].

المناسبة بين هاتين الآيتين وما قبلهما من آيات:

ما زالت السورة تقرر حقيقة المنافقين في بيان جانب من صفاتهم، كما أنها ما زالت تبين المصير السيئ الذي ينتظر هؤلاء المنافقين، قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾.

بيان معاني المفردات:

قوله: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ ﴾ أي: أهملوا أوامر الله فحرمهم الله ﷻ من توفيقه وعونه.

المعنى العام:

المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض في صفات النفاق، يأمرون غيرهم بكل ما تستنكره الشرائع وتستقبحه العقول، وينهونهم عن كل أمر نزل الشرع به وأحبته القلوب السليمة، ومن صفات هؤلاء المنافقين أنهم بخلاء أشحاء عن بذل المال في وجوهه المشروعة، ومن صفاتهم أنهم تركوا طاعة الله وخشيته ومراقبته فتركهم سبحانه وحرمهم من هدايته ورحمته وفضله، إن المنافقين هم الكاملون في الخروج عن طاعة الله وفي الانسلاخ عن فضائل الإيمان ومكارم الأخلاق، وعد الله تعالى المنافقين والمنافقات والكفار المجاهدين بكفرهم نار جهنم خالدين فيها خلودًا أبديًّا، وتلك العقوبة الشديدة كافية لإهانتهم وإذلالهم بسبب فسوقهم عن أمر ربهم، وطردهم الله وأبعدهم عن رحمته ولطفه ولهم عذاب دائم لا

ينقطع، فهم في الدنيا يعيشون في عذاب القلق والحذر من أن يطمع المسلمون في نفقاتهم، وفي الآخرة يذوقون العذاب الذي هو أشد وأبقى بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان.

٧. تفسير الآيتين رقم (٦٩، ٧٠):

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٦٩، ٧٠].

مناسبة الآيات:

ما زال الحديث عن المنافقين في بيان نماذج لمن حبطت أعمالهم بسبب غرورهم، وضرب الأمثال لهم بمن هلك من الطغاة السابقين بسبب تكذيبهم لأنبيائهم قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى آخره.

معاني المفردات:

قوله: ﴿وَخُضْتُمْ﴾ الخوض: الدخول في الباطل ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: فسدت أعمالهم ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ هم أصحاب قرى قوم لوط التي جعل

الله عاليها سافلها، والائتفاك معناه: الانقلاب بجعل أعلى الشيء أسفله ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ الخلاق: مشتق من الخلق بمعنى التصوير، والمراد منه الحظ والنصيب؛ لأنه مقدّر لصاحبه فـ"خلاق" مشتق من الخلق بمعنى التقدير، وأطلق على الحظ والنصيب؛ لأنه مقدور لصاحبه.

الإعراب:

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ يجوز أن يكون "الَّذِي" صفة لمفرد لفظ مجموع المعنى، فلوحظ في الصفة اللفظ وفي الضمير المعنى، أو صفة لمصدر محذوف أي: كالخوض الذي خاضوا. واسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يعود إلى المتصفين بتلك الصفات القبيحة من السابقين واللاحقين.

البلاغة:

أسلوب التفات في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لزجر المنافقين وتحريك نفوسهم إلى الاعتبار والاتعاظ. قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الاستفهام هنا للتقرير والتحذير.

المعنى العام:

أنتم أيها المنافقون حالكم كحال الذين خلوا من قبلكم، من الطغاة في الانحراف عن الحق والاغترار بشهوات الدنيا وزينتها، ولكن هؤلاء الطغاة يمتازون عنكم بأنهم كانوا أشد منكم قوة في أبدانهم، وكانوا أكثر منكم أموالًا وأولادًا، ولكنهم لم يشكروا الله على إحسانه، بل فتنوا بما بين أيديهم من نعم، فاستمتعوا

بنصيبهم المقدر لهم في هذه الحياة الدنيا استمتاع الجاحدين الفاسقين، كما استمتع الذين من قبلهم بنصيبهم في ذلك، وخضتم أيها المنافقون في ظلام الباطل الذين دخلوا فيه من قبل، أولئك المستمتعون بنصيبهم المقدر لهم في الشهوات، والخائضون في الشرور والآثام فسدت وبطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الكاملون في الخسران الجامعون لكل ما من شأنه أن يؤدي إلى البوار والهلاك، لم يصل إلى أسماع هؤلاء المنافقين خبر أولئك المهلكين من الأقوام السابقين بسبب عصيانهم لرسلهم؟!

ومن هؤلاء الأقوام: قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان، وقوم عاد الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية، وقوم ثمود الذين أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وقوم إبراهيم الذين سلب الله نعمتهم عنهم وأذلّ غرور زعيمهم الذي حاجّ إبراهيم في ربه.

وأصحاب مدين وهم قوم شعيب الذين أخذتهم الصيحة، والمؤتفكات هم أصحاب قرى قوم لوط التي جعل الله عاليها سافلها، هؤلاء أتتهم رسلهم بالبينات فكذّبوا هؤلاء الرسل، فعاقبهم الله على هذا التكذيب وما كان من سنته سبحانه ليظلمهم؛ لأنه لا يظلم الناس شيئًا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بسبب كفرهم وجحودهم واستحبابهم العمى على الهدى وإيثارهم الغي على الرشاد.

المعاني المستفادة:

١. الغرور بالقوة والافتتان بالأموال والأولاد لا يؤدي إلا إلى الخسران المبين.

٢. من سنة الله في خلقه أنه لا يعاقب إلا بذنب ولا يعاقب الظالمين إلا بعد استمرارهم في طريق الغواية والإعراض عن نصح الناصحين.

تفسير الآيات (٧١- ٨٣) من سورة (التوبة)

١- تفسير الآيتين رقم (٧١، ٧٢):

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧١ ، ٧٢].

المناسبة بين هاتين الآيتين وما قبلهما:

بعد أن تحدثت السورة الكريمة عن أحوال المنافقين، وصفاتهم، وسوء عاقبتهم، أتبعت ذلك بالحديث عن المؤمنين الصادقين، وعما أعده الله لهم من نعيم مقيم، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ إلى آخر الآيتين.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أي: منازل حسنة.

قوله: ﴿ فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ﴾ أي: في جنات ثابتة مستقرة.

بعد أن انتهينا من معاني المفردات الغريبة نأتي إلى الإعراب.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ اسم الإشارة يعود إلى ما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات من جنات ومساكن طيبة ومن رضا الله عنهم.

البلاغة:

التنكير في قوله: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ﴾ للتعظيم، والتهويل، وللإشارة إلى أن الشيء اليسير من هذا الرضا الإلهي على العبد أكبر من الجنات، ومن المساكن الطيبة، ومن كل حطام الدنيا.

المعنى العام للآيتين:

إن من صفات هؤلاء المؤمنين والمؤمنات -الذين جمعتهم العقيدة الدينية على التناصر والتراحم من صفاتهم- أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤدون الصلاة في أوقاتها بإخلاص وخشوع، ويعطون الزكاة لمستحقيها بدون منٍ أو أذى، ويطيعون الله ورسوله في سائر الأحوال بدون ملل أو انقطاع أو تكاسل.

أولئك المؤمنون والمؤمنات المتصفون بتلك الصفات السامية سيرحمهم الله برحمته الواسعة، إنه سبحانه لا يعجزه شيء، حكيم في كل أفعاله وتصرفاته.

ومن مظاهر رحمته أنه وعد المؤمنين -بفضله وكرمه- جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها وقصورها -تجري من تحت ذلك كله- الأنهار خالدين في تلك الجنات خلودًا أبديًّا، ووعدهم كذلك منازل حسنة تنشرح لها الصدور، وتستطيبها النفوس في جنات ثابتة مستقرة.

وهؤلاء المؤمنون والمؤمنات ليس لهم هذه الجنات، والمساكن الطيبة فحسب، وإنما لهم ما هو أكبر من ذلك وأعظم، وهو رضا الله تعالى عنهم، وتجليه عليهم، وتشرفهم بمشاهدة ذاته الكريمة، وشعورهم بأنهم محل رعاية الله وكرمه.

اللطائف في هاتين الآيتين:

قال سبحانه في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ بينما قال في المنافقين: ﴿بَعْضُهُم أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ وذلك للإشعار بأن المؤمنين في تناصرهم وتعاطفهم وتراحمهم مدفوعون بدافع العقيدة الدينية التي ألفت بين قلوبهم وجعلتهم أشبه ما يكونون بالجسد الواحد، أما المنافقون فلا توجد بينهم هذه الروابط السامية، وإنما الذي يوجد بينهم هو التقليد واتباع الهوى، والسير وراء العصبية الممقوتة، فهم لا ولاية بينهم، وإنما الذي بينهم هو التقليد، وكراهية ما أنزل الله على رسوله ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ نجد أن فائدة السين هنا وجود الرحمة، فهي تؤكد وعد الله ﷻ.

المعاني المستفادة من هاتين الآيتين:

بشارة المؤمنين والمؤمنات بأعظم البشارات، ووصفهم بأشرف الصفات، الأمر الذي يؤكد أن طريق الله هو الطريق المستقيم.

٢. تفسير الآية رقم (٧٣):

﴿ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

المناسبة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. مناسبة هذه الآية لما قبلها: بعد أن بشر الله المؤمنين والمؤمنات في الآية السابقة بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار، أمر الله رسوله ﷺ بمجاهدة الكفار والمنافقين بأية وسيلة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ من الغلظة التي هي نقيض الرأفة، يقال: أغلظ فلان في الأمر إذا اشتد فيه ولم يترفق.

المعنى العام لهذه الآية:

عليك -أيها الرسول الكريم- أن تجاهد الكفار بالسيف إذا كان لا يصلحهم سواه، وأن تجاهد المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر بما تراه مناسبًا لردعهم وزجرهم وإرهابهم، سواء أكان ذلك باليد أم باللسان أم بغيرهما حتى تأمن شرهم، هذا في الدنيا؛ أما في الآخرة فإن جهنم هي دارهم وقرارهم والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: وبئس المصير مصيرهم، فإنه لا مصير أسوأ من الخلود في جهنم.

٣.تفسير الآية رقم (٧٤):

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن

يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: ٧٤].

مناسبة هذه الآية بما قبلها:

بعد أن أمر الله رسوله بجهاد الكفار والمنافقين في الآية السابقة بين سبحانه ما كان عليه المنافقون من كذب وفجور وخيانة، فقال سبحانه: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ إلى آخر الآية.

سبب نزول هذه الآية:

أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك، قال: "لما نزل القرآن وفيه ذكر المنافقين قال الجلاس بن سويد: والله لئن كان هذا الرجل صادقًا لنحن شر من الحمير؛ فسمعه عمير بن سعد، فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي أثرًا، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحن، ولئن سكت عنها هلكت، ولإحداهما أشد علي من الأخرى، فمشى عمير إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس، فسأل رسول الله ﷺ الجلاس عما قاله عمير، فحلف بالله ما قال، وزعم أن عميرًا كذب عليه، فنزلت هذه الآية: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ إلى آخر الآية".

معاني المفردات:

معنى: ﴿ نَقَمُوٓاْ ﴾ أي: كرهوا وعابوا وأنكروا.

المعنى العام للآية: يحلف هؤلاء المنافقون بالله كذبًا وزورًا: أنهم ما قالوا هذا القول القبيح الذي بلغهم عنك أيها الرسول، والحق أنهم قالوا كلمة الكفر،

وهي تشمل كل ما نطقوا به من أقوال يقصدون بها إيذاءه ﷺ كقوله: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١] وقولهم: "لئن كان ما جاء به حقًّا فنحن أشر من حمرنا". وغير ذلك من الكلمات القبيحة التي نطقوا بها، وأنهم أظهروا الكفر بعد إظهارهم الإسلام، وحاولوا إلحاق الأذى برسول الله ﷺ ولكنهم لم يستطيعوا ذلك؛ لأن الله تعالى عصمه من شرورهم، وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام شيئًا إلا أنهم بسببه أغناهم الله ورسوله من فضله بالغنائم وغيرها من وجوه الخيرات التي كانوا لا يجدونها قبل حلول الرسول ﷺ وأصحابه بينهم، فإن يتب هؤلاء المنافقون عن نفاقهم وشقاقهم وقبائح أقوالهم، وأفعالهم يكن المتاب خيرًا لهم في دنياهم وآخرتهم، وإن يعرضوا عن الحق ويستمروا في ضلالهم يعذبهم الله عذابًا أليمًا في الدنيا والآخرة.

أما عذاب الدنيا فمن مظاهره حذرهم وخوفهم من أن يطلع المؤمنون على أسرارهم، وجبنهم عن مجابهة الحق، وشعورهم بالضعف أمام قوة المسلمين، وإحساسهم بالعزلة والمقاطعة من جانب المؤمنين، ومعاقبة الرسول ﷺ إياهم بالعقوبة المناسبة لجرمهم.

وأما عذاب الآخرة، فهو أشد وأبقى بسبب إصرارهم على النفاق، وإعراضهم عن دعوة الحق، إن هؤلاء المنافقين ليس لهم أحد في الأرض يدفع عنهم عذاب الله، أو يحميهم من عقابه؛ لأن عقاب الله لن يدفعه دافع إلا هو، فعليهم أن يعودوا إلى رشدهم، وأن يتوبوا إلى ربهم، قبل أن يحل عقابه.

٤. تفسير الآيات من رقم (٧٥) إلى (٧٨):

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٨].

مناسبة الآيات:

بعد أن بين الله ﷻ بعض رذائل المنافقين في الآية السابقة، ذكر بعد ذلك نماذج أخرى من جحودهم ونقضهم لعهودهم وبخلهم بما آتاهم الله من فضله، فقال الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إلى آخر الآيات.

سبب النزول:

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري: أن سبب نزول هذه الآيات هو: أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا. فقال له الرسول ﷺ: ((ويحك يا ثعلبة!! قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه))، ثم قال له مرة أخرى: ((أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فوالذي نفسي بيده فلو شئت أن تصير الجبال معي ذهبًا وفضة لصارت))، فقال ثعلبة: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لئن دعوت الله فرزقني مالًا لأعطين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: ((اللهم ارزق ثعلبة مالًا)). فاتخذ ثعلبة غنمًا فنمت، ثم ضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها ونزل واديًا من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة، ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت الأغنام، فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، ثم ترك الجمعة، وأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] فبعث الرسول ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين، وقال لهما: ((مرا على ثعلبة وعلى فلان -رجل من بني سليم- فخذا صدقاتهما))، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، واقرأه كتاب رسول الله ﷺ

فقال ثعلبة: ما هذه إلا جزية، ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا، ثم عودا إلي فانطلقا، وسمع بهما السلمي -رجل يسمى بهذا الاسم- فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة ثم استقبلهم بها، فلما رأوها قالوا له: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ منك. فقال: بل خذوها، فإن نفسي طيبة فأخذاها منه، ومرا على ثعلبة، فقال لهما: أروني كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية؟ انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال رسول الله ﷺ: ((يا ويح ثعلبة)) قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنعه ثعلبة معهما، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إلى آخر الآيات، فسمع رجل من أقارب ثعلبة هذه الآيات، فذهب إليه، وأخبره بما نزل فيه من قرآن، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ وسأله أن يقبل منه صدقته، فقال له: إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك، ثم لم يقبلها منه بعد ذلك أبو بكر، وعمر، وعثمان، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان.

هذا، وقد ضعّف بعض العلماء هذا الحديث؛ لأسباب تتعلق بسنده، وبصاحب القصة، وهو ثعلبة بن حاطب.

معاني المفردات في هذه الآيات:

قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ أي: جعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقًا.

الإعراب:

الضمير المستتر في قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ لله تعالى، وكذا الضمير المنصوب في قوله: ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ والباء في قوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ بالسببية.

البلاغة:

الاستفهام في قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾ للتوبيخ والتهديد والتقرير، وتنبيههم إلى أن الله عليم بأحوالهم، وسيجازيهم عليها.

الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات:

١. وجوب الوفاء بالعهود، فإن نقض العهود وخلف الوعد والكذب كل ذلك يورث النفاق، فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عن النفاق، فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به.

٢. النفس البشرية ضعيفة شحيحة إلا من عصم الله.

٥ـ تفسير الآية رقم (٧٩):

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

المناسبة:

بعد أن بيّن سبحانه نماذج من هؤلاء المنافقين حكى سبحانه موقف هؤلاء المنافقين من المؤمنين الصادقين الذين كانوا يبذلون أموالهم في سبيل الله فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ إلى آخر الآية.

سبب النزول:

روى البخاري عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: ((لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ، فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ

صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الْآخَرُ إِلَّا رِئَاءً فَنَزَلَتْ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾)).

معاني المفردات:

قوله: ﴿يَلۡمِزُونَ﴾ من اللمز، يقال: لمز فلان فلانًا إذا عابه وتنقصه، قوله ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ أي: أغنياء المؤمنين الذين قدموا أموالهم عن طواعية واختيار.

قوله: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ المقصود بها: صدقة التطوع التي يقدمها المسلم زيادة على الفريضة.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ المقصود بهم: فقراء المسلمين، هؤلاء المنافقون دائما يطعنون في المؤمنين ويعيبون المؤمنين، إن كان الرجل غنيًا فيهم وتصدق بشيء كثير، قالوا: هذا يقصد الرياء، وإن كان رجلًا فقيرًا وتصدق بشيء قليل قالوا: الله غني عن هذه الصدقة، وهكذا شأن المنافقين.

المعنى العام لهذه الآية:

إنَّ من الصفات القبيحة للمنافقين أنَّهم كانوا يعيبون على المؤمنين إذا ما بذلوا أموالهم لله ورسوله عن طواعية نفس ورضا قلب وسماحة ضمير، وذلك لأنَّ هؤلاء المنافقين لخلو قلوبهم من الإيمان كانوا لا يدركون الدوافع السامية والمقاصد العالية من وراء هذا البذل، ومن أجل هذا كانوا يقولون عن المكثر: إنَّه يبذل رياءً، وكانوا يقولون عن المقل: إن الله غني عن صدقته، فهم -لسوء

نواياهم، وبخل نفوسهم، وخبث قلوبهم- لا يرضيهم أن يروا المؤمنين يتنافسون في إرضاء الله ورسوله.

إنَّ هؤلاء المنافقين يلمزون الأغنياء المطوعين بالمال الكثير، ويلمزون الفقراء الباذلين للمال القليل؛ لأنَّه هو مبلغ جهدهم، وآخر طاقتهم.

٦- تفسير الآية رقم (٨٠):

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

المناسبة:

لما بين الله سبحانه في الآية السابقة الحكم عليهم بالعذاب الأليم عقب بعد ذلك بحكم آخر، وهو عدم المغفرة لهم بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق، فقال تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ إلى آخر الآية.

سبب النزول:

لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين، وفي بيان نفاقهم، وظهر أمرهم للمؤمنين جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويقولون: استغفر لنا. فنزلت هذه الآية.

الإعراب:

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ اسم الإشارة يعود إلى امتناع المغفرة لهم المفهوم من قوله: ﴿ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ .

المعنى العام:

استغفارك أيها الرسول لهؤلاء المنافقين وعدمه لهم سواء، مهما استغفرت لهم فلن يغفر الله لهم، ذلك الحكم الذي أصدرناه عليهم بعدم مغفرة ذنوبهم مهما كثر استغفارك لهم سببه: أنَّهم قوم كفروا بالله ورسوله، ومن كفر بالله ورسوله فلن يغفر الله له مهما استغفر له المستغفرون وشفع له الشافعون.

والله تعالى لا يهدي إلى طريق الخير أولئك الذين فسقوا عن أمره وخرجوا عن طاعته، ولم يستمعوا إلى نصح الناصحين، وإرشاد المرشدين، وإنما آثروا الغواية على الهداية.

أسئلة حول الآية:

لِمَ جاء الخبر في صورة الأمر في قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾؛ لأنَّ استغفر بمعناه استغفارك.

جاء هكذا للمبالغة في بيان استوائهما أي: الاستغفار، وعدم الاستغفار واحد بالنسبة لهؤلاء المنافقين، وقد جاء هذا الحكم في صورة الخبر في موضع آخر، وذلك في قول الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

المعاني المستفادة من الآية:

شدة شفقته ﷺ بأمته، وحرصه على هدايتها، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة، وأنَّه مع إيذاء المنافقين له كان يستغفر لهم أملًا في توبتهم إلى أن نهاه الله عن ذلك.

٧- تفسير الآيات رقم (٨١) إلى (٨٣):

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨١].

مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

بعد هذا الحديث الطويل المتنوع عن أحوال المنافقين ومسالكهم الخبيثة أخذت السورة الكريمة في الحديث عن حال المنافقين الذين تخلفوا في المدينة، وأبوا أن يخرجوا مع الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، فقال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ اسم مفعول مأخوذ من قولهم خلف فلان فلانًا وراءه إذا تركه خلفه، والمراد به أولئك المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك، بسبب ضعف إيمانهم، وسقوط همتهم، وسوء نيتهم.

قوله: ﴿ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ قال الرازي ما ملخصه: ذكروا في تفسير الخالف وجوهًا:

الأول: قال أبو عبيدة: الخالفون جمع واحده خالف، وهو من يخلف الرجل في قومه، ومعناه: فاقعدوا مع المخالفين من الرجال، الذين يجلسون في البيت فلا يبرحونه.

الثاني: الخالفين فسر بالمخالفين يقال: فلان خالفه أهل بيته إذا كان مخالفًا لهم، وقوم خالفون أي: كثيرو الخلاف.

الثالث: أن الخالف هو الفاسد، قال الأصمعي: يقال: خلف عن كل خير يخلف خلوفًا إذا فسد، ولا شك أنَّ اللفظ يصلح حمله على كل واحد منها؛ لأنَّ أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة.

الإعراب:

قوله ﴿جَزَآءً﴾ مفعول، أي: ليكونوا جزاءً.

المعنى العام:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ من هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم في المدينة وعدم خروجهم إلى تبوك للجهاد مع الرسول ﷺ والمؤمنين، وكرهوا أن يبذلوا شيئًا من أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله، وإنما فرحوا بهذا القعود وكرهوا عن الجهاد؛ لأنَّهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الآخر، وهبطت نفوسهم عن الارتفاع إلى معاني الأمور وآثروا الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقي، وقال هؤلاء المنافقون والمخالفون لغيرهم: اقعدوا معنا في المدينة، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين، فإنَّ الحر شديد والسفر طويل وقعودكم يريحكم من هذه المتاعب، ويحمل غيرنا وغيركم على القعود معنا ومعكم،

وبذلك ننال بغيتنا من تثبيطهم همة المجاهدين عن الجهاد في سبيل الله، قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين على سبيل التهكم بهم والتحقير من شأنهم: نار جهنم أشد من هذا الحر الذي تخشونه، وترونه مانعًا من النفير، بل هي أشد حرًّا من الدنيا.

المعاني المستفادة:

الشخص إذا ظهر منه مكر وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته؛ لأنه سبحانه منع المنافقين من الخروج مع الرسول ﷺ إلى الجهاد، وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات.

تفسير الآيات (٨٤-١١٠) من سورة (التوبة)

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول : تفسير الآيات (٨٤-١٠٠) من سورة (التوبة) ١٢٧

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (١٠١-١١٠) من سورة (التوبة) ١٤٢

تفسير الآيات (٨٤-١٠٠) من سورة (التوبة)

١. تفسير الآيتين (٨٤، ٨٥):

أ. تفسير الآية رقم ٨٤:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

المناسبة:

بعد أن بيّن سبحانه ما يجب أن يفعله الرسول ﷺ مع المنافقين في حياتهم أتبع ذلك ببيان ما يجب أن يفعله معهم بعد مماتهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ إلى آخر الآية.

سبب نزول هذه الآية:

روى البخاري عن ابن عمر قال: ((لما تُوفي عبد الله بن أُبي جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليُكفن فيه أباه، فأعطاه الرسول ﷺ إياه، ثم سأل ابن عبد الله بن أُبي الرسول ﷺ أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصلي عليه، فقال الرسول ﷺ: وإنما خيرني الله، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ وسأزيده على السبعين، قال عمر: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾)).

المعنى العام لهذه الآية:

لا تصلِّ أيها الرسول على أحد من هؤلاء المنافقين، الذي مات لا تصل عليه أبدًا، ولا تقم على قبره، أي: لا تقف على قبره عند الدفن أو بعده بقصد الزيارة أو الدعاء له.

وذلك لأنَّ صلاتك على المنافقين ووقوفهم على قبورهم شفاعةٌ لهم، ورحمةٌ بهم، وتكريمٌ لشأنهم، وهم ليسوا أهلًا لذلك، إننا نهيناك أيها الرسول عن ذلك؛ لأنَّ هؤلاء المنافقين قد عاشوا حياتهم كافرين بالله ورسوله، ومحاربين لدعوة الحق، وماتوا وهم خارجون عن حظيرة الإيمان.

أسئلة حول الآية:

- لِمَ جمع سبحانه بين وصف المنافقين بالكفر، ووصفهم بالفسق؟

جمع سبحانه ذلك زيادة في تقبيح أمرهم، وتحقير شأنهم، فهم لم يكتفوا بالكفر وحده، وإنما أضافوا إليه الفسق، وهو الخروج عن كلِّ قولٍ طيب، وخُلقٍ حسن، وفعلٍ كريم.

- قال بعضهم: فإن قلت: الفسق أدنى حالًا من الكفر فما الفائدة في وصف المنافقين بالفسق بعد وصفهم بالكفر؟

قلت: إن الكافر قد يكون عدلًا بأن يؤدي الأمانة، ولا يُضمر لأحدٍ سوءًا، وقد يكون خبيثًا كثير الكذب، والمكر، والخداع، وإضمار السوء للغير، وهذا أمرٌ مستقبحٌ عند كلِّ أحدٍ، ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله تعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر.

الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة:

- تحريم الصلاة على الكافر، والوقوف على قبره.

- وجوب الصلاة على المسلم، ودفنه، ومشروعية الوقوف على قبره، والدعاء له من ناحية مفهوم قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾.

ب. الآية رقم (٨٥):

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

مناسبة هذه الآية لما قبلها:

بعد أن نهى الله ﷻ رسوله ﷺ عن الصلاة على المنافقين أتبع ذلك بنهي كل من يصلح له الخطاب عن الاغترار بما عند هؤلاء المنافقين من مالٍ وولدٍ، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ ﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ زهوق النفس: خروجها عن الجسد بمشقةٍ وتعب.

المعنى العام لهذه الآية:

عليك أيها الإنسان ألا تغتر بما عند هؤلاء المنافقين من أموالٍ وأولاد، وألا يُداخل قلبك شيءٌ من الإعجاب بما بين أيديهم من نعم، فإن هذه النعم التي من أعظمها المال والأولاد، إنما أعطاهم الله إياها ليعذبهم بسببها في الدنيا عن طريق التعب في

تحصيلها، والحزن عند فقدها وهلاكها، أما في الآخرة فعذابهم أشدُّ وأبقى؛ لأنَّ أرواحهم قد خرجت من أقدارهم وهم مصرون على الكفر والضلال.

٢. تفسير الآيات من رقم (٨٦) إلى (٩٠):

أ. الآيات: (٨٦- ٨٩):

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٨٦ - ٨٩].

المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها:

بعد أن نهى الله سبحانه عن الصلاة على المنافقين في الآية السابقة بيّن سبحانه بعد ذلك موقف المؤمنين، وموقف المنافقين من الجهاد كما بيّن عاقبة كل فريق، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

﴿ ٱلطَّوۡلِ ﴾: الطَّوْلِ يطلق على الغنى والثروة، والمراد بـ﴿ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ ﴾ رؤساء المنافقين. قوله: ﴿ ٱلۡخَوَالِفِ ﴾ جمع خالفة يطلق على المرأة المتخلفة من أعمال الرجال لضعفها، كما يطلق لفظ الخالفة أيضًا على كلِّ من لا خير فيه.

المعنى العام لهذه الآيات:

من الصفات الذميمة لهؤلاء المنافقين أنَّه كلما نزلت سورة قرآنية تدعو في بعض آياتها الناس إلى الإيمان بالله، والجهاد في سبيله ما كان منهم عند ذلك إلى الجُبن، والاستخزاء، والتهرب من تكاليف الجهاد، وعند نزول السورة الداعية إلى الجهاد يجيء هؤلاء المنافقون أصحاب الغنى والثروة إلى الرسول ﷺ ليستأذنوه في القعود وعدم الخروج، وليقولوا له بجبن واستخزاء: ذرنا نكن مع القاعدين - أي: اتركنا يا محمد مع القاعدين- في المدينة من العجزة، والنساء، والصبيان، واذهب أنت وأصحابك إلى القتال.

لقد رضي هؤلاء المنافقون لأنفسهم أن يبقوا في المدينة مع النساء، ومع كلِّ ما لا خير فيه من الناس، ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته، وسقطت مروءته، وأَلِفَ الذُّلَ والصَّغَار، وترتب على ذلك رسوخهم في النفاق، وإصرارهم على الفسوق والعصيان أن ختم الله على قلوبهم فصارت لا تفقه ما في الإيمان والجهاد من الخير والسعادة، وما في النفاق والشقاق من الشقاء والهلاك، هذا هو حال المنافقين.

أما حال المؤمنين فإنَّه يختلف كثيرًا، فلقد وقفوا إلى جانب رسولهم ﷺ وجاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله، وأطاعوه في السر والعلن، وآثروا ما عند الله على كلِّ شيءٍ في هذه الحياة، هؤلاء أولئك المؤمنون الصادقون لهم الخيرات التي تسر النفس، وينشرح الصدر في الدنيا والآخرة، وأولئك هم المفلحون الفائزون بسعادة الدارين.

ب- تفسير الآية رقم (٩٠):

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٠].

المناسبة:

بعد أن بيّن سبحانه أحوال المنافقين من سكان المدينة أتبع ذلك بالحديث عن المنافقين من الأعراب سكان البادية، فقال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ إلى آخر الآية.

بيان معاني المفردات:

قوله: ﴿ ٱلْمُعَذِّرُونَ ﴾ أي: أصحاب الأعذار المقبولة.

المعنى العام للآية:

عندما استنفر النبي ﷺ الناس إلى غزوة "تبوك" جاء أصحاب الأعذار من الأعراب ليستأذنوه في عدم الخروج معه، فَقَبِلَ ﷺ ما هو حقٌّ منها، وقعد عن الخروج إلى "تبوك" وعن المجيء إلى رسول الله ﷺ للاعتذار، أولئك الذين كذبوا الله ورسوله في دعوى الإيمان، وهم الراسخون في النفاق والعصيان من الأعراب سكان البادية، سيصيب الذين أصروا على كفرهم ونفاقهم من هؤلاء الأعراب عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة.

أما الذين رجعوا عن كفرهم ونفاقهم منهم وتابوا إلى الله توبةً صادقةً، فهؤلاء عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوًا غفورًا.

٣. تفسير الآيات من رقم (٩١) إلى (٩٦):

أ. تفسير الآيتين رقم (٩١- ٩٢):

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

المناسبة:

بعد أن بيّن سبحانه حال المنافقين من الأعراب سكان البادية في الآية السابقة بيّن سبحانه الأعذار الشرعية المقبولة عنده وعند رسوله، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾ إلى آخر الآيات.

سبب النزول:

ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات، منها: ما جاء عن زيد بن ثابت أنه قال: ((كنت أكتب لرسول الله ﷺ فقال: اكتب براءة فإني لواضع العلم على أذني إذا أُمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى، فقال: فكيف بي يا رسول الله، وأنا أعمى؟ فنزل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ﴾)). إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ جمع ضعيف، وهو من ليس عنده القوة على القيام بتكاليف الجهاد كالشيوخ، والنساء، والصبيان، وكذلك المرضى. أيضًا قوله: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ المحسنين جمع محسن، وهو الذي يؤدي ما كلفه الله به

على وجه حسن. قوله: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ السبيل الطريق السهل الممهد الموصل إلى الهدف.

الإعراب:

قوله: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ ، "مِنْ" زائدة لتوكيد النفي.

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ معطوفٌ على ما قبله من عطف الخاص على العام اعتناءً بشأنهم.

قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ استئنافٌ مقرر لمضمون ما قبله.

المعنى العام:

ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة في تكوينهم أو لشيخوخة أقعدته، ولا على المرضى الذين حالت أمراضهم بينهم وبين الجهاد، ولا على الذين لا يجدون ما يُنفقون، وهم الفقراء القادرون على الحرب، ولكنهم لا يجدون المال الذي يُنفقونه في مطالب الجهاد، ولا يجدون الرواحل التي يسافرون عليها إلى أرض المعركة، ليس على هؤلاء جميعًا أي إثم أو ذنب بسبب عدم خروجهم مع النبي ﷺ إلى تبوك لقتال الكافرين.

قوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بيانٌ لما يجب عليهم في حال قعودهم، ومعنى النصح أن يقيموا في البلد، وأن يحترسوا عن إثارة الفتن، ويسعوا في إيصال الحق إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو، ويقوموا بمصالح بيوتهم، ويخلصوا الإيمان والعمل لله، ويتابعون الرسول ﷺ فجملة هذه الأمور تجري مجرى النصح لله ورسوله.

قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس لأحدٍ أي طريقٍ يسلُكها لمؤاخذة هؤلاء المحسنين بسبب تخلفهم عن الجهاد بعد أن نصحوا لله ولرسوله، وبعد أن حالت المواقع الحقيقية بينهم وبين الخروج للجهاد، والله واسع المغفرة كثير الرحمة يستر على عباده المخلصين ما يصدر عنهم من تقصيرٍ تقتضيه طبيعتهم البشرية، ولا حرج ولا إثم أيضًا على فقراء المؤمنين الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل التي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل، قلت لهم أيها الرسول: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وهؤلاء المؤمنون الفقراء عندما اعتذرت لهم بقولك: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ انصرفوا من مجلسك، وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن؛ لأنهم لا يجدون المال الذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرواحل التي يركبونها في حال سفرهم إلى "تبوك".

الأحكام والآداب المستفادة من الآيتين:

الأول: إنَّ تكاليف الإسلام تقوم على اليسر ورفع الحرج، ومن مظاهر ذلك أنَّ الجهاد، وهو ذروة سنام الإسلام قد أعفى الله منه الضعفاء والمرضى، والذين لا يجدون وسائل الجهاد ومتطلباته.

الثاني: متى وُجِدَتْ النية الصادقة في فعل الخير حصل الثواب وإن لم يكن هناك عمل، بدليل أن المؤمنين الذين لم يخرجوا للجهاد بعذر شرعي بشرهم النبي ﷺ بأنهم مشاركون لمن خرج في الأجر.

قال الإمام ابن كثير في الصحيحين: من حديث أنس: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((إنَّ بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا، ولا سرتم سيرًا إلا وهم معكم، قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم أعذارهم)).

ب- تفسير الآيات رقم (٩٣- ٩٦):

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٣ - ٩٦].

المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها:

بعد أن بيّن سبحانه أحكام أصحاب الأعذار المقبولة أتبع ذلك ببيان أحكام أصحاب الأعذار الكاذبة، والصفات القبيحة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

﴿رِجْسٌ﴾ أي: قذر ونجس.

المعنى العام:

إذا كان الضعفاء والمرضى، ومن في حكمهم لا إثم ولا عقوبة عليه بسبب تخلفهم عن الجهاد، فإن الإثم والعقوبة على الذين يستأذنونك أيها الرسول في التخلف وهم أغنياء أي: يملكون كل وسائل الجهاد من مالٍ، وقوةٍ، وعُدةٍ،

هؤلاء رضوا بأنفسهم أن يقبعوا في المدينة مع الخوالف من النساء، والصبيان، والعجزة، وبسبب هذا الإصرار على النفاق، والتمادي في الفسوق والعصيان ختم الله على قلوبهم؛ فصارت لا تعلم ما يترتب على ذلك من مصائب دينية، ودنيوية، وأخروية، هؤلاء المتخلفون عن الجهاد مع قدرتهم عليه سيعتذرون لكم أيها المؤمنون إذا رجعتم إليهم من "تبوك" بأن يقولوا لكم مثلًا: إن قعودنا في المدينة وعدم خروجنا معكم كانت له مبرراته القوية فلا تؤاخذونا.

وهذه الجملة الكثيرة من الأنباء التي أنبأ الله بها نبيه ﷺ عن أحوال المنافقين، وعمّا سيقولونه له وللمؤمنين بعد عودتهم إليها، وهذا يدل على أن هذه الآيات نزلت في أثناء العودة وقبل وصول الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة من "تبوك"، قل لهم أيها الرسول عندما يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم: دعوكم من هذه المعاذير الكاذبة، ولا تتفوهوا بها أمامنا، فإننا لن نؤمن لكم، ولن نصدق أقوالكم، فإن الله تعالى قد كشف لنا عن حقيقتكم، ووضح لنا أحوالكم، وبيّن لنا ما أنتم عليه من نفاقٍ، وفسوق، وعصيان، وما دام الأمر كذلك فوفروا على أنفسكم هذه المعاذير الكاذبة دعوا عنكم هذه الأعذار الباطلة، فإن الله تعالى مُطلعٌ على أحوالكم، وسيعلم سركم وجهركم عِلمًا يترتب عليه الجزاء العادل لكم، وسيُبلغ رسوله ﷺ بأخباركم هذه في الدنيا، أما في الآخرة فأنتم ستردون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؛ فيخبركم بما كنتم تعملونه في الدنيا من أعمالٍ قبيحة، وسيجازيكم عليها بما تستحقونه من عقاب. هؤلاء المنافقون سيحلفون لكم أيها المؤمنون إذا ما رجعتم إليهم من غزوة "تبوك" وذلك لكي تَعْرِضُوا عنهم فلا توبخوهم، ولا تعنفوهم على تخلفهم، فأعرضوا أيها المؤمنون عن هؤلاء المنافقين؛ لأنهم قذرٌ ونجسٌ لسوء نواياهم، وخبث طواياهم، وقد جعلهم سبحانه نفس الرجس مبالغة في نجاسة أعمالهم، وقبح بواطنهم.

اللطائف:

الأمر الأول: قال سبحانه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ ولم يقل: قد نبأني لماذا؟ للإشعار بأن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يُبلغ المؤمنين بأحوال هؤلاء المنافقين حتى يكونوا على بينة من ربِّه.

الأمر الثاني: لم يذكر سبحانه المحلوف به في قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ لماذا؟ لظهور المحلوف به أي: يحلفون بالله لكم لترضوا عنهم.

الأمر الثالث: قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ولم يقل: فإنَّ الله لا يرضى عنهم، وذلك لتسجيل الفسق عليهم، وللإيذان بشمول هذا الحكم لكل من كان مثلهم لله في الفسوق، وفي الخروج عن طاعة الله.

المعاني المستفادة:

نهي عن المخاطبين عن الرضا عن هؤلاء المنافقين، وعن الاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده، فإن الرضا عمّن لا يرضى الله تعالى عنه بما لا يكاد يصدر عن المؤمنين.

٤. تفسير الآيات من رقم (٩٧: ١٠٠):

أ. تفسير الآيات رقم (٩٧: ٩٩):

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٩].

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بين الله صفات النفاق والمنافقين في الآيات السابقة بدأ بعد ذلك في الحديث عن طوائف أخرى منها الصالح، ومنها غير الصالح، وقد بدأ بالحديث عن الأعراب سكان البادية، فقال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

﴿ ٱلْأَعْرَابُ ﴾: الأَعْرَابُ اسم جنس لبدو العرب، واحدها أعرابي، والأنثى أعرابية، والجمع أعاريب، والعرب اسم جنس لهذا الجمع الذي ينطق بهذه اللغة بدوه وحضره، واحده عربي، والمراد بالأعراب هنا جنسهم لا كل واحد منهم، بدليل أن الله تعالى ذم من يستحق الذم منهم، ومدح من يستحق المدح منهم، فالآية الكريمة من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده.

قوله: ﴿ مَغْرَمًا ﴾ المغرم الخسران مشتقٌ من الغرام، وهو الهلاك؛ لأنه سببه، وقيل: أصله الملازمة، ومنه الغريم.

قوله: ﴿ وَيَتَرَبَّصُ ﴾ التربص الانتظار، والترقب. ﴿ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ جمع دائرة، وهي ما يحيط بالإنسان من مصائب ونكبات، كما تحيط الدائرة بالشيء الذي بداخلها.

﴿ ٱلسَّوْءِ ﴾ بفتح السين مصدر ساءه يسوؤه سوءًا إذا فعل به ما يكره.

قوله: ﴿ قُرُبَٰتٍ ﴾: جمع قربة، وهي ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من أعمال الخير. قوله: ﴿ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ دعواته للمتقربين إلى الله بالطاعة.

الإعراب:

كلمة ﴿وَأَجْدَرُ﴾ عطفٌ على ﴿أَشَدُّ﴾ ، قوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ ﴿مَن﴾ مبتدأ، وهي موصولة أو موصوفة، و﴿مَغْرَمًا﴾ مفعول ثانٍ؛ لأنَّ اتخذ بمعنى صيّر، والمفعول الأول قوله: ﴿مَا يُنفِقُ﴾ .

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ جملة معترضة جيء بها للدعاء على المنافقين، وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة كما في قولهم: "رجل صدق".

المعنى العام:

الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحضر للكفار والمنافقين، وهم كذلك أحق وأخلق من أهل الحضر بألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله بسبب ابتعادهم عن مجالس رسول الله ﷺ وعدم مشاهدتهم لما ينزل عليه ﷺ من شرائع، وآداب، وأحكام، والله عليمٌ بأحوال عباده الظاهرة والباطنة، لا يخفى عليه شيء من صفاتهم وطباعهم، حكيمٌ في صنعه بهم، وفي حكمه عليهم، وفيما يُشرعه لهم من أحكام، وفيما يجازيهم به من ثوابٍ أو عقاب.

ومن الأعراب قوم آخرون يُعدون ما ينفقونه في سبيل الله غرامةً وخسارةً عليهم؛ لأنَّهم لا ينفقون ما ينفقون طمعًا في ثوابٍ أو خوفًا من عقاب، وإنَّما ينفقونه تقيةً ورياءً ومداراةً للمسلمين لا مساعدة للغزاة والمجاهدين، ولا حبًّا في انتصار المؤمنين، وبجانب اعتبارهم ما ينفقونه غرامةً وخسارةً ينتظرون بكم أيُّها المؤمنون صروف الدهر ونوائبه التي تُبدل حالكم من الخير إلى الشر، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن الصحة إلى المرض والأسقام، ومن الأمان والاطمئنان إلى القلق

والاضطراب، عليهم لا عليكم أيَّها المؤمنون تدور دائرة السوء التي يتبدل حالهم إلى الهلاك والفساد، والله سميعٌ لكل ما يتفوهون به من أقوالٍ عليمٌ بكل ما يظهرونه وما يبطنونه من أحوال، وسيحاسبهم على ما صدر منهم حسابًا عسيرًا يوم القيامة، ويُنزل بهم العقاب الذي يناسب جرائمهم، ومن الأعراب قوم آخرون من صفاتهم أنهم يؤمنون بالله إيمانًا صادقًا، ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثوابٍ وعقاب، ويُعدون ما ينفقونه في سبيل الله، وسيلة للتقرب إليه ﷻ بالطاعة، ووسيلة للحصول على دعوات الرسول ﷺ لهم بالرحمة والمغفرة، ألا إن هذه النفقات التي تقربوا بها إلى الله مقبولةٌ عنده سبحانه قَبولًا مؤكدًا، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من أجرٍ جزيل.

ب. تفسير الآية رقم (١٠٠):

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

مناسبة هذه الآية لما قبلها:

بعد أن بيّن الله ﷻ صفات الأعراب في الآيات السابقة بيّن الله بعد ذلك صفات المؤمنين الصادقين، الذين وقفوا إلى جانب الرسول ﷺ وأطاعوه في السر والعلن، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

مـا المـراد بقولـه تعـالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ قيـل: هـم الـذين تركـوا ديارهم وأموالهم بمكة وهاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وقيل: المراد بهم: الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: الذين شهدوا غزوة "بدر"، والطائفة الثانية هم السابقون الأولون من الأنصار هم الذين بايعوا النبي ﷺ قبل الهجرة بيعة العقبة الأولى والثانية، ثم المؤمنون الذين دخلوا في الإسلام، ثم يلي هؤلاء الذين آمنوا بالنبي ﷺ بعد مقدمه إلى المدينة، الطائفة الثالثة الذين اتبعوا السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار وكثيرٌ من الناس ذهب إلى أن المراد بالسابقين الأولين جميع المهاجرين والأنصار، ومعنى كونهم سابقين أنهم الأولون بالنسبة إلى سائر المسلمين في إيمانهم وإخلاصهم، فتَقبل أعمالهم، ورفع درجاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، ورضوا عنه بما أسبغه عليهم من نعم جليلة، وبما نالوه منه سبحانه من هِداية وثواب، وبجانب رضا الله عنهم ورضاهم عنه في الدنيا، فقد أعد لهم سبحانه في الآخرة جناتٍ تجري من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها خلودًا أبديًّا، وذلك الرضا والخلود في الجنات هو الفوز العظيم الذي لا يقاربه فوزٌ ولا تدانيه سعادة، فهذا مدحٌ من الله لصحابة رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين { ورضوا عنه.

تفسير الآيات (١٠١-١١٠) من سورة (التوبة)

١- تفسير الآيات من رقم (١٠١) إلى (١٠٦):

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ١٠١ - ١٠٦].

المناسبة بين هذه الآيات وما سبقها:

بعد أن مدح الله في الآية السابقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان ذكر الله أصنافًا أخرى من الناس منهم قومٌ أجادوا النفاق، ومنهم قومٌ خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ومنهم قومٌ موقوفٌ أمرهم إلى أن يُظهِر الله حكمه فيهم، فقال تعالى: ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ مَرَدُواْ ﴾ أي: أقاموا عليه، أي أقاموا على النفاق ولم يتوبوا منه، وأصل الكلمة من اللين، والملامسة، والتجرد، فكأنهم تجردوا للنفاق، ومنه رملةٌ مرداء أي: لا نبت فيها.

الإعراب:

قوله: ﴿ تُطَهِّرُهُمۡ ﴾ حالٌ من ضمير المخاطب في قوله: ﴿ خُذۡ ﴾ أو صفة لقوله: ﴿ صَدَقَةٗ ﴾.

قوله: ﴿ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿ تُطَهِّرُهُمۡ ﴾.

البلاغة:

في قولــه تعــالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ هذا استفهامٌ للتقرير والتحضيض على تجدد التوبة.

سبب النزول:

في قولــه تعــالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ذكر المفسرون هنا رواياتٍ متعددة في سبب نزول هذه الآية، لعل أرجح هذه الروايات ما رواه ابن جرير من أن هذه الآية نزلت في أبي لُبابة وأصحابه، وكانوا تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة "تبوك" فلما قَفَلَ رسول الله ﷺ من غزوته وكان قريبًا من المدينة ندموا على تخلفهم عن رسول الله ﷺ وقالوا: نكون في الظلال، والأطعمة، والنساء، ونبي الله في الجهاد واللَّأْواء، والله لنوثقن أنفسنا بالسواري ثم لا نُطلقها حتى يكون نبي الله هو الذي يُطلقنا، أوثقوا أنفسهم وبقي ثلاثةٌ لم يوثقوا أنفسهم بالسواري، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ من غزوته، فمر بالمسجد فأبصرهم، فسأل عنهم، فقيل له: إنه أبو لُبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا نبي الله فصنعوا بأنفسهم ما ترى، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تُطلقهم، فقال ﷺ: ((لا أُطلقهم حتى أُومر بإطلاقهم، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين)) فأنزل الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

المعنى العام لهذه الآيات:

اذكروا أيها المؤمنون أنه يسكن من حول مدينتكم قومٌ من الأعراب منافقون فاحترسوا منهم، واحترسوا أيضًا من قومٍ آخرين يسكنون معكم داخل المدينة أجادوا فنون النفاق حتى بلغوا فيه الغاية، وأنت أيها الرسول مع كمال فطنتك وصدق فراستك لا تعلمهم؛ لأنك تعامل الناس بظواهرهم وهم قد أجادوا فنون النفاق وحذقوه، واجتهدوا في الظهور بمظهر المؤمنين، فإننا نعلمهم؛ لأننا لا يخفى علينا شيءٌ من ظواهرهم وبواطنهم، وهؤلاء المنافقون الذي مردوا على النفاق سنعذبهم في الدنيا مرتين: مرة عن طريق فضيحتهم وهتك أستارهم، وجعلهم يعيشون في قلقٍ وهَمٍّ دائم، والأخرى عن طريق ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، وما يتبع ذلك من عذابٍ في قبورهم إلى أن تقوم الساعة، فيجدون العذاب الأكبر الذي عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: ثم يعودون ويرجعون إلى خالقهم سبحانه يوم القيامة فيعذبهم عذابًا عظيمًا بسب إصرارهم على النفاق، ورسوخهم في المكر والخداع.

ويوجد معكم أيها المؤمنون قوم آخرون من صفاتهم أنهم أقروا بذنوبهم ولم ينكروها، وخلطوا عملهم الصالح، وهو جهادهم في سبيل الله قبل غزوة "تبوك" بعمل سيئ، وهو تخلفهم عن الخروج إلى هذه الغزوة، عسى الله ﷻ أن يقبل توبتهم، ويغسل حوبتهم، ويتجاوز عن خطاياهم.

ثم أمر الله رسوله أن يأخذ من أموال هؤلاء المعترفين بذنوبهم، ومن غيرهم من أصحابهم صدقةً معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة كصدقة التطوع، ومن فوائد هذه الصدقة أنها تُطهر النفوس من رذائل الشح، والبخل، والطمع،

وتزكي القلوب من الأخلاق الذميمة، وتنمي الأموال والحسنات، وادع لهم أيها الرسول بالرحمة، والمغفرة، وقبول التوبة، فإن دعاءك لهم تسكن معه نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم، ويجعلهم في ثقةٍ من أن الله تعالى قبل توبتهم، فأنت رسوله الأمين ونبيه الكريم، والله سميعٌ لاعترافهم بذنوبهم، وسميع لدعائك سماع قَبولٍ وإجابة، وعليمٌ بندمهم وبتوبتهم، وبكل شيءٍ في هذا الكون، وسيجازي كل إنسانٍ بما يستحقه من ثوابٍ أو عقاب.

أسئلة حول الآية:

- ما المراد بالموصول في قوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ﴾؟

المراد بالموصول في قوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ﴾ قبائل جهينة، ومزينة، وأشجع، وأسلم، وكانت منازلهم حول المدينة، وإلى هذا ذهب جماعةٌ من المفسرين، واستُشكل ذلك؛ لأنَّ النبي ﷺ مدح بعض هذه القبائل، ودعا لبعضها، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أنه قال: "قريشٌ، والأنصار، وجُهينة، ومُزينة، وأشجع، وأسلم، وغِفار موالي الله تعالى ورسوله لا والي لهم غيره" وأجيب ذلك باعتبار الأغلب منهم.

- تحدثت الآيات عن ثلاث طوائف، هي:

الطائفة الأولى: فهي التي مردت على النفاق، وقد عبر عنها سبحانه في قوله: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾.

الطائفة الثانية: فهي التي سارعت إلى الاعتذار والاعتراف بالذنب فقبل الله توبتها، وقد عبر عنها سبحانه بقوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾.

الطائفة الثالثة : هي التي لم تجد عذرًا تعتذر به ، فأوقف الله أمرهم إلى أن حكم بقبول توبتهم بعد خمسين ليلة ، وقد عبر عنها سبحانه بقوله : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

- علام استُدل بقوله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ ﴾ ؟

استدل بالآية على أنه لا ينبغي الإقدام على دعوى معرفة الأمور الخفية من أعمال القلب ونحوها ، فقد أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر وغيرهما عن قتادة أنَّه قال : "ما بال أقوامٍ يتكلفون على الناس يقولون : فلان في الجنة ، وفلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري ، لعَمري لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ، ولقد تكلفت شيئًا ما تكلفه نبي ، فقد قال نوح # : ﴿ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١٢] وقال شعيب # : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٤] وقال الله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ".

٢. تفسير الآيات من (١٠٧) إلى (١١٠) :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٧ - ١١٠] .

المناسبة:

بعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة أصنافًا من الناس ذكر بعد ذلك مسجد ضرار الذي بناه المنافقون ليكون مكانًا للإضرار بالإسلام والمسلمين، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا﴾ إلى آخر الآيات.

سبب نزول هذه الآيات:

قال الإمام ابن كثير: سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مَقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراعي، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف كبير في الخزرج، فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصار للإسلام كلمةٌ عالية، وأظهرهم الله يوم "بدر" شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز العداوة وظاهر بها، وخرج فارًّا إلى كفار مكة ليمالئهم على حرب المسلمين، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقَدِمُوا عام "أُحد"، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله تعالى، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب في ذلك اليوم فجُرح وجهه، وكُسرت رباعيته السفلى، وشج رأسه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله لك عينًا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره إلى مكة، وقرأ عليه القرآن فأبى أن يُسلم وتمرد على الرسول ﷺ فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة.

وذلك أنه لما فرغ الناس من "أُحد" ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاعٍ وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والري يعدهم ويمنّيهم أنه سيقدم بجيشٍ ليقاتل به النبي ﷺ ويغلبه، ويرده عمّا هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليه فيه من يقدم عنده لأداء الكتب التي يكتبها للناس، ويكون مرصدًا له إذا قدم عليه بعد ذلك؛ فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد "قباء" فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى "تبوك" وجاءوا فسألوه أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: إنا على سفر، ولكنا إذا رجعنا -إن شاء الله- آتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما قفل راجعًا إلى المدينة من "تبوك" ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل # بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم -مسجد قباء- الذي أسس من أول يوم على التقوى؛ فبعث رسول الله ﷺ إلى مسجد الضرار من هدمه قبل مقدم أبي عامر إلى المدينة.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ لَا نَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أي: لا تصل فيه. قوله: ﴿ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ جرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيًا، الهار: الهاتر، وهو المتصدع الذي أوشك على التهدم. قوله: ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ أي: فطاح به الباطل في نار جهنم. قوله: ﴿ رِيبَةً ﴾ الريبة: اسم من الريب بمعنى الشك والقلق والحَيرة.

الإعراب:

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ﴾ ، ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾: مفعول به لفعل محذوف تقديره أذم.

قوله: ﴿ ضِرَارًا ﴾ مفعول لأجله.

البلاغة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ .

قال صاحب (المنار) ما ملخصه: والمراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذي هو دين الإسلام وقوته ودوامه وسعادة أهله به، وذكره بأثره وثمرته في عمل أهله، وجماعها التقوى، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله وقرب زواله، وخيبة صاحبه، وسرعة انقطاع آماله، وقد ذُكر في وصف بنيان الفريق الأول وهم المؤمنون المشبه دون المشبه به؛ لأنه هو المقصود بالذات، وذكر من وصف الفريق الثاني وهم المنافقون الهيئة المشبه بها دون المشبه؛ لأنَّه ذكر قبل ذلك مقاصدهم الخبيثة من بناء مسجد الضرار، وهذا من دقائق إيجاز القرآن.

المعنى العام:

أذم الذين اتخذوا هذا المسجد من أجل الضرار لا من أجل العبادة والطاعة لله، وإنَّما اتخذوا من أجل الإضرار بالمؤمنين، وإيقاع الأذى بهم، والازدياد من الكفر الذي يضمرونه، ومن الغل الذي يخفونه، واتخذوه أيضًا للتفريق بين جماعة المؤمنين الذين كانوا يصلون في مسجدٍ واحد هو مسجد "قباء"، فأراد هؤلاء

المنافقون من مسجد الضرار إلى جوار مسجد "قباء" أن يفرقوا وحدة المؤمنين بأن يجعلوهم يصلون في أماكن متفرقة حسدًا لهم على نعمة الإخاء والتآلف والاتحاد التي غرسها الإسلام في قلوب أتباعه، واتخذوا هذا المسجد ليكون مكانًا يرقبون فيه قدوم من حارب الله ورسوله هو أبو عامر الراهب الذي أعلن عداوته لدعوة الإسلام من قبل بناء مسجد الضرار.

ولقد خيب الله تعالى مسعاهم وأبطل كيدهم بأن أمر نبيه ﷺ بهدمه وإزالته، وهؤلاء المنافقون قد بنوا مسجد الضرار لتلك المقاصد الخبيثة، ومع ذلك فهم يُقسمون بأغلظ الإيمان بأنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة الحسنى التي عبروا عنها قبل ذلك كذبًا بقولهم: إننا بنيناه للضعفاء، وأهل العلة في الليلة الشاتية، والله تعالى يعلم ويشهد أن هؤلاء المنافقين لكاذبون في أيمانهم بأنهم ما أرادوا من بناء مسجدهم إلا الحسنى، فإنهم في الحقيقة لم يريدوا ذلك، وإنما أرادوا تلك الأغراض القبيحة السابقة، وهي مضارة المؤمنين وتفريق كلمتهم، لا تصل أيها الرسول في هذا المسجد في أي وقتٍ من الأوقات؛ لأنه لم يبن لعباده، وإنَّما بني للشقاق والنفاق لمسجد بُني أساسه، ووضعت قواعده على تقوى الله، وإخلاص العبادة له منذ أول يومٍ بُدِء في بنائه أحق أن تقوم للصلاة فيه من غيره في هذا المسجد.

في هذا المسجد رجال أتقياء أنقياء يحبون الظاهر والباطن إذ هم يحبون الطهارة من كلِّ رجسٍ حسي ومعنوي، ومن كان كذلك أحبه الله ورضي عنه، أفمن أسس بنيانه وبنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هي تقوى ورضوان الله ﷻ خيرٌ أمن أسس بنيانه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاءً، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هارٍ في قلة الثبات والاستمساك، وضع

شفا الجرف في مقابلة التقوى ؛ لأنه جعل ذلك مجازًا عمّا يُنافي التقوى ، ولقد مضت سُنة الله في خلقه أنَّ سبحانه لا يهدي إلى طريق الخير أولئك الذين استحبوا العمى على الهدى ، وظلموا أنفسهم بوضعهم الأمور في غير مواضعها ، ولا يزال ما بناه هؤلاء المنافقون موضع ريبةٍ وقلقٍ في نفوسهم في كلِّ وقتٍ وحالٍ إلا في وقتٍ واحدٍ ، وهو وقت أن تتمزق قلوبهم بالموت والهلاك أي : أنهم لا يزالون في قلقٍ وحيرة ما داموا أحياء ، أما بعد موتهم فستنكشف لهم الحقائق ، ويجدون مصيرهم الأليم ، والسبب في هذا أنَّ هذا البنيان كان مسار ريبتهم وقلقهم ، حتى بعد هدمه أنهم بنوه بنية سيئة ؛ ولذلك كانوا يخشون أن يُطلع الله نبيه على مقاصدهم الذميمة فهذه الخشية أورثتهم القلق والريبة ، فلما أطلع الله نبيه على أعراضهم ، وتم هدم مسجد الضرار ، وانهار الجرف المتداعي المتساقط ، واستمر قلقهم وريبهم ؛ لأنهم لا يدرون بعد ذلك ماذا سيفعل المؤمنون بهم؟ وهكذا شأن الماكرين في كل زمان ومكان ، إنهم يعيشون طوال حياتهم في فزعٍ وقلقٍ وخوفٍ من أن ينكشف مكرهم ويظهر خداعهم ، والله تعالى عليمٌ بكل شيءٍ في هذا الكون ، وبكل ما يقولوه ويفعلوه ، هؤلاء المنافقون سرًا وجهرًا الله ﷻ يعلم ذلك كله ، وهو حكيمٌ في كل تصرفاته وأفعاله ، وفي صنعه بهم ، وسيجازيهم يوم القيامة بما يستحقون من عقاب.

الأحكام والآداب التي اتخذها العلماء من هذه الآيات :

أولًا : وجوب بناء المساجد على تقوى من الله ورضوان ؛ لأنَّها إذا بُنيت على هذا الأساس كانت محل القبول والثواب من الله ، أما إذا بُنيت لأي مقصدٍ يتنافى مع آداب الإسلام ، وأحكامه ، وتشريعاته تكون بعيدة عن رضا الله وقبوله.

ثانيًا: إنَّ مسجد "قباء" هو المقصود بقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾؛ وذلك لأنَّ سياق الآية في الحديث عنه، وفي بيان أحقية الصلاة فيه، وقد كان رسول الله ﷺ يزوره راكبًا وماشيًا، ويصلي فيه ركعتين، ولا منافاة بين كون مسجد "قباء" هو المقصود هنا، وبين الأحاديث التي وردت في أنَّ المسجد الذي أُسس من أول يومٍ على تقوى من الله ورضوان هو المسجد النبوي؛ لأنَّ كليهما قد أُسس على ذلك.

ثالثًا: إنَّ المحافظة على الطهارة من الصفات التي يحبها الله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾.

تفسير الآيات (١١١-١٢٣) من سورة (التوبة)

عناصر الدرس

العنصر الأول : تفسير الآيات (١١١-١١٧) من سورة (التوبة) ١٥٧

العنصر الثاني : تفسير الآيات (١١٨-١٢٣) من سورة (التوبة) ١٦٨

العنصر الثالث : تفسير الآيات (١٢٤-١٢٩) من سورة (التوبة) ١٧٦

تفسير الآيات (١١١-١١٧) من سورة (التوبة)

١- تفسير الآية رقم (١١١):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

المناسبة بين هذه الآية وما قبلها:

بعد أن بيّن سبحانه أنواع المتخلفين عن غزوة تبوك أتبع ذلك بالترغيب في الجهاد وفي بيان فضله فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ... ﴾ إلى آخر الآية.

سبب نزول هذه الآية:

قال القرطبي: نزلت هذه الآية في البيعة الثانية وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي زاد فيها رجال الأنصار على السبعين، وذلك أنّهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة فقال عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال النبي ﷺ: ((أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال ﷺ: لكم الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل)) فنزلت هذه الآية. هذه الآية عامة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة سيدنا محمد ﷺ إلى يوم القيامة.

معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ﴾ الاستبشار: الشعور بالفرح والسرور شعورًا تنبسط له أسارير الوجه.

الإعراب:

قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة.

قوله: ﴿حَقًّا﴾ نعت له.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ في موضع الحال من قوله: ﴿حَقًّا﴾ لتقدمه عليه.

وقوله: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ متعلق بمحذوف وقع نعتًا لقوله: ﴿وَعْدًا﴾.

البلاغة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ قال أبو السعود: الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين في الجهاد، وقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه، حيث عبّر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله فبين أن إثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية، ثم جعل المبيع الذي هو العدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم، والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ هنا استفهام، والغرض من الاستفهام النفي أي: لا أحد أوفى بعهده من الله.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ هذه الجملة فيها استعارة تمثيلية، حيث صور جهاد المؤمنين وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وإثابة الله لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء وأتى بقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ بيانًا لمكان التسليم وهو المعركة، ثم أمضاه بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

المعنى العام:

إنَّ الله تعالى وهو المالك لكل شيء قد اشترى من المجاهدين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله، وأعطاهم في مقابل ذلك الجنة يقاتلون في سبيل الله، فمنهم من يَقْتُلُ أعداء الله ومنهم من يقتل على أيدي هؤلاء الأعداء، وكلا الفريقين القاتل والمقتول جزاءهم الجنة، وهذه الجنة التي هي جزاء المجاهدين قد جعلها سبحانه تفضلًا وكرمًا حقًّا لهم عليه، وأثبت لهم ذلك في الكتب السماوية التي أنزلها على رسله في التوراة والإنجيل كما هو مثبت في القرآن، ولا أحد أوفى بعهده من الله؛ لأنه إذا كان خلف الوعد لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منه فكيف يكون الحال من جانب الخالق ﷻ المنزه عن كل نقص، المتصف بكل كمال؟! إذا كان الأمر كذلك فافرحوا ببيعكم الذي بايعتم به غاية الفرح وارضوا به نهاية الرضا، فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذي لا فوز أعظم منه.

٢- تفسير الآية رقم (١١٢):

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

بيان المناسبة:

بعد أن بيّن الله ﷻ في الآية السابقة بأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة بين بعد ذلك صفات المؤمنين الصادقين فقال سبحانه: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ إلى آخر الآية.

بيان معاني المفردات:

قوله: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي: السائرون؛ لأن الكلمة مأخوذة من السيح وهو الجري على وجه الأرض والذهاب فيها، وهذه المدة تشعر بالانتشار يقال: ساح الماء أي: جرى وانتشر، فالمراد بالسائحين السائرون في الأرض لكل مقصد شريف وغرض كريم، وذلك يتناول الجهاد في سبيل الله كما يتناول الرحلة في طلب العلم وغير ذلك من وجوه الخير، أما الأحاديث والآثار التي استشهد بها من قال بأن المراد بالسائحين: الصائمون - فقد ضعفها علماء الحديث.

الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ فيه وجوه من الإعراب منها أنه مرفوع على المدح فهو خبر لمبتدأ محذوف وجوبًا للمبالغة في المدح أي: المؤمنون المذكورون التائبون، ومنها أن الخبر هنا محذوف أي: التائبون الموصفون بهذه الأوصاف من أهل الجنة.

المعنى العام لهذه الآية:

التائبون عن المعاصي وعن كل ما نهت عنه شريعة الله، العابدون لخالقهم عبادة خالصة لوجهه، الحامدون له سبحانه في السراء والضراء وفي المنشط والمكره وفي

العسر واليسر، السائحون في الأرض للتدبر والاعتبار وطاعة الله والعمل على مرضاته، الراكعون الساجدون لله تعالى عن طريق الصلاة التي هي عماد الدين وركنه الركين، الآمرون غيرهم بالمعروف أي: بكل ما حسنه الشرع، والناهون له عن المنكر الذي تأباه الشرائع والعقول السليمة، والحافظون لحدود الله أي: لشرائعه وفرائضه وأحكامه وآدابه، هؤلاء المتصفون بتلك الصفات الحميدة بشرهم أيها الرسول بكل ما يسعدهم ويشرح صدورهم، فهم المؤمنون حقًّا وهم الذين أعدّ الله تعالى لهم الأجر الجزيل والرزق الكريم.

أسئلة حول الآية:

١. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الجملة لم يذكر سبحانه المبشر به لماذا؟

للإشارة إلى أنَّ المبشر به أمر جليل، لا يحيط به الوصف ولا تحده العبارة.

٢. لماذا لم يذكر سبحانه في الآية لهذه الأوصاف متعلقًا فلم يقل: التائبون من كذا؟

لفهم ذلك من المقام؛ لأنَّ المقام في مدح المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا نفوسهم لله فساروا ملتزمين طاعته في كل أقوالهم وأعمالهم، لهذا لم يذكر لهذه الأوصاف متعلقًا.

٣. لم عبّر ﷻ عن كثرة صلاتهم وخشوعهم بقوله: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾؟

للإشارة إلى أنَّ الصلاة كأنَّها صفة ثابتة من صفاتهم، وكأن الركوع والسجود طابع مميز لهم بين الناس.

المعاني المستفادة من هذه الآية:

- حث القرآن الكريم على السياحة في الأرض، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

- بيان أن السياحة لها آثار قوية في الدين قال الإمام الرازي: للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس؛ لأنَّ الإنسان يلقى الأكابر من الناس فيحتقر نفسه في مقابلته، وقد يصلُ إلى المرادات الكثيرة فينتفع بها.

وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف أو في كل ظرف من الأحوال الخاصة بهم، وقد يشاهد اختلاف أحوال بسبب ما خلق الله تعالى في كل ظرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته، وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين.

٣. تفسير الآيات من رقم (١١٣) إلى (١١٦):

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٦].

بيان المناسبة بين هذه الآيات والآية التي سبقتها:

بعد أن بين سبحانه صفات المؤمنين الصادقين في الآية السابقة بيّن سبحانه بعد ذلك أنَّه لا يصحّ للنبي ﷺ ولا المؤمنين أن يستغفروا للمشركين مهما بلغت درجة قرابتهم؛ لأنَّ رابطة العقيدة هي الوشيجة الأساسية فيما بينهم فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ... ﴾ إلى آخر الآيات.

سبب النزول:

قال الألوسي: الآية على الصحيح نزلت في أبي طالب، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن المسيَّب بن حَزْن قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي ﷺ: ((أي عمي قل: لا إله إلا الله أُحاج لك بها عند الله))، فقال أبو جهل: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فجعل رسول الله ﷺ يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يعاودانه بتلك المقالة، فقال أبو طالب: آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: ((لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك)) فنزل قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾". إلى آخر الآيات.

المعنى العام لهذه الآيات:

ما كان من شان النبي ﷺ ولا من شأن أصحابه المؤمنين أن يدعوا الله تعالى بأن يغفر للمشركين في حال من الأحوال، ولو كان هؤلاء المشركون من أقرب

أقربائهم، من بعد ما تبين للرسول ﷺ ولأصحابه أن هؤلاء المشركين من أصحاب الجحيم بسبب موتهم على الكفر وإصرارهم عليه وعدم اعترافهم بدين الإسلام، لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه؛ لأنَّ استغفاره له إنما كان بسبب وعد صدر بذلك، فلما أصرّ أبو إبراهيم على كفره ومات مشركًا بالله تبرأ إبراهيم منه ومن عمله، والمراد بهذا الوعد ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] وقوله تعالى: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤].

إنَّ إبراهيم # لكثير التأوه والتوجع من خشية الله، وكثير الحلم والصفح عمن آذاه، فالأواه هو الخاشع المتضرع الكثير الدعاء، وما كان من شأن الله تعالى في لطفه وعدله أن يصف قومًا بالضلال عن طريق الحق بعد إذ هداهم إلى الإسلام لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ في الاجتهاد، وإنما يصفهم بذلك بعد أن تبين له ما يجب انتقاؤه من الأقوال والأفعال، فلا يطيعون أمره ولا يستجيبون لتوجيهه سبحانه، أما قبل العلم والبيان؛ فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بصاعين قبل التحريم.

الأحكام المستفادة:

- قال القرطبي: هذه الآية تضمن قطع موالاة الكفارة حيهم وميتهم، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أنْ يستغفروا للمشركين، فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز، وقد قال كثير من العلماء بأنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ما داما حيين، فأما من مات على الكفر فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعو له.

- بشارة الله للمؤمنين بأنه سبحانه لا يؤاخذهم على استغفارهم للمشركين قبل نهيهم عن ذلك.

- مالك هذا الكون هو الله فعلى الناس أن يستجيبوا لأمره ؛ لكي ينالوا رحمته ورضاه.

٤- تفسير الآية رقم (١١٧):

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧].

المناسبة بين هذه الآية وما قبلها:

قال الإمام الرازي: اعلم أنه تعالى لما استقصى شرح أحوال غزوة تبوك وبين أحوال المتخلفين عنها -عاد في هذه الآية إلى شرح ما بقي من أحكامها، ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله ﷺ ما يجري ترك مجرى الأولى، وصدر كذلك عن المؤمنين نوع زلة أو نوع خطأ، وذكر سبحانه أنه تفضل عليهم وتاب في تلك الزلات فقال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ... ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أي: غزوة تبوك، قوله: ﴿ يَزِيغُ ﴾ أي: يميل.

الإعراب:

قولـــه: ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ في ﴿كَادَ﴾ ضـــمير الـــشأن ﴿قُلُوبُ﴾ فاعل وجملة ﴿يَزِيغُ﴾ في موضع خبر لـ﴿كَادَ﴾ هذا على قراءة ﴿يَزِيغُ﴾ بالياء وهي قراءة حمزة وحفص والأعمش، وأما على قراءة "تَزِيغُ" بالتاء وهي قراءة الباقين فيحتمل أن تكون ﴿قُلُوبُ﴾ اسم ﴿كَادَ﴾ و"تَزِيغُ" خبرها وفيه ضمير يعود على اسم ﴿كَادَ﴾.

المعنى العام لهذه الآية:

لقد تقبل الله تعالى توبة النبي ﷺ كما تقبّل أصحابه المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه طواعية واختيارًا وإخلاصًا في وقت الشدة والضيق وهو وقت غزوة تبوك، فالمراد بالساعة هنا في قوله: ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

المراد بالساعة مطلق الوقت، تاب سبحانه على الذين اتبعوا رسوله من المهاجرين والأنصار من بعد أن أشرف فريق منهم على الميل عن التخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك؛ لما لابسها وصاحبها من عسر وشدة وتعب، ثم تاب عليهم سبحانه بعد أن كابدوا ما كابدوا من العسر والمشقة ومجاهدة النفس إنه رءوف رحيم.

أسئلة حول الآية:

أولًا: ما المراد بالتوبة التي تابها الله على النبي ﷺ وعلى المهاجرين والأنصار؟

الجواب: للعلماء أقوال في ذلك: فمنهم من يرى أنَّ المراد بالتوبة قبول توبتهم وغفران ذنوبهم والتجاوز عن زلاتهم التي حدثت منه في تلك الغزوة أو في غيرها، وإلى هذا المعنى أشار القرطبي بقوله: "قال ابن عباس: كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل أنه أذن للمنافقين في القعود بدليل قوله سبحانه قبل ذلك: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣] وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك" انتهى كلام القرطبي.

ومنهم من يرى أنَّ المقصود بذكر التوبة هنا التنويه بفضلها، والحض على تجديدها، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب (الكشاف)

ويبدو أنَّ الرأي الأول أقرب إلى الصواب؛ لأنَّ الآية الكريمة مسوقة لبيان فضل الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين حيث غفر لهم ما فرط منهم من هفوات وقعت في هذه الغزوة.

ثانيًا: لماذا سميت غزوة تبوك بساعة العسرة؟

سميت غزوة تبوك بساعة العسرة؛ لأنَّ المؤمنين خرجوا إليها في سنة مجدبة وحرّ شديد وفقر في الزاد والماء والراحلة، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك بلهبان الحرّ -أي: شدته- على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها تعب شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وقال الحسن: كان العشرة منهم يعتقبون بعيرًا واحدًا يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان النفر منهم يخرجون وليس معهم إلا التمرات القليلة فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يشرب عليها جرعة من الماء ومضوا مع النبي ﷺ على صدقهم ويقينهم.

تفسير الآيات (١١٨-١٢٣) من سورة (التوبة)

٥- تفسير الآية رقم (١١٨):

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

بيان معاني المفردات:

﴿رَحُبَتۡ﴾ أي: اتسعت.

الإعراب:

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ هذه الآية معطوفة على الآية السابقة لها.

البلاغة:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ كناية عن شدة تحيرهم وكثرة حزنهم واستسلامهم لحكم الله فيهم.

سؤال حول الآية:

ما المقصود بهؤلاء الثلاثة الذي تخلفوا عن غزوة تبوك؟

المقصود بهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

من المعاني المستفادة:

فضل الله على عباده الصادقين حيث تاب عليهم، وهذا يدل على أن الصدق منجاة.

٦- تفسير الآيات من رقم (١١٩) إلى (١٢١):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١٩ - ١٢١].

المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها:

بعد أن بين الله سبحانه في الآية السابقة بأنه تاب على الثلاثة الذين خلفوا وجه بعد ذلك نداءه إلى المؤمنين، أمرهم فيه بأن يتقوا الله حق تقاته، وأن يكونوا مع الصادقين، وأوجب عليهم الغزو مع رسول الله ﷺ ووعدهم عليه بجزيل الثواب، وتوعد المتخلفين عنه بشديد العقاب فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي: أن يؤثروا أنفسهم بالراحة على أنفسهم.

قوله: ﴿ظَمَأٌ﴾ أي: عطش.

قوله: ﴿نَصَبٌ﴾ أي: تعب.

قوله: ﴿مَخْمَصَةٌ﴾ أي: مجاعة شديدة تجعل البطون خامصة ضامرة.

قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في جهاد أعدائه وإعلاء كلمة الحق.

قوله: ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: لا يدوسون مكانًا من أمكنة الكفار بأرجلهم أو بحوافر خيولهم من أجل إغاظتهم وإزعاجهم.

قوله: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: لا يصيبون من عدو إصابة وقتلًا.

الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ اسم الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعود إلى ما دل عليه هذا الكلام من وجوب مصالحتهم وعدم التخلف عنهم.

المعنى العام:

يا من آمنتم بالله واليوم الآخر اتقوا الله حق تقاته، بأن تفعلوا ما كلفكم به وتتركوا ما نهاكم عنه، وكونوا مع الصادقين في دين الله نية وقولًا وعملًا وإخلاصًا، فإن الصدق ما وجد في شيء إلا زانه، وما وجد الكذب في شيء إلا شانه، وليس لأهل المدينة أو لغيرهم من الأعراب سكان البادية الذين يسكنون في ضواحي المدينة كقبائل مزينة وجهينة وأشجع وغفار -ليس لهؤلاء جميعًا أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ إذا ما خرج للجهاد كما فعل بعضهم في غزوة تبوك؛

لأن هذا التخلف يتنافى مع الإيمان بالله ورسوله، وليس لهم كذلك أن يؤثروا أنفسهم بالراحة على نفسه بأن يتركوه يتعرض للآلام والأخطار دون أن يشاركوه في ذلك، بل من الواجب عليهم أن يكونوا من حوله في البأساء والضراء والعسر واليسر والمنشط والمكره.

لقد أمر الله المؤمنين بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه، علمًا بأنها أعز نفس على الله وأكرمها، فإذا تعرضت نفسه مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتساقط فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيمون لها وزنًا، وتكون أخفّ شيء عليهم وأهونه فضلًا عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويضنّوا بها على ما سمح بنفسه عليه.

وهذا نهي بليغ مع تقبيح لأمرهم وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية، ذلك الذي كلفناهم به من وجوب مصاحبته ﷺ.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: إن حق من فهم عن الله وعقل عنه أن يلازم الصدق في الأقوال والإخلاص في الأعمال والصفاء في الأحوال، فمن كان كذلك لحق بالأبرار قال ﷺ: ((عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا)) والكذب على الضد من ذلك قال ﷺ: ((إياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا)) فالكذب

عار وأهله مسلوب الشهادة ((وقد ردّ ﷺ شهادة رجل في كذبة كذبها)) وسئل شريك بن عبد الله فقيل له: يا أبا عبد الله رجل سمعته يكذب متعمدًا أأصلي خلفه؟ قال: لا.

ثانيًا: لا يجوز لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله ﷺ في سبيل هذه الدعوة، وهو يزعم أنه صاحب دعوة وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ.

٢ـ تفسير الآية رقم (١٢٢):

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

المناسبة بين هذه الآية وما قبلها:

بعد أن حرض الله تعالى المؤمنين على الجهاد في سبيله وحزرهم من عدم الخروج مع رسول الله ﷺ أتبع ذلك بالحديث عما يجب عليهم إذا لم تكن المصلحة تقتضي النفير العام فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ إلى آخر الآية.

سبب نزول هذه الآية:

لّما بلغ الرسول ﷺ في الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم في تخلفهم عن غزوة تبوك -قال المسلمون: والله لا نتخلف عن رسول الله ﷺ ولا عن سرية بعثها، فلما قدم ﷺ المدينة من تبوك وبعث السرايا، وأراد المسلمون أن ينفروا جميعًا للغزو، وأن يتركوا النبي ﷺ وحده فنزلت هذه الآية.

الإعراب:

قوله: ﴿فَلَوْلَا﴾ "لولا" حرف تحضيض بمعنى "هلّا".

المعنى العام لهذه الآية:

وما كان من شأن المؤمنين أن ينفروا جميعًا في كل سرية تخرج للجهاد، ويتركوا الرسول ﷺ وحده بالمدينة، وإنَّما يجب عليهم النفير العام إذا ما دعاهم ﷺ إلى ذلك، وحين لم يكن هناك موجب لنفير الناس جميعًا فهلّا نفر من كل فرقة من المؤمنين طائفة للجهاد وتبقى طائفة أخرى منهم؛ ليعلموهم ويخبروهم بما أمروا به أو نهوا عنه، إذا رجعوا إليهم من الغزو لعل هؤلاء الراجعين إليهم من الغزو يحذرون ما نهوا عنه، أي: أن على المسلمين في حالة عدم النفير العام أن يقسموا أنفسهم إلى قسمين: قسم يبقى مع الرسول ﷺ ليتفقه في دينه، وقسم آخر يخرج للجهاد في سبيل الله، فإذا ما عاد المجاهدون فعلى الباقين من رسول الله ﷺ أن يبلغوا العائدين ما حفظوه عن الرسول ﷺ من أحكام، وبذلك يجمع المسلمون بين المصلحتين: مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان، ومصلحة الدفاع عن الإسلام بالسيف، وعلى هذا التفسير الذي سار عليه جمهور العلماء يكون الضمير في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾ و﴿وَلِيُنذِرُوا۟﴾ يعود إلى الطائفة الباقية مع رسول الله ﷺ أما الضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يعود على الطائفة التي خرجت للجهاد ثم عادت.

وقد رجح هذا الاتجاه الإمام ابن جرير فقال: وأما قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ فإن أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: لتتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله لأهل دينه ولأصحاب رسوله ﷺ

على أهل عداوته فتفقه بذلك من معاينته حقيقة علم أمر الإسلام وظهور الإسلام على الأديان من لم يكن فقهه ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾ فيحذّروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم، لعل قومهم إذا هم حذّروهم وما عاينوا من ذلك يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله، حذاري من أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروا خبرهم.

المعاني المستفادة:

قال القرطبي: هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم وإيجاب التفقه في الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان.

٣- تفسير الآية رقم (١٢٣):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

مناسبة هذه الآية لما قبلها:

بعد أن حثّ الله على طلب الفقه في الدين في الآية السابقة، بعد ذلك حرّض المؤمنين على قتال الأعداء بشدة وغلظة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

قوله: ﴿يَلُونَكُم﴾ أي: يقاربون منكم.

المعنى العام لهذه الآية:

قال الإمام ابن كثير: أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولًا فأول، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ الرسول ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة واليمن وغير ذلك من أقاليم العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجًا -شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم أهل كتاب، فبلغ تبوك، ثم رجع لأهل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من الهجرة، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجة الوداع بواحد وثمانين يومًا، وسار خلفاؤه الراشدون من بعده على نهجه.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: ليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رقيقًا بأخيه المؤمن، غليظًا على عدوه الكافر، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تزييل قصد به حضّ المؤمنين على التسلح بسلاح الإيمان والتقوى؛ حتى ينالوا نصر الله وعونه، أي: واعلموا أن الله تعالى مع المتقين بنصره ومعونته فاحرصوا على هذه الصفة؛ ليستمر معكم نصره سبحانه وعونه، وإنما أمر الله المؤمنين أن يبدءوا قتالهم مع الأقرب فالأقرب من ديارهم؛ لأن القتال شرع لتأمين الدعوة الإسلامية وقد كانت دعوة الإسلام موجهة إلى الأقرب فالأقرب، فكان من الحكمة أن يبدءوا قتالهم مع المجاورين

لهم ؛ حتى يأمنوا شرهم ، ولأنه من المعلوم أنه ليس في طاقة المسلمين قتال جميع الكفار وغزو جميع البلاد في زمن واحد ، فكان من قرب أولى من بعد.

تفسير الآيات (١٢٤- ١٢٩) من سورة (التوبة)

١ـ تفسير الآيات من رقم (١٢٤) إلى (١٢٧):

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٧].

بيان المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها:

بعد أن حرض الله المؤمنين على جهاد الأعداء بغلظة في الآيات السابقة ذكر بعد ذلك موقف المنافقين من نزول الآيات القرآنية على الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا﴾ الرجس الكفر، وسمى سبحانه الكفر رجسًا ؛ لأنه أقبح الأشياء وأسوؤها.

قوله تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾ أي: يعاملون معاملة من يُختبر، من قولهم: فتنت الذهب بالنار، أي: خلصته من الذهب الرديء.

قوله: ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ المراد من المرة والمرتين مجرد التكثير لا بيان الواقع على حسب العدد المذكور.

البلاغة في هذه الآيات:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ الغرض منه توبيخ الكافرين على قسوة قلوبهم وانطماس بصيرتهم وغفلتهم عما يدعوا إلى الاعتبار والاتعاظ.

المعنى العام لهذه الآيات:

وإذا ما أنزلت سورة من سور القرآن عليك أيها الرسول؛ تساءل المنافقون عنها في حذر وريبة، فمنهم من يقول لأشباهه في الكفر والنفاق على سبيل الاستهزاء والتهوين من شأن القرآن الكريم: أي واحد منكم زادته هذه السورة النازلة إيمانًا، وهنا يجيء الرد الحاسم الذي يخرس ألسنتهم من جهته تعالى فيقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: فأما الذين آمنوا؛ فزادتهم نزول السورة القرآنية إيمانًا على إيمانهم، وثباتًا على ثباتهم، ويقينًا على يقينهم، وهم فوق ذلك يستبشرون، ويفرحون بنزولها؛ لما فيها من المنافع الدينية، والدنيوية، هذا شأن المؤمنين بالنسبة لنزول السورة القرآنية، وأما المنافقون فزادهم نزول السورة كفرًا على كفرهم.

لقد قضى هؤلاء المنافقون في الكفر والفسوق والعصيان، ثم لم يتوبوا عن ذلك، ولم يرجعوا عنه، بل ماتوا على الكفر والنفاق؛ فبلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء المنافقين أنهم صاروا لا يعتبرون، ولا يتعظون بما حاق بهم من فتن واختبارات وابتلاءات تنزل بهم في كل عام مرة أو مرتين، ومن هذه الفتن والامتحانات كشف مكرهم عن طريق اطلاع الرسول ﷺ على ما يضمرونه من سوء، وما يقولونه من منكر، وما يفعلونه من أفعال خبيثة، وحلول المصائب والأمراض بهم، ومشاهدتهم لانتصار المؤمنين وخذلان الكافرين.

ثم بعد كل هذه الفتن النازلة بهم لا يتوبون عن نفاقهم ولا هم يتعظون، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة وأعمالهم القبيحة، مع أن من شأن الفتن والمصائب والمحن أنها تحمل على الاعتبار والاتعاظ والرجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير.

وإذا ما أنزلت سورة أو آيات من السورة على الرسول ﷺ وهم موجودون في مجلسه -أي: والمنافقون موجودون في مجلسه- نظر بعضهم إلى بعض في ريبة ومكر، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم في لؤم وخسة، ثم تساءلوا: هل يراكم من أحد من المسلمين إذا ما قمتم من هذا المجلس قبل أن يتلوا الرسول ﷺ هذه السورة، أو الآيات التي قد تفضحكم، وتكشف عما أسررتموه فيما بينكم؟ ثم انصرفوا من مجلس الرسول ﷺ متسللين في حذر؛ حتى لا يراهم أحد من المسلمين؛ صرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد بسبب أنَّهم قوم لا يفقهون ما فيه خيرهم ونفعهم، وإنَّما يفقهون ما فيه شقاؤهم وتعاستهم.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: تشكيك المنافقين في القرآن الكريم.

ثانيًا: عدم انتفاع المنافقين بهدايات وإرشادات القرآن الكريم.

ثالثًا: خوف المنافقين من افتضاح أمرهم.

رابعًا: زيادة المؤمنين إيمانًا عند سماع القرآن الكريم.

٢ـ تفسير ختام سورة التوبة:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨- ١٢٩].

سؤال حول هاتين الآيتين:

لمن الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؟

جمهور المفسرين على أن الخطاب للعرب، وهذا يقتضي مدحًا لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وخالصها.

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)).

وقيل: إن الخطاب في الآية الكريمة لجميع البشر؛ لعموم بعثته ﷺ ومعنى كونه ﷺ من أنفسكم أنه من جنس البشر، والرأي الأول أرجح؛ لأن الآية الكريمة ليست

مسوقة لإثبات رسالته ﷺ وعمومها، وإنما هي مسوقة لبيان منة الله وفضله على العرب؛ حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم؛ فمن الواجب عليهم أن يؤمنوا به؛ لأنه منهم؛ فالرأي الراجح في أن الخطاب للعرب، وهذا يقتضي مدحًا لنسب النبي ﷺ.

معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد وشاق عليه مشقتكم؛ لكونه بعضًا منكم قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الحرص على الشيء معناه: شدة الرغبة في الحصول عليه وحفظه.

قوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة: عبارة عن السعي في إزالة الضرر، والرحمة: عبارة عن السعي في إيصال النفع.

قوله: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: هو كافيني ونصيري.

المعنى العام:

لقد جاءكم يا معشر العرب رسول كريم من جنسكم، ومن نسبكم فهو عربي مثلكم؛ فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه، ومن صفات الرسول ﷺ أيضًا أنه شديد وشاق عليه عنتكم ومشقتكم أيها العرب؛ لكونه بعضًا منكم، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب. وأيضًا هو حريص على إيمانكم وهدايتكم وعزتكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة، فهو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين.

فإن أعرضوا -أيها الرسول- عن الإيمان بك وتركوا طاعتك؛ فلا تبتئس ولا تيأس، بل قل: الله كافيني ونصيري لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، عليه

وحده توكلت وفوضت أمري. سبحانه، وهو رب العرش العظيم الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله ﷻ.

المعاني المستفادة من هاتين الآيتين:

أولًا: ترغيب العرب في الإيمان بالنبي ﷺ وفي طاعته وتأييده؛ فإن شرفهم قد تم بشرفه، وعزهم بعزه، وفخرهم بفخره.

ثانيًا: قال بعض العلماء: لم يجمع الله تعالى: لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي ﷺ فإنه قال عن النبي ﷺ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال سبحانه عن ذاته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣] وهذا يدل على مكانة الرسول ﷺ عند الله ﷻ.

تفسير الآيات (١ - ٣٢) من سورة (النحل)

عناصر الدرس

العنصر الأول : تمهيد، وتفسير الآيات (١ - ١٦) من سورة (النحل) ١٨٥

العنصر الثاني : تفسير الآيات (١٧ - ٣٢) من سورة (النحل) ٢٠٨

تمهيد، وتفسير الآيات (١- ١٦) من سورة (النحل)

١ـ تمهيد لتفسير سورة "النحل":

سورة "النحل" من السور المكية، أي: نزلت قبل هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، قال القرطبي: وهي مكية في قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، وجابر، وقيل: هي مكية إلا قولَه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٥]، الآية نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة، وقتلى أحد.

والراجح: أن السورة كلها مكية؛ وذلك لأن الروايات التي ذكروها في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة فيها مقال؛ فقد ذكر الإمام ابن كثير عند سردها أن بعض هذه الروايات مرسلة، وفي الإسناد من هو مبهم، وذكر أن في بعض إسناد هذه الرواية ضعف؛ لذلك نرجح أن سورة "النحل" كلها مكية.

عدد آيات هذه السورة: مائة وثمان وعشرين آية.

سبب تسمية السورة بسورة "النحل": سميت هذه السورة بسورة "النحل" لقوله تعالى فيها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] وتسمى هذه السورة أيضًا بـ"سورة النعم" لأن الله تعالى عدد فيها أنواعًا من النعم التي أنعم بها على عباده.

مناسبة السورة لما قبلها: لما ختم الله سورة "الحجر" بأمر النبي ﷺ بالعبادة حتى الموت؛ ناسب الحديث عن يوم القيامة، وأنه أمر محقق الوقوع، فقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

المحاور التي تتحدث عنها سورة "النحل":

أولًا: التأكيد على أن يوم القيامة حق، وأنه آتٍ لا ريب فيه، وأن الله واحد لا شريك له؛ فهو المستحق للعبادة والطاعة، قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ١، ٢].

ثانيًا: ذكر ألوان من الأدلة على وحدانية الله وقدرته عن طريق خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان والحيوان، وعن طريق إنزال الماء من السماء، وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من النعم التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ٣- ٧].

ثالثًا: توبيخ المشركين؛ لتسويتهم في العبادة بين من يخلق ومن لا يخلق؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

رابعًا: حكاية جانب من أقاويل المشركين الباطلة التي وصفوا بها القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٤، ٢٥].

خامسًا: تهديد أولئك الجاحدين بنعم الله الماكرين للسيئات: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥

أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥- ٥٠].

سادسًا: سرد أنواع من جهالات المشركين، ومن سوء تفكيرهم؛ حتى يزداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم، ويشكروا الله تعالى على توفيقه إياهم إلى الدخول في الإسلام، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٦- ٥٧].

ثامنًا: الأمر بمكارم الأخلاق والنهي عن منكراتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٠، ٩١].

تاسعًا: التوجيه لآداب تلاوة القرآن، ورد الشبهات التي أثارها المشركون حوله؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

عاشرًا: بيان حكم من تلفظ بكلمة الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان: قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦].

الحادي عشر: ضرب الأمثال، فتسوق السورة مثلًا لكلِّ قوم أَنْعَمَ الله عليهم بالنعم، فلم يقابلوها بالشكر، فانتقم الله تعالى منهم؛ قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

الثاني عشر: ختام السورة بتلك الآيات الجامعة لأحكم الأساليب، وأكملها، وأنجعها في الدعوة إلى الله، وفي معاملة الناس، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٥- ١٢٨].

٢. تفسير الآيات من رقم (١) إلى (٩):

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

معاني المفردات:

- قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ المراد بـ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ ما اقتضته سنته، وحكمته سبحانه، من إثابة المؤمنين، ونصرهم، وتعذيب الكافرين، ودحرهم.

- قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله تعالى، وتعاظم بذاته وصفاته، عن إشراك المشركين.

- قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ المراد بالملائكة: جبريل # ومن معه من حفظة الوحي، أو المراد بهم: جبريل خاصة، ولا مانع من ذلك؛ لأن الواحد قد يسمى باسم الجمع، إذا كان رئيسًا عظيمًا، والمراد بالروح: كلام الله تعالى، ووحيه، الذي ينزل به جبريل # ليبلغه إلى مَن أمره الله بتبليغه إياه.

- قوله: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ﴾ الإنذار: هو الإعلام مقرون بالتخويف، والتهديد.

- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ أصل النطفة: الماء الصافي، أو الماء القليل الذي يبقى في الدلو، أو القِرب، وجمعها: نطف، ونطاف، يقال: نطفت القربة، إذا قطرت، أي: سال منها الماء، وتقاطر، والمراد بالنطفة هنا: المني الذي هو من مادة التلقيح من الرجل للمرأة.

- قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ الخصيم: الكثير الخصام لغيره، فهو صيغة مبالغة، والمبين: المظهر للحجة.

- قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾ الدفء: السخونة، ويقابله: شدة البرد، والمراد بالدفء هنا: ما يتخذ من أصواف الأنعام، وأوبارها، وأشعارها لهذا الغرض.

- قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ الجمال يكون في الصورة لحسن التركيب، بحيث يدركه البصر، فتتعلق به النفس.

- قوله: ﴿تُرِيحُونَ﴾ من الإراحة، يقال: أراح فلان ماشيتَه إراحة، إذا ردها إلى المَراح، وهو منزلها الذي تأوي إليه، وتبيت فيه.

- قوله: ﴿تَسْرَحُونَ﴾ من السروح، وهو: الخروج بها من أول النهار من حظائرها إلى مسارحها، ومراعيها.

- قوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ الأثقال: جمع ثقل، وهو ما يثقل الإنسان حمله من متاع، وغيره، والمراد بالبلد: جنس البلد.

- قوله: ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ شق الأنفس: مشقتها، وغاية جهدها.

- قوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ الخيل: اسم جنس لا واحد له من لفظه، بل من معناه، وهو فرس؛ وسميت خيلًا لاختيالها في مشيتها، والبغال جمع بغل، وهو المتولد بين الخيل والحمير.

- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ القصد: الاستقامة، والسبيل: الطريق، والقصد منه وهو المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، والجائر: المائل عن الاستقامة، المنحرف عن الجادة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: من هذه الطرق: طرق جائرة، معوجة، منحرفة.

الإعراب:

- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ للتفريع، والضمير المنصوب في قوله: ﴿تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يعود على أمر الله، أي: فلا تستعجلوا أمر الله.

اللطائف في الآيات:

- قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ نجد الله ﷻ عبر عن قرب إتيان أمر الله بالفعل الماضي: ﴿أَتَىٰٓ﴾ للإشعار بتحقق هذا الإتيان، وللتنويه بصدق المخبر به؛ فما هو واقع عن قرب قد صار في حكم الواقع فعلًا، أي: أن أمر الله إتيانه أمر محقق الوقوع؛ وفي إبهام أمر الله إشارة إلى تهويله، وتعظيمه؛ لإضافته إلى من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

- قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ زيادة في الإنذار، والتهديد، أي: فلا جدوى من استعجالكم؛ فإن العذاب نازل بكم، سواء استعجلتم، أم لم تستعجلوا.

- قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾: ﴿فَإِذَا﴾ فجائية جيء بها هنا لزيادة التعجب من حال الإنسان؛ لأنه كان المنتظر منه بعد أن خلقه الله بقدرته، ورباه برحمته، ورعايته، أن يشكر ربه على ذلك، وأن يخلص العبادة له، لكنه لم يفعل ما كان منتظرًا منه.

- قوله: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ أتى بالفعل المضارع في هذه الجملة؛ لإفادة التجدد، والتكرار، وفي ذلك ما يزيد السرور بها، ويحمل على شكر الله على توافر نعمه، وقدم سبحانه الإراحة على التسريح في قوله: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾؛ لأنَّ الجمال عند الإراحة أقوى وأبهج، حيث تقبل من سارحها، وقد امتلأت بطونها، وحفلت ضلوعها، وازدانت مشيتها، من أجل هذا قدم الإراحة على التسريح في قوله تعالى: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾.

- قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ أطلق سبحانه على الوحي اسم "الروح" في ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ على سبيل التشبيه، ووجه الشبه

بينهما: وجود الحياة الحقة بسببهما، فكما أن بالروح تحيا الأبدان والأجساد، فكذلك بالوحي تحيى القلوب والنفوس، وتؤدي رسالتها في هذه الحياة.

البلاغة في الآيات:

- قوله سبحانه: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه التفات من الخطاب في قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ إلى الغيبة؛ تحقيرًا لشأن المشركين؛ وحطًّا من درجتهم عند رتبة الخطاب؛ وحكايةً لشنائعهم التي ينفر منها العقلاء.

- قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ تقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص، أي: على الله تعالى وحده، تفضلًا منه وكرمًا بيان الطريق المستقيم.

الإعجاز العلمي في الآيات:

- قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ويخلق سبحانه في الحال والاستقبال ما لا تعلمونه -أيها الناس- من أنواع المخلوقات المختلفة؛ سوى هذه الدواب، كالسفن التي تمخر عباب الماء، والطائرات التي تشق أجواء الفضاء، والسيارات التي تنهب الأرض نهبًا بسرعتها، وغير ذلك...

وهذا يدل على أن القرآن من عند الله، فقد أوجد سبحانه العقول البشرية، التي ألهمها صنع الكثير من المخترعات النافعة في البر، وفي البحر، وفي الجو، والتي لم يكن للناس معرفة بها عند نزول القرآن.

الأحكام المستفادة من الآيات:

استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ على تحريم الخيل، أي: تحريم أكل الخيل؛ لأن الله تعالى ذكرها بأنها مخلوقة للركوب دون غيره، فأفادَ بأن أكل الخيل حرام، وهذا غير صحيح؛ لأنَّ السنة النبوية بينت أن أكل الخيل حلال، لقد ورد في (الصحيحين)، وغيرهما من حديث أسماء قالت: "نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسًا، فأكلناه". أخرجه البخاري في كتاب: الذبائح والصيد، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيد والذبح؛ وأما ما أخرجه أبو داود، والنسائي من حديث خالد بن الوليد: "نهى رسول الله ﷺ عن أكل كُل ذي ناب من السباع، وعن لحوم الخيل، والبغال، والحمير". ففي إسناده صالح بن يحيى فيه مقال، وعلى فرض صحته لم يقوَ على معارضة أحاديث الحِلِّ على أنه يمكن أن يكون متقدمًا على يوم خيبر، فيكون الحديث منسوخًا.

المعنى الإجمالي للآيات:

قَرُبَ ودَنَا مجيء أمر الله تعالى، وهو إكرام المؤمنين بالنصر والثواب، وإهانة الكافرين بالخسران والعقاب، فلا تستعجلوا أيها المشركون هذا الأمر، فإنه آتٍ لا ريب فيه، ولكن في الوقت الذي يحدده الله ويشاؤه؛ تنزه الله تعالى وتعاظم بذاته وصفاته عن إشراك المشركين المؤدي بهم إلى الأقوال الفاسدة، والأفعال السيئة، والعاقبة الوخيمة، والعذاب المهين، ومن رحمة الله ﷻ أن أرسل إليهم الرسل مبشرين، ومنذرين، يدعوهم إلى أن يخلصوا العبادة لله تعالى وحده؛ فالله ﷻ خلق السموات والأرض خلقًا ملتبسًا بالحكمة الحكيمة، وبالجدية التي لا يحوم حولها لهو، أو عبث، تنزه الله تعالى وتعاظم عما قاله المشركون في شأنه ﷻ من أن له ولدًا أو شريكًا.

وخلق الله تعالى كذلك الإنسان من مني يمنى، خلقًا عجيبًا في أطوار مختلفة، لا يجهلها عاقل، ثم أخرجه بقدرته من بطن أمه إلى ضياء الدنيا، ثم رعاه برعايته، ولطفه، إلى أن استقل بنفسه، وعقل، فإذا بهذا الإنسان ينسى خالقه، ويجحد نعمه، ويخاصم، ويجادل من بعثه الله لهدايته، وإرشاده، وأنعم الله على هذا الإنسان بنعم كثيرة، ومن مظاهر هذه النعم: أن خلق الأنعام، الإبل، والبقر، والغنم، وجعل للناس فيها ما يستدفئون به من الثياب المأخوذة من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، فتقيهم برودة الجو، وجعل لهم فيها منافع متعددة، حيث يتخذون من ألبانها شرابًا سائغًا للشاربين، ومن لحومها أكلًا نافعًا للآكلين.

وكذلك جعل الله للناس في هذه الأنعام جمالًا وزينة حين يردُّونها للعشي من مسارحها إلى معاطفها؛ التي تأوي إليها، وحين يُخرجونها للغداة من معاطفها إلى مسارحها ومراعيها، وخص سبحانه هذين الوقتين بالذكر في قوله: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ لأنَّهما الوقتان اللذان تتراءى الأنعام فيهما، وتتجاوب أصواتهما ذهابًا ومجيئًا، ويعظم أصحابها في أعين الناظرين إليها.

ومن فوائد هذه الأنعام: أنَّها تحمل أمتعة الناس، وأثقالها من بلد إلى بلد آخر بعيد، لم يكونوا واصلين إليه بدونها، إلا بعد تعب شديد.

وكذلك من مظاهر فضل الله على الناس أن خلق الخيل، والبغال، والحمير؛ ليركبوها في غزوهم، وتنقلاتهم؛ لتكون زينة لهم في أفراحهم، ومسراتهم؛ وكذلك من مظاهر فضل الله على الناس بأن وضح بأنه يخلق لهم ما يستجد من وسائل؛ للركوب غير الخيل، والبغال، والحمير، كالطائرات، وغير ذلك.

وبالإضافة إلى هذه المنافع المادية المحسوسة، يبين الله لهم أن الطريق المستقيم هو الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ أما الطريق الحائد عن الاستقامة فهو كل طريق يخالف ما جاء به خاتم الرسل ﷺ من عقائد، وشرائع، وآداب؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ولو شاء سبحانه هداية الناس إلى الطريق المستقيم لهداهم جميعًا، ولكنه ﷻ لم يشأ ذلك، بل اقتضت حكمته أن يخلق الناس مستعدين للهدى والضلال، وأن يترك لهم اختيار أحد الطريقين، فكان منهم من استحب العمى على الهدى، وكان منهم من سلك الطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: البعث أمر محقق الوقوع.

ثانيًا: نزول الملائكة بالوحي لا يكون إلا بسبب أمر الله لهم بذلك، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾.

ثالثًا: بيان نعم الله على عباده بخلق السموات والأرض، وخلق الإنسان، وخلق الأنعام.

رابعًا: إباحة استخدام كل ما يسعد البشرية، ولا يتعارض مع الشرع.

٣- تفسير الآيتين (١٠، ١١):

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ

وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

المناسبة:

بعد أن بين سبحانه جانبًا من مظاهر فضله على عباده، عن طريق خلق الأنعام، وغيرها من البهائم، التي لهم فيها منافع، أتبع ذلك ببيان نعمه عليهم، في إنزال المطر، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

معاني المفردات لهاتين الآيتين:

- المراد بـ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ السحاب المرتفع في طبقات الجو، حيث ينزل منه الماء بقدرة الله ﷻ. والشراب: اسم للمشروب، الذي يشربه الإنسان، والحيوان، وغيرهما. والشجر: يطلق على النبات ذي الساق الصلبة على سبيل الحقيقة، ويطلق على العشب، والكلأ، على سبيل المجاز، وهو المراد هنا؛ لأنَّه هو الذي ترعاه الأنعام.

- قوله: ﴿ تُسِيمُونَ ﴾ من الإسامة، بمعنى: إطلاق الإبل، وغيرها للسوم، أي: الرعي.

الإعراب:

- ﴿ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: ﴿ مِن ﴾: ابتدائية، يعني: نزوله مبتدأ من السماء: ﴿ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ ﴿ لَّكُم ﴾ خبر مقدم: ﴿ مِّنْهُ ﴾ في موضع الحال من قوله ﷻ:

﴿ شَرَابٌ ﴾ أي: ما تشربون: و﴿ شَرَابٌ ﴾ مبتدأ مؤخر، ومن: تبعيضية في قوله: ﴿ مِّنْهُ ﴾.

- قوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ ﴾ الباء: سببية، أي: بسبب الماء يخرج الزرع.

- قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الإشارة تعود إلى ما تقدم ذكره: إنزال الماء من السماء، الشراب الذي نشربه، الماء والشجر التي ترعى فيه الأنعام، إنبات الزرع، الزيتون، النخيل، الأعناب؛ كل هذا تعود عليه اسم الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

البلاغة:

- قوله: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أتى بلفظ: "في" المفيدة للظرفية؛ للإشارة إلى أن الرعي في هذا الشجر قد يكون عن طريق أكل ما تحته من أعشاب.

- قوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ ﴾ أخَّر: ﴿ٱلزَّرْعَ ﴾ وقدم: ﴿لَكُم بِهِ ﴾ لإدخال المسرة على النفوس ابتداءً.

- قوله: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ ﴾ قدم: ﴿ٱلزَّرْعَ ﴾ على ما عداه؛ لأنه أصل الأغذية، وعمود المعاش، وقوت أكثر العالم، وفيه مناسبة للكلأ الذي ترعاه البهائم، وثنى بـ﴿وَٱلزَّيْتُونَ ﴾ لما فيه من الشرف، من حيث إنه إدام من وجه، وفاكهة من وجه، وقدم: ﴿وَٱلنَّخِيلَ ﴾ على: ﴿وَٱلْأَعْنَابَ ﴾ لظهور دوامها بالنسبة إليها، فإن الواحدة منها كثيرًا ما تتجاوز مائة سنة، وشجرة العنب ليست كذلك.

- وفي جمع: ﴿وَٱلنَّخِيلَ ﴾ و﴿وَٱلْأَعْنَابَ ﴾ إشارة إلى أن ثمارها مختلفة الأصناف، وأسند سبحانه الإنبات إليه، فقال: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ﴾؛ لأنه

الفاعل الحقيقي لهذا الإنبات، والإخراج للزرع من الأرض؛ أما غيره سبحانه فيلقي الحب في الأرض، ويرجو الثمارَ والإنبات منه ﷻ.

المعنى الإجمالي للآيتين:

الله ﷻ هو الذي غمركم بنعمه، حيث أنزل لكم من السحاب ماءً كثيرًا، هذا الماء الكثير المنزل بقدَرٍ أو بقدْرٍ معلوم، منه تأخذون ما تشربونه وما تنتفعون به في حوائجكم الأخرى، وبسببه تخرج المراعي التي ترعون فيها دوابكم، ويخرج الله لكم من الأرض -بسبب الماء الذي أنزله من السماء- الزرع الذي هو أصل أغذيتكم وعماد معاشكم كالقمح والشعير... وغيرهما، وكذلك الزيتون الذي تستعملونه إدامًا في أغذيتكم، والنخيل والأعناب الذي يوجد فيهما الكثير من الفوائد، ومن التلذذ عند أكل ثمارها، وأخرج لكم أيضًا بسبب هذا الماء من كل الثمرات التي تشتهونها، وتنتفعون بها، والتي تختلف في أنواعها وفي مذاقها وفي روائحها وفي ألوانها مع أن الماء الذي سيقت به واحد، والأرض التي نبتت فيها متجاورة.

المعاني المستفادة:

أولًا: نعم الله كثيرة، والواجب على الإنسان شكر المُنْعِم بالثناء عليه واستعمال النعمة فيما يرضي الله.

ثانيًا: أن من فكر في إنزال المطر من السماء لإنبات الزرع وغيره، وأن من فكر في الحبة والنواة كيف صارت شجرة يخرج منها الثمار... إن من فكر في ذلك أدرك أنه لا يمكن أن لا يكون مستحقًّا للعبادة إلا الله ﷻ.

٤ـ تفسير الآيتين (١٢ ، ١٣):

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٢ ، ١٣].

المناسبة بين هاتين الآيتين وما قبلهما:

بعد أن ذكر الله ﷻ في الآيتين السابقتين دلائل على قدرته ووحدانيته من إنزال الماء وإنبات الزرع ذكر بعد ذلك دلائل أخرى تدل على وحدانيته وقدرته فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ إلى آخره.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ التسخير: هو الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به.
- قوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: بإرادته ومشيئته.
- قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ﴾ أي: خلق لكم.
- قوله: ﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ أي: أصنافه.
- قوله: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يعتبرون.

الإعراب:

- قوله: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾: ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾: مبتدأ، ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾: خبر.

- قوله: ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾: معطوف على قوله: ﴿ وَٱلنُّجُومُ ﴾ .

- قوله: ﴿ مُخْتَلِفًا ﴾: حال من الضمير في: ﴿ ذَرَأَ ﴾ .

- قوله: ﴿ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾: متعلق بـ﴿ مُسَخَّرَٰتٌ ﴾ ، بعد ذلك اسم الإشارة في قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ يعود إلى ما ذُكِر من تسخير الليل والنهار والشمس والقمر.

البلاغة:

التنوين في قوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ هذا التنوين يفيد التفخيم والتعظيم، أي: إنها لآية عظيمة في الدلالة على قدرة الله ﷻ.

الإعجاز العلمي في هاتين الآيتين:

- قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أي: أن الليل والنهار يتعاقبان، ولقد ذكر الله آية في القرآن تدل على سبب تعاقب الليل والنهار، وهو قوله تعالى: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فهذه الآية تحوي إشارة رائعة إلى دوران الأرض محوريًّا، وهو الدوران الذي يعتبر سبب مجيء الليل والنهار.

اللطائف في هاتين الآيتين:

ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وذلك في قوله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وختم الآية الثانية بقوله: ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

والآية الثالثة -رقم (١٣) من سورة النحل: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ختم الآية بقوله ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

ختم آية بقوله: ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وآية ثانية ختمها بقوله: ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ وآية ثالثة ختمها بقوله: ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

المعنى الإجمالي:

من مظاهر التدبير في الخلق وظواهر النعمة على البشر في آنٍ واحد: الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، فهي كلها مما يلبي حاجة الإنسان في الأرض، فسبحانه سخر للبشر الشمس والقمر مستمرين في سيرهما بدون كللٍ أو اضطراب، بل يسيران من أجل منفعة الناس ومصلحتهم بنظام ثابت، قال تعالى: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] وأنه سبحانه أوجد النجوم مسخرات بأمره وإذنه؛ كي يهتدوا بها في ظلمات البر والبحر. ولقد سخر الله للناس أيضًا ما أوجده في الأرض وما أودع فيها للبشر من مختلف المعادن التي تقوم بها حياتهم في بعض الجهات وفي بعض الأزمان.

وكذلك ما أوجده في الأرض من حيوان ونبات، كل ذلك آية واضحة دالة على قدرة الله تعالى لقوم يعتبرون ويتذكرون آلاء الله ونعمه، فيشكرونه عليها ويخلصون له العبادة.

المعاني المستفادة:

أولًا: ينبغي على أصحاب العقول السليمة أن يتدبروا، وأن يعقلوا ما وراء الظواهر في الكون، من سنن وقوانين.

ثانيًا: الإنسان العاقل هو الذي لا ينسى أن قدرة الله هي التي أنعمت عليه بكل ما يحتاجه في هذه الحياة.

٥- تفسير الآية رقم (١٤):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

المناسبة:

بعد أن ذكر سبحانه جملة من نعمه التي أوجدها لعباده في البر أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه عليهم عن طريق خلقه للبحر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ الطراوة ضد اليبوسة، والمصدر الطراوة.
- قوله: ﴿ حِلْيَةً ﴾ أي: زينة.
- قوله: ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ أي: أن السفن تشق الماء.
- قوله: ﴿ تَشْكُرُونَ ﴾ الشكر يكون بالثناء على الله تعالى باللسان واستعمال النعمة في موضعها، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي: لتطلبوا من رزقه.

الإعراب:

- قولـه: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ﴾ "مِـن" متعلقـة بـ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ و"مِـن" في ﴿مِنْهُ﴾ ابتدائية، ويجوز أن تكون "مِن" تبعيضية، أي: من حيوان البحر.

- قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ عطف على: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ﴾.

البلاغة:

- ﴿حِلْيَةً﴾ جاءت منكرة؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ التنكير والتنوين هنا للتفخيم والتعظيم.

اللطائف الموجودة في هذه الآية:

أولًا: ورد في هذه السورة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

وورد في سورة فاطر قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢]؛ ففي آية النحل كرر لفظ: ﴿مِنْهُ﴾ وأخر لفظ ﴿فِيهِ﴾ وحينما قال: ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ بخلاف الآية التي في سورة فاطر قال: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ فنلاحظ أن هناك اختلافًا في تركيب الآيتين.

سبب هذا الاختلاف:

أن آية النحل سيقت لتعداد النعم على الخلق بدليل تقديم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ وآية فاطر سيقت لبيان القدرة والحكمة، بدليل قوله

تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [فاطر: ١١]؛ فتكرر لفظ ﴿مِنْهُ﴾ في آية النحل لتحقيق المنة والنعمة؛ ولذلك عطف ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ بالواو العاطفة لمناسبة تعدد النعم، وقدم ﴿مَوَاخِرَ﴾ على ﴿فِيهِ﴾؛ لأنه امتن عليهم بتسخير البحر، فناسب تقديم مواخر السفن التي تشق الماء. وأيضًا: قدم ﴿مَوَاخِرَ﴾ ليلي المفعول الثاني للمفعول الأول لـ: ﴿وَتَرَى﴾ فإنه أولى من تقديم الظرف.

وأما الآية التي في سورة فاطر؛ فحذف كلمة: ﴿مِنْهُ﴾ لدلالة: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ عليها، يعني: كلمة ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ﴾ دلت على كلمة: ﴿مِنْهُ﴾ الموجودة في آية النحل وقدم ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ لأن شق الماء لجريانه فيه آية من آيات الله، فالتقدم لكلمة ﴿فِيهِ﴾ أنسب للفلك الذي امتن الله على عباده به.

ثانيًا: وصف سبحانه لحم السمك بالطراوة للإشعار بلطافته، والتنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله؛ فإنه لكونه رطبًا مستعدٌّ للتغيّر، فيأتي إليه الفساد والاستحالة، وقد قال الأطباء: إن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء؛ ففيه إدماج لحكم طبي.

- قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ التعبير بقوله: ﴿وَتَرَى﴾ لاستحضار الحالة العجيبة عن طريق الرؤية البصرية، وهي حالة تدل على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده؛ حيث سخر لهم السفن؛ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ.

المعنى الإجمالي لهذه الآية:

الله سبحانه وحده هو الذي ذلل لكم البحر، بحيث مكنكم من الانتفاع به، وأقدركم على الركوب عليه، وعلى الغوص فيه، وعلى الصيد منه؛ لتأكلوا من

أسماكه لحمًا طريًّا غضًّا شهيًّا، وتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما، وكذلك ترى -أيها العاقل- السفن وهي تشق البحر بسرعة متجهة من بلد إلى بلد، ومن قطر إلى آخر لا تحرسها إلا رعاية الله تعالى وقدرته، وسخر الله لكم البحر لتطلبوا فضل الله ورزقه عن طريق التجارات والأسفار على ظهر البحر من مكان إلى آخر سعيًا وراء الربح، ترجون بذلك شكر الله تعالى حيث سخر لكم البحر، وجعله وسيلة من وسائل منفعتكم ومعاشكم.

المعاني المستفادة:

أولًا: نعم الله على الإنسان كثيرة لا تعد ولا تحصى، والواجب مقابلة هذه النعم بشكر الله تعالى.

ثانيًا: الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما في البحر من كنوز، وألا يتركوا ذلك لأعدائهم ينفردون به في الاستفادة.

٦. تفسير الآيتين (١٥، ١٦):

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

المناسبة:

بعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة جانبًا من نعمه عليهم عن طريق خلقه للبحر أتبع ذلك بالحديث عن فوائد الجبال والأنهار والسبل والنجوم، فقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الإلقاء بمعنى الخلق والجعل.

- قوله: ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جمع راسٍ بمعنى الثبات والتمكن في المكان، والمراد بها: الجبال.

- ﴿تَمِيدَ﴾ أي: تضطرب وتميل.

- ﴿وَسُبُلًا﴾ أي: طرقًا.

- ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أي: أمارات ومعالم.

الإعراب:

- قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾: ﴿رَوَٰسِيَ﴾ صفة لموصوف محذوف أي: جبالًا رواسي.

- قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تعليل لإلقاء الجبال في الأرض أي: كراهة أن تميد، أو لئلا تميد؛ فيجوز أن تكون في محل المفعول لأجله.

- قوله: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ معطوف على ﴿رَوَٰسِيَ﴾.

- قوله: ﴿وَسُبُلًا﴾ عطف على ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾.

قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الضمير يعود على كل سالك في ظلمات البر والبحر.

البلاغة:

قدم سبحانه المتعلق وهو ﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾ للاهتمام به؛ إذ إن الاهتداء بالنجوم أمر مهم في حياة المسافرين؛ ولا سيما الذين يسافرون في البحر.

ثانيًا: عدل سبحانه عن الخطاب إلى الغيبة في قوله ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ على سبيل الالتفات؛ ليزداد الكلام طلاوة وانتباهًا إلى ما اشتمل عليه.

الإعجاز العلمي في هاتين الآيتين:

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لقد ظل العلم جاهلًا بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية، ولكن دارسي الجغرافية الحديثة يعرفونها جيدًا تحت اسم "قانون التوازن"، ولا يزال العلم الحديث في مراحله البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون، ويقول أحد العلماء: من المفهوم الآن أنَّ المادة الأقل وزنًا ارتفعت على سطح الأرض على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية وهي التي نراها الآن في شكل البحار، وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظ على توازن الأرض.

أيضًا قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ النجوم أجرام سماوية، مثل الشمس، وهي محل ظاهرات فيزيقية مختلفة، وأسهل ما يمكن مشاهدته من هذه الأجرام هي ظاهرة إنتاج الضوء، فتلك أجرام لها بريقها الخاص بها، وتظهر كلمة نجم والجمع نجوم ثلاث عشرة مرة في القرآن، ويعنى مصدر كلمة "نجم" أي: إمكان رؤيته، وهي تشير إلى جرمٍ سماوي مرئي دون تحديد لطبيعته، أي: ما إذا كان مصدرًا للضوء أو كان مجرد عاكس لضوء يستقبله، ويوصف نجم السماء في القرآن بكلمة ﴿ثَاقِبُ﴾ [الصافات: ١٠] أي: ما يلتهب ويحترق وينفذ عبر ظلمات الليل.

المعنى العام لهاتين الآيتين:

لقد ألقى الله في الأرض جبالًا ثوابت؛ لكي تقر وتثبت ولا تضطرب، وجعل في الأرض أنهارًا تجري من مكان إلى آخر، فهي تنبع في مواضع وتصب في مواضع

أخرى، وفيها نفع عظيم للجميع، وجعل في الأرض كذلك طرقًا ممهدةً يسير فيها السائرون من مكان إلى آخر، لعلهم يهتدون بتلك الطرق إلى المكان الذين يريدون الوصول إليه بدون تحير أو ضلال.

ومن مظاهر نعم الله أيضًا: أنه سبحانه -كما جعل في الأرض معالم وأمارات من جبال- جعل لهم في السماء علامات ليهتدي بهم المسافرون في سفرهم، وتكون عونًا لهم على الوصول إلى غايتهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧].

المعاني المستفادة من هذه الآية:

أولًا: قدرة الله في حفظ توازن الأرض بالجبال.

ثانيًا: رعاية مصالح العباد تتمثل في جعل الأنهار والطرق والنجوم أدوات للنفع للناس جميعًا في حياتهم الدنيوية.

تفسير الآيات (١٧- ٣٢) من سورة (النحل)

١. تفسير الآيات من رقم (١٧) إلى (٢٣): ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ

فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾.

المناسبة:

بعد أن ذكرت السورة جانبًا من نعم الله على عباده في الجبال والأنهار والسبل ساقت السورة بعد ذلك جملة من صفات الله تعالى ووبخت المشركين على شركهم وأبطلته بأبلغ أسلوب، ودعتهم إلى الدخول في الدين الحق، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ المراد بالنعمة هنا جنسها الذي يشمل كل نعمة؛ لأن لفظ العدد والإحصاء قرينة على ذلك، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد في معنى الجمع -اعتمادًا على القرينة- من أبلغ الأساليب الكلامية.

قوله: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾: ﴿أَيَّانَ﴾ ظرف زمان متضمن معنى متى، يعنى: متى يبعثون.

الإعراب:

- الضمير في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ للآلهة، والضمير في قوله: ﴿يُبْعَثُونَ﴾ يعود للكفار الذين يعبدون الأصنام، ويجوز أن يكون الضمير في الفعلين ﴿يَشْعُرُونَ﴾ و﴿يُبْعَثُونَ﴾ للآلهة.

- قوله: ﴿ لَاجَرَمَ ﴾ كلمة ﴿ لَاجَرَمَ ﴾ وردت في القرآن في خمسة مواضع، وفي كل موضع كانت متلوة بـ"أن" واسمها، وليس بعدها فاعل، وجمهور النحاة على أنها مركبة من ﴿ لَا ﴾ و﴿ جَرَمَ ﴾ تركيب خمسة عشرة، ومعناها بعد التركيب معنى الفعل، أي: حقّ وثبت، والجملة بعدها فاعل.

البلاغة:

- قوله: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ التفات من الخطاب في قوله: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ للإشارة إلى أن قريشًا كانت تَعْلَم منافع الاهتداء بالنجوم لكثرة أسفارها.

- الاستفهام في قوله سبحانه ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ للإنكار والتوبيخ لأولئك المشركين الذين عبدوا غير الله تعالى.

- والاستفهام في قوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ زيادة في توبيخهم وفي التهكم بهم.

- وأيضًا قوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ تضادٌّ.

- وكذلك قوله: ﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾ أيضًا هذه العبارة فيها تضادٌّ أيضًا.

المعنى العام:

أفمن يخلق هذه الأشياء العجيبة والمخلوقات البديعة، وهو الله ﷻ كمن لا يخلق شيئًا على سبيل الإطلاق، بل هو مخلوق كتلك الأصنام والأوثان وغيرها التي أشركتموها في العبادة مع الله تعالى، أبلغ بكم السفه والجهل أنكم سوّيتم في

العبادة بين من يخلق وبين من لا يخلق؟! والحال أن هذه التسوية لا يقول بها عاقل؛ لأن من تفكّر أدنى تفكّر وتأمّل أقلّ تأمل؛ عَرَفَ وتيقّن أنه لا يصحّ التسوية في العبادة بين الخالق والمخلوق، فهلّا فكّرتم قليلًا في أمركم لكي تفيئوا إلى رشدكم، فتخلصوا العبادة لله الخلاق العليم؟!

ثم ذكّرهم سبحانه بنعمه على سبيل الإجمال، بعد أن فصّل جانبًا منها في الآيات السابقة، فقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ أي: وإن تعدوا نعمة الله تعالى التي أنعمها عليكم، وفي أنفسكم، وفيما سخّره لكم، لا تستطيعون حصر هذه النعم؛ لكثرتها؛ ولتنوعها، وما دام الأمر كذلك فاشكروه عليها ما استطعتم في أنفسكم، وأخلصوا له العبادة والطاعة، واعلموا أن باب التوبة مفتوحٌ أمامكم؛ فالله غفورٌ لعباده على ما فَرَطَ منهم متى تابوا إليه توبةً نصوحًا، رحيم بهم؛ حيث لم يؤاخذهم بذنوبهم، بل منحهم نعمةً مع تقصيرهم في شكره تعالى.

صفات الأصنام في الآيات:

لقد وَصَفَ اللهُ هذه الأصنام بعدة صفات:

الصفة الأولى: وصفها بالعجز التام، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾.

الصفة الثانية: فهي قوله تعالى: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ أي: هؤلاء المعبودون من دون الله تعالى هم أموات لا أثر للحياة فيهم، فهم لا يسمعون، ولا يبصرون، ولا يغنون عن عابديهم شيئًا، فقد دلّت هذه الصفات على فقدان الأصنام للحياة فقدانًا تامًّا.

الصفة الثالثة: فهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: وما تشعر هذه الجماداتُ من الأصنام متى يُبْعَثُ عبدتُهم من الكفار، ويكون هذا على طريق التهكم بهم؛ لأن شعور الجماد مستحيلٌ لما هو من الأمور الظاهرة فضلًا عن الأمور التي لا يعلمها إلا الله ﷻ.

وبعد أن أبطل سبحانه عبادة غيره بهذا الأسلوب المنطقي الحكيم، صرّح بأنه لا معبود بحق سواه، فقال تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: إلهكم المستحق للعبادة والطاعة هو إله واحد لا شريك له، لا في ذاته ولا في صفاته؛ فأخلِصوا له العبادة، ولا تجعلوا له شركاء.

ثم بيّن سبحانه الأسبابَ التي جعلت المشركين يُصِرّون على كفرهم، ويستحبون العمى على الهدى، فقال: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: فالكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب قلوبهم منكرة للحق، جاحدة لنعم الله، منصرفة عن وحدانية الله تعالى، وعن الأدلة الدالة عليها، وحالهم فوق ذلك أنهم مستكبرون مغرورون، لا يستمعون إلى موعظة واعظ، ولا إرشاد مرشد، ومتى استولت على إنسانٍ هاتان الصفتان – الجحود، والاستكبار- حالفه البوار والخسران، وآثر سبيل الغي على سبيل الرشد.

ثم بين سبحانه سوء مصير الكافرين فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: حَقّ وثَبَتَ أن الله -تبارك وتعالى- يعلم ما يسر هؤلاء المشركون وما يعلنونه من أقوال وأفعال، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقوبات؛ لأنه سبحانه لا يحب المستكبرين عن الاستجابة للحق، المغرورين بأموالهم وأولادهم، الجاحدين لنعم الله وآلائه.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: إنَّ أكبر دليل على وجود الله هي مخلوقاته... فكيف نساوي في العبادة بين اللهِ الخالقِ والأصنام التي لا تستطيع أن تخلق شيئًا؟ قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾.

ثانيًا: نعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى... قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾.

ثالثًا: باب التوبة مفتوح أمام العصاة والكافرين... قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

رابعًا: عجز الأصنام عن خلق أي شيء... قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾.

خامسًا: الكبر هو أصل العصيان؛ قال القرطبي: قال العلماء: كلُّ ذنبٍ يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله.

٢- تفسير الآيات من رقم (٢٤) إلى (٢٩):

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوًى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٤- ٢٩].

المناسبة:

بعد أن بينت الآيات السابقة الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وعلى بطلان عبادة غيره، أتبعت ذلك بحكايةِ بعضِ أقاويل المشركين، والرد عليها بما يبطلها، وبيان سوء عاقبتهم وعاقبة أشباههم من قبلهم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الأساطير: جمع أسطورة، والمراد بها الأكاذيب والترهات التي لا أصل لها، والتي كانت مبثوثةً في كتب الأولين.

- قوله: ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ ﴾ الأوزار: جمع وزر، بمعنى الشيء الثقيل، والمراد بها الذنوب.

- قوله تعالى: ﴿ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي: يحملون.

- قوله: ﴿ مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾: ﴿ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾ جمع قاعدة، وهي أساس البناء.

- قوله: ﴿ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أي: تعادون فيهم.

- قوله: ﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾: ﴿ ٱلسَّلَمَ ﴾ المراد به: الاستسلام.

الإعراب:

- قوله: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ ﴾ اللام لام العاقبة؛ وذلك لأنَّهم لما وصفوا القرآن بأنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ كانت عاقبتُهم تلك العاقبة السيئة. ويحتمل أن تكون اللام لام التعليل ومتعلقة بفعل مقدر، أي: صَدَرَ ذلك منهم ليحملوا أوزارهم.

- قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ في موضع حال من الضمير المنصوب في قوله: ﴿يُضِلُّونَهُم ﴾.

- قوله: ﴿أَلَا سَآءَ ﴾: ﴿أَلَا ﴾ هنا أداة استفتاح.

- قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فيها أوجه من الإعراب:

أولًا: الجر على أن الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ﴾ صفة للكافرين، أو بدل منه، أو بيان له.

ثانيًا: وكذلك يجوز فيها النصب والرفع على القطع للذم.

وجوز بعضهم كون الموصول مرفوعًا بالابتداء، وجملة ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ ﴾ خبر المبتدأ.

قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: القرآن ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

البلاغة:

الاستفهام في قوله: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ﴾ للتهكم بالمشركين وبمعبوداتهم الباطلة.

المعنى العام لهذه الآيات:

إذا قال قائل لهؤلاء الكافرين المستكبرين: أيُّ شيء أنزل ربكم على نبيه محمدٍ ﷺ؟ قالوا له على سبيل الجحود للحق: لم ينزِّل عليه شيئًا، وإنما هذا القرآن الذي يتلوه محمد ﷺ على أتباعه هو من أساطير الكهنة الأولين، نقله من كتبهم، ثم قرأه على مَن يستمع إليه. لقد حكى القرآن الكريم قولهم الباطل هذا، وردّ عليهم بما يبطله في آيات كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

ثم بيّن سبحانه عاقبة كفرهم ونطقهم بالباطل، فقال تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ ﴾ أي: قالوا ذلك في القرآن الكريم؛ لتكون عاقبتهم أن يحملوا أوزارهم كاملةً غير منقوصة يوم القيامة، وحملوا أيضًا فوق آثامهم الخاصة جانبًا من آثام من كانوا سببًا في ضلالهم، بئس شيئًا يحملونه نتيجة كفرهم وإضلالهم لغيرهم.

فلا تهتم أيها الرسول لما يقوله المستكبرون من قومك في شأن القرآن الكريم لكي يصرفوا الناس عن الدخول في الإسلام؛ فقد مَكَرَ الذين من قبلهم بأنبيائهم؛ فكان عاقبة مكرهم أن اجتث هذا البنيان من أصله واقتلعه من أساسه؛ فسقط عليهم سقف بنيانهم؛ فأهلكهم، وأتاهم العذاب المرير من حيث لا يشعرون، ولا يحتسبون بأنه سيأتيهم من هذه الجهة، بل كانوا يتوقعون أن ما شيدوه سيحميهم من المهالك، هذا مصيرهم في الدنيا، أما مصيرهم في الآخرة فإن الله تعالى يذلهم، ويهينهم، ويفضحهم على رءوس الأشهاد، ويقول لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: أين شركائي في العبادة والطاعة الذين كنتم تعادون

وتخاصمون المؤمنين في شأنهم، قائلين لهم: إنكم لا بدّ لكم من إشراكهم مع الله في العبادة.

ثم حكى سبحانه ما يقول أهل العلم في هذا الموقف الهائل الشديد: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: أن الخزي الكامل في هذا اليوم والسوء الذي ليس بعده سوء على هؤلاء الكافرين، أصحاب القلوب المنكرة للحق، والنفوس الجاحدة لليوم الآخر، وما فيه من حساب.

ثم صور سبحانه أحوال هؤلاء الكافرين ساعةَ انتزاع أرواحهم من أجسادهم، وساعة وقوفهم للحساب، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ أي: إن أشد أنواع الخزي والعذاب يوم القيامة على الكافرين الذين تَنْتَزع الملائكة أرواحهم من أجسادهم، وهم ما زالوا باقين على الكفر والشرك دون أن يتوبوا منهما أو يقلعوا عنهما، وعندما عاين هؤلاء المستكبرون الموت، وتجلّت لهم الحقائق يوم القيامة خضعوا، واستكانوا، واستسلموا، بعد أن كانوا في الدنيا يتكبرون على المؤمنين ويسخرون منهم، فيبطل الله دعواهم بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بلى... إنكم كنتم تعملون السوء، فالله تعالى لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، وسيجازيكم عنها بما تستحقّون، وهذا التكذيب لهم قد يكون من الملائكة بأمر الله سبحانه، وقد يكون من قِبَلِه سبحانه، فادخلوا أيها الكافرون من أبواب جهنم حالة كونكم خالدين فيها خلودًا أبديًّا، فلبئس مقام المستكبرين عن الإيمان بالله، إنه جهنم وبئس المصير.

اللطائف:

أولًا: قوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ عبّر سبحانه بالفعل ﴿وَقِيلَ﴾ المبنى للمجهول؛ للإشارة إلى أنَّ هذا القول الذي تفوّه به عتاةُ الكافرين، وهو قولهم عن القرآن بأنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كانوا يقولون ذلك لكل من يسألهم عن القرآن الكريم؛ لكي يصدوه عن الدخول في الإسلام.

ثانيًا: قوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ قال سبحانه: ﴿كَامِلَةً﴾ لتأكيد أن الله لا يرفع عنهم شيئًا من ذنوبهم.

ثالثًا: قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ افتتحت الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ للاهتمام بما تضمنه التحذير؛ حتى يقلعوا عن كفرهم، ويثوبوا إلى رشدهم، ويحترسوا عن الوقوع في الباطل من القول.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: استهزاء المشركين بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ثانيًا: تدمير وهلاك كل من يقف في وجه الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثالثًا: جزاء المستكبرين يوم القيامة هو الخلود في جهنم، قال تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

٣. تفسير الآيات من رقم (٣٠) إلى (٣٢):

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٠- ٣٢].

مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن بيّن سبحانه أقوال المستكبرين، وأحوالهم، وسوء عاقبتهم، أتبع ذلك ببيان أحوال المتقين، وبيان ما أعده لهم من خيرات، فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ العَدْن: الإقامة الدائمة.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجنة ونعيمها.

الإعراب:

- قوله: ﴿قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ كلمة ﴿خَيْرًا﴾ مفعول لفعل محذوف، أي: أنزل خيرًا.

- قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾ صفة لموصوف محذوف، أي: مجازاةً حسنةً.

- قوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ "نِعْمَ" فعل ماضٍ لإنشاء المدح، وهو ضدّ "بئس" والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ما يدل عليه، والتقدير ولنعم دار المتقين دار الآخرة.

- قوله: كلمة ﴿ خَيْرًا ﴾ صيغة تفضيل حذفت همزتها لكثرة الاستعمال.

البلاغة في هذه الآيات:

- قولهم: ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ قدم الجار والمجرور لإدخال السرور على أهل الجنة.

اللطائف في هذه الآيات:

أولًا: قوله: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ﴾ وصف المؤمنين الصادقين بالتقوى؛ للإشعار بأن صيانتهم لأنفسهم عن ارتكاب ما نهى الله عنه، وخوفهم منه سبحانه ومراقبتهم له، كل ذلك حملهم على أن يقولوا هذا القول السديد.

ثانيًا: كلمة ﴿ خَيْرًا ﴾ في قوله: ﴿ قَالُوا۟ خَيْرًا ﴾ أتت منصوبةً، أما كلمة ﴿ خَيْرٌ ﴾ في قوله: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ فجاءت مرفوعةً؛ للفصل بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعني: أن هؤلاء المتقين لّما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بيّنًا مكشوفًا مفعولًا للإنزال، فـ﴿ قَالُوا۟ خَيْرًا ﴾ أما أولئك المستكبرون فقد عدلوا بالجواب عن السؤال، فقالوا: هو ﴿ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وليس من الإنزال في شيء.

ثالثًا: لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ وبين قوله في آية أخرى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١] وبين قوله في آية ثالثة: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] لأن إسناد التوفي إلى ذاته تعالى باعتبار أن أحدًا لا يموت إلا بمشيئته تعالى، وإسناد التوفي إلى ملك الموت باعتباره هو المأمور بقبض الأرواح، وإسناد التوفي إلى الملائكة باعتبارهم أعوانًا له.

رابعًا: لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وبين ما جاء في الحديث الصحيح: ((لن يُدْخِلَ أحدًا عملُه الجنة))؛ لأن الأعمال الصالحة إنما هي أسبابٌ عاديةٌ لدخول الجنة، أما السبب الحقيقي فهو فضل الله تعالى ورحمته؛ حيث قَبِلَ هذه الأعمال، وكافأ أصحابها عليها.

المعنى العام لهذه الآيات:

إذا قال قائل لهؤلاء المتقين: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنزل ربنا خيرًا، أي: رحمةً وبركةً ونورًا وهدايةً. وسُنّة الله في خلقه أنه يجازي الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن الكريم دون أن يضيع من أعمالهم شيئًا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ثم بيّن سبحانه جزاءهم في الآخرة فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي ولدار الآخرة وما فيها من عطاء غير مقطوعٍ خيرٌ لهؤلاء المتقين مما أعطيناهم في الدنيا، ولنعم دارهم هذه الدار.

ثم وصف سبحانه ما أعده لهم من نعيم فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: لهؤلاء المتقين جناتٌ باقيةٌ دائمةٌ يدخلونها بسرور وحبور، تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار، لهم فيها ما يشاءون، ومثل هذا الجزاء الحسن يجزي اللهُ تعالى عبادَه المتقين الذين جنبوا أنفسهم ما لا يرضيه، هذا الجزاء الحسن لهؤلاء المتقين، الذين تقبض الملائكة أرواحهم، حال كونهم مطهرين من دنس الشرك والفسوق والعصيان، وتقول الملائكة لهؤلاء المتقين عند قبض أرواحهم: أمان عليكم من كل شر ومكروه، تقول لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما قدمتموه من أعمال صالحة.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: المتقون مُقِرُّون بفضل الله ورحمته، وإلا ما نالوا هذه المنزلة في الجنة بما فيها من نعيم دائم ومقيم.

ثانيًا: الجزاء من جنس العمل؛ قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ المحسن جزاؤه الخير، والمسيء جزاؤه الشر؛ قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ثالثًا: الأعمال الصالحة أسبابٌ عاديةٌ في دخول الجنة، لكن الفضل الحقيقي في دخول الجنة هو فضل الله ﷻ إن الله ﷻ في هذه الآيات بيّن أصحاب النعيم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

تفسير الآيات (٣٣- ٦٧) من سورة (النحل)

عناصر الدرس

العنصر الأول : تفسير الآيات (٣٣- ٥٠) من سورة (النحل) ٢٢٥

العنصر الثاني : تفسير الآيات (٥١- ٦٧) من سورة (النحل) ٢٤٣

تفسير الآيات (٣٣ - ٥٠) من سورة (النحل)

١ـ تفسير الآيتين (٣٣، ٣٤):

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [النحل: ٣٣، ٣٤].

بيان المناسبة بين هاتين الآيتين وما قبلهما من آيات:

بعد أن بينت السورة الكريمة جانبًا من أقوال المتقين، وبشرتهم بما يسرهم ويشرح صدورهم، عادت السورة مرة أخرى لتهديد الكافرين لعلهم يزدجرون أو يتذكرون، فقال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

﴿ يَنظُرُونَ ﴾ بمعنى: ينتظرون، من الإنظار بمعنى: الإمهال.

قوله: ﴿ وَحَاقَ ﴾ بمعنى أحاط، وخص في الاستعمال بإحاطة الشر.

الإعراب:

- قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ الضمير يعود إلى أولئك المتكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النحل: ٢٨].

- قوله: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أو هنا مانعة خلود فإن كلًّا من الموت والعذاب يأتيهم، وإن اختلف الوقت، وإنما عبر بـ"أو" دون الواو للإشارة إلى كفاية كل واحد من الأمرين في تعذيبهم.

البلاغة:

الاستفهام في قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ ﴾ استفهام إنكاري في معنى النفي.

المعنى العام:

ما ينتظر أولئك المستكبرون الذين لا يؤمنون بالآخرة إلا أن تأتيهم الملائكة لنزع أرواحهم من أجسادهم أو يأتي أمر ربك أيها الرسول بإهلاكهم أو بإنزال العذاب بهم من حيث لا يشعرون.

ومثل هذا الفعل الشنيع الذي صدر عن الكافرين من قومك يا محمد فعل الذين من قبلهم من أقوام الرسل السابقين؛ كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح؛ فإنهم قد آذوا رسلهم كما أذاك قومك، وقد أنزلنا بهم ما يستحقون من عذاب دنيوي ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وما ظلمهم الله حين أنزل بهم عقابه، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم؛ لترديهم في الكفر وإصرارهم عليه ومحاربتهم لمن جاء لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وهكذا تمادى أسلافهم في الكفر والجحود، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم وأحاط بهم العذاب من كل جانب؛ بسبب كفرهم وسخريتهم بالرسل وبما أخبروهم به من حساب وثواب وعقاب في الآخرة، وسيقال لهؤلاء المجرمين يوم القيامة وهم يردون النار: هذه النار التي كنتم بها تكذبون.

المعاني المستفادة:

أولًا: عدم استفادة المشركين من قريش بما حدث لمن قبلهم من الكفار، بمعنى أنهم لم يعتبروا بما حدث لمن قبلهم من الكفار حين أهلكهم الله ﷻ بسبب كفرهم واستهزائهم بالرسل.

ثانيًا: الجزاء من جنس العمل قال تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

٢. تفسير الآيات من رقم (٣٥) إلى (٣٧):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٥- ٣٧].

المناسبة:

بعد أن ذكرت السورة جانبًا من أحوال المشركين في الآيات السابقة، أتبعت ذلك بذكر بعض أقاويلهم الباطلة ومعاذيرهم الفاسدة، والرد عليها بما يدحضها ويدمغها، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- معنى كلمة ﴿ ٱلْبَلَٰغُ ﴾: اسم مصدر بمعنى الإبلاغ.
- ﴿ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي: الواضح الظاهر.

- ﴿ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ اسم لكل معبود من دون الله.

- قوله: ﴿ إِن تَحۡرِصۡ ﴾ الحرص: شدة الرغبة في الحصول على الشيء، والاستئثار به.

الإعراب:

- قوله: ﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ أن تفسيرية؛ لأنَّ البعث يتضمن معنى القول؛ إذ هو بعث للتبليغ.

- قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ﴾ تعليل لجواب الشرط المحذوف، يعني: إن تحرص على هداهم فلن ينفعك حرصهم؛ لأنَّ الله لا يهدي من يضل.

البلاغة:

- قوله: ﴿ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ الاستفهام إنكاري في معنى النفي.

المعنى العام لهذه الآيات:

قال الذين أشركوا مع الله تعالى آلهة أخرى في العبادة لنبيهم ﷺ: لو شاء الله تعالى لنا عبادته وحده لعبدناه نحن وآباؤنا الذين هم قدوتنا، ولو شاء لنا ولآبائنا أيضًا ألا نحرم شيئًا مما حرمناه من البحائر والسوائب وغيرها؛ لتمت مشيئته ولما حرمنا ما لم يأذن به سبحانه، ولكنه ﷻ لم يشأ ذلك، بل شاء لنا أن نشرك معه في العبادة هذه الأصنام وأن نحرم بعض الأنعام، وقد رضي لنا ذلك فلماذا تطالبنا -يا محمد- بتغيير مشيئة الله وتدعونا إلى الدخول في دين الإسلام الذي لم يشأ لنا الله تعالى الدخول فيه.

هذه حجة المشركين ولا شك أنها باطلة ؛ لأن مشيئة الله تعالى لم تجبر أحدًا على طاعة أو معصية، وقضاء الله هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون وليس العلم صفة تأثيرٍ أو جبر، ولقد شاء سبحانه أن يجعل في طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر، ووهبهم العقل ؛ ليهتدوا به، وأرسل إليهم الرسل ؛ لينموا فيهم استعدادهم، وسن لهم شريعة ؛ لتكون مقياسًا ثابتًا لما يأخذون وما يدعون ؛ كي لا يتركهم لعقولهم وحدها.

وإذن فمشيئة الله متحققة حسب سنته التي ارتضاها، سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو الضلال، وهو مؤاخذ إن ضل، ومأجور إذا اهتدى، غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينيه يبصر النور ومن يغمضها لا يرَى النور، كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدِ، ومن يحجب عنها قلبه يضل، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

ومثل ذلك الفعل الشنيع الذي فعله قومك معك -أيها الرسول- فعل أشباههم السابقون مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله تعالى لهدايتهم ؛ فلا تبتئس مما فعله مشركو قومك ؛ فإننا لولا وجودك فيهم لأنزلنا بهم ما أنزلنا على سابقيهم من عذاب، وما على الرسل الكرام الذين أرسلهم الله تعالى لإرشاد أقوامهم إلى الطريق المستقيم إلا الإبلاغ الواضح المظهر لأحكام الله والفارق بين الحق والباطل. ثم بين سبحانه أن من رحمته بعباده أن أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي: ولقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نبعث في كل أمة من الأمم السابقة رسولًا من رسلنا الكرام ؛

ليرشدوا الناس إلى الحق والخير، وليقولوا للناس أن اعبدوا الله وحده واجتنبوا عبادة الطاغوت، اعبدوا الله وحده الذي يهدى الناس إلى الطريق المستقيم.

ثم بين سبحانه موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم فقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ أي: بعثنا في كل أمة من الأمم السابقة رسولًا؛ لهداية أبنائها فمن هؤلاء الأبناء من هداهم الله تعالى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، بأنْ وفقهم إليه لانشراح صدورهم له، ومنهم من ثبتت وحقت عليه الضلالة؛ لاستحبابه العمى على الهدى، ثم أمر الله سبحانه هؤلاء المشركين بأن يسيروا في الأرض؛ ليروا بأعينهم آثار المجرمين الذين كذبوا الرسل وأسندوا شركهم إلى مشيئة الله تعالى، لقد نزل بهؤلاء المكذبين عذاب الله فدمرهم تدميرًا، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، ولقد كان رسول الله ﷺ حريصًا على هداية هؤلاء المشركين، فأخبره الله بأن حرصه هذا لم يغير من واقع الأمر شيئًا؛ لأن الله قد اقتضت حكمته ألا يهدي من يخلق فيه الضلالة بسبب سوء اختياره وفساد استعداده، وهؤلاء الضالون ليس لهم من ناصر يدفع عنهم عذاب الله إن نزل بهم أو يصرفهم عن سبيل الغي الذي آثروه على سبيل الرشد، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

المعاني المستفادة:

أولًا: مشيئة الله لم تجبر أحدًا على طاعة أو معصية، وعلم الله وظيفته الكشف، وليس علم الله صفة تأثيرٍ وجبر.

ثانيًا: وظيفة الرسل عليهم السلام هي الإبلاغ الواضح.

ثالثًا: دعوة الرسل واحدة وهي عبادة الله وحده.

رابعًا: رحمة الرسول ﷺ بأمته وحرصه على هدايتهم.

٣. تفسير الآيات من رقم (٣٨) إلى (٤٠):

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٣٨- ٤٠].

المناسبة:

بعد أن ذكر الله سبحانه في الآيات السابقة أقوال المشركين الباطلة، أتبع ذلك بذكر مقولة أخرى من مقولاتهم الباطلة فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ القسم الحلف.
- قوله: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أقسموا بالله وبالغوا في تغليظ اليمين.

الإعراب:

- قوله: ﴿بَلَى﴾ حرف يؤتى به لإبطال النفي في الخبر والاستفهام، اللام في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ متعلقة بما دل عليه حرف ﴿بَلَى﴾ وهو "يبعثهم" أي: يبعثهم ليبين لهم وليعلم الذين كفروا.

قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾: ﴿وَعْدًا﴾ مصدر، و﴿حَقًّا﴾ أيضًا مصدر فهما مصدران منصوبان على المصدر المؤكد، أي: وعد ذلك وعدًا وحق حقًّا.

المعنى العام:

لقد أقسم المشركون وبالغوا في تغليظ الأيمان، بأنَّ الله لا يبعث من يموت؛ لأنَّهم تصوروا أنَّ إعادة الميت إلى الحياة بعد أن صار ترابًا وعظامًا نخرة أمر مستحيل، فكذبهم الله فيما ادعوه، وقال: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بلى سيبعث الله الأموات يوم القيامة، وقد وعد بذلك وعدًا صادقًا لا خلف فيه ولا تبديل ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة؛ لجهلهم بكمال قدرة الله تعالى وعموم علمه ونفاذ إرادته وسمو حكمته، ثم بين سبحانه الحكمة من بعث الناس يوم القيامة فقال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ أي: بلى؛ يبعث الله الموتى؛ ليظهر لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه في شأن البعث وغيره، وليعلم الذين كفروا علم مشاهدة ومعاينة أنهم كانوا كاذبين في قسمهم أن الله لا يبعث من يموت، وفي غير ذلك من أقوالهم الباطلة وفي إظهار الحق وفي بيان كذبهم يوم البعث حسرة وندامة لهم، حيث ظهر لهم ما أنكروه في الدنيا وما كانوا يستهزئون به عندما كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يدعونهم إلى نبذ الشرك وإلى إخلاص العبادة لله تعالى وحده، ثم أخبر الله بأن قدرته تعالى لا يتعاصى عليها شيء ولا يحول دون نفاذها حائل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

أما بالنسبة لسبب نزول قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ فقال أبو العالية: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان في بعض

كلامه: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا؛ فأقسم المشرك بالله لا يبعث الله من يموت؛ فنزل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- تفسير الآيتين (٤١، ٤٢):

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

المناسبة:

بعد أن عرضت السورة الكريمة لأقاويل المشركين وردت عليها، أتبعت ذلك بذكر جانب من الثواب العظيم الذي أعده الله للمؤمنين الصادقين الذين فارقوا الدار والأهل والخلان من أجل إعلاء كلمة الله، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الهجرة: هي المفارقة للديار وغيرها، وتطلق شرعًا على الهجرة من دار الكفر إلى غيرها؛ لنشر دعوة الإسلام.

- قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ من التبوء بمعنى: الإحلال والإسكان والإنزال.

الإعراب:

- قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ حرف في يفيد التعليل أي: هاجروا لله.

- قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: ﴿حَسَنَةً﴾: نعت لمصدر محذوف أي: تبْوِئَةً حسنة.

اللطائف:

أولًا: أكد سبحانه الجزاء الحسن الذي وعد به الذين هاجروا في سبيله، أكد ذلك باللام ونون التوكيد ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أكد ذلك زيادة في إدخال السرور والطمأنينة على قلوبهم وجبرًا لكل ما اشتملت عليه الهجرة من مصاعب وآلام وأضرار.

ثانيًا: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ عبر عن صفة الصبر بصيغة الماضي؛ للدلالة على أن صبرهم قد آذن بالانتهاء؛ لانقضاء أسبابه وهو ظلم أعدائهم لهم؛ لأنَّ الله تعالى قد جعل لهم مخرجًا بالهجرة وذلك بشارة لهم.

المعنى العام لهذه الآيات:

والذين هاجروا في سبيل الله وفارقوا قومهم وأوطانهم وأموالهم وأولادهم من أجل إعلاء كلمته، بعد أن تحملوا الكثير من أذى المشركين وظلمهم وطغيانهم، هؤلاء الذين فعلوا ذلك من أجل نصرة ديننا، لنسكننهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها، ولنعطينهم عطاءً حسنًا يسعدهم، ولننصرنهم على أعدائهم نصرًا مؤزَّرًا، ولثواب الله تعالى لهم في الآخرة على هجرتهم من أجل إعلاء كلمته أكبر وأعظم، ولو كان أعداؤهم الظالمون يعلمون ذلك لدخلوا في دين الإسلام، ولأقلعوا عن ظلمهم لهؤلاء المهاجرين.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المهاجرين بوصفين كريمين فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: هذا الأجر العظيم لهؤلاء المهاجرين الذين صبروا على ما أصابهم من عدوانٍ وظلم وفوضوا أمرهم إلى خالقهم فاعتمدوا عليه وحده، ولم يعتمدوا على أحدٍ سواه؛ وصفتا الصبر والتوكل على الله إذا دخلا في القلب حملاه على اعتناق كل فضيلة واجتناب كل رذيلة.

٥- تفسير الآيتين (٤٣ ، ٤٤):

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣ ، ٤٤].

المناسبة:

لما عجب المشركون من إيحاء الله لرسوله، ووحي الله لرسوله، واصطفائه برسالته، دفع الله شبهتهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ المقصود بهم علماء أهل الكتاب.

- قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين الدالة على صدق الرسل.

- قوله: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ جمع زبور بمعنى مزبور أي: مكتوب، يقال: زبرت الكتاب. أي: كتبته كتابة عظيمة.

الإعراب:

- قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ جواب الشرط لهذه الجملة محذوف دل عليه ما قبله، أي: إن كنتم لا تعلمون؛ فاسألوا أهل الذكر.

- قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾.

اللطائف:

قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أتي بـ﴿إِن﴾ المفيدة للشك؛ إيماءً إلى أنهم كانوا يعلمون أنَّ الرسل لا يكونون إلا من البشر ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة والتمويه لتضليل الجهلاء، ولذا جيء في الشرط بحرف ﴿إِن﴾ المفيدة للشك.

ثانيًا: قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ أسند سبحانه التبيين إلى النبي ﷺ؛ لأنَّه هو المبلِّغ عن الله تعالى.

المعنى العام:

وما أرسلنا من قبلك أيها الرسول لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق إلا رجالًا مثلك وقد أوحينا إليهم بما يبلغونه إلى أقوامهم من نصائح وتوجيهات وعبادات وتشريعات، وقد لقي هؤلاء الرسل من أقوامهم مثل ما لقيت من قومك من أذى وتكذيب وتعنت في الأسئلة.

ولقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر في كل زمان ومكان، فإن كنتم في شك من ذلك أيها المكذبون، فاسألوا علماء أهل الكتاب السابقين من اليهود والنصارى، فسيبينون لكم أن الرسل جميعًا كانوا من البشر ولم يكونوا من الملائكة، وما أرسلنا من قبلك أيها الرسول إلا رجالًا مؤيدين بالمعجزات الواضحات وبالكتب العظيمة المشتملة على التشريعات الحكيمة والآداب الحميدة والعقائد السليمة التي تسعد الناس في دينهم وفي دنياهم، وأنزلنا إليك أيها الرسول القرآن؛ لتعرف الناس بحقائق وأسرار ما أنزل لهدايتهم في هذا القرآن من تشريعات وآداب وأحكام ومواعظ، ولعلهم بهذا التعريف والتبيين يتفكرون فيما

أرشدتهم إليه ويعملون بهديك ويقتدون بك في أقوالك وأفعالك وبذلك يفوزون ويربحون.

المعاني المستفادة:

أولًا: تسلية النبي ﷺ والرد على المشركين فيما أثاروه من شبهات؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

ثانيًا: وجوب الرجوع إلى أهل العلم فيما لا يعلم؛ قال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ثالثًا: الرسول ﷺ هو المبين لما أجمل في القرآن قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٦. تفسير الآيات من رقم (٤٥) إلى (٤٧):

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

المناسبة:

بعد أن ردت السورة الكريمة على ما أثاره المشركون من شبهات حول الدعوة الإسلامية، أتبعت ذلك بتهديدهم بسوء عاقبة ما هم فيه من كفر وعصيان وعناد، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى آخره.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي: سعوا بالفساد بين المؤمنين على سبيل الإخفاء والخداع.
- قوله: ﴿ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ الخسف: التغييب في الأرض.
- قوله: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ ﴾ الأخذ المراد به: القهر والإهلاك.
- قوله: ﴿ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ التقلب: الحركة السريعة.
- قوله: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ التخوف: هو التناقص.

الإعراب:

- قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾: ﴿ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾، صفة لمصدر محذوف، أي: مكروا المكرات السيئات، ويجوز أن تكون كلمة: ﴿ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ مفعولًا به بتضمين ﴿ مَكَرُواْ ﴾ فعلوا، أي: فعلوا السيئات.

البلاغة:

الاستفهام في قوله: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ للتعجب والتوبيخ.

المعنى العام لهذه الآيات:

أجَهِل الذين اجترحوا السيئات وهم مشركو مكة ومن على شاكلتهم، فأمنوا عقابنا وتوهموا أنهم لن يصيبهم شيء من عذابنا، الذي من مظاهره خسف الأرض بهم كما خسفناها بقارون من قبلهم، إن جهلهم هذا لدليل على

انطماس بصيرتهم، واستحواذ الشيطان عليهم، إن في قدرة الله أن يخسف بهم الأرض، وفي قدرته أيضًا أن يرسل عليهم العذاب فجأة فيأتيهم من جهة لا يتوقعون مجيئه منها ولا يترقبون الشر من ناحيتها، كذلك في قدرة الله أن يهلكهم وهم يتحركون في مناكب الأرض خلال سفرهم أو إقامتهم، فإنهم في جميع الأحوال لا يعجز الله أخذهم، ولا مهرب لهم مما يريده الله بهم، وكذلك في قدرة الله تعالى أيضًا أن يأخذهم وهم في حالة تنقص في أنفسهم وأموالهم وأولادهم حتى يهلكوا فيكون هلاكهم قد سبقه الفقر والقحط والمرض، وفي ذلك ما فيه من عذاب لهم وحسرة عليهم، ثم بين سبحانه فضله على عباده فقال: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة؛ بل أمهلهم لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه.

المعاني المستفادة لهذه الآيات:

أولًا: العذاب الذي توعد الله به هؤلاء المشركين عذاب لا يمكن دفعه أو الهروب منه؛ لأنه آتاهم بغتة ومن جهة لا يترقبون الشر منها.

ثانيًا: تحذير الكافرين من التمادي في كفرهم وتهديدهم بخسف الأرض بهم أو بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون.

٧. تفسير الآيات من رقم (٤٨) إلى (٥٠):

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨- ٥٠].

المناسبة:

بعد أن خوَّف الله سبحانه الماكرين بما خوفهم به؛ أتبع ذلك، مما يدل على كمال قدرته وعظمته وجلاله حيث خضعت جميع المخلوقات لذاته سبحانه، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ يَتَفَيَّأُ ﴾ تفيؤ الظلال، يعني: تنقلها من جهة إلى أخرى بعد شروق الشمس وزوالها.

- قوله: ﴿ ظِلَالُهُ ﴾ الظلال جمع ظل: وهو صورة الجسم المنعكس إليه نوره.

- قوله: ﴿ دَاخِرُونَ ﴾ من الدخور بمعنى: الانقياد والخضوع.

- قوله: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ أي: جهة اليمين والشمال.

- قوله: ﴿ مِن دَابَّةٍ ﴾ الدابة: كل ما يدب على وجه الأرض.

الإعراب:

- قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ﴿ مِن ﴾ بيان للإبهام الذي في ﴿ مَا ﴾ الموصولة في - قوله: ﴿ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ ﴾.

- قوله: ﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ حال من ظلاله أي: حال كون هذه الأشياء ظلالها سجدًا لله.

البلاغة:

- الاستفهام في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ للإنكار والتوبيخ، والرؤية هنا بصرية.

اللطائف الموجودة في الآيات:

أولًا: قوله: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ أفرد اليمين؛ لأن المراد به جنس الجهة، كما يقال: المشرق أي: جهة المشرق، وجمع الشمائل، والشمائل مفرده شمال؛ لأن المقصود تعدد هذه الجهة باعتبار تعدد أصحابها. قال الشوكاني: قال الفراء: وحد اليمين؛ لأنه أراد واحدًا من ذوات الأطلال؛ وجمع الشمائل لأنه أراد كلها.

ثانيًا: قوله: ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أتى بصيغة الجمع الخاصة بالعقلاء تغليبًا للعقلاء على غيرهم.

ثالثًا: قوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أوثرت ﴿ مَا ﴾ الموصولة على "من" تغليبًا لغير العقلاء لكثرتهم، ولإرادة العموم.

المعنى العام:

أعمي هؤلاء المشركون الذين مكروا السيئات ولم يروا ما خلق الله تعالى من الأشياء ذوات الظلال كالجبال والأشجار وغيرها، وهي تنقل ظلالها من جانب إلى جانب ومن جهة إلى جهة باختلاف الأوقات، وهي في كل الأحوال والأوقات منقادة لأمر الله تعالى، جارية على ما أراده لها من امتداد وتقلص

وغير ذلك، خاضعة كل الخضوع لما سخرت له، ثم بين سبحانه أن كل المخلوقات لن تمتنع عن السجود لله تعالى، سواء أكانت لها ظلال أم لا، فقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ قال العلماء: السجود على نوعين؛ سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله ﷻ وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال، والسجود في الآية يحتمل النوعين؛ لأن سجود كل شيء بحسبه، فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة، وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد، ثم بين سبحانه أن من صفات الملائكة أنهم يخافون ربهم الذي هو من فوقهم بجلاله وقهره وعلوه، ويفعلون ما يأمرون به من الطاعات ومن كل ما يكلفهم به سبحانه دون أن تصدر منهم مخالفة.

المعاني المستفادة:

أولًا: وصف الله سبحانه بما هو أهل له من صفات القدرة والجلال والكبرياء.

ثانيًا: الدعوة إلى أن يعود الضالون إلى رشدهم، ويخلصوا العبادة لخالقهم.

الإعجاز العلمي في هذه الآيات:

أشار قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أشارت إلى وجود ظاهرة الظل دون ذكر تعليل لحدوثها، لكن هناك آية في القرآن الكريم أشارت إلى دور الشمس كمؤثر للظل، وهو قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦]؛ فلا تناقض بين الطريقة التي يذكر القرآن بها الظل وبين ما عرف عن هذه الظاهرة في العلم الحديث.

تفسير الآيات (٥١- ٦٧) من سورة (النحل)

١- تفسير الآيات من رقم (٥١) إلى (٥٥):

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥١- ٥٥].

المناسبة:

لما بين سبحانه في الآية السابقة أن كل ما سوي الله تعالى، سواء أكان من عالم الأرواح أم من عالم الأجساد منقاد وخاضع لجلاله تعالى وكبريائه، أتبع ذلك في هذه الآية بالنهي عن الشرك وببيان أن كل ما سواه واقع في ملكه وتحت تصرفه، وأنه غني عن الكل، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله تعالى: ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ الرهبة: الخوف المصحوب بالحرص.
- قوله: ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ ﴾ أي: الطاعة والخضوع بامتثال أمره واجتناب نهيه.
- قوله: ﴿ وَاصِبًا ﴾ من الوصوب بمعنى الدوام.
- قوله: ﴿ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ من الجُأر بمعنى: رفع الصوت بالاستغاثة وطلب العون.

الإعراب:

- قولـه: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ ﴾ معطـوف علـى قولـه سـبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

- ﴿ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾، صفة للفظ: ﴿ إِلَٰهَيۡنِ ﴾ أو مؤكد له.

البلاغة:

- قوله: ﴿ فَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ قدم المفعول وهو ﴿ فَإِيَّيَ ﴾ لإفادة الحصر وحذف متعلق الرهبة للعموم، أي: ارهبوني في جميع ما تأتون وتذرون، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.

- الاستفهام في قوله: ﴿ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ للإنكار والتعجب.

- قولـه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ ﴾ المـراد بـ﴿ نِّعۡمَةٖ ﴾: الـنعم، وعلمـاء البيـان يعدون استعمال المفرد في معنى الجمع اعتمادًا على القرينة من أبلغ الأساليب الكلامية.

- قدم سبحانه الجار والمجرور في قوله: ﴿ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ لإفادة القصر، أي: إليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء.

اللطائف:

أولًا: قولـه تعـالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ أظهـر الفاعـل، لفـظ الجلالـة: ﴿ ٱللَّهُ ﴾ وتخـصيص لفـظ الجلالـة للـذكر للإيـذان بأنـه تعـالى مـتعين الألوهية، والمنهي عنه هو الإشراك به؛ لأنَّ المنهي عنه هو مطلق اتخاذ الإلهين.

ثانيًا: التعبير بالمس في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ للإيماء بأنَّه بمجرد أن ينزل بهم الضر ولو نزولًا يسيرًا جأروا إلى الله تعالى بالدعاء لكشفه.

المعنى العام لهذه الآيات:

قال الله تعالى لعباده عن طريق رسله عليهم الصلاة والسلام: لا تتخذوا شركاء معي في العبادة والطاعة، بل اجعلوا الطاعة والعبادة لله وحده، فهو الخالق لكل شيء والقادر على كل شيء، فالمستحق للعبادة إله واحد: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وإن خفتم شيئًا فخافوا الله وحده دون غيره؛ لأنه هو الذي لا يعجزه شيء.

ثم ساق سبحانه بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته، ونفاذ إرادته، فقال: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: ولله تعالى وحده ما في السموات وما في الأرض ملكًا وخلقًا لا شريك له في ذلك ولا منازع له في أمره أو نهيه، وله أيضًا الطاعة الدائمة والخضوع الباقي الثابت الذي لا يحول ولا يزول.

كان على المشركين بعد ذلك أن يرهبوا الله ولا يتبعوا غير الله، وكل نعمة عندكم أيها المشركون كعافية في أبدانكم، ونماء في مالكم وكثرة في أولادكم، وصلاح في بابكم؛ فهي من الله وحده، فكان من الواجب عليكم أن تشكروه على ذلك، ولكنكم لم تفعلوا فإنكم إذا نزل بكم الضر صحتم بالدعاء، ورفعتم أصواتكم بالتضرع؛ ليكشف عنكم ما حل بكم، فإذا ما كشف سبحانه عنكم الضر سرعان ما يقع فريق منكم في الشرك الذي نهى الله تعالى عنه قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢]، فما كانت عاقبة تلك التضرعات إلا الكفر، قل لهم أيها الرسول: اعملوا ما شئتم فسوف تعلمون عاقبتكم يوم القيامة.

المعاني المستفادة من الآيات:

أولًا: النهي عن الشرك والأمر بإخلاص العبادة لله وحده.

ثانيًا: كل نعمة في هذا الكون من الله سبحانه فهو مصدرها وموجدها؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾.

ثالثًا: لا كاشف للضر إلا الله؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾.

رابعًا: مسارعة فريق من الناس إلى جحود نعم الله تعالى بمجرد أن يكشف عنهم الضر بدون تريث أو تمهل.

٢. تفسير الآيات من رقم (٥٦) إلى (٦٠):

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٥٦- ٦٠].

بيان مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن نهى الله سبحانه عن الشرك في الآيات السابقة، أتبع ذلك ببيان جانب من عقائدهم الباطلة وأفعالهم القبيحة التي تمجها العقول السليمة والأفكار القويمة،

فقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي: تنزه وتقدس.
- قوله: ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ من الكظم بمعنى: الحبس، يقول: كظم فلان غيظه إذا حبسه وهو ممتلئ به.
- قوله: ﴿ بُشِّرَ ﴾ أصل البشارة الإخبار بما يسر.
- قوله: ﴿ يَتَوَارَىٰ ﴾ أي: يختفي.
- قوله: ﴿ يَدُسُّهُ ﴾ أي: يخفيه في التراب.
- قوله: ﴿ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ أي: هوان وذل.
- قوله: ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي: بئس الحكم حكمهم.
- قوله: ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ مصدر ساءه يسوؤه سوءًا إذا عمل معه ما يكره.
- قوله: ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي: أفعال المشركين القبيحة.
- قوله: ﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي: الصفة العليا.

الإعراب:

الضمير في قوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ وقوله: ﴿ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعود إلى الكفار.

- قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ مصدر ناب عن فعله وهو منصوب على أنه مفعول مطلق، وهو في محل جملة معترضة وقعت جوابًا عن مقالتهم السيئة التي حكاها الله عنهم وهي: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

- الضمير المنصوب على المفعولية في قوله: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ وقوله: ﴿يَدُسُّهُۥ﴾ يعود على المبشر به وهو ﴿بِٱلْأُنثَىٰ﴾.

البلاغة:

- تنكير ﴿نَصِيبًا﴾ في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا﴾ هنا للتعظيم.

- قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وتوبيخ الحاضر أشد من توبيخ الغائب.

- قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾ محذوف ومتروك؛ لقصد العموم.

اللطائف:

١. قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ سؤال الله للمشركين يوم القيامة عما اجترحوه واكتسبوه، يدل على عدل الله تعالى مع هؤلاء الظالمين؛ لأنه لم يعاقبهم إلا بعد ما سألهم وبعد أن ثبت إجرامهم.

٢. قوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ صدر سبحانه هذا الحكم العادل عليه بحرف ألا الاستفتاحية؛ لتأكيد هذا الحكم، ولتحقيق أن ما أقدموا عليه إنما هو ظلم عظيم قد تمالئوا عليه بسبب جهلهم الفاضح وتفكيرهم السيئ.

المعنى العام لهذه الآيات:

إن هؤلاء المشركين يفعلون ما يفعلون من إشراكهم بالله تعالى، ومن التضرع إليه عند الضرر ونسيانه عند الرخاء، ولا يكتفون بذلك بل ويجعلون للأصنام التي لا يعلمون منها ضرًّا ولا نفعًا نصيبًا مما رزقهم الله من الحرث والأنعام وغيرهما، فهددهم الله تعالى وتوعدهم على سوء أفعالهم فأقسم بذاته: لَتُسْأَلُنّ -أيها المشركون- عما كنتم تفترونه من أكاذيب في الدنيا ولأعاقبنكم العقاب الذي تستحقونه، بسبب افترائكم وكفركم. وهؤلاء المشركون لم يكتفوا بجعل نصيب مما رزقهم الله لآلهتهم بل أضافوا إلى ذلك رذيلة أخرى وهي زعمهم أن الملائكة بنات الله تعالى وأشركوها معه في العبادة، تنزه الله تعالى وتقدس عن أن يكون له بنات وبنين، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فهؤلاء المشركون يجعلون لله البنات، أما هم فيجعلون لأنفسهم الذكور، ويختارونهم ليكونوا خلفاء لهم، وإذا أخبر أحد هؤلاء الذين يجعلون لله البنات بولادة الأنثى دون الذكر صار وجهه مسودًّا كئيبًا كأن عليه غبرة تعلوه ظلمة وسواد، وصار جسده ممتلئًا بالحزن المكتوم والغيظ المحبوس، وأصبح يتواري ويختفي عن أعين الناس، وهذا المشرك بعد أن يبشر بولادة الأنثى يدور بذهنه أحد أمرين؛ إما أن يمسكها ويبقيها على هوان وذل، وإما أن يدسها ويكفيها في التراب بأن يدفنها فيه وهي حية حتى تموت.

ثم بين سبحانه بأن للذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب صفة الثوب التي هي كالمثل في القبح وهي وَأْدُهم البنات، وجعلهم لآلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله وقولهم: الملائكة بنات الله، وفرحهم بولادة الذكور للاستظهار بهم، فهذه الصفات تدل على غبائهم وجهلهم، وقبح تفكيرهم، أما

الله ﷻ فله المثل الأعلى أي: الصفة العليا وهي أنه الواحد الأحد المنزه عن الوالد والولد، والمبرأ من مشابهة الحوادث والمستحق لكل صفات الكمال والجلال في الوحدانية والقدرة والعلم وغير ذلك مما يليق به سبحانه، فهو العزيز في ملكه بحيث لا يغلبه غالب.

المعاني المستفادة:

أولًا: بيان جهل المشركين بجعلهم للأصنام التي لا تضر ولا تنفع نصيبًا مما رزقهم الله من الحرث والأنعام.

ثانيًا: بيان جهل المشركين بجعلهم البنات لله وجعل الذكور لهم، فنزه الله عن أن يكون له بنات وبنون.

ثالثًا: بيان عدل الله تعالى بسؤال المشركين قبل عقابهم.

٣. تفسير الآيات من رقم (٦١) إلى (٦٤):

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦١- ٦٤].

المناسبة:

بعد أن ساق سبحانه ما يدل على جهالة المشركين وانطماس بصائرهم وسوء تفكيرهم، أتبع ذلك بالحديث عن مظاهر رحمته بخلقه، وعن جانب من جرائم المشركين، وعن وظيفة القرآن الكريم؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾ إلى آخر الآيات.

بيان معاني المفردات:

- قوله: ﴿ يُؤَاخِذُ ﴾ أي: يعاقب. ﴿ بِظُلْمِهِم ﴾ الظلم: مجاوزة الحدود التي شرعها الله تعالى، وأعظمه الإشراك بالله تعالى.

- قوله: ﴿ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ﴾ المراد بالساعة: مطلق الوقت الذي هو غاية في القلة. وقوله: ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي: تقول وتذكر بشرح وبيان وتفصيل. وقوله: ﴿ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الحسنى تأنيث الأحسن أي: أحسن نصيب وأعظمه.

ثانيًا: قوله: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي: ثبت وحق. قوله تعالى: ﴿ مُّفْرَطُونَ ﴾ أي: قادمون إلى النار.

ثالثًا: قوله: ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ المراد باليوم: مدة أيام الدنيا.

الإعراب:

- قوله: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾: ﴿ وَلَوْ ﴾ عطف، وشرط يدل على امتناع وقوع جوابه لامتناع وقوع شرطه، وقد امتنع هنا إهلاك الناس لامتناع إرادة الله تعالى ذلك.

- قوله: ﴿ بِظُلْمِهِم ﴾ الباء للسببية.

- قوله: ﴿ عَلَيْهَا ﴾ في قوله: ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ الضمير يعود على الأرض، وصح عود الضمير على الأرض مع أنه لم يسبق ذكر لها؛ لأن قوله: من دابة يعود على ذلك؛ لأنه من المعلوم أن الدواب تدب على الأرض.

المعنى الإجمالي لهذه الآيات:

لو عاجل الله الناس بالعقوبة بسبب ما اجترحوه من ظلم وآثام لأهلكهم جميعًا، وما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب عليها، ولكنه سبحانه فضلًا منه وكرمًا لا يعاجلهم بالعقوبة التي تستأصلهم؛ بل يؤخرهم إلى أجل معين محدد تنتهي عنده حياتهم، وهذا الوقت المحدد لا يعلمه إلا الله ﷻ فإذا حان الوقت المحدد لهلاكهم فرقوا هذه الدنيا بدون تقديم أو تأخير عن هذا الوقت.

ثم حكى سبحانه رذيلة أخرى من رذائل المشركين فقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أي أن هؤلاء المشركين لا يكتفون بإنكارهم البعث، وبجحودهم نعم الله تعالى؛ بل أضافوا إلى ذلك أنهم يثبتون له سبحانه وينسبون إليه كذبًا وزورًا ما يكرهونه لأنفسهم فهم يكرهون أن يشاركهم أحد في أموالهم أو في مناصبهم، ومع ذلك يشركون مع الله في العبادة آلهة أخرى، ويكرهون أراذل الأموال، ومع ذلك يجعلون لله تعالى أراذل أموالهم، ويجعلون لأصنامهم أكرمها، ويكرهون البنات ومع ذلك ينسبونهن إليه سبحانه، وكذلك هؤلاء المشركون تنطق ألسنتهم بالكذب نطقًا صريحًا واضحًا؛ إذ زعموا أنه وإن كانت الآخرة حقًّا، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب منهم.

وهؤلاء الذين يزعمون أن لهم الحسنى في الآخرة، كذبوا في زعمهم، وفجروا في إفكهم؛ فإنهم ليس لهم شيء من ذلك، وإنما الأمر الثابت الذي لا شك فيه أن لهم في الآخرة النار، وأنهم مقدمون إليه بدون إمهال، ومتروكين فيها بدون اكتراث بهم كما يترك الشيء الذي لا قيمة له، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

ثم وجه سبحانه خطابًا لنبيه ﷺ على سبيل التسلية، والتثبيت حيث بين له أن ما أصابه من مشركي قومه قد فعل ما يشبهه المشركون السابقون مع أنبيائهم؛ فقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

ثم بين سبحانه أهم الوظائف التي من أجلها أنزل كتابه على نبيه ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤] أي: أنزلنا عليك الكتاب -أيها الرسول- لتبين للناس عن طريق وجه الحق فيما اختلفوا فيه من أمور الدين، وليكون هذا الكتاب هداية إلى الطريق القويم، ورحمة لقوم يؤمنون به، ويسيرون في كل أمورهم على هدي تعاليمه وإشادته وتشريعاته.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: فضل الله تعالى وكرمه بالعباد حيث لم يعجل لهم عقوبة الاستئصال كما حدث مع الأمم السابقة، وإنما أمهلهم إلى أجل مسمى، فإذا انقضى هذا الأجل وهو عمرهم في الدنيا، ولم يتوبوا كان العذاب الأليم في الآخرة لكنهم إن توبوا ورجعوا إلى رشدهم قبل الله ﷻ توبتهم.

ثانيًا: بيان رذائل المشركين حيث نسبوا إلى الله ﷻ ما لا يليق بذاته، فنسبوا إليه البنات، ونسبوا إلى أنفسهم البنين، وهكذا.

ثالثًا: أن الله ﷻ يسلط على الكافرين الشياطين عقوبة لهم على ما اقترفوه من معاصٍ وآثام، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣].

٤- تفسير الآيات من رقم (٦٥) إلى (٦٧):

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ٦٥- ٦٧].

المناسبة:

بعد أن ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة جانبًا من جرائم المشركين في حق الله ﷻ وذكر أيضًا وظيفة الرسول ﷺ أتبع ذلك لبيان ذكر ألوان من نعم الله على خلقه فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ تطلق على الإبل والبقر والغنم.
- قوله: ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ العبرة: العظة والاعتبار.
- قوله: ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ الفرث: هو الطعام المتبقي بعد هضمه، "الخالص" هو النقي.
- ﴿ سَآئِغًا ﴾ "السائغ": اللذيذ الطعم السهل الذي يدخل إلى الحلق.

- قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ "السكر" اسم من أسماء الخمر، "الرزق الحسن" ما كان حلالًا من ثمرات النخيل والأعناب كالتمر والزبيب، وغير ذلك مما أحله الله تعالى من ثمرهما.

الإعراب:

- الضمير في ﴿بُطُونِهِۦ﴾ يعود للأنعام.

- قوله: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: "ثمره"، و﴿تَتَّخِذُونَ﴾ نعت لهذا المبتدأ المحذوف، ومنه الضمير يعود على المبتدأ المحذوف، وهو الثمر.

- قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ اسم الإشارة يعود إلى إخراج اللبن من بين الفرث والدم، ومن اتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب.

البلاغة:

- قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ التنكير في قوله: ﴿لَعِبْرَةً﴾ للتفخيم والتهويل.

اللطائف في هذه الآيات:

أولًا: الخمر محرمة؛ ذكرها الله في معرض الأنعام مع أنها محرمة لأن هذه السورة مكية، وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة؛ فكانت نزول هذه الآية في الوقت الذي كان الخمر فيه غير محرم.

ثانيًا: ذكّر الضمير في هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ وأنّث الضمير في "سورة المؤمنون" في قوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ [المؤمنون: ٢٢] لكون الأنعام اسم جمع؛ فيذكر ويفرد ضميره باعتبار لفظه، ويؤنث ويجمع باعتبار معناه.

ثالثًا: قدم سبحانه قوله: ﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ على قوله: ﴿ لَّبَنًا ﴾ لأن خروج اللبن من بين الفرث والدم هو موطن العبرة، وموضع الدليل الأسمى على قدرة الله ووحدانيته.

المعنى العام لهذه الآيات:

كما أنزل الله تعالى كتابه ليكون هداية ورحمة لقوم يؤمنون، أنزل سبحانه الماء من السماء على الأرض؛ فتحولت بسبب نزول هذا الماء المبارك الكثير عليها من أرض جد خامدة، إلى أرض خضراء راضية، ثم حرض سبحانه عباده على التدبر والشكر فقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي: إن في ذلك الذي فعلناه بقدرتنا وحدها من إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به من بعد موتها لآية عظيمة، وعبرة جليلة، ودلالة واضحة تدل على وحدانيتنا وقدرتنا وحكمتنا لقوم يسمعون ما يتلى عليهم من كلام الله تعالى سماع تدبر، واعتبار فيعملون بما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة، وإرشادات سديدة.

ثم أرشد سبحانه إلى مظهر آخر من مظاهر وحدانيته، وعظيم قدرته، وعجيب صنعه وسعة رحمته، حيث خلق للناس الأنعام، وسقاهم من ألبانها؛ فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾.

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، وهي نعمة ثمرة النخيل والأعناب؛ فقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فهذا بيان لآياته تعالى في الثمرات المذكورة.

وهذا بيان لفضل الله ﷻ في هذه الثمرات المذكورة في المشروب منها، والمطعوم.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: من نعم الله على الإنسان إحياء الأرض بعد موتها، والمراد من إحيائها تحرك القوى النامية فيها، وإظهار ما أودعه الله فيها من نبات وأزهار، وثمرات وغير ذلك، والمراد بـ﴿مَوْتِهَآ﴾ خلوها من ذلك كله أي: القوى النامية فيها لا تتحرك لن يظهر ما أودعه الله فيها من نبات وأزهار، وثمرات وغير ذلك.

ثانيًا: إن خروج اللبن من بين الفرث -الطعام المتبقى في أمعاء الحيوان- والدم من أكبر الأدلة على وحدانية الله، ونفاذ قدرته، وعجيب صنعه. فهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة للبشر، وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها، فضلًا على أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة، وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل، ووجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن.

ثالثًا: نعمة جزيلة من نعم الله على خلقه.

تفسير الآيات (٦٨ - ١٠٠) من سورة (النحل)

عناصر الدرس

العنصر الأول : تفسير الآيات (٦٨ - ٨٣) من سورة (النحل) ٢٦١

العنصر الثاني : تفسير الآيات (٨٤ - ١٠٠) من سورة (النحل) ٢٧٨

تفسير الآيات (٦٨ - ٨٣) من سورة (النحل)

١ـ تفسير الآيتين (٦٨ ، ٦٩):

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨ ، ٦٩].

المناسبة:

بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة ألوانًا من نعمه على خلقه، من تلك النعم نعمة إنزال الماء من السماء، ونعمة خلق الأنعام، ونعمة إيجاد النخيل والأعناب، ساق سبحانه بعد ذلك ما يدل على وحدانيته وقدرته عن طريق إخراج العسل الذي فيه شفاء للناس بواسطة حشرة ضعيفة -وهي النحلة؛ فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ ﴾ من الوحي وهو هنا بمعنى: الإلهام، وهو كما يقول القرطبي: ما يخلقه الله ابتداءً من غير سبب ظاهر، والإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فتأنقها في صنعتها ولطفها في تدبير أمرها، وإصابتها فيما يصلحها كل ذلك إنه لدلائل شاهدة على أن الله تعالى أودعها علمًا؛ لذلك كما أودع أولي العقول عقولهم.

- قولـه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ : ﴿ ٱلنَّحْلِ ﴾ : اسـم جـنس يفـرق بينـه وبـين واحده بالتاء المفردة "نحلة" لكن الجمع "النحل" بدون تاء.

- قوله: ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ أي: مما يرفعه الناس ويعرشونه من السقوف وغيرها.

- قولـه: ﴿ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ : ﴿ سُبُلَ ﴾ جمـع سـبيل، والمـراد بهـا الطرق التي تسلكه النحلة في خروجها من بيتها، وفي رجوعها إليه.

- قوله: ﴿ ذُلُلًا ﴾ جمع ذلول وهو الشيء الممهد المنقاد.

الإعراب:

- قولـه: ﴿ أَنِ ٱتَّخِذِى ﴾ : ﴿ أَنِ ﴾ مفـسرة؛ لأن الإيحـاء فيـه معنـى القـول دون حروفه، وما بعدها لا محل لـه من الإعـراب، ويجـوز أن تكـون ﴿ أَنِ ﴾ مـصدرية فيكون ما بعدها في محل نصب على تقدير الجار أي: بأن اتخذوا.

- قوله: ﴿ مِنَ ٱلْجِبَالِ ﴾ : ﴿ مِنَ ﴾ تبعيضية.

- قوله: ﴿ ذُلُلًا ﴾ حال من النحلة.

- قوله: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ الضمير في ﴿ فِيهِ ﴾ يعود على الـشراب المستخرج من بطونها، وهو العسل.

البلاغة:

أولًا: قوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ عدل به من خطاب النحلة إلى خطاب الناس؛ تعديدًا للنعم، وتعجيبًا لكل سامع، وتنبيهًا على مواطن العظات والعبر الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وعجيب صنعه في خلقه.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ هل الشفاء الذي جعله الله في العسل عام لكل داء أو خاص لبعض الأمراض.

قالت طائفة: هو العموم في كل حال، ولكل أحد، يعني: العسل شفاء لأي إنسان، وكذلك شفاء لكل الأمراض.

وقالت طائفة أخرى: إنَّ ذلك الشفاء خاص ببعض الأمراض، ولا يقتضي العموم في كل علة، وفي كل إنسان.

والذي نراه أنَّه من الواجب علينا أن نؤمن إيمانًا جازمًا بأنَّ العسل المذكور فيه شفاء للناس كما صرح بذلك القرآن الكريم، وكما أرشد إلى ذلك النبي ﷺ وعلينا بعد ذلك أن نفوض أمر هذا الشفاء وعموميته وخصوصيته لعلم الله تعالى وقدرته وحكمته، ويكفينا يقينًا في هذا المجال إصرار النبي ﷺ على أن يقول للرجل الذي استطلق بطن أخيه أكثر من مرة: ((اذهب فاسقه عسلًا)).

المعنى العام للآيتين:

لقد ألهم ربك النحل وأرشدها وهداها إلى أن تتخذ من فجوات الجبال بيوتًا تسكن فيها، وكذلك من تجاويف الأشجار وما يرفعه الناس ويعرشونها من السقوف وغيرها، وليس للنحل بيت في غير هذه الأمكنة: الجبال، والشجر، وبيوت الناس، وأكثر بيوتها ما كان في الجبال، ثم الشجر، ثم ما يرفعه الناس ويعرشونه من السقوف وغيرها.

فالنحل إذن نوعان: جبلية تسكن في الجبال والفيافي ولا يتعهدها أحد من الناس، وأهلية تأوي إلى البيوت، ومن بديع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى، فإذا استقر لها بيت خرجت منه، فرعت وأكلت من الثمرات، ثم أوت إلى بيوتها.

٢- تفسير الآيات من رقم (٧٠) إلى (٧٢):

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى

رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٠- ٧٢].

المناسبة:

بعد أن ذكر الله عجائب قدرته في خلق الأنعام والأشجار والنحل، ذكر بعد ذلك ألوانًا أخرى من مظاهر قدرته تعالى في خلق الإنسان، وفي التفاضل في الأرزاق، ومن نعمه على عباده في إيجاد الأزواج والبنين والحفدة؛ فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ... ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ أي: يُنهي حياتكم.

- قوله: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ أي: أضعفه وأوهاه، وهو وقت الهرم والشيخوخة الذي تنقص فيه القوى، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها.

- قوله: ﴿ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ ﴾ أي: باذلي رزقهم.

- قوله: ﴿ وَحَفَدَةً ﴾ جمع حافد والمراد بالحفدة أبناء الأبناء.

- قوله: ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ عموم أي عموم النعم التي أنعم الله بها عليه.

- قوله: ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ اللام للتعليل، ويجوز أن تكون لام الصيرورة والعاقبة أي: ليصير أمره بعد العلم بالأشياء إلى ألا يعلم شيئًا منها علمًا كاملًا.

البلاغة:

- الاستفهام في قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

- قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ الغرض من الاستفهام التأنيب والتوبيخ.

اللطائف في هذه الآيات:

- قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ في تقديم الباطل على الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إشارة إلى أنهم قد اختلط الباطل بدمائهم فأصبحوا لا يؤمنون إلا به، ولا ينقادون إلا له.

- قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ في تقديم النعمة وتوسط ضمير الفصل الذي هو ﴿هُمْ﴾ إشعار بأن كفرهم بالنعمة مستمر، وإنكارهم لها لا ينقطع؛ لأنهم استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

المعنى العام لهذه الآيات:

الله تعالى هو الذي خلقكم بقدرته، ولم تكونوا قبل ذلك شيئًا مذكورًا، ثم هو وحده الذي يتوفاكم، ويُنهي حياتكم من هذه الدنيا عند انقضاء آجالكم، والله تعالى هو الذي خلقكم، فمنكم من يبقى محتفظًا بقوة جسده وعقله حتى يموت، ومنكم من يرد إلى أضعف العمر وأوهاه، وهو وقت الهرم والشيخوخة الذي تنقضي فيه القوى، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها، وفَعَل الله ما فعل من إبقاء بعض الناس في هذه الحياة إلى سن الشيخوخة؛ لكي يصير إلى حالة شبيهة بحالة طفولته في عدم إدراك الأمور إدراكًا تامًّا سليمًا.

ولقد استعاذ النبي ﷺ من أن يصل عمره إلى هذا السن ؛ لأنَّها سن تتكاثر فيه الآلام والمتاعب.

ثم أخبر الله بأنه فضل بعضهم على بعض في الرزق، فجعل منهم الغني والفقير، والمالك والمملوك، والقوي والضعيف، وغير ذلك من ألوان التفاوت بين الناس لحكمة هو يعلمها، ثم بين سبحانه أنه ليس الذين فضلهم الله في الرزق على غيره لباذل رزقٍ الذي رزقهم الله إياه على مماليكهم أو خدمهم الذين هم خدمة لهم في الإنسانية ؛ فالأغنياء الذين فضلوا في الرزق ومماليكهم وخدمهم في هذا الرزق سواء، من حيث إني أنا الرازق للجميع ؛ ولذلك كان ينبغي أن يرد الأغنياء فضل ما رزقوه على خدمهم ومماليكهم ؛ لأن ما ينفقونه عليه هو رزق أجراه الله للفقراء على أيدي الأغنياء، والأغنياء لم يفعلوا ذلك ؛ فكيف يشركون مع الله عبده في سلطانه؟! ويوبخ الله المشركين على جحود نعمه بقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

ثم يذكر الله سبحانه نعمة أخرى من نعمه على خلقه، وهو أن الله تعالى وحده الذي جعل له من جنسه ونوعه أزواجًا ليسكنوا إليها ويستأنسوا بها، فإن الجنس إلى الجنس آنس وأسكن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] وكذلك منَّ الله عليه بأن جعل من أزواجه بنين وحفدة، ورزقهم سبحانه من الطيبات التي يستلذونها ويشتهونها، وقد أحل لهم التمتع بها فضلًا منه وكرمًا، أبعد هذا كله من النعم يؤمن المشركون بالباطل، ويجحدون نعم الله؟!.

المعاني المستفادة:

أولًا: إمكان البعث وأنه حق؛ لأنَّ الله تعالى القائم على خلق الإنسان وعلى نقله من حال إلى حال قادر أيضًا على إحيائه بعد موته.

ثانيًا: تذكير الناس بعجائب خلقه وبأطوار حياته، وبتفاوت رزقهم، وببعض نعم الله عليه لعله عن طريق هذا التذكر يفيئون إلى رشدهم، ويخلصون العبادة لخالقهم سبحانه، ويستعملون نعمه فيما خلقت له.

٣. تفسير الآيات من رقم (٧٣) إلى (٧٦):

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٣- ٧٦].

المناسبة:

بعد أن ساقت السورة ألوانًا من مظاهر قدرته تعالى في خلق الإنسان، وفي التفاضل في الأرزاق، ومن نعمه على عباده في إيجاد الأزواج والبنين والحفدة، ساقت بعد ذلك لونًا من ألوان العقول المنحرفة عن الطريق الحق؛ فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ : ﴿ الْأَمْثَالَ ﴾ : جمع مثل وهو النظير والتشبيه لغيره، ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه، وهو الذي يضرب فيه لمورده، وهو الذي ورد فيه ذلك المثل، وضرب الأمثال لتوضيح الشيء الغريب وتقريب المعنى المعقول من المعنى المحسوس.

- قوله: ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ﴾ الكل هو الإنسان العاجز الضعيف الذي يكون محتاجًا إلى من يرعى شئونه.

- قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ : ﴿ الْحَمْدُ ﴾ : هو الثناء على الله.

الإعراب:

- قوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ﴾ : ﴿ شَيْئًا ﴾ هنا منصوب على المصدر، أي: يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم ملكًا، أي: شيئًا من ذلك.

- قوله: ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ الضمير يعود إلى ما وجمع لصيغة العقلاء بناءً على زعمهم الفاسد من أن هذه الأصنام في إمكانها النفع والضر.

- قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ هذا تعليل للنهي في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾.

- قوله: ﴿ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ منصوبان على الحال، أي: ينفق من هذا المن في حالة السر وحالة الجهر.

- قوله: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا ﴾ عبدًا بدل من مثلًا ومملوكًا صفة لعبدًا.

- قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ جملة في محل نصب حال، هذا بالنسبة إلى الإعراب.

المعنى العام:

إن هؤلاء الجاحدين لنعم الله تعالى بلغ من جهالته وسفاهته أنهم يؤمنون بالباطل، ويكفرون بالحق، ويعبدون من دون الله تعالى أصنامًا وأوثانًا لا تملك لعابدها أي شيء من الرزق، فهي لا تنزل مطرًا من السماء، ولا تخرج نباتًا من الأرض، ولا تستطيع أن تنفع أو تضر، ثم وجه الله الكلام إلى المشركين بألا يتجاسروا ويتطاولوا، ويضربوا لله الأمثال، كما يضرب بعضكم لبعض، فإن الله تعالى هو الذي يعلم كيف تضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون ذلك.

ثم وضح لهم سبحانه كيف تضرب الأمثال؟ فساق مثلين حكيمين يدلان على وحدانية الله وقدرته: أما المثل الأول فيتجلى في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ذكر الله لكم هذه الأمثال لتتعظوا، وتتفكروا حال رجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شيء، والثاني حر مالك، رزقه الله تعالى رزقًا واسعًا حلالًا حسنًا، فهذا الحر ينفق على غيره من هذا الرزق الحسن سرًّا وجهرًّا، هل يستوي في عرفكم -أو في عرف أي عاقل- هذا العبد المملوك العاجز الذي لا يقدر على شيء مع هذا الإنسان الحر المالك الذي رزقه الله رزقًا حسنًا واسعًا حلالًا، فشكر الله عليه، واستعمله في وجوه الخير؟!.

أما المثال الثاني: فهو أشد وضوحًا من سابقه على وحدانية الله تعالى، ورحمته بعباده، وعلى الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر، ويتجلى هذا المثال في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾.

وذكر الله تعالى مثلًا آخر، أي وذكر الله تعالى مثلًا آخر لرجلين أحدهما لا يستطيع النطق والكلام، ضعيف الفهم والتفهيم لغيره، لا يقدر على فعل شيء من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره، هذا الرجل حمل ثقيل، وهمٌّ كبير على مولاه، الذي يتولى شئونه من طعام وشراب وكساء وغير ذلك، وهذا بيان لعدم قدرته على القيام بمصالح نفسه بعد بيان عدم قدرته على القيام بفعل أي شيء على الإطلاق، وهذا الرجل حيثما يوجهه موالاه وكافله لقضاء أمر من الأمور يعود خائبًا لعجزه، وضعف حيلته، وقلة إدراكه هل يستوي هذا الرجل الأبكم العاجز مع رجل آخر يأمر غيره بالعدل، وهذا الرجل الآخر في نفسه على دين قويم وخلق كريم، فقد جمع ذلك بين فضيلتين جليلتين: نفعه لغيره، وصلاحه في ذاته.

هذه الآيات تبين بوضوح مدى تفاهة عقول هؤلاء المشركين الذين يشركون مع الله آلهة أخرى، وهي لا تضر ولا تنفع، وضرب الله لهم مثلين في غاية الوضوح لعدم التسوية في العبادة بين الخالق وبين المخلوق، بين القادر وبين العاجز، ضرب ذلك في أمثلة واضحة محسوسة ملموسة يلمسونها بأنفسهم لعلهم يتعظون ويعتبرون، ويتفكرون في أمور دنياهم، وفي أمور آخرتهم.

البلاغة في هذه الآيات:

- قوله: ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ التنكير في قوله: ﴿ رِزْقًا ﴾ للإشعار بقلته وتفاهته.

- قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ كناية عن معبوداتهم الباطلة، فهي مفردة لفظًا مجموعة معنى.

- قوله: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ﴾ جاء بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على ثبوت هذا الإنفاق ودوامه.

- قوله ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ طباق يوضح المعنى.

- قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ الغرض من الاستفهام النفي، أي: هل لا يستوون.

- قوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الغرض أيضًا النفي، أي: لا يستويان.

- قوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ﴾ للالتفات إلى التكلم للإشعار باختلاف حال ضرب المثل والرزق.

المعاني المستفادة:

أولًا: بيان الفرق الشاسع بين ذات الله تعالى الخلاق العليم الرزاق الكريم، وبين تلك المعبودات الباطلة التي أشركها الضالون في العبادة مع الله ﷻ إذن لا وجه للمقارنة على الإطلاق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

ثانيًا: الفرق الشاسع بين المؤمن الذي هو على بصيرة من أمره، وبين الكافر الذي استحب العمى على الهدى.

ثالثًا: بيان الفرق الشاسع بين الحق في وضوحه وجماله وجلاله، وبين الباطل في ظلامه وقبحه وحسنه.

٤- تفسير الآيات من رقم (٧٧) إلى (٨٣):

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٧٧- ٨٣].

المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها:

بعد أن ذكرت السورة لونًا من ألوان العقول المنحرفة في الآيات السابقة، أتبع ذلك ببيان ما يدل على إحاطة علمه سبحانه فقال: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الغيب ما لا تدركه الحواس، ولا تحيط بكنهه العقول؛ لأنَّه غائب عن مدارك الخلائق قوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ﴿ ٱلسَّاعَةِ ﴾ اسم لمقدار قريب من الزمان غير معين، والمراد بها هنا يوم القيامة.

- قوله: ﴿إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ يعني: التحرك السريع لطرف العين من جهة إلى جهة، أو من أعلى إلى أسفل.

- قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ من التسخير بمعنى: التذليل والانقياد.

- قوله: ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جمع نعم: وهي الإبل والبقر والغنم.

- قوله: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ "الظعن" بسكون العين -"الظعْن"- وفتحها - "الظعَن"- معناها: التحول والانتقال والرحيل من مكان إلى آخر؛ طلبًا للكلأ أو لغير ذلك من الأعراض.

- قوله: ﴿أَثَٰثًا﴾ الأثاث: متاع البيت الكثير.

- قوله: ﴿وَمَتَٰعًا﴾ المتاع: ما يتمتع به من حوائج البيت الخاصة كأدوات الطعام والشراب، فيكون عطف المتاع على الأساس من عطف الخاص على العام، وقيل: هما بمعنى واحد، والعطف لتنزيل تغاير اللفظ بمنزلة تغاير المعنى.

- قوله: ﴿ظِلَٰلًا﴾ الظلال: جمع ظل، وهو ما يستظل به الإنسان.

- قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ الأكنان جمع "كِن" بكسر الكاف وأصله السترة، والمراد به هنا المغارات والأسراب والكهوف.

- قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ السرابيل جمع "سربال": وهو ما يلبسه الناس للوقاية من الحر والبرد أو يقي به الإنسان نفسه من ضربات العدو، ويشمل القمصان والثياب والدروع، وغيرها.

اللطائف في هذه الآيات:

- الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لا تقتضي ترتيبًا؛ فلا ينافي أنَّ هذا الجعل قبل الإخراج من البطون، ونكتة تأخير الجعل أن

السمع ونحوه من آلات الإدراك إنما يعتد به إذا أحس الإنسان، وأدرك ذلك، وذلك لا يكون إلا بعد الإخراج، وقدم السمع على البصر؛ لأنَّه طريق تلقي الوحي أو لأنَّ إدراكه أقدم من إدراك البصر، وإفراده أي: إفراد السمع باعتبار كونه مصدرًا في الأصل لذلك جاء السمع مفردًا.

- قوله تعالى: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ في قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ إشارة إلى أنَّ طيران الطير في الجو ليس بمقتضى طبعها إنَّما هو تسخير من الله ﷻ.

- قوله: ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ أضاف سبحانه الجو إلى السماء؛ لارتفاعه عن الأرض، ولإظهار كمال قدرته سبحانه.

- قوله: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ مع أنَّ الملابس تقي من الحر والبرد؛ اكتفاءً بذكر أحد الضدين عن الآخر أو اكتفى بذكر الحر؛ لأنَّه الأهم عندهم إذ من المعروف أنَّ بلاد العرب يغلب عليها الحر لا البرد.

- قوله: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ دليل على اتخاذ الناس عدة الجهاد؛ ليستعينوا بها على قتال الأعداء، وقد لبسها النبي ﷺ في حروبه.

- قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ جاء التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة بالنعم، فإنَّ من شأن العالم بالنعمة أن يؤدي الشكر لمسديها بأن يستعملها فيما خلقت له.

البلاغة:

- قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بين "يعرفون"، و"ينكرون" طباق، والطباق فائدته إظهار المعنى.

المعنى الإجمالي للآيات:

ولله تعالى وحده علم جميع ما غاب في السموات والأرض من أشياء، وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته، وما يترتب عليه من إماتة وإحياء وحساب وثواب وعقاب، وما أمر ذلك كله إلا كتحرك طرف العين من جهة إلى جهة أو أمر قيام الساعة أقرب من ذلك وأسرع، بحيث يكون في نصف هذا الزمان أو أقل من ذلك؛ لأنَّ قدرة الله لا يعجزها شيء؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

إنَّ الله لا يعجز قدرته شيء سواء أكان هذا الشيء يتعلق بأمر قيام الساعة في أسرع من لمح البصر أو بغير ذلك من أشياء، والله تعالى وحده هو الذي أخرجكم -أيها الناس- من بطون أمهاتكم إلى هذه الحياة، وأنتم لا تعلمون شيئًا لا من العلم الدنيوي، ولا من العلم الديني، ولا تعرفون ما يضركم أو ينفعكم وركب فيكم بقدرته النافذة، وحكمته البالغة السمع الذي تسمعون به، والبصر الذي بواسطته تبصرون، والأفئدة التي عن طريقها تعقلون وتفهمون، لعلكم بسبب كل هذه النعم التي أنعمها عليكم تشكرونه حق الشكر، بأن تخلصوا له العبادة والطاعة وتستعملوا نعمه في مواضعها التي وجدت من أجلها.

ألم ينظر هؤلاء الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى في العبادة إلى الطيور، وهنا يسبحن في الهواء المتباعد بين الأرض والسماء ما يمسكهن في حال قبضهن وبسطهن بأجنحتهن إلا الله بقدرته الباهرة، وبنواميسه التي أودعها في فطرة الطير، إنهم لو نظروا نظرة تأمل وتعقل؛ لعلموا أن المسخر لهن هو الله الذي لا

معبود بحق سواه، إن في ذلك التسخير والتذليل للطير على هذه الصفة لآيات بينات على قدرة الله تعالى، ووحدانيته لقوم يؤمنون.

ومن نعم الله سبحانه على عباده بأن جعل بيوتهم مكانًا للسكن النفسي والراحة الجسدية، والحق أن نعمة السكن في البيوت والاستقرار فيها، والشعور بداخلها بالأمان والاطمئنان هذه النعمة التي لا يقدرها حق قدرها إلا أولئك الذين فقدوها، وصاروا يعيشون بلا مأوى يؤويهم.

ومن نعمه أيضًا: أنَّه قد أوجد لهم من جلود الأنعام بيوتًا يجدونها خفيفة يوم سفرهم، ويوم إقامتهم في مكان معين بحيث يمكنه أن ينصبوها؛ ليرتاحوا بداخلها بأيسر السبل وأقل التكاليف، وذلك كالقباب والخيام والأخدية، وغير ذلك من البيوت التي يخف حملها.

ثم أشار الله إلى نعمة أخرى أنعم بها عليهم، وهي اتخاذهم من أصواف الغنم، وأوبار الإبل وأشعار المعز يتخذون لأنفسهم متاعًا يستعملونه في مصالحهم المتنوعة، ويتمتعون به في بيوتهن وفي معاشهم إلى وقت معين قدره الله تعالى لهم في تمتعهم بهذه الأصواف والأوبار والأشعار، والله تعالى بفضله وكرمه جعل لهم ما يستظلون به من شدة الحر والبرد كالأبنية والأشجار، وغير ذلك من الأشياء التي يستظلون بها.

وجعل لهم سبحانه من الجبال مواضع يستترون فيها من الحر أو البرد أو المطر أو غير ذلك من وجوه الانتفاع بتلك المغارات والأسراب والكهوف المنحوتة في

بطون الجبال، وجعل لكم من فضله وكرمه ملابس تتقون بها ضرر الحر، وضرر البرد وملابس أخرى هي الدروع، وما يشبهها تتقون بها الضربات والطعنات التي تسدد إليكم في حالة الحرب كذلك الإتمام السابغ للنعم التي أنعم بها سبحانه على عباده، يتم نعمته عليكم المتمثلة في نعم الدين، والدنيا لعلكم بذلك تسلمون وجوهكم لله ﷻ وتدخلون في دين الإسلام عن اختيار واقتناع؛ لأن من شاهد كل هذه النعم لم يسعه إلا الدخول في الدين الحق، فإن استمر المشركون - أيها الرسول- في إعراضهم عن دعوتك بعد هذا البيان والامتنان، فلا لوم عليك فأنت عليك البلاغ الواضح، ونحن علينا محاسبتهم ومعاقبتهم بما يستحقون من عقاب.

المعاني المستفادة:

أولًا: لله وحده علم جميع الأمور الغائبة عن مدارك المخلوقين، والتي لا سبيل لهم إلا معرفتها لا عن طريق الحس، ولا عن طريق العقل.

ثانيًا: تعدد نعم الله على عباده، نعم الله كثيرة على عباده ذكرها في آياته؛ حيث قال: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ

تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

لقد احتوت الآيات على نعم كثيرة، ونعم الله كثيرة؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

تفسير الآيات (٨٤- ١٠٠) من سورة (النحل)

١- تفسير الآيات من رقم (٨٤) إلى (٨٩):

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٤- ٨٩].

المناسبة:

لما بين الله من حال القوم أنهم عرفوا نعمة الله، ثم أنكروها، وذكر أيضًا من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبع ذلك بالوعيد، فذكر حال يوم القيامة؛ فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ إلى آخر الآيات.

المفردات:

- قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أصل الكلمة من "العتب" بفتح العين، وسكون التاء، وهي الموجدة، فإذا فاوض فيما عتب عليه فيه قيل: عاتبه، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب، والاسم العتبة وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب.

- قوله: ﴿وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يمهلون.

- قوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾: ﴿السَّلَمَ﴾ معناه: استسلام والخضوع لله ﷻ.

الإعراب:

- قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: ﴿وَيَوْمَ﴾: هنا مفعول به لفعل محذوف تقديره "اذكر".

قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ كل هذا صفة للكتاب.

اللطائف:

أولًا: قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ للإشعار بأن مصيبتهم بسبب عدم قبول أعذارهم أشد من مصيبتهم بسبب شهادة الأنبياء عليهم.

ثانيًا: قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ علق سبحانه الرؤية بالعذاب للإشعار؛ لأن فجيعتهم الكبرى كانت عند إبصاره ومشاهدته.

ثالثًا: قوله: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كيف أثبت للأصنام نطقًا في هذه الآية، ونفاهم عنها في قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ

﴿ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ [الكهف: ٥٢] الجواب أن المثبت لهم هنا النطق؛ لتكذيب المشركين في دعوة عبادتهم لها، والمنفي عنه في سورة الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم، ودفع العذاب عنهم.

رابعًا: التعبير بقوله: ﴿ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ يشعر بأن الشركاء قد ردوا على المشركين قولهم بسرعة، وبدون إبطاء حيث أتى سبحانه بالفاء في قوله: ﴿ فَأَلْقَوْاْ ﴾ واشتملت جملة ﴿ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ على جملة من المؤكدات؛ لإفحام المشركين، وتكذيبهم في قولهم تكذيبًا قاطعًا لا يحتمل التأويل.

خامسًا: قوله: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه ﷺ هذا بالنسبة إلى بيان اللطائف.

المعني الإجمالي للآيات:

اذكر أيها العاقل؛ لتعتبر، وتتعظ يوم نبعث في كل جماعة من الناس شهيدًا يشهد للمؤمن بالإيمان، ويشهد على الكافر بالكفر.

قال ابن عباس: شهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق، ويشهد عليهم بالكفر والتكذيب، ثم لا يأذن للذين كفروا يوم القيامة في الاعتذار عما كانوا عليه في الدنيا من عقائد زائفة، وأقوال باطلة وأفعال قبيحة كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٥- ٣٦].

وهؤلاء الكافرون يوم القيامة لا يقبل منهم أن يزيلوا غضب ربهم وسخطه عليهم؛ لأنَّ العتاب إنما يطلب لأجل معاودة الرضا من العاتب، وهؤلاء قد انسد عليهم هذا الطريق؛ لأنَّ الله تعالى قد سخط عليهم سخطًا لا مجال لإزالته

بعد أن أصروا على كفرهم في الدنيا وماتوا على ذلك، وإذا أبصر الذين ظلموا العذاب الذي أعد لهم في الآخرة بسبب ظلمهم وكفرهم في الدنيا، فزعوا وخافوا ولكن خوفهم وفزعهم لن يغير من الأمر شيئا إذ لا يخفف عنهم العذاب بسبب خوفهم أو فزعهم، ولا هم يمهلون أو يؤخرون عنه.

وإذا أبصر المشركون يوم القيامة شركاءهم الذين أشركوهم مع الله في العبادة، قال المشركون على سبيل التحسر: يا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا في الدنيا نعبد من دونك، ونتقرب بهم إليك؛ فلا تجعل يا ربنا العذاب علينا وحدنا؛ بل خففه أو ارفعه عنا، فهؤلاء الشركاء هم الذين أضلونا فرد أولئك الشركاء من الأصنام، وغيرهم على المشركين بقولهم إنكم لكاذبون أيها المشركون في إحالتكم الذنب علينا، فإننا ما دعوناكم لعبادتنا ولا أجبرناكم على الإشراك بالله تعالى، ولكنكم أنتم الذين اخترتم هذا الطريق المعوج؛ تقليدًا لآبائكم، واستجابة لأهوائكم وشهواتكم، وإيثارًا من باطل على الحق وما رد به الشركاء على المشركين هنا قد جاء ما يشبهه في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وبعد أن رد الشركاء من الأصنام، وغيرهم على المشركين بقولهم إنكم لكاذبون، ألقى المشركون يوم القيامة الاستسلام والخضوع والانقياد لقضاء الله تعالى العادل فيهم، وغاب وذهب عنهم ما كانوا يفترونه ويزعمونه في الدنيا من أن آلهتهم ستشفع لهم أو ستنفعهم يوم القيامة.

هؤلاء الكافرون لم يكتفوا بكفرهم، بل أضافوا إلى ذلك أنهم منعوا غيرهم عن اتباع الصراط المستقيم وهو الإسلام، هؤلاء الأشقياء الذين فعلوا ذلك زادهم

الله عذابًا شديدًا فوق العذاب، الذي كانوا يستحقونه بسبب فسادهم في الأرض، وكفرهم بالحق، وصدهم الناس عن اتباعه.

واذكر -أيها العاقل- لتتعظ وتعتبر يوم القيامة، يوم نبعث في كل أمة من الأمم السابقة نبيها الذي أُرسل لها في الدنيا ليشهد عليها الشهادة الحق، بأن يشهد لمؤمنيها بالإيمان ولكافريها بالكفر، واذكر -أيها النبي- ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم، والمقام الرفيع، والشهادة على أمتك بأنك قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وأنزلنا عليك -أيها الرسول- القرآن ليكون تبيانًا لكل شيء، وليكون هداية للناس إلى طريق الحق والخير، ورحمة لهم من العذاب، وبشارة لمن أسلموا وجوههم لله تعالى، وأحسنوا القول والعمل، لا لغيرهم ممن آثروا الكفر على الإيمان، والغي على الرشد.

المعاني المستفادة:

أولًا: كل أمة يشهد لها نبيها بالإيمان والتصديق، ويشهد عليهم بالكفر والتكذيب.

ثانيًا: إن مصيبة الكافرين يوم القيامة بسبب عدم قبول أعذارهم أشد من مصيبتهم بسبب شهادة الأنبياء عليهم.

ثالثًا: فجيعة الكافرين الكبرى كانت عند إبصارهم العذاب ومشاهدته.

رابعًا: استسلام العابدين لغير الله، والمعبودين لهؤلاء الشركاء، استسلام الجميع لحكم الله الواحد القهار، قال تعالى: ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ﴾ أي: الاستسلام.

خامسًا: تفاوت الكافرين في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾.

سادسًا: القرآن الكريم هدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

٢ـ تفسير الآيات من رقم (٩٠) إلى (٩٣):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٠- ٩٣].

المناسبة:

بعد أن مدح سبحانه القرآن بأنَّه تبيان لكل شيء، وأنَّه هداية ورحمة وبشرى للمسلمين، أتبع ذلك بآيات كريمة أمرت المسلمين بأمهات الفضائل، وبجمال مكارم الأخلاق، ونهتهم عن الفواحش والرذائل؛ لتكون كالدليل على ما في هذا الكتاب من تبيان وهدى ورحمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ إلى آخر الآيات.

سبب النزول:

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة أخرى كبيرة قوية، فداخلتها -غدرت الأولى

ونقضت عهدها، ورجعت إلى هذه القبيلة الكبرى، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: إعطاء كل ذي حق حقه.

﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾: العفو عمن أساء إليك، والصلة لمن قطعك، والعطاء لمن حرمك.

- قوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾: ﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾: كل ما اشتدَّ قبحه من قول أو فعل.

- قوله: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: كل ما أنكره الشرع بالنهي عنه؛ فيعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات.

- قوله: ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾: تجاوز الحد في كل شيء.

- قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: أوامره ونواهيه وتكاليفه الشرعية التي كلف الناس بها، والوفاء بعهد الله يأتي بتنفيذ أوامره وتكاليفه واجتناب ما نهى عنه.

- قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ النقض: إبطال العهد، والأيمان أي: الحلِف والقسم.

- قوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ : ﴿كَفِيلًا﴾ : من يكفل غيره، أي: يضمنه في أداء ما عليه.

- قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ أي: مغزولها، يقال: غزلت المرأة الصوف أو القطن غزلًا.

- قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ جمع نكِث بكسر الكاف بمعنى: منكوث أو منقوض، وهو ما نقض وحل فتله ليغزل ثانيًا، والجمع أنكاث.

- قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ الدَّخَل بفتح الخاء: المكر والغش والخديعة، وهو في الأصل اسم للشيء الذي يدخل في غيره وليس منه.

- قوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ : ﴿أَرْبَىٰ﴾ بمعنى: أكثر.

الإعراب:

- قوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ : ﴿كَفِيلًا﴾ : حال من فاعل.

- قوله: ﴿نَقُضُوا۟﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وهذه الحال مؤكدة لمضمون ما قبلها من وجوب الوفاء بالعهود، والنهي عن نقضها.

- قوله: ﴿أَنكَٰثًا﴾ حال من مؤكدة من ﴿غَزْلَهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ ويجوز أن تكون مفعولًا ثانيًا بتضمين الفعل: ﴿نَقَضَتْ﴾ بمعنى: صيَّرت أو جعلت.

البلاغة:

- قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ إيثار صيغة المضارع لإفادة التجدد والاستمرار.

- قوله: ﴿ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ معطوفة على ما قبلها، من عطف الخاص على العام.

- قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ تشبيه لمن ينقض العهد بحال امرأة مختلة في عقلها، مضطربة في تصرفاتها.

اللطائف:

- قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ خص سبحانه الأمر بالوفاء بالعهد بالذكر مع أنه داخل في المأمورات التي اشتملت عليها الآية السابقة؛ لأنَّ الوفاء بالعهود من آكد الحقوق، وأوجبها على الإنسان.

- قوله: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ قوله: ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ للإشعار بأن نقض الأيمان -وإن كان قبيحًا في كل حالة- فهو في حالة توكيد الأيمان وتغليظها أشد قبحًا؛ ولذا قال بعض العلماء: وهذا القيد لموافقة الواقع؛ حيث كانوا يؤكدون أيمانهم في المعاهدة، وحينئذ فلا مفهوم له، فلا يختص النهي عن النقض بحالة التوكيد، بل نقض اليمين منهي عنه مطلقًا، أو يراد بالتوكيد القصد ويكون احترازًا عن لغو اليمين، وهي الصادرة من غير قصد بالحلف.

قال الإمام ابن كثير: ولا تعارض بين هذه الآية -التي معنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَا نَقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ - لا تعارض بين هذه الآية وبين قوله ﷺ فيما ثبت عنه في (الصحيحين) أنَّه قال: ((إني والله -إن شاء الله- لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها)) لا تعارض بين الآية وبين الحديث؛ لأن هذه الأيمان المراد بها في الآية الدخول في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي ورادة في حث أو منع كما أفاد حديث رسول الله ﷺ.

المعنى العام لهذه الآيات:

إن الله تعالى يأمركم -أيها المسلمون- أمرًا دائمًا وواجبًا أن تلتزموا الحق والإنصاف في كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم، وأن تلتزموا التسامح والعفو، والمراقبة لله تعالى في كل أحوالكم، كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة ما تستطيعون تقديمه لهم من خير وبر؛ لأنَّ هذه الفضائل متى سرت بينكم نلتم السعادة في دينكم ودنياكم؛ إذ بالعدل والإحسان ينال كل صاحب حق حقه، وبالإحسان يكون التحابُّ والتوادّ والتراحم، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون، وكما يأمركم سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، فإنه تعالى ينهاكم عن كل قبيح، وعن كل منكر، وعن كل تجاوز لما شرعه الله ﷻ وذلك لأن هذه الرذائل متى شاعت في أمة كانت عاقبتها خسرًا وأمرها فرطًا.

والفطرة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه الرذائل؛ لأنها تتنافى مع العقول السليمة، ومع الطباع القويمة، ومهما روَّج الذين لم ينبتوا نباتًا حسنًا لتلك الرذائل؛ فإنَّ النفوس الطاهرة تلفظها بعيدًا عنها كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التي تصل إليه، إن الله ينبههم سبحانه أكمل تنبيه وأحكمه إلى ما يصلح عن طريق اتباع ما أمركم به وما نهاكم عنه، لعلكم بذلك تحسنون التذكر لما ينفعكم، وتعملون بمقتضى ما علمكم.

إنَّ الله تعالى يأمركم -أيها المسلمون- بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ويأمركم أيضًا بالوفاء بالعهود التي التزمتم بها مع الله تعالى أو مع الناس، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

كونوا -أيها المسلمون- أوفياء بعهودكم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توثيقها وتغليظها عن طريق تكرارها مرة أو مرتين، أو عن طريق الإتيان فيها ببعض أسماء الله تعالى وصفاته، والحال أنكم قد جعلتم الله تعالى ضامنًا لكم فيما التزمتم به من عهود ومواثيق، فالله تعالى شاهد ورقيب على أقوالكم، إن الله تعالى يعلم ما تفعلون من الوفاء أو نقض الأيمان، وسيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر، فكونوا -أيها المسلمون- أوفياء بعهودكم ولا تنقضوها بعد إبرامها، فإنكم إن نقضتموها كانت مثلكم كمثل تلك المرأة الحمقاء التي كانت تفتل غزلها فتلا محكما، ثم تنقض بعد ذلك وتتركه مرة أخرى قطعًا منكوثة محلولة، لا تكونوا مثل تلك المرأة.

هذا شأنها حالة كونكم متخذين أيمانكم وأقسامكم وسيلة للغدر والخيانة ومن أجل أن هناك جماعة أوفر عددًا وأكثر مالًا من جماعة أخرى، إنما يختبركم بكونهم أكثر لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم الأيمان على أنفسكم، ووكدتم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ أم تغترون بكثرة قريش وثروتهم، وقوتهم، وقلة المؤمنين وفقرهم وضعفهم، يفعل الله ذلك ليجازي أهل الحق بما يستحقون من ثواب، ويجازي أهل الباطل بما هم أهله من عقاب.

إن قدرة الله لا يعجزها شيء فلو شاء الله لجعلكم -أيها الناس- أمة واحدة متفقة على الخلق، ولكن لحكم يعلمها ولا تعلمونها، ولسنن وضعها في خلقه، يضل من يشاء إضلاله باستحبابه العمى على الهدى، وإيثاره الغي على الرشد ويهدي من يشاء هدايته بحسن استعداده وسلامة اختياره، ونهيه النفس عن الهوى.

ولتسألُنَّ -أيها الناس- يوم القيامة سؤال محاسبة ومجازاة عما كنتم تعملون في الدنيا؛ فيثيب الطائعين بفضله، ويعاقب العصاة بعدله، هذا بالنسبة إلى المعنى العام.

بيان المعاني المستفادة:

أولًا: قال ابن عباس: إن أجمع آية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثانيًا: وجوب الوفاء بالعهود؛ قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾.

ثالثًا: تحريم اللجوء إلى الذرائع الباطلة من أجل نقض العهود؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾.

٣. تفسير الآيات من رقم (٩٤) إلى (٩٧):

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٤- ٩٧].

المناسبة:

بعد أن أمر سبحانه بالوفاء بالعهود، ونهى عن نقضها بصفة عامة، أتبع ذلك النهي عن الحنث في الأيمان بصفة خاصة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ دَخَلًۢا ﴾ أي: خديعة ومكرًا.

- قوله: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ ﴾ أي: ولا تستبدلوا.

- قوله: ﴿ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ﴾ أي: أوامره ونواهيه.

- قوله: ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الحقوق الدنيوية الشهوات والأموال والأولاد وغيرها.

- قوله: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ ﴾ ينفد أي: يذهب ويفنى.

- قوله: ﴿ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ الحياة الطيبة: هي الحياة الدنيا، أما الحياة الآخرة فقد صرح الله بها في قوله: ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

الإعراب:

- قوله: ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم ﴾ جاءت الجملة مؤكدة بلام القسم ونون التوكيد.

- قوله: ﴿ أَجۡرَهُم ﴾: مفعول ثانٍ لـ"نجزي" في قوله: ﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

- قوله: ﴿ بِأَحۡسَنِ ﴾ نعت لمحذوف أي: بجزاء أحسن من عملهم الذي كانوا يعملونه في الدنيا.

البلاغة:

- قوله: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الاشتراء: استعارة للاستبدال.

اللطائف:

- قوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ وحَّد القدم وجاءت نكرة لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه، فكيف بأقدام كثيرة؟!.

- قوله: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ التعبير بقوله: ﴿وَتَذُوقُوا۟﴾ فيه إشارة إلى أن العذاب الدنيوي الذي سينزل بهم بسبب اتخاذهم أيمانًا دخلًا بينهم، سيكون عذابا شديدًا يحسون آلامه إحساسًا واضحًا كما يحس الشارب للشيء المر مرارته ويتذوق آلامه.

- قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إن الثمن المحصل في عدم الوفاء بالعهد لا يكون إلا قليلًا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا، بجانب رضا الله.

المعنى الإجمالي لهذه الآيات:

لا تتخذوا -أيها المؤمنون- الحلف بالله تعالى ذريعة إلى غش الناس وخداعهم واستلاب أموالهم، فقد جرت عادة الناس أن يطمئنوا إلى صدق من يقسم بالله تعالى، فلا تجعلوا هذا الاطمئنان وسيلة للكذب عليه، ولإفساد ما بينكم وبينهم من مودة، لا تتخذوا -أيها المؤمنون- الحلف بالله تعالى ذريعة إلى ذلك فتزل أقدامكم عن طريق الإسلام بعد ثبوتها عليها ورسوخها فيها، وتذوقوا السوء وهو العذاب الدنيوي من المصائب والخوف والجوع؛ بسبب صدودكم وإعراضكم عن أوامر الله ونواهيه، أو بسبب صدكم لغيركم عن الدخول في دين الله؛ حيث رأى منكم ما يجعله ينفر منكم ومن دينكم، بالإضافة إلى ذلك فإن لكم عذابًا عظيمًا في الآخرة لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا الله ﷻ.

ولا تستبدلوا بأوامر الله تعالى ونواهيه عوضًا قليلا من أعراض الدنيا الزائلة بأن تنقضوا عهودكم في مقابل منفعة دنيوية زائلة، إن ما ادخره الله لكم من ثواب عظيم وأجر جزيل، وحياة طيبة -هو خير لكم من ذلك الثمن القليل الذي تتطلعون إليه وتنقضون العهود من أجله إن كنتم من أهل العلم والفطنة، الذين يؤثرون الباقي على الفاني.

ما عندكم من متاع الدنيا وزهرتها يفنى وينقضي ويزول، وما عند الله تعالى في الآخرة من عطاء باقٍ لا يفنى ولا يزول فآثروا ما يبقى على ما ينفد، ولنجزينَّ الذين صبروا على طاعتهم واجتنبوا معصيته، ووفوا بعهود بجزاء أفضل وأكرم مما كانوا يعملونه في الدنيا من خيرات وطاعات، ومن عمل عملًا صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة في الدنيا، يظفر معها بالسعادة، وصلاح البال، والأمان، والاطمئنان، أما في الآخرة فنجزيهم جزاء أكرم وأفضل مما كان يعمل في الدنيا من أعمال صالحة، وذلك أنَّ المؤمن مع العمل الصالح موسرًا كان أو معسرًا يعيش عيشا طيبًا، إن كان موسرًا فلا مقال فيه، وإن كان معسرًا فمعه ليطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله.

وأما الفاشل فأمره على العكس؛ إن كان معسرًا فلا إشكال في أمره؛ وإن كان موسرًا فالحرص لا يدعه أن يهنأ بعيشه، هذا بالنسبة إلى المعنى العام.

المعاني المستفادة:

أولًا: النهي عن اتخاذ الأيمان من أجل الغش والخديعة؛ لأنَّ الناس عادة تطمئن إلى من يقسم بالله ﷻ.

ثانيًا: ما ادخره الله من ثواب عظيم وأجر جزيل هو خير للناس من ذلك الثمن القليل الذي تتطلعون إليه.

ثالثًا: العمل الصالح لا يكون مقبولًا عند الله تعالى إلا إذا كان مبنيًّا على العقيدة الصحيحة، وكان صاحبه يدين بدين الإسلام، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

إذن لكي يقبل العمل الصالح عند الله ﷻ لا بد أن يكون صاحبه مؤمنًا بالله ﷻ لكي ينال الإنسان الجزاء في الآخرة عن العمل الصالح الذي عمله لا بد أن يكون مؤمنًا بالله ﷻ.

أما غير المؤمن بالله إن عمل أعمالًا صالحة في الدنيا يعطيه الله ﷻ أجره في الدنيا من الذكر والشهرة ومن الغنيمة لكن في الآخرة لا يأخذ أجرًا، وهذا عدل من الله ﷻ حيث يعطي كل إنسان حقه.

٤- تفسير الآيات من رقم (٩٨) إلى (١٠٠):

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨- ١٠٠].

بيان المناسبة:

بعد أن نهى سبحانه في الآيات السابقة عن الحنث في الأيمان بصفة خاصة، أتبع ذلك ببيان أنه من الأعمال الصالحة أن يستعيذ المسلم عند قراءته للقرآن الكريم من الشيطان الرجيم، فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

معاني المفردات:

- قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: إذا أردت قراءته.
- قوله: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ أي: الجأ إلى الله.
- قوله: ﴿ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾: كل متمرد من الجن والإنس والدوابّ وهو من شطن بمعنى بعُد.
- قوله: ﴿ ٱلرَّجِيمِ ﴾: أي المطرود من رحمة الله.
- قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ ﴾: أي تسلط واستيلاء.
- قوله: ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾: ﴿ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾: من الولي بمعنى القرب والنصرة.

الإعراب:

الضمير في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ يعود على ﴿ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ والباء للسببية.

حكم الاستعاذة:

الجمهور يقول: إنَّ الاستعاذة مستحبة، الحكمة من الاستعاذة عند قراءة القرآن الكريم؛ فالقرآن هو الذكر الحكيم، والحق المبين، وكان لكل حق محارب وهو شيطان الجن والإنس يثير الشبهات بوساوسه، ويفسد القلوب بوساوسه، أمر الله ﷻ كل من يقرأ القرآن بأن يستعيذ بالله، ويلتجئ إليه عند تلاوة القرآن يستعيذ بالله من وسوسة الشيطان؛ لأنَّ قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة فيحتاج إلى الاستعانة عليه بالله، واللياذ بجواره منه.

المعنى العام لهذه الآيات:

إذا أردت -أيها المسلم- قراءة القرآن الكريم فاستجر بالله، والتجئ إلى حماه من الشيطان الرجيم، فالشيطان مهما تمرد وعتا ليس له تسلط واستيلاء واستحواذ بالقهر والغلبة على نفوس الذين آمنوا بالله تعالى حق الإيمان، والذين هم عليه وحده يتوكلون ويعتمدون لا على غيره.

إن تسلط الشيطان إنما يقع على نفوس الضالين الفاسقين الذين يتقربون منه ويجعلونه واليًا عليهم، فيحبونه ويطيعونه، ويتبعون خطواته، والذين هم بسبب الشيطان وإغوائه لهم مشركون مع الله تعالى آلهة أخرى في العبادة.

المعاني المستفادة:

أولًا: استحباب الاستعاذة عند قراءة القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾؛ فهذا الشيطان الرجيم يشغل الإنسان عن تدبر قراءة القرآن الكريم، ويلهي الإنسان عن العمل بما تأمر به هذه الآيات؛ لأنَّ القرآن كله خير، والشيطان لا يريد للإنسان الخير، إنما يريد له الشر؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]

كما أنَّ القرآن نور؛ فلا ينبغي أن يقربه الشيطان بأي حال من الأحوال، ولا يقدر على دفع وسوسة الشيطان إلا الله ﷻ ولذلك أمرنا الله حينما نريد أن نقرأ القرآن الكريم ينبغي أن نستعيذ، وأن نلتجئ إلى الله من وساوس الشيطان الرجيم.

ثانيًا: لا تأثير للشيطان على النفوس المؤمنة، النفوس المؤمنة لا يستطيع الشيطان أن يؤثر عليها أو أن يحولها من طريق الخير إلى طريق الشر؛ لأنَّ النفس المؤمنة تحصنت والتجأت إلى الله ﷻ فلا سبيل للشيطان عليها كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فالنفوس المؤمنة لا سبيل للشيطان عليها.

ثالثًا: تأثير الشيطان إنَّما هو على النفوس الضعيفة يستطيع أن يحولها من طريق الخير إلى طريق الشر.

تفسير الآيات (١٠١- ١٢٨) من سورة (النحل)

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : تفسير الآيات (١٠١- ١١٣) من سورة (النحل) ٢٩٩

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (١١٤- ١٢٨) من سورة (النحل) ٣١٤

تفسير الآيات (١٠١- ١١٣) من سورة (النحل)

١. تفسير الآيات من رقم (١٠١) إلى (١٠٥):

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾.

أ. المناسبة:

بعد أن بيَّن الله سبحانه في الآيات السابقة أنه ينبغي على المسلم أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند قراءته للقرآن، ذكر الله في هذه الآيات بعض الأقاويل التي قالها المشركون عن النبي ﷺ، وعن القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ب. سبب نزول هذه الآيات:

قال المفسرون: إنَّ المشركين من أهل مكة قالوا: إنَّ محمدًا ﷺ يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا، ما هذا إلا مفترٍ يتقوَّله من

تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلى آخر الآيات.

ج- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً ﴾ المراد بالآية الآية القرآنية، بدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ والمراد بالتبديل نسخها، أي: نسخ الآية. قوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مفترٍ من الافتراء، وهو أشنع أنواع الكذب. قوله: ﴿ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي: جبريل # وسُمي روحًا لمشابهته الروح الحقيقية، في أنَّ كلًّا منهما مادة الحياة للبشر، فجبريل من حيث ما يحمله من الرسالة الإلهية تَحْيَا به القلوب والروح تَحْيَا بها الأجسام. قوله: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ ﴾ المراد باللسان هنا الكلام الذي يتكلَّم به الشخص واللغة التي ينطق بها. قوله: ﴿ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ يُلحدون: من الإلحاد بمعنى الميل ﴿ يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ نسبةً إلى الأعجم، وهو الذي لا يُفصح في كلامه؛ سواء أكان من العرب أم من العجم، وزِيدت فيه ياء النسب على سبيل التوكيد قوله يفتري الكذب، أي: يختلقه ويخترعه.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ جملة معترضة بين الشرط والجواب. قوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ جواب الشرط. قوله: ﴿ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ فيه إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الروح المقدس، ووصف

بالقدس لطهارته وبركته. قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في موضع الحال، أي: نزَّله إنزالًا ملتبسًا بالحكمة المقتضية له؛ بحيث لا يُفارقها ولا تُفارقه. هذا بالنسبة إلى الإعراب.

ثالثًا: البلاغة:

قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ تعريف المبتدأ، والخبر يفيد القصر.

قوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ إنما: أداة تفيد الحصر.

رابعًا: اللطائف في هذه الآيات:

قوله: ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تكريم وتشريف للرسول ﷺ؛ حيث اختصّ سبحانه هذا النبي الكريم بإنزال القرآن عليه بعد أن ربّاه برعايته، وتولّاه بعنايته. قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ لم يصرّح القرآن باسم مَنْ زعموا أنه يعلّمه ﷺ مع أنّه أدخل في ظهور كذبهم للإيذان بأنَّ مدار خطئهم ليس بنسبته ﷺ إلى التعلّم من شخص معينٍ، بل من البشر كائنًا من كان، مع كونه ﷺ أساسًا لعلوم الأولين والآخرين. هذا بالنسبة إلى اللطائف.

خامسًا: المعنى الإجمالي لهذه الآيات:

إذا نزَّلنا آية من القرآن مكان آية منه، وجعلنا بدلًا منها بأن نسخناها بها، والله أعلم من كلّ مخلوق بما هو أصلح لعباده، وبما ينزل من آيات، وبما يغيّر ويبدّل من أحكام، فلكلٍّ من الناسخ والمنسوخ منزّل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، لكنّ المشركين قالوا للنبي ﷺ عند تبديل آية مكان آية: إنما أنت يا محمد تختلق هذا القرآن من عند نفسك، وتفتريه من إنشائك واختراعك، فلا تهتمّ -أيها الرسول- بما قاله هؤلاء المشركون في شأنك وفي شأن القرآن الكريم، فإن أكثرهم

جهلاء أغبياء، لا يعلمون في تبديلنا للآيات القرآنية من حكمة، ولا يفقهون من أمر الدين الحقّ شيئًا.

قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين إن هذا القرآن الذي تزعمون أنّي افتريته، قد نزل به الروح الأمين على قلبي من عند ربّي نزولًا مُلْتبسًا بالحقّ الذي لا يحوم حوله باطل؛ ليزيد المؤمنين ثباتًا في إيمانهم، وليكون هداية، وبشارة لكلّ من أسلم وجهه لله رب العالمين، ولقد نعلم أيّها الرسول علمًا مستمرًّا بما يقوله المشركون في شأنك.

يقولون: إنّ محمّدًا ﷺ إنّما يُعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن، يعلمه بذلك بشر، ويُشيرون إلى رجل أعجمي كان بيَّاعًا يبيع عند الصفا، وربّما كان النبي ﷺ يجلس إليه، ويكلّمه بعض الشيء، وذلك لأنه كان أعجمي اللسان لا يعرف إلا اليسير من العربية.

هذا قول المشركين عن ما يقوله محمد ﷺ من القرآن، الله ﷻ يُكذِّبهم؛ لقد كذَّبتم -أيّها المشركون- كذبًا شنيعًا صريحًا، حيث زعمتم أن الرسول ﷺ يُعلِّمه القرآن بشر مع أن لغة هذا الإنسان الذي زعمتم أنه يعلم الرسول ﷺ لغة أعجمية، ولغة هذا القرآن لغة عربية في أعلى درجات البلاغة والفصاحة، فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته، وتحدَّاكم وأنتم أهل اللُّسُن والبيان أن تأتوا بسورة من مثله، فخبِّروني بربِّكم من أين للأعجمي أن يتذوَّق بلاغة هذا التنزيل وما حواه من العلوم، فضلًا عن أن يكون معلمًا له.

إنَّ الذين لا يُؤمنون بآيات الله الدَّالة على وحدانيته سبحانه، وعلى صدق نبيّه ﷺ فيما يبلغه عنه لا يهديهم الله إلى طريق الحقّ في الدنيا؛ بسبب زيغهم وعنادهم وإيثارهم الغيّ على الرّشد، ولهم في الآخرة عذاب أليم جزاء إصرارهم على

الباطل، وإعراضهم عن الآيات التي لو تأمّلوها واستجابوا لها لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، إنَّما يختلق الكذب ويخترعه الذين لا يُؤمنون بآيات الله الدَّالة على وحدانيته، وعلى وجوب إخلاص العبادة له، وعلى صدق رسله، وعلى صحّة البعث يوم القيامة؛ لأنَّ عدم إيمانهم بذلك يجعلهم لا يخافون عقابًا، ولا يرجون ثوابًا، وأولئك هم الكافرون بما يجب الإيمان به، وهم الكاذبون في قولهم عن الرسول ﷺ: إنَّما يعلمه بشر. وفي قولهم عن الرسول ﷺ: إنَّما أنت مفترٍ، وفي غير ذلك من أقوالهم الباطلة التي حاربوا بها دعوة الحقّ، هذا هو المعنى الإجمالي لهذه الآيات.

سادسًا: المعاني المستفادة:

الله ﷻ ينسخ الشرائع بالشرائع؛ لأنَّها مصالح، وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم، وخلافه مصلحة، والله أعلم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته؛ إذن النسخ من صنع الله ﷻ النسخ ليس دليلًا على عدم علم الله ، الله ﷻ هو أعلم بمصالح عباده، يشرِّع شرائع ثم تقتضي المصلحة أن يبدلها بحكم الآخر، فهو عليم بمصالح العباد.

الكذب من أكبر الكبائر، وأفحش الفواحش قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ ﴾.

٢.تفسير الآيات من رقم (١٠٦) إلى (١٠٩):

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ

بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

أ. المناسبة:

بعد أن حكى الله سبحانه بعض الأقاويل التي قالها المشركون عن النبي ﷺ، وعن القرآن الكريم في الآيات السابقة، بين سبحانه في هذه الآيات حكم من نطق بالكفر فقال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ب. سبب النزول:

رُوي أن قريشًا أكرهوا عمّارًا وأبويه: ياسرًا وسمية على الرّدّة، فأبوا، فربطوا سميّة بين بعيرين، ثم قتلوها وقتلوا ياسرًا، وهما أول شهيدَيْن في الإسلام.

وأمّا عمّار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يا رسول الله: إن عمارًا قد كفر، فقال ﷺ: ((كلّا، إن عمّارًا مليءٌ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط بلحمه ودمه))، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، وقال له: ((ما لك؟ إن عادوا فعُدْ لهم بما قلت))، وفي رواية أنه قال له: ((كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالإيمان. قال ﷺ: إن عادوا فعد، فنزلت هذه الآية: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾)) إلى آخر الآيات.

ج- التفسير التحليلي للآيات:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ الطبع: الختم والوسم بطابع ونحوه على الشيء؛ لكي لا يخرج منه ما هو بداخله، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه. قوله: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي: حقَّ وثبت. قوله: ﴿ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ أي: ثابت على الإيمان.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ ﴾ إلى آخره ﴿ مَن ﴾ مبتدأ أو شرطية، والخبر أو جواب الشرط محذوف، والتقدير: فعليهم غضب من الله. قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ الاستثناء متّصل من الجملة السابقة، أي: إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر. قوله: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ جمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة تركيب خمسةَ عشر.

ثالثًا: الأحكام:

قول الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ الآية دليل على جواز التكلّم بكلمة الكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنّب النطق بكلمة الكفر إعزازًا للدين، لكن لو أنه خاف على نفسه فيجوز أن ينطق بكلمة الكفر، لكنَّ الأفضل -كما قلنا- أن يتجنب نطقَ كلمة الكفر إعزازًا للدين، حتى ولو تيقن القتل كما فعل ياسر وسمية، وليس في ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة كما هو القتل في الغزو، كما صرّحوا به، أي: أن الإنسان حينما يثبت عند كلمة الحق حتى لو أدّى به إلى القتل، هذا يكون

أفضل، وهذا ليس من إلقاء النفس إلى التهلكة، لا إنَّما هذا إعزاز الدين، وثبات عند كلمة الحق.

رابعًا: المعنى الإجمالي لهذه الآيات:

من كفر بالله تعالى من بعد إيمانه بوحدانيته سبحانه، وبصدق رسوله ﷺ، فإنه بسبب هذا الكفر يكون قد ضلّ ضلالًا بعيدًا يستحقّ من أجله العذاب الأليم، إلا من أُكره على النطق بكلمة الكفر، والحال أنَّ قلبه مطمئنّ بالإيمان، ثابت عليه، متمكّن منه، فإنَّه في هذه الحالة لا يكون ممّن يستحقّون عقوبة المرتدّ، ولكن حكم من طابت نفوسهم بالكفر، وانشرحت له صدورهم، واعتقدوا صحّته، فهؤلاء عليهم من الله غضب شديد لا يعلم مقداره إلا الله، ولهم يوم القيامة عذابٌ عظيم، الهول يتناسب مع كون عظيم جرمهم.

قال ابن كثير: اتّفق العلماء على أنَّ المُكْره على الكفر يجوز له أن يوالي -أي: ينفِّذ ما يقوله الكفار- إبقاء لحياته، ويجوز له أن يأبى ويرفض، كما كان بلال < يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل حتى إنه ليضع الصخرة العظيمة على صدره في شدّة الحرّ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم ذلك وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: "واللهِ لو أعلم كلمة هي أغيظ لهم منها لقلتها".

إنَّ من أسباب الكفر بعد الإيمان أن هؤلاء آثروا الحياة الدنيا، وشهواتها على الآخرة، وما فيها من ثواب، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أنهم زاغوا عن الحقّ فأزاع الله قلوبهم، أولئك الذين شرحوا صدورهم للكفر، وطابوا به نفسًا، قد طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها، وعاجزة عن الانتفاع به، أولئك هم الكاملون في الغفلة والملاهي، إذ لا غفلة أشدّ من غفلة المعرض عن عاقبة أمره، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية، ولا شكّ ولا محال في أنَّ هؤلاء الذين اختاروا

الكفر على الإيمان، سيكونون يوم القيامة من القوم الخاسرين؛ لأنهم لم يقدموا في دنياهم ما ينفعهم في أخراهم.

خامسًا: المعاني المستفادة:

تهديد الله للمرتدّين عن دينهم بألوان من العقوبات المغلّظة، من ذلك غضب الله وعذابه العظيم، وعدم هدايتهم إلى طريق الحقّ، وبالطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وبالغفلة التي ليس بعدها غفلة، وبالخسران الذي لا شكّ فيه يوم القيامة، نجد هذا واضحًا في قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هذا بالنسبة إلى عقاب المرتدّ يوم القيامة.

أما في الدنيا فالمرتدّ جزاؤه القتل كما صرّحت بذلك الأحاديث الصحيحة، فعن ابن مسعود < أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، ويشهد أني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيِّب الزاني، والمارق عن الدين التارك للجماعة)) إذن المرتد جزاؤه القتل، كما بيّن بذلك الحديث الصحيح.

وكذلك ورد في الحديث الصحيح قول الرسول ﷺ: ((من بدّل دينه فاقتلوه))، هذا هو رأي جمهور العلماء في المرتد وفي عقوبة المرتد، لكن هناك طائفة من العلماء قسّمت المرتد إلى قسمين، قالوا: هناك صنف يكون ردّته صامتة، بمعنى: أنه ارتدّ وسكت، ولم ينطق بكلمة سوء عن دين الإسلام، أو عن رسول الإسلام، لكن هناك صنف آخر وهو المرتدّ الذي يجاهر بردّته، أي: بعد أن يرتد يعلنها صريحة واضحة، ويهاجم الدين، ويسبّ رسول الله ﷺ.

إذن هناك صنفان: صنف ردّته صامتة، وصنف آخر ردّته مهاجرة. الصنف الذي ردّته صامتة، قال العلماء في عقوبته: الحبس حتى يعود إلى دينه، أما في الصنف الذي ردّته مجاهر فيها ومعاند فيها، فهذا جزاؤه القتل.

٣. تفسير الآيتين: (١١٠، ١١١):

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

أ. مناسبة الآيتين بما قبلها:

بعد أن بيَّن سبحانه حكم من أُكره على النطق بكلمة الكفر، وحكم من استحبّ الكفر على الإيمان، أتبع ذلك ببيان جانبٍ من مظاهر لطفه ورأفته بقومٍ هاجروا من بعد ما فُتنوا، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إلى آخر الآيتين.

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ أصل الفَتْن: إدخال الذهب في النار، ثم استعمل في الاختبار والامتحان بالمحن والشدائد، وبالمنح واللطائف، لما فيه من إظهار الحال والحقيقة.

قوله: ﴿ تُجَادِلُ ﴾ المجادلة بمعنى: المحاجة والمدافعة.

قوله: ﴿ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ أي: ذاتها.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ الضمير يعود إلى ما سبق ذكره من الهجرة، والفتنة، والجهاد.

قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ يوم: منصوب على الظرفية، أو منصوب على أنه مفعول به بفعل محذوف تقديره: اذكر.

ثالثًا: المعنى العام:

ثم إن ربك -أيّها الرسول- تكلّف بالولاية والمغفرة لهؤلاء الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام، من بعد أن عذّبهم المشركون؛ لكي يرتدّوا عن دينهم، هؤلاء جاهدوا المشركين حتى تكون كلمة الله هي العليا، وصبروا على البلاء والأذى طلبًا لرضى الله تعالى، إن ربك -أيّها الرسول- من بعد هذه الأفعال لكثير المغفرة والرحمة لهم؛ جزاء هجرتهم، وجهادهم، وصبرهم على الأذى، إن ربّك -أيّها الرسول- من بعد تلك المذكورات من الهجرة، والفتنة، والجهاد، والصبر، لغفور رحيم.

يوم تأتي كل نفس مشغولة بأمرها، مهتمّة بالدّفاع عن ذاتها، بدون الالتفات إلى غيرها، ساعية في الخلاص من عذاب ذلك اليوم، وفي هذا اليوم تعطَى نفس جزاء ما عملته من أعمال في الدنيا وافيًا غير منقوص، بدون ظلمٍ أو حيفٍ أو ميلٍ عن العدل والقسطاس، ولن ينفع نفسًا مجادلتها عن ذاتها واعتذارها بالمعاذير الباطلة، وإنما الذي ينفعها هو عملها. هذا بالنسبة للمعنى الإجمالي.

رابعًا: المعاني المستفادة:

شدّة ما يعتري الناس يوم القيامة من خوف وفزع، يجعلهم لا يفكّرون إلا في أنفسهم، ولا يهمّهم شأن آبائهم أو أبنائهم، نقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ

﴿ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ كلّ نفس مشغولة بأمرها، وليست مشغولة بأمر أقرب الناس إليها، من الآباء، والأبناء، والأمهات، وغير ذلك؛ وذلك لما يحدث في يوم القيامة من فزع، وخوف، وكرب، وشدّة، كل ذلك يجعل النفس الإنسانية لا تفكر إلا في نفسها، وتفكر في خلاص نفسها من شدّة ذلك اليوم، ومن هول ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾.

لكن هذه المجادلة لا تُفيد شيئًا؛ لأن كلّ شيء انتهى، فترة العمل وهي الحياة الدنيا انتهت، فالجدال والدفاع لا قيمة له، ولا يأتي بنتيجة ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾. ومن المعاني المستفادة: عدل الله في قضائه بين عباده ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

٤. تفسير الآيتين (١١٢، ١١٣):

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

أ. المناسبة:

بعد أن بيَّن سبحانه جانبًا من مظاهر لطفه ورأفته لقوم هاجروا من بعد ما فُتنوا، ضرب سبحانه مثلًا لسوء عاقبة الذين يجحدون نعم الله، ويكذّبون بآياته فقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ إلى آخر الآية رقم (١١٣).

ب- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ المَثَل بفتح الثاء بمعنى: المِثْل، أي: النظير والشبيه، ويُطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه، وهو الذي يضرب فيه لمورده الذي ورد فيه، ثم استعير للصفة والحال، أي: شأن هذه القرية التي كانت آمنة مطمئنة... إلى آخره.

قوله: ﴿ رَغَدًا ﴾ أي: سهلًا واسعًا لينًا.

ثانيًا: الإعراب:

في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ ضَرَب هنا متضمّن معنى جَعَل؛ ولذلك عدّي إلى مفعولين: المفعول الأول ﴿ مَثَلًا ﴾، والمفعول الثاني ﴿ قَرْيَةً ﴾.

ثالثًا: البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ فيها مجاز مرسل، أي: أهل قرية. قوله: ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ ﴾ استعارة؛ حيث شبه ما يُدرَك له من أثر الضرر والألم، بما يدرك من الطعم المرّ البشع. قوله: ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ استعارة؛ حيث شبه الجوع باللباس، والمعنى: فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف. أيضًا قوله: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾، وبعد ذلك كلمة ﴿ ٱلْجُوعِ ﴾ إذن معنا ﴿ رَغَدًا ﴾، ومعنا ﴿ ٱلْجُوعِ ﴾ طباق. وبين ﴿ ءَامِنَةً ﴾ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً ﴾

تأتي بعد ذلك كلمة ﴿ وَٱلۡخَوۡفِ ﴾ ﴿ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ فيه طباق أيضًا بين ﴿ ءَامِنَةً ﴾ ، و﴿ وَٱلۡخَوۡفِ ﴾.

رابعًا: اللطائف:

قوله: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ هذا التعبير بقوله: ﴿ جَآءَهُمۡ ﴾ يدل على أن الرسول وصل إليهم، وبلغهم رسالة ربه، دون أن يكلفهم الذهاب إليه، أو البحث عنه.

قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ التعبير بالفاء في قوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يشعر بأنهم لم يتمهلوا ولم يتدبروا دعوة هذا الرسول، وإنما قابلوها بالتكذيب السريع بدون رؤية، الأمر الذي يدل على غباوتهم، وانطماس بصائرهم.

سؤال: في قوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ ﴾ هل يتحدّث الله عن أهل قرية معينة في ذلك؟

الجواب: إن الذي يتأمّل هاتين الآيتين الكريمتين قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ الذي يتأمل هاتين الآيتين الكريمتين يراهما وإن كانتا يشملان حال كل قوم بدلوا نعمة الله كفرًا، إلا أنهما ينطبقان تمام الانطباق على كفار مكة، وقد بين ذلك الإمامُ الألوسي -رحمه الله- فقال: وحال أهل مكة سواء أضُرب المثل لهم خاصة، أم لهم ولمن سار سيرتهم كافة، فقد كانوا في حرم آمن ويُتخطف الناس من حولهم، وكانت تُجبى إليهم ثمرات كل شيء رزقًا، ولقد جاءهم رسول منهم تُحار فيه

سمو مرتبته العقول ﷺ فأنذرهم وحذرهم، فكفروا بأنعم الله وكذبوه ﷺ فأذاقهم الله لباس الجوع، والخوف، حيث أصابهم بدعائه ﷺ اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فأصابهم من جدب شديد، فاضطروا إلى أكل الجيف، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله ﷺ حيث كانوا يغيرون عليهم.

خامسًا: المعنى العام لهاتين الآيتين:

جعل الله القرية التي هذه حالها مثلًا لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأذاق سبحانه أهلَها لباس الجوع، والخوف، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر، والجحود، والعتو عن أمر الله ورسوله، ولقد جاء إلى هذه القرية رسول من جنسهم، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأمرهم بطاعة الله وشكره، ولكنهم كذبوه وأعرضوا عنه، فكانت نتيجة تكذيبهم السريع لنبيهم، أن أخذهم العذاب العاجل الذي استأصل شأفتهم، والحال أنهم هم الظالمون لأنفسهم؛ لأن هذا العذاب ما نزل بهم إلا بعد أن كفروا بأنعم الله، وكذَّبوا رسله.

سادسًا: المعاني المستفادة:

١. المحافظة على النعمة يكون بطاعة الله ﷻ أما المعاصي فإنها تُزيل النعم، وهذا ظاهر من أهل هذه القرية التي كانت آمنة مطمئنّة، يأتيها رزقها رغدًا من كلّ مكان، فكفرت بأنعم الله؛ حيث لم تشكر الله سبحانه على تلك النعم، ولم تستخدم هذه النعم في موضعها، كما أمر الله ﷻ، فبسبب ذلك أزال الله تلك النعم، لقد كانوا يأكلون من ثمار الله، ولقد

كانوا آمنين مطمئنّين ويُتخطّف الناس من حولهم ؛ فبسبب عصيانهم بدّل الله حالهم من الأمن إلى الخوف، من الشّبع والتنعم إلى الجوع وعدم وجود ما يسدّ رمقهم، هذا تغيّر كبير، والتغيّر بسبب فعلهم ﴿ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

٢. إن الله ﷻ أنعم عليهم بنعمة عظيمة أكثر من نعمة الأمن وسعة العيش، أنعم عليهم بنعمة هي أساس كلّ النّعم، وهي إرسال رسول إليهم من جنسهم ؛ ليهديهم إلى الطريق المستقيم، هذه أكبر نعمة، لكنهم جحدوها، وكذّبوا هذا الرسول، فكانت النتيجة أن أخذهم الله بالعذاب الشديد ؛ بسبب ظلمهم لأنفسهم، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾.

تفسير الآيات (١١٤- ١٢٨) من سورة (النحل)

١. تفسير الآيتين (١١٤، ١١٥):

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أ. المناسبة:

بعد أن ضرب الله مثلًا لسوء عاقبة الذين يجحدون نعم الله، ويكذّبون بآياته، أمرهم سبحانه أن يأكلوا ممّا أحلّه لهم، وأن يشكروه على نعمه، وأن يجتنّبوا ما حرّمه عليهم، فقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ

نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ب- التفسير التحليلي :

أولًا : معاني المفردات :

﴿ ٱلْمَيْتَةَ ﴾ : ما مات حَتْفَ أنفه ، أو قُتل على هيئة غير مشروعة ، فيدخل فيها : المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردّية ، والنطيحة ، وما عَدَى عليها السبع.

قوله : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ ، الفعل ﴿ أُهِلَّ ﴾ مأخوذ من الإهلال ، بمعنى رفع الصوت ، وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قرّبوه إلى آلهتهم سمّوا عليها أسماءها ، فيقولون : باسم اللات ، أو باسم العزّى ، رافعين أصواتهم.

قوله : ﴿ ٱضْطُرَّ ﴾ من الاضطرار ، وهو الاحتياج إلى الشيء بشدّة. قوله : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي : غير طالب للمحرم وهو يجد غيره من الحلال.

قوله : ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي : ولا متجاوز في أكل ما يسدّ الجوع ويحفظ الحياة ، يعني : لا يأكل زيادة عن ما يسدّ به رَمَقه.

ثانيًا : الإعراب :

قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره : إن كنتم إيّاه تعبدون ، فكلوا من طيبات ما رزقناكم.

ثالثًا: المعنى العام:

لقد ظهر لكم حال الذين بدلّوا نعمة الله كفرًا، ورأيتم كيف أذاقهم الله لباس الجوع والخوف، فاحذروا أن تسيروا على شاكلتهم، وكلوا من الحلال الطيب الذي رزقكم الله تعالى إيّاه، واشكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم، بأن تستعملوها فيما خُلِقت له، وبأن تقابلوها بأسمى ألوان الطاعة لُمسْدِيها ﷻ إن كنتم إيّاه سبحانه تعبدونه حقّ العبادة، وتطيعونه حقّ الطاعة.

ولقد حرّم الله سبحانه الميتة، والدّم، ولحم الخنزير، وما ذُكر عليه اسم غير الله عند الذبح، حرم تلك الأشياء بحكم جليلة وسامية، فحرّم الميتة؛ لفساد جسمها، بسبب ذبول أجزائه وتعفّنها؛ ولأنها أصبحت بحالةٍ تعافها الطباع السليمة؛ لقذارتها وضررها، وحرم الدم المسفوح؛ لأن النفس الكريمة تستقذره، ويفضي شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس، وحرم الخنزير؛ لقذارته واشتماله على دودة تضرّ بآكل، كما أثبت العلم الحديث، وحرّم ما أُهلّ لغير الله به عند الذبح، أي: ما يُنطق أو يُتلفظ عند ذبحه باسم غير الله؛ بسبب التوجّه بالمذبوح إلى غير الله ﷻ.

فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات، حال كونه غير باغ -أي: غير طالب للمحرم وهو يجد غيره، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، ولا متجاوزًا في أكله ما يسدّ الجوع ويحفظ الحياة-؛ فإن الله تعالى غفور واسع المغفرة لعباده، كثير الرحمة بهم، هذا عن المعنى الإجمالي.

رابعًا: الإعجاز العلمي في الآية:

لماذا حرّم الله لحم الخنزير؟

الخنزير بذاته منفّر للطبع النظيف القويم، حرّمه الله منذ الأمد الطويل، ليكشف علمُ الناس منذ زمن قليل أن في لحمه ودمه دودة شديدة الخطورة، وهي الدودة الشريطية، التي تعيش في فضلات الخنزير على هيئة أكياس، وتصبح دودة كاملة تسكن في أمعاء الإنسان، ويبلغ طولها عند تمام نموّها من مترين إلى ثلاثة أمتار، ثم تضع هذه الديدان بيضها في الأمعاء للخروج مع البراز؛ ليأكلها الخنزير، ثم يفقس البيض بمعدة الخنزير، وتنطلق منه اليرقات؛ لتسكن في عضلاته على شكل أكياس، تصيب الإنسان إذا أكل لحم خنزير لم يتمّ طهوه جيدًا، وإذا دخلت البويضات إلى معدة الإنسان؛ نتيجة تلوث طعامه بالبراز المحتوي على هذه البويضات، عن طريق طَباخ، أو خادم، أو بائع للمأكولات وخصوصًا التي لا تُطبخ، فعند وصول هذه البويضات إلى المعدة يهضم جدار البويضة، وتنطلق اليرقة لتثقب جدار المعدة، وتصل إلى الدورة الدموية عن طريقها إلى جزء من الجسم، وأخطرها القلب، والمخّ، وهناك نوع آخر من اليرقات، تلك التي تعيش في أكياس داخل عضلات الخنزير، وهي أكياس الدودة، ويُصاب بها الإنسان إذا أكل لحم خنزير غير مطهوّ، فعندما تصل الأكياس الموجودة في لحم الخنزير إلى معدة الإنسان، ويتمّ الهضم؛ تنطلق اليرقات لتخرق جدار المعدة، وتصل إلى الدورة الدموية، ومنها إلى أجزاء الجسم المختلفة، فالأكياس التي تصل إلى العضلات ينشأ عنها آلام روماتيزمية شديدة، وقد تكون هذه عضلات اللسان، أو الحنجرة، أو عضلات الصدر، أو الفكّين، أو الأذرع، أو الأرجل، أو عضلات البطن.

قد يقول البعض: إن وسائل الطّهو الحديثة قد تقدّمت، فلم تَعُدْ هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر؛ لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفّرها وسائل الطهو الحديثة.

الجواب: إن الذين يقولون بذلك ينسون أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة أو آفتين، فمن ذا الذي يجزم بأنه ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يُكشف بعدُ عنها.

قد يقول قائل: إن هناك دودة أخرى مشابهة لتلك التي تُصيب الخنزير، ولكنها تُصيب البقر، ولكن الفرق بين هذه وتلك: أن الدودة التي تصيب الخنزير تتخذ من الخنزير عائلًا وسيطًا لها، لا تستطيع أن تكتمل بقية دورة حياتها إلا في الإنسان الذي يُعَدّ عائلًا نهائيًّا لها، أما الدودة التي تصيب لحم البقر فهي تتخذ من البقر عائلًا وسيطًا ونهائيًّا، فلا تحتاج إلى جسم الإنسان لكي تتمّ فيه دورة حياتها، فوجودها في جسم الإنسان محكوم فيه بالفشل والفناء، ووجود أكياس هذه الدودة في أمعاء الإنسان إنما جاء عن طريقة عرضيّة سليمة، من تناول لحوم بَقَرية غير مطهوّة طهوًا جيدًا.

أفلا تستحق الشريعة التي سبقت هذا العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها تُحرم ما حرمت، وتحلِّل ما حلَّلت، وهي من لدن حكيم خبير، والذي يستوجب التفكير في حكمة الله تعالى في تحريم لحم الخنزير أن هذه الأكياس لا يُعرف لها علاج حتى الآن، وأن الوقاية منها خير سبيل لتجنبها.

ولقد شهد غير المسلمين بضرر الأكل من لحم الخنزير، لقد أقام عالم ألماني من غير علماء المسلمين، وهو مؤسس نظرية القسم البشري، أقام عدّة تجارب اختبر فيها لحم الخنزير على الحيوانات المخبرية، والفئران التي كانت تتغذّى بلحم الخنزير، فأعطت نتيجة، وبشكل كبيرة مظهرةً قابلية إصابتها بأمراض جلدية،

وكذلك إصابتها بالسرطان، هذا بعد عدّة أشهر من تغذيتها بلحم الخنزير، وظهرت نفس الأعراض في كلاب تُسمّى بكلاب البوكر، أما الأسود والنمور فقد أصيبت بارتفاع الضغط الدموي من لحم الخنزير.

وقد سُمّيت المادة السّامّة بلحم الخنزير باسم "سودوتوكسن"، وهي مادة ذهنية تغزو الدورة الدموية، وتسبب تصلّب الشرايين، وارتفاع الضغط، وكذلك يحتوي لحم الخنزير على نسبة عالية من تعدّد السكر المخاط، وهي تسبب ترهلًا للجسم، وإصابته بالأمراض الرئوية، والفقرية، وكذلك فإن لحم الخنزير غنيٌّ جدًّا بهرمونات النمو، ومادة أخرى تسبّب الأمراض الورمية والسرطانية، فلو لم يكن القرآن من وحي الله تعالى، ما كان للنبي محمد ﷺ ذلك الأمي الذي كان في فترة من حياته يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة، أن يعرف كل هذه المعلومات الطبية السابقة، وأضرار لحم الخنزير؛ لكي يحرمه في القرآن الكريم.

مضار الدم وسمومه: إن الدم هو المرتع لكافة فضلات الجسم السامّية يطرحها فيه، ثم تقوم الكلية بإفراغ هذه السموم خارج الجسم عن طريق التبوّل، كما يقوم الكبد بإيقاف هذه السموم عن طريق الصفراء، والمرارة، وأحيانًا يحول تركيبها الكيميائي بواسطة خمائر خاصة؛ ليحولها إلى مواد غير سامة، غير أن الجراثيم في كل الأمراض تنتقل إلى الدم في سائر الجسم، فيصبح دمًا مجرثمًا، كما هو الحال في التهاب اللوزات؛ إذ لا يقتصر أمرها على اللوزات فحسب، بل تتعدّاها إلى الجسم كله، ومثل ما ينطبق هذا على الإنسان ينطبق على الحيوان تمامًا؛ إذ إن جميع فضلات جسمه الاستقلالية السُّمِّيَّة تنتقل إلى الدم، لكن

الكلية والكبد تطرحان السموم إلى الخارج، فالإنسان لو أكل من لحم خروف مات خنقًا لا ذبحًا، فإن دم الخروف المليء بسموم فضلات جسمه يدخل جسم الإنسان، مع اللحم الذي أكله، وعندما تهضم المعدة هذا اللحم المخنوق، فإن كلية وكبد الآكل للحم هذا الخروف المخنوق، وليس المذبوح -سيقومان بعمل مضاعف، وذلك بطرح سموم دم اللحم المخنوق أولًا، وإطراح سموم جسم الإنسان نفسه ثانيًا، وهذا يؤدّي إلى الإرهاق الشديد، وإتعاب كلٍّ من الكلية والكبد.

وهذا إعجاز علمي جديد يضاف إلى الإعجازات الأخرى للقرآن الكريم؛ لأن المواد الكيماوية والسمية في الدم لم تكن معروفة لدى نزول القرآن، بل اكتشف ذلك حديثًا.

مضار اللحم الميت أو المتفسخ: من المعلوم لدى الجميع أن الوفاة تحصل إذا أكل إنسان لحم معلبات قديم، وهو متفسخ، ومثله في لحم السردين أو السمك، إن الوفاة هي النتيجة الحتمية للمعالجات القوية التي يُعالَج بها السموم؛ لأن اللحم المتفسخ أو الميت يُصبح مزرعة لجراثيم مهلكة وقاتلة، هذا مع العلم أن التفسخ وتكاثر الجراثيم يبدأ بعد الموت بربع ساعة.

أيُّ كتاب عظيم هذا الذي حرم على المسلمين الأكل من الميتة والدم المسفوح قبل خمسة عشر قرنًا؟! وبذلك حافظ محافظة تامّة على أجسامهم وصحّتهم، قبل اختراع المجاهر المكبرة التي تمّ اختراعها، وبعد تقدم علم الكيمياء الحيوية في القرن الذي نعيش فيه.

٢- تفسير الآيتين: (١١٦، ١١٧):

أ- المناسبة:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

بعد أن أمر الله عباده أن يأكلوا ممّا أحله لهم، وأن يشكروه على نعمه، وأن يجتنبوا ما حرمه عليهم؛ نهى سبحانه عباده عن القول بغير علم، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ إلى آخر الآيتين.

ب- التفسير التحليلي:

أولًا: المفردات:

قوله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ ﴾ "تصف" هنا معناها: توضح.

قوله: ﴿ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ "تفتروا" من الافتراء، وهو أشنع أنواع الكذب؛ لأنه اختلاق للكذب الذي لا يستند إلى شيء من الواقع.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ "الكذب" مفعول لقوله ﴿ تَصِفُ ﴾.

وقوله: ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ مفعول لقوله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا ﴾.

قوله: ﴿ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ اللام هنا لام الصيرورة والعاقبة.

قوله: ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ "متاع" خبر لمبتدأ محذوف، أي: متاعهم في الدنيا متاع قليل، و"قليل" صفة لمتاع.

ثالثًا: البلاغة:

قوله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ هذا من فصيح الكلام وبليغه؛ حيث جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر.

رابعًا: الأحكام المستنبطة من الآيتين:

نأخذ من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ نأخذ من هذا أنه لا يجوز لأحد أن يفتي بخلاف ما في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن يفعل ذلك فقد كذب على الله.

خامسًا: المعاني المستفادة:

١. لقد كان من عادة أهل الجاهلية أنهم أحلّوا وحرموا أشياء من عند أنفسهم، فلا ينبغي أن يحدث هذا بعد نزول القرآن الذي بين الحلال والحرام.

٢. متاع الدنيا قليل مهما كان كثيرًا، فهو قليل إلى متاع الآخرة.

٣- تفسير الآيتين (١١٨، ١١٩):

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أ. المناسبة:

قال ابن كثير -رحمه الله: لما ذكر الله تعالى تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ورخص في ذلك عند الضرورة، وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر، لما بين ذلك ذكر سبحانه ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الثقل والتضييق والأغلال والحرج، فقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾.

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: المفردات:

قوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ المراد بالجهالة الجهل والسفاهة اللذان يحملان صاحبهما على ارتكاب ما لا يليق بالعلماء، وليس المراد بها عدم العلم.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ اسم الإشارة يعود إلى الأعمال السيئة التي عملوها قبل التوبة والإصلاح.

قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الضمير في قوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ يعود إلى التوبة، وما يصاحبها من فعل الطاعات، ومن اجتناب السيئات.

ثالثًا: اللطائف:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا لبيان الفرق الشاسع بين رحمة الله بعباده، وما يصدر عن بعضهم من كفران وارتكابٍ للمعاصي، وبين المصرين على فعل السوء والتائبين عنه.

نلاحظ في الآية رقم "١١٩" أن الله ﷻ كرّر لفظ ﴿رَبَّكَ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا التكرار لتأكيد الوعد، وإظهار كمال العناية بإنجازه.

نلاحظ أيضًا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ التقييد لعمل السوء بالجهالة لبيان الواقع؛ لأن كل من يعمل السوء لا يعمل إلا بجهالة، فهو لا يعمل السوء إلا بجهالة.

رابعًا: المعنى العام:

وعلى اليهود بصفة خاصة دون غيرهم من الأمم حرّمنا بعض الطيبات التي سبق أن بيَّناها في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] هذا التحريم تَمّ بسبب بغيهم وظلمهم، وما ظلمنا هؤلاء اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، حيث تركوها تسير في طريق الشيطان، ولم يوقفوها عند حدود الله تعالى؛ فاستحقّوا بسبب ذلك ما استحقوا من عقوبات، ثم إن ربك -أيها الرسول- لكثير الغفران والرحمة لأولئك الذين عملوا الأعمال السيئة بدافع الجهل، والسفه، والطيش، وعدم تدبّر العواقب، ثم إنهم بعد ذلك

تابوا توبة صادقة عن تلك الأعمال السيئة، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أصلحوا من شأن أنفسهم؛ حيث أوقفوها عند حدود الله تعالى، وأجبروها على تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه. هذا بالنسبة للمعنى العام.

خامسًا: المعاني المستفادة من هذه الآيات:

١. إبطال مزاعم اليهود حيث كانوا يقولون: لسنا أول من حرمت عليهم هذه الطيبات، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم، وغيرهما ممن جاء بعدهما، فالقرآن الكريم كذّبهم في ذلك.

٢. الذي حرّمه الله على الأمة الإسلامية كالميتة والدم ولحم الخنزير كان من باب الرحمة بهذه الأمة، والحرص على مصلحتها، ولقد بيّنّا في الآيات السابقة مدار الميتة والدم ولحم الخنزير، فالشيء الذي حرمه الله على الأمة الإسلامية كان من باب الرحمة بها، والحرص على مصلحتها، أما ما حرمه سبحانه على اليهود فقد كان بسبب بغيهم وظلمهم.

٤- تفسير الآيات من رقم (١٢٠) إلى (١٢٤):

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

أ. المناسبة:

بعد أن بيَّن سبحانه في الآيات السابقة ما حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، أتبع ذلك بمدح خليله إبراهيم # مدحًا عظيمًا فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى آخر الآيات.

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿ أُمَّةً ﴾ أي: جماعة، أو إمامًا قانتًا، مطيعًا لله، خاضعًا لأوامره ونواهيه، ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد، ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ أي: اختاره واصطفاه للنبوة.

قوله: ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: أرشده إلى الطريق المستقيم. قوله: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ ﴾ معنى كلمة السبت تعني: الهدوء والسكون في راحة ودعة.

ثانيًا: الإعراب:

في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ فكلمة ﴿ حَنِيفًا ﴾ حال من ﴿ إِبْرَٰهِيمَ ﴾.

ثالثًا: اللطائف:

قال صاحب (الكشاف): قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ قال: في "ثم" هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محله للإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة

اتباع رسول الله ﷺ لملته من جهة أنها دلت على تباعد هذا النعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها. انتهى كلام صاحب (الكشاف).

رابعًا: المعنى العام لهذه الآيات:

إن إبراهيم # كان عنده من الخير ما كان عند أمة، ولذلك كان إماما يُقتدى به في وجوه الطاعات، وفي ألوان الخيرات، وفي الأعمال الصالحات، وفي إرشاد الناس إلى أنواع البرّ، قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٣] وكذلك كان إبراهيم # كان مطيعًا لله خاضعًا لأوامره ونواهيه، وكان مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، وكان منزَّهًا عن الإشراك، قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وكذلك كان معترفًا بفضل الله عليه، ومستعملًا نعمه فيما خلقت له، ومؤدِّيًا حقوق خالقه فيها؛ ولذلك اختاره الله واصطفاه للنبوة وأرشده إلى الطريق القويم الذي دعا الصالحون ربهم أن يرشدهم إليه، وهو الإسلام، وجمع الله له خير الدنيا من كل ما يحتاج المؤمن إليه ليحيا حياة طيبة، كهدايته إلى الدين الحق، ومنحه نعمة النبوة، وإعطاء الذرّيّة الصالحة، والسيرة الحسنة، والمال الوفير، قال تعالى حكاية عن إبراهيم # : ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] فإبراهيم # في الدار الآخرة لمندمج في عباد الله الصالحين الذين { ، ورضوا عنه، والذين كانت لهم جنات الفردوس نزلًا.

ثم أوحينا إليك -أيها الرسول- بأن تتَّبع ملّة إبراهيم # في عقيدتك وشريعتك، يعني: في الأصول فهو # لم يكن من المشركين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧] ، وتحريم العمل في يوم السبت أمرٌ خاصٌّ باليهود، ولا علاقة له بشريعة إبراهيم # أو بشريعة سيدنا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ أي: خالفوا نبيّهم حيث أمرهم أن يعظّموا

يوم الجمعة بالتفرّغ للعبادة فيه، وشدّد عليهم بتحريم الاصطياد فيه، فرفضوا ذلك واختاروا يوم السبت، وإن ربك -أيها الرسول- ليحكم بحكمه العادل بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة، بأن يُنزل بهم العقوبة التي يستحقونها؛ بسبب مخالفتهم لنبيهم، وإعراضهم عن طاعته فيما أمرهم به من تعظيم يوم الجمعة. هذا بالنسبة إلى المعنى العام.

خامسًا: المعاني المستفادة:

جواز اتّباع الأفضل للمفضول فيما يؤدّي إلى الصواب، ولا عيب على الفاضل في هذا، فإن النبي ﷺ أفضل الأنبياء وقد أمر بالاقتداء بهم، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠] هذا بالنسبة إلى المعاني المستفادة من هذه الآيات.

٥. تفسير الآيات من رقم (١٢٥) إلى (١٢٦):

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾.

أ. مناسبة هذه الآية لما قبلها:

بعد أن بيَّن سبحانه أنجع أساليب الدعوة إلى سبيله في حالة المسالمة، والمجادلة بالحجة والبرهان، أتبع ذلك ببيان ما ينبغي على المسلم أن يفعله في حالة الاعتداء عليه، أو على دعوته، فقال تعالى: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾.

ب- سبب نزول هذه الآية:

عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة، ولقد بينا في بداية السورة بأن هذه السورة كلها مكية، ولذلك سوف ندرس سبب النزول هذا، ونبيّن وجه الحق فيه، يقول: هي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد؛ حيث قتل حمزة < ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: "لئن ظهرنا عليهم لنمثّلنّ بثلاثين رجلًا منهم، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط، فأنزل الله قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾" هذا الحديث مرسل، هكذا قال ابن كثير في تفسيره.

وعن أبي هريرة < : "أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب < حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه -أو قال: لقلبه- فنظر إليه وقد مثّل به فقال: رحمة الله عليك، إن كنت ما علمت لوَصُولًا للرّحم فعُولًا للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرّني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع، أو كلمة نحوها.

أَمَا والله على ذلك لأمثّلنّ بسبعين كمثلتك، فنزل جبريل # على محمد ﷺ بهذه السورة، وقرأ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ يعني: يمينه وأمسك عن ذلك" هذا الإسناد لهذا الحديث فيه ضعف؛ لأنَّ صالحًا، وهو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري هو منكر الحديث، هكذا قال ابن كثير.

وعن أبي بن كعب قال: ((لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة فقال أصحاب رسول الله ﷺ: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربينّ عليهم -أي: لنزيدنّ عليهم-، فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يعرف: لا قريش بعد اليوم، فنادى منادٍ: إن رسول الله ﷺ أمّن الأسود والأبيض، إلا فلانًا وفلانًا ناسًا سمّاهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ نصبر ولا نعاقب)) وعلى أي الأحوال فمهما كان سبب نزول هذه الآية، فالتوجيهات التي فيها صالحة لكل زمان ومكان؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ج- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ الخطاب هنا للرسول ﷺ ويدخل فيه كل مسلم يصلح للدعوة إلى الله ﷻ وحذف سبحانه مفعول الفعل ﴿ٱدْعُ﴾ للدلالة على التعميم أي: ادع كل من هو أهل للدعوة إلى سبيل ربه، وأضاف سبحانه السبيل إليه؛ للإشارة إلى أنه الطريق الحق الذي من سار فيه سعد وفاز، ومن انحرف عنه شقي وخسر.

لقد رسمت الآية الكريمة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ لقد رسمت هذه الآية، أقوم طرق الدعوة إلى الله تعالى، وبيّنت أحكم وسائلها وأنجعها في هداية النفوس، قال الألوسي -رحمه الله: وإنما

تفاوتت طرق دعوته ﷺ لتفاوت مراتب الناس، فمنهم خواص وهم أصحاب نفوس مشرقة قويّة الاستعداد لإدراك المعاني ماثلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء يكون طريق دعوتهم إلى الله بالحكمة، ومنهم عوام أصحاب نفوس كَدِرة ضعيفة الاستعداد شديدة الإلف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسوم والعادات، قاصرة عن درجة البرهان، لكن لا عناد عندهم، وهؤلاء تكون دعوتهم إلى الله عن طريق الموعظة الحسنة، ومنهم من يُعاند ويُجادل بالباطل؛ ليُدْحِضَ به الحقّ لما غلب عليه من تقليد الأسلاف، ورسخ فيه من العقائد الباطلة، فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر، بل لا بد من بيان الحجة بأحسن طرق الجدال لتلين عريكته، وتزول شكيمته، وهؤلاء الذين أمر ﷺ بجدالهم بالتي هي أحسن.

هنا سؤال: ما المراد بصيغة التفضيل أعلم؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، المراد بها في هذه الآية وأمثالها مطلق الوصف لا المفاضلة؛ لأن الله تعالى لا يشاركه أحد في علم أحوال خلقه من شقاوة وسعادة وهداية.

ثانيًا: المعنى العام لهذه الآية:

ادع أيها الرسول الناس إلى دين ربك وشريعته، التي هي شريعة الإسلام بالقول المحكم الصحيح، والموضح للحق المزيل للباطل الواقع في النفس أجمل موقع، وادْعهم أيضًا إلى سبيل ربّك، أي: إلى دينه وشريعته بالأقوال المشتملة على العظات، والعبر التي ترقق القلوب، وتهذّب النفوس، وتقنعهم بصحّة ما تدعوهم إليه، وترغّبهم في الطاعة لله تعالى، وترهّبهم من معصيته ﷻ، وجادل المعاند منهم بالطريقة التي هي أحسن الطرق، وأجملها بأن تكون مجادلتك لهم مبنيّة على أحسن الإقناع، وعلى الرفق، وعلى اللين، وسعة الصدر، فإن ذلك

أبلغ في إطفاء نار غضبهم، وفي التقليل من عنادهم، وفي إصلاح شأن أنفسهم وفي إيمانهم بأنك إنما تريد من وراء مجادلتهم الوصول إلى الحق دون أيّ شيء سواه.

ثالثًا: الإعراب في هذه الآية:

الضمير، في قوله: ﴿لَهُوَ﴾ يعود إلى المصدر في قوله: ﴿صَبَرْتُمْ﴾، والمصدر إما أن يُراد به الجنس فيكون المعنى: ولئن صبرتم فالصبر خير للصابرين، وأنتم منهم. وإما أن يُراد به صبرهم الخاص فيكون المعنى: ولئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل لصبركم خير لكم، ووضع سبحانه الظاهر موضع لهم على سبيل المدح لهم يعني قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: لهم، ذكر كلمة الصابرين على سبيل المدح والثناء عليهم بصفة الصبر.

رابعًا: المعنى العام لهذه الآية:

إن أردتم أيها المسلمون معاقبة من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل ما فعله بكم، ولا تزيدوا على ذلك، فإن الزيادة ظلم يبغضه الله ﷻ، ثم أرشدهم إلى الصبر فقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

٦- تفسير الآية رقم (١٢٧) من سورة النحل:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

أ- المناسبة:

بعد أن بيَّن -سبحانه- في الآية السابقة أن العدل أمر مفروض على المسلمين في معاملاتهم، أمر سبحانه بعد ذلك بالصبر مبينًا حُسن عاقبته فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

ب- التفسير التحليلي:

أولًا: الإعراب:

قوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ الاستثناء هنا مفرّغ من أعمّ الأحوال، والمعنى: اصبر -أيها الرسول- على أذى قومك، وما صبرك في حال من الأحوال بمؤتي ثماره المرجوّة منه إلا بتوفيق الله تعالى لك، وبتثبيته إيّاك، وما دام الأمر كذلك فالجأ إليه وحده، واستعن به سبحانه في كل أمورك. ثم نهاه عن الحزن بسبب كفر الكافرين، فإن الهداية والإضلال بقدرة الله تعالى وحده، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾.

٧- تفسير الآية رقم (١٢٨) من سورة النحل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ هذه الآية تعليل لما سبق من أمر الله تعالى بالصبر، ومن نهيه عن الحزن وضيق الصدر.

والمعنى: إن الله تعالى بمعونته وتأييده مع الذين اتقوه في كل أحوالهم وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه، ومع الذين يحسنون القول والعمل بأن يؤدوا ذلك بالطريقة التي أمر الإسلام بها، ومن كان الله معه يكن سعيدا في دنياه وفي أخراه.

تفسير الآيات (١ - ٣٥) من سورة (غافر)

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : مقدمة، وتفسير الآيات (١ - ١٧) من سورة (غافر) ٣٣٧

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (١٨ - ٣٥) من سورة (غافر) ٣٦٠

مقدمة، وتفسير الآيات (١- ١٧) من سورة (غافر)

١ ـ مقدّمة لتفسير سورة غافر:

سورة "غافر" هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف، والمحقّقون من العلماء ذهبوا إلى أن سورة غافر من السور المكّيّة الخالصة، وهي تُسمَّى أيضًا بسورة "المؤمن" لاشتمالها على مؤمن آل فرعون، كما تُسمّى بسورة "الطَّول" لقوله تعالى: في أوائلها: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ ﴾ [غافر: ٣].

وعددُ آيات السورة خمس وثمانون آية في المصحف الكوفي والشامي، وأربع وثمانون في الحجازي، واثنتان وثمانون في البصري. وهي أول السور السبعة التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾، والتي يُطلق عليها لفظ الحواميم.

فضائل هذه السورة:

لقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الآثار في فضل هذه السورة، منها ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: "إنَّ لكل شيء لبابًا، ولباب القرآن آل حم، أو قال: الحواميم".

وأيضًا من هذه الآثار ما رُوي عن ابن مسعود أنه قال: آل حم ديباج القرآن.

المحاور التي دارت حولها سورة غافر:

المحور الأول: افتتاح السورة بالحروف المقطعة.

المحور الثاني: بيان مصارع الغابرين من الأمم السابقة.

المحور الثالث: تقرير أنَّ الذين يجادلون في آيات الله بغير حقّ فلا حجّة ولا برهان عندهم، إنَّما يدفعهم هذا الجدل كِبْرَ في نفوسهم عن الحقّ، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر.

المحور الرابع: بيان أنَّ الله تعالى قد أرسل قبل سيدنا محمد ﷺ رسلًا كثيرين على أن في الكون آيات قائمة، وبين أيديهم آيات قرآنية، ولكنهم يغفلون عن تدبّرها.

وجه مناسبة سورة "غافر" لسورة "الزمر":

أولًا: افتتحت سورة "الزمر" بالثناء على الله تعالى الذي أنزل القرآن بالحقّ على نبيّه ﷺ قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾، وكذلك افتتحت سورة "غافر" بالثناء على الله تعالى، قال تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١: ٣].

ثانيًا: بيّن سبحانه في سورة "الزمر" مظاهر قدرته في هذا الكون عن طريق إنزال الماء من السماء، وما تَبِعَهُ من زرع مختلف الألوان في الأرض يستفيد منه الناس؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

كذلك بيّن الله في سورة "غافر" ألوانًا من نعمه على عباده؛ لكي يشكروه عليها، ومن تلك النعم إيجاده الليل والنهار، وجعله الأرض قرارًا، والسماء بناء، وتصويره للناس في أحسن تقويم، وتحليله لهم الطيبات، وخلقه لهم في أطوار متعدّدة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

ثالثًا: في سورة الزمر ساق سبحانه لعباده ما يدلّ على سعة رحمته بعباده، ودعاهم إلى الإنابة إليه من قبل أن يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه النَّدم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

رابعًا: كذلك في سورة غافر فصلت السورة الحديث عن تكريم الله تعالى: لعبادة المؤمنين تارة عن طريق استغفار الملائكة لهم، وتضرّعهم إلى خالقهم أن يبعد الذين آمنوا عن عذاب الجحيم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

كذلك تبيّن السورة تكريم الله تعالى لعباده المؤمنين عن طريق وعدهم بالإجابة لدعواتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

٢ـ تفسير الآيات من أول سورة غافر إلى الآية السادسة:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

أ. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿حمٓ﴾ حم من الحروف المقطعة التي ابْتُدِئَتْ بها بعض سور القرآن الكريم، واختلفت آراء العلماء فيها؛ فالسلف يفوّضون معناها إلى الله تعالى: ويقول بعضهم: إن لكل كتاب سرًّا، وسرّ القرآن فواتح السور، أما الخلف فقالوا: إن لها معنًى؛ لأنه لا يعقل أن يُوجد في كتاب الله ما لا يعرف معناه.

ثم اختلفوا في تحديد الرأي المراد، ولعلّ أقرب الأقوال إلى الصواب: أن هذه الحروف المقطعة قد جيء بها في افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحدَّاهم القرآن؛ فكأنه سبحانه يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين في أن القرآن من عند الله: هاكم القرآن تَرَوْنَهُ مؤلفًا من كلام هو جنس ما تُؤلفون منه كلامكم، وهذا القرآن تَرَوْنَهُ أيضًا منظومًا من حروف هي جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم؛ فإن كنتم في شكّ في أن القرآن من عند الله؛ فهاتوا مثله، أو عشر سور من مثله، أو سورة واحده من مثله، لكنهم عجزوا وانقلبوا خاسرين، وثبت أن هذا القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ العزيز: أي: الغالب لكل من سواه، من العزّ بمعنى القوة والغلبة.

قوله: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ أي: المطلع على أحوال خلقه، دون أن يخفى عليه شيء منها.

قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ أي: ساتر لذنوب عباده، فلفظ ﴿غَافِرِ﴾ من الغفر بمعنى: الستر والتغطية، ولفظ ﴿ٱلذَّنۢبِ﴾ يُطلق على كل قول، أو فعل تسوء عاقبته، مأخوذ من ذنب الشيء، أي: نهايته.

قوله: ﴿ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ التوب مصدر بمعنى الرجوع من الذنب، والتوبة منه يقال: تاب فلان عن الذنب توبة إذا رجع عنه.

قوله: ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ أي: ذي الفضل والثواب والإنعام على من يشاء من عباده، والطول السعة والغنى والزيادة، يقال: لفلان على فلان طَوْل، أي: زيادة وفضل، ومنه الطول في الجسم؛ لأنه زيادة فيه.

قوله: ﴿ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي: المرجع والمآب يوم القيامة.

قوله: ﴿ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ التقلب هو التنقّل من مكان إلى آخر من أجل الحصول على المنافع والمكاسب.

قوله: ﴿ وَٱلْأَحْزَابُ ﴾ الأحزاب هم الذين تحزّبوا، أي: اجتمعوا على عداوة أنبيائهم.

قوله: ﴿ لِيَدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: يزيلوا به الحق، هذا هو بيان معاني المفردات.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ جملة مبتدأ وخبر، أي: هذا الكتاب منزل عليك - أيها الرسول - وليس من عند أحد غيره.

ثالثًا: البلاغة:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ يشير إلى هول العذاب للكافرين؛ فالمقصود منه تخويف الكافرين من العذاب الذي سينزل بهم يوم القيامة.

رابعًا: المعنى العام:

إنَّ هذا الكتاب منزّل عليك أيها الرسول من الله تعالى: وحده، وليس من عند أحد غيره؛ فالله سبحانه هو الغالب لكل من سواه، المطلع على أحوال خلقه دون أن يخفى عليه شيء منها، ساتر لذنوب عباده، ومزيل لأثرها عنهم بفضله ورحمته، الله ﷻ شديد العقاب لمن أشرك به وأعرض عن الحق الذي جاء به الرسول ﷺ الله ﷻ أيضًا- صاحب الفضل، والثواب، والإنعام على من يشاء من عباده، لا إله بحقّ وصدق إلَّا هو سبحانه إليه المرجع والمآب يوم القيامة.

قال القرطبي: رُوي عن عمر بن الخطاب < أنه افتقد رجلًا ذا بأس شديد من أهل الشام؛ فلما سأل عنه قيل له: تتابع في الشراب، أي: شرب الخمر شربًا كثيرًا؛ فقال عمر لكاتبه: "اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان سلام عليك، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ثم ختم عمر بن الخطاب الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعه إليه -أي: لا تعطي الكتاب إليه- حتى تجده صاحيًا -أي: عاقلًا وليس سكرانا- ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة"، فلما وصل الكتاب إلى الرجل جعل يقرءوه، ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذّرني عقابه؛ فلم يبرح يردّدها حتى بكى، ثم نزع -أي: امتنع- عن شرب الخمر وحسنت توبته؛ فلما بلغ عمر ذلك قال: "هكذا فاصنعوا؛ إذا رأيتم أحدكم قد زلّ زلّته فسدّدوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه".

هؤلاء الكافرون -أيها الرسول- هم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون، يُجادلون في آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته عن طريق التكذيب بها، والطعن فيها، هؤلاء الكافرون مهما تقلّبوا، وتحركوا، وملكوا، واستمتعوا؛ فهم إلى اندحار وهلاك وبوار، ونهاية المعركة معروفة -إن كان هناك معركة يمكن أن تقوم بين قوة الوجود وخالقه، وقوة هؤلاء الضعاف المساكين- ولقد سبقتهم أقوام

وأحزاب على شاكلتهم تُوحي عاقبتهم بعاقبة كلّ من يقف في وجه القوة الطاحنة العارمة التي يتعرّض لها من يعرض نفسه لبأس الله؛ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

هذه قصة قديمة من عهد نوح، ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان، وهذه الآية تصوّر هذه القصة قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال، كما تصوّر العاقبة في كلّ حال: رسول يجيء؛ فيكذّبه طغاة قومه، ولا يقفون عند مقارعة الحجّة بالحجّة، إنّما هم يلجئون إلى منطق الطغيان الغليظ؛ فيهمون أن يبطشوا بالرسول، ويموهوا على الجماهير بالباطل؛ ليغلبوا به الحقّ، هنا تتدخل يد القدرة الباطشة بقوة؛ قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

لقد كان عقابًا مدمّرًا قاضيًا عنيفًا شديدًا تشهد به مصارع القوم الباقية آثارها، وتنطق به الأحاديث والروايات.

ثم بيّن سبحانه سُنّة من سنّته التي لا تختلف فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ -أي: وكما حقّت كلمة ربّك أيّها الرسول ووجبت بإهلاك الأمم الماضية التي كذّبت أنبياءها، وجعلهم وقودًا للنار- فكذلك تكون سنتنا مع المكذّبين لك من قومك إذا ما استمرّوا في تكذيبهم لك، ولم يعودوا إلى طريق الحقّ، فمعنى "حقّت" في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: وجبت كلمة ربك.

خامسًا: المعاني المستفادة من هذه الآيات:

١. القرآن معجز مع أنّه جاء بلغة العرب.

٢. صفات الله واضحة فهو العزيز العليم، غافر الذنب، قابل التوب شديد العقاب، ذو الطول.

٣. إعراض الكافرين عن الحق ليس له دليل، ولا برهان.

٤. الكافرون مهما تقلّبوا، وتحرّكوا، وملكوا، واستمتعوا فهم إلى اندحار، وهلاك، وبوار.

سادسًا: أسئلة حول الآية:

١. إلى ما يدل حرف العطف الواو في قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾، ما الحكمة في أنه عطف بحرف الواو ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾؟

قال صاحب (الكشاف): في ذلك نكتة جليلة، وهي: إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين؛ بين أن يقبل توبته؛ فيكتبها لها طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محّاءة للذنوب، كأنه لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول، إذن هو قبل توبته ومحا ذنبه، وهذا هو السر في العطف بالواو في قوله: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾.

٢. لماذا أفرد قوم نوح بالذكر، وخصهم بالذكر في قوله: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ ﴾؟

الجواب: لأنهم أول قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولم يزدهم دعاءه لهم إلَّا عتوا، ونفورًا؛ ولذلك خص قوم نوح بالذكر.

٣. كيف يوصف بالكفر من يجادل، في قوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وقد حث المسلمين على جدال أهل الكتاب بالحسنى في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؟

يعني: آية تأمر بالجدال، وآية أخرى تبين أن الجدال كفر ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾. والجواب: أن المراد بالجدل في قوله: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الجدال بالباطل لإبطال الحق كقوله تعالى: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ أما الجدال المأمور به هو جدال المسلمين لأهل الكتاب لإظهار الحق منه وفيه، لا لدحضه ولا لإزالة الحق.

٣. تفسير الآيات من رقم (٧) إلى (٩):

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ .

أ. مناسبة الآيات لما قبلها:

بعد أن سلّى الله رسوله ﷺ وحذّر مشركي قريش من الاستمرار في غيِّهم وطريقهم في الآيات السابقة؛ بيَّن سبحانه -بعد ذلك- مظهرًا من مظاهر رحمته للمؤمنين وتكريمهم فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلى آخر الآيات.

ب. التفسير التحليلي للآيات:

أولًا: معاني المفردات:

قوله ﴿ ٱلۡعَرۡشَ ﴾ عرش الله لا يعلمه البشر إلَّا بالاسم؛ فعلينا أن نُؤمن بأن لله عرشًا عظيمًا، أما كيفيّته، وهيئته؛ فنفوض معرفتها إلى الخالق ﷻ.

قوله: ﴿وَقِهِمْ﴾ أي: صنهم واحفظهم.

قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يقال عدن فلان بالمكان يَعْدن عدنا إذا لزمه، وأقام فيه دون أن يبرّه، ومنه سُمّي المخزون في باطن الأرض بالمعدن؛ لأنه مستقر بداخل الأرض.

ثانيًا: الإعراب:

قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ الذين: اسم موصول مبتدأ، والخبر جملة: يحملون العرش جملة فعلية في محل رفع خبر المبتدأ.

قوله: ﴿رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ منصوبان على التمييز.

قوله: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ اسم الإشارة يعود إلى ما تقدم من رحمته، ومن إدخالهم الجنة، ومن وقايتهم السوء.

ثالثًا: المعنى العام في الآيات:

إنَّ الملائكة الذين هم مقرّبون إلى الله ﷻ والحاملون لعرش الله، والحافّون به من صفاتهم أنهم ينزّهون الله عن كل نقص، وينطقون بحمده وبالثناء عليه، وبما يليق به، ويؤمنون بالله إيمانًا تامًّا لا يشوبه ما يتنافى مع هذا الإيمان، والإذعان لله الواحد القهار، وبجانب تسبيحهم وحمدهم لربّهم وإيمانهم به؛ يتضرّعون إليه سبحانه أن يغفر للذين آمنوا ذنبوهم، ويقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

إنهم يقدمون بين يدي الدعاء؛ لأنهم في طلب الرّحمة للناس إنما يستمدّون تلك الرحمة من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كلّ شيء، وأنهم لا يقدمون بين يدي الله بشيء إنما هي رحمته وعلمه، منهما يستمدّون، وإليهما يلجئون، إنهم يستغفرون للذين آمنوا حالة كونهم قائلين: يا

ربّنا وسعت رحمتك، ووسع علمك كلّ شيء؛ تقبّل دعاءنا؛ فاغفر بمقتضى سعة رحمتك وعلمك للذين تابوا إليك توبة صادقة نصوحًا، واتبعوا سبيلك الحقّ وصراطك المستقيم، وصنهم يا ربنا واحفظهم من الوقوع في جهنم؛ لأنَّ عذابها همّ وغمّ عليهم، يا ربنا أدخلهم جناتك دخولًا دائمًا لا انقطاع معه، وأدخل معهم من صلح دخولهم؛ بسبب إيمانهم وعملهم الطيب من آبائهم، وأزواجهم، وذرّيّاتهم، إنك أنت -يا مولانا- الغالب في كل شيء، الحكيم في كل تصرفاتك وأفعالك.

وقهم -يا ربنا- من ارتكاب أعمال السيئات، ومن العقوبات التي تترتّب على ذلك بأن تتجاوز عن خطاياهم، ومن تقِ السيئات في يوم القيامة الذي تُجازى فيه كلّ نفس بما كسبت؛ فقد رحمته برحمتك الواسعة من كل سوء، وذلك الذي تقدّم من رحمته بهم، ومن إدخالهم الجنة، ومن وقايتهم السوء هو الفوز العظيم الذي لا يُضارعه فوز، والظفر الكبير الذي لا يُقاربه ظفر، والأمل الذي لا مطمع وراءه لطامع.

رابعًا: المعاني المستفادة من تلك الآيات:

١. تحرّك عدد من الملائكة بالطّواف بالعرش؛ حقيقة أخبر الله عنها، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

٢. محبّة الملائكة للمؤمنين؛ حيث يستغفرون له، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

٣. وجود الآباء الصالحين، والأبناء الصالحين في الجنة يزيدهم سرورًا، وانشراحًا.

خامسًا: الأسئلة حول الآيات:

١. قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ولا يخفى أن حملة العرش، ومن حوله مؤمنون، ما فائدة هذا الإخبار؟

قال صاحب (الكشاف) فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه، كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح، كذلك كما عقّب أعمال الخير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأبان بذلك فضل الإيمان.

فإذن حينما أخبر عن حملة العرش -وهم الملائكة- بقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ذلك الإخبار لبيان فضل الإيمان وشرفه؛ لأنهم مؤمنون.

٢. قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذه الآية الكريمة تدلّ على أن استغفار الملائكة لأهل الأرض خاص بالمؤمنين منهم، وقد جاءت آية أخرى يدل ظاهرها على خلاف ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]؟

والجواب: أن آية غافر التي هي: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مخصّصة لآية "الشورى" التي هي: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى: ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين بوجوب تخصيص العام بالخاص.

٣. قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ من سورة "غافر" وقال تعالى: في سورة "الأعراف" ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف ١٥٦] والكافر شيء، ولا يدخل الجنة؟

الجواب: المراد بعموم كل شيء المخصوص، وهم المؤمنون، كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أو المراد: رحمته في الدنيا؛ فإنها عامة.

٤. قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦] في سورة "الروم" وهم يعلمون ذلك، فما فائدة سؤال أو دعاء الملائكة؟

الجواب: أن المراد: وفّقهم يا رب للأعمال الصالحة المقتضية دخول الجنة؛ ولذلك قال حكاية عن دعائهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٥. قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هذه في سورة غافر، ودعاء الملائكة مستجاب، وتقع السيئات من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى ٢٤]؟

الجواب: أن المراد: وقهم عذاب السيئات، أو جزاء السيئات.

٦. قوله تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ من سورة "غافر" ولا سيئة يوم القيامة؛ ما هو الحلّ في هذا الكلام الذي يُوهم ظاهره التناقض؟

الجواب: المراد جزاء السيئات، أو ما يسوءهم فيه من الحزن والخوف والعذاب.

٤ـ تفسير الآيات من رقم (١٠) إلى (١٢):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

أ. مناسبة الآيات بما قبلها:

بعد أن أخبر الله في الآيات السابقة بأن الملائكة المقربين يدعون للمؤمنين بما يسعدهم في دنياهم، وأخراهم؛ ذكر بعد ذلك مآل الكافرين، ومصير الكافرين مبينًا انقطاعهم عن كل من يشفع لهم، أو يدعو لهم بخير.

كما دعا الملائكة للمؤمنين في الآيات السابقة ؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ .

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ ﴾ المقت: أشد أنواع البغض والغضب.

قوله: ﴿ مِّن سَبِيلٍ ﴾ أي: من طريق.

قوله: ﴿ ٱلْعَلِيِّ ﴾ أي: المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته أو صفاته.

نأتي بعد ذلك إلى بيان كلمة ﴿ ٱلْكَبِيرِ ﴾ -أي: العظيم- الذي هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك، أو صاحبة، أو ولد.

ثانيًا: الإعراب:

إعراب هذه الآيات، ليس كل الآيات، لكن ما يوضّح المعنى: قوله: ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ ؛ إذ هنا ظرف لفعل دلّ عليه المقت الأول، أو تعرب إذ تعليلية لمقت الله ﷻ.

ثالثًا: البلاغة:

١. ما المراد بقوله تعالى: ﴿ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ ؟

الجواب: أرادوا بالموتة الأولى: خلقَهم من مادة لا روح فيها، وهم في بطون أمهاتهم، وأرادوا بالإماتة الثانية: قبضَ أرواحهم عند انقضاء آجالهم، وأرادوا

بالحياة الأولى: نفخَ أرواحهم في أجسادهم، وهم في الأرحام، وأرادوا بالحياة الثانية: إعادتَهم للحياة يوم البعث للحساب والجزاء.

وشبيهٌ بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

٢. من المنادي لهؤلاء الكافرين؟ لأن الآية تقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ من المنادي لهم؟

الجواب: هم الملائكة خزنة النار أو المؤمنون، وهذا النداء إنما يكون يوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون.

٣. ما نوع إضافة المقت الأول إلى الاسم الجليل: الله؟ وما نوع إضافة المقت الثاني في قوله: ﴿ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾؟

الجواب: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ ﴾ مصدر مضاف إلى فاعله، وهو لفظ الجلالة، وكذلك قوله تعالى: ﴿ مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾.

٤. ما نوع الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾؟

الجواب: الاستفهام يوحي باللهفة، واليأس المرير.

٥. ما مرجع اسم الإشارة في قوله ﴿ ذَٰلِكُم ﴾؟ وما معنى الباء في قوله ﴿ بِأَنَّهُۥ ﴾؟

الجواب: مرجع اسم الإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكُم ﴾ يعود على المكث في النار وعذابهم فيها، والباء في قوله: ﴿ بِأَنَّهُۥ ﴾ للسببية، أي: ذلك المكث في النار، والعذاب فيها بسبب أنكم كنتم تدعون إلى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون.

رابعًا: المعنى العام للآيات:

إنَّ الذين كفروا بعد أن أحاطت بهم النار، وبعد أن عادوا على أنفسهم بأشدّ ألوان النّدامة والحسرة والمقت؛ لإيثارها الكفر على الإيمان، بعد كلّ ذلك يُنادون: إن مقت الله تعالى لكم؛ بسبب إصراركم على الكفر؛ حتى هلكتم، أشدّ وأعظم من مقتكم لأنفسكم، مهما بلغ مقتكم لها وكراهيتكم لها، إن غضب الله عليكم أشدّ من غضبكم على أنفسكم الأمّارة بالسوء؛ وذلك لأنكم جاءتكم دعوة الحقّ على ألسنة رسلكم؛ فأعرضتم عنها، وصمّمتم على الكفر والفسوق والعصيان حتى أدرككم الموت، وها أنتم اليوم تُجزون على ما كنتم تعملونه في الدنيا.

وما أوجع هذا التفكير، وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب الآن، وقد سقط عنهم غشاء الخداع والظلام، يعرفون أن المتّجه لله وحده؛ فيتّجهون، كما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، وهي كلمة الذليل البائس اليائس "ربنا"، وقد كانوا يكفرون وينكرون يقولون: أحييتنا أول مرة فنفخت الروح في الموات فإذا هو حياة، وإذن نحن أحياء، ثم أحييتنا الأخرى بعد موتنا؛ فجئنا إليك، وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه، وقد اعترفنا بذنوبنا؛ فهل إلى خروج من سبيل.

بهذا التنكير الموحي باللهفة واليأس المرير، ذلكم الذي نزل بكم من عذاب، سببه أنكم كنتم في الدنيا إذا عبد الله وحده، وطلب منكم ذلك؛ كفرتم به ﷻ وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم، وما دام هذا حالكم في الدنيا؛ فاخسئوا في النار، ولا تؤمّلوا في الخروج منها بحال من الأحوال فالحكم لله وحده دون غيره، وهو سبحانه الذي حكم عليكم بما حكم، وهو سبحانه المتعالي عن أن يكون له مماثل لذاته أو صفاته، العظيم الذي هو أعظم وأكبر من أن يكون له

شريك، أو صاحبة، أو ولد، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾. وبذلك يكون الكافرون يوم القيامة في غاية الحسرة، وفي غاية الندامة.

خامسًا: المعاني المستفادة:

١. الكفّار يمقتون أنفسهم في جهنم؛ يمقتون أنفسهم الأمارة بالسوء؛ لأنهم دخلوا جنهم بسبب اتباع هواها.

٢. مقت الله للكفار يوم القيامة أشدّ من مقتهم لأنفسهم؛ بسبب كفرهم.

٣. إذا عرف الكافر في الآخرة أن ربَّه عليه غضبان؛ فلا شيء أصعب على قلبه منه، على أن لا بكاءه ينفعه، ولا غناء يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه، ولا يسمع منه تضرّع، ولا يرجى له حيلة.

٤. لا مغفرة للمشرك، ولا نهاية لعقوبته، فلا سبيل للمشركين إلى الخروج إلى النار أبدًا.

٥. على العاقل أن يجيب دعوة الله، ودعوة رسوله قولًا وعملًا واعتقادًا؛ حتى يفوز بالمرام، ويدخل دار السلام.

سادسًا: الأسئلة حول الآية:

قال تعالى: ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ لفظ الاستقبال في قوله ﴿ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ ماذا أفاد؟ أفاد لفظ الاستقبال بأنه تنبّه على أن الكافرين لو ردّوا لعادوا إلى الشرك، وأيضًا في إيراد ﴿إِذَا ﴾ وصيغة الماضي في الشرطية الأولى: ﴿ وَإِن ﴾، وصيغة المضارع في الشرطية الثانية ما لا يخفى من الدلالة على كمال سوء حاله.

٥- تفسير الآيتين (١٣ ، ١٤):

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .

أ- المناسبة بين هاتين الآيتين، وما قبلهما:

لما بين الله تعالى مصير الكافرين في الآيات السابقة؛ ساق سبحانه بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته لعباده، وعلى وحدانيته وكمال قدرته فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ إلى آخر الآيات.

ب- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي: دلائل قدرته، وشواهد وحدانيته في الأنفس والآفاق.

قوله تعالى: ﴿ رِزْقًا ﴾ أي: مطرًا.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ أي: وما يتعظ، ويعتبر.

قوله: ﴿ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ أي: يرجع.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الفاء في قوله: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ﴾ للإفصاح عن شرط مقدر، أي إذا كان الأمر -كما ذكرت لكم- من أن كلّ شيء في هذا الوجود يدلّ على وحدانية الله؛ فأخلصوا له في العبادة والطاعة.

قوله ﴿ مُخْلِصِينَ ﴾: حال.

ثالثًا: البلاغة: قوله:

﴿فَٱدۡعُواْ﴾ مسبّب عن الإنابة، وأن فيه التفاتًا حيث قال، ثم قال للمنيبين؛ ففيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.

بعد ذلك، لمن الخطاب في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾؟

الخطاب يعمّ المؤمن، والكافر؛ لسبق ذكرهما، لا للكفار وحدهم.

وماذا أفاد التعبير بالفعل المضارع في قوله ﴿يُرِيكُمۡ﴾ و﴿وَيُنَزِّلُ﴾؟

يفيد التعبير بالفعل المضارع التجدد والاستمرار.

وماذا أفاد تقديم الجار والمجرور على المفعول في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾؟

الجواب: لإظهار المسرة والفرح والبشارة.

ولماذا أطلق سبحانه على المطر ﴿رِزۡقٗا﴾؟ أطلق سبحانه على المطر ﴿رِزۡقٗا﴾؛ لأنه سبب فيه. ولماذا أفرد المطر بالذكر؟

أفرد المطر بالذكر -مع كونه من جملة تلك الآيات- لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته، وجلائل نعمته الموجبة لشكره.

ثالثًا: المعنى العام لهاتين الآيتين: إنَّ الله تعالى وحده هو الذي يريكم دلائل قدرته، وشواهد وحدانيته في الأنفس والآفاق، وهذه الآيات في آثار قدرته ﷻ.

وفي كل شيء له آية ❖ تدلّ على أنه الواحد

وينزل لكم من السماء سبب الزرق، وهو المطر مراعاة لمصالح أبدانكم، وما يتعظ ويعتبر إلَّا من يرجع إلى الله عن الإنكار، ويتفكر فيما أودعه في مصنوعاته في

شواهد قدرته الكاملة، ونعمته الشاملة، الظاهرة والباطنة، الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، فإذا كان الأمر كذلك؛ فاعبدوا الله -أيها المؤمنون- حال كونكم مخلصين له دينكم وطاعتكم من الشرك، والالتفات إلى ما سواه بموجب إنابتكم إليه، وإيمانكم به، ولو كره الكافرون ذلك، وغاظهم إخلاصكم.

رابعًا: المعاني المستفادة:

١. ليس للإنسان أن يرى ببصيرته حقائق الأشياء إلَّا بإراءة الحق تعالى إيَّاها؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

٢. إنَّ المعاند الكافر بمعزل عن التذكر والاتعاظ، قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾.

٣. لا بد من الإخلاص مطلقًا؛ فاعمل لربك خالصًا طيبًا؛ فإنه طيب لا يقبل إلَّا طيبًا.

٦. تفسير الآيات من رقم (١٥) إلى (١٧):

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

ما زال الحديث موصولا عن صفات الله العظمى، الأمر الذي يزيد المؤمنين في إخلاص العبادة، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ﴾ إلى آخر الآيات.

- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ الدرجة مثل المنزلة، لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود دون الامتداد، على نحو درجة السطح والسلم، وقال الألوسي: ﴿ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ مصاعد الملائكة إلى أن يبلغوا العرش، أي: رفيع درجات ملائكته، ومعارجه إلى عرشه، ويجوز أن يكون قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ كناية عن رفعة شأنه وسلطانه -عز شأنه- كما أن قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ كناية عن ملكه جلّ شأنه.

وقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحي، وسمّي الوحي روحًا؛ لأن الأرواح تحيا به، كما أن الأجساد تحيا بالغذاء.

وقوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾ الإنذار: الإعلام المقترن بالتخويف والتحذير؛ فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا.

قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي يوم القيامة، وسمّي بيوم التلاق؛ لأنه يتلاقى فيه الأولون والآخرون، والمؤمنون والكافرون، والظالمون والمظلومون.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي: ظاهرون لا يسترهم شيء.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أخبار متوالية لقوله: ﴿هُوَ﴾.

قوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ ﴿مِنْ﴾ بيانية للروح، وفسر الأمر بما يتناول الأمر والنهي، وعن ابن عباس: فسر أمره بالقضاء، فجعلت ﴿مِنْ﴾ ابتدائية متعلّقة

بمحذوف، وقع حالًا من الروح، أي: ناشئًا عن أمره، أو صفة له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: الكائن عن أمره.

وفسر بعض العلماء ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: بالملك، وجعل ﴿مِنْ﴾ ابتدائية متعلقة بمحذوف وقع حالًا، أو صفة على ما ذُكِر آنفًا، وكون الملك مبدأ الوحي لتلقيه عنه، ومن فسّر الروح بجبريل # قال: ﴿مِنْ﴾ سببيّة متعلّقة بـ﴿يُلْقِى﴾، والمعنى: ينزل الروح من أجلّ تبليغ أمره.

قوله: ﴿لِيُنذِرَ﴾ اللام للتعليل، والضمير المستتر لله تعالى، أو لمن -وهو الملقى إليه- أو للروح، أو للأمر، وعوده على الملقى إليه -وهو الرسول ﷺ أقرب لفظًا ومعنًى، كما يقول الألوسي؛ لقرب المرجع وقوّة الإسناد، فهو الذي ينذر الناس حقيقة، بلا واسطة، واستظهر بعض العلماء رجوع الضمير المستتر إليه تعالى؛ لأنَّه سبحانه المحدّث عنه.

قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾ يوم بدل من ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ هم: مبتدأ، وبارزون خبر، والجملة في محلّ جر بإضافة يوم إليها، وجُوِّز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفًا لقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ جملة استئنافية؛ لبيان بروزهم، وجوُّز أن يكون خبرًا ثانيًا لهم، وقيل: هي حال من ضمير بارزون.

ثالثًا: المعنى العام:

إنَّ الله تعالى وحده صاحب الرِّفعة والمقام العالي، وهو وحده صاحب العرش العظيم الذي، لا يعلم مقدار عظمته إلا هو، وهو وحده سبحانه يُلقي الوحي حال كون هذا الوحي ناشئًا من أمره وقضائه على من يختاره لهذا الإلقاء من عباده الصالحين، فالله يُلقي بوحيه على أنبيائه؛ ليُنذروا الناس، ويحذِّروهم من سوء العذاب يوم القيامة إذا ما استمرُّوا في كفرهم، وعصيانهم لربِّهم، هذا اليوم

-يوم القيامة- الذي تلتقي فيه الخلائق، والذين يظهرون فيه ظهورًا تامًّا دون أن يخفى منهم شيء على الله تعالى، ويُنادي الله تعالى -في المخلوقات في ذلك اليوم: لمن الملك في هذا اليوم الهائل الشديد؟ ثم يجيب سبحانه على هذا السؤال بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وفي هذا اليوم الهائل الشديد تُجازى كلّ نفس من النفوس المؤمنة والكافرة، والبارّة والفاجرة بما كسبت في دنياها من خير أو شرّ، ومن طاعة أو معصية، لا ظلم اليوم ولا جور، ولا محاباة ولا وساطات، إنَّما تعطى كلّ نفس ما تستحقّه من ثواب أو عقاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغله سبحانه شأن عن شأن؛ فيصل إلى المحاسب من النفوس ما يستحقّه سريعًا.

رابعًا: المعاني المستفادة:

١. إن الله سبحانه رفيع لدرجات أسمائه وصفاته، وطبقات ظهوراته في تنزّلاته، واسترسالاته.

٢. الوحي سببٌ لحياة القلوب؛ فإنَّ حياة القلوب إنَّما هي بالمعارف الإلهية الحاصلة بالوحي.

٣. النبوّة عطائية، لا كسبية، يقول تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٤. الإنذار من وظيفة الأنبياء.

٥. كلّ نفس مؤمنة أو كافرة، طائعة أو عاصية الكلّ يُحاسب يوم القيامة، ولا نقص في الثواب، ولا زيادة في العذاب.

٦. إنَّ الله لا يشغله شأن عن شأن؛ فيحاسب الخلائق جميعًا مع كثرتهم، ويصل إليهم ما يستحقّونه سريعًا.

خامسًا: أسئلة حول الآية:

قال الزمخشري في (الكشاف): فإن قلت: قول الله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ بيان وتقرير لبروزهم، والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء بزروًا، أو لم يبرزوا، فما معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾؟

قلت: معناه أنهم كانوا يتوهّمون في الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان والحُجُب أن الله لا يراهم، وتخفى عليه أعمالهم؛ فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهّمون فيها مثلما كانوا يتوهّمونه في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

ومن المجيب عن سؤال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ المجيب هو الله؛ فيكون السائل والمجيب واحدًا.

كيف خصَّ الله ذلك الملك بيوم مخصوص، والملك لله في جميع الأيام؟ الجواب: الملك -وإن كان لله في جميع الأيام- إلا أنه سبحانه ملك عباده في الدنيا، ثم تكون دعاويهم منقطعة يوم القيامة، لا يدَّعي مدَّعٍ مُلكًا، ولا مِلكًا يومئذٍ؛ ولذا قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

تفسير الآيات (١٨- ٣٥) من سورة (غافر)

١. تفسير الآيات من رقم (١٨) إلى (٢٠):

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

أ. المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها:

لّما بيّن الله سبحانه في الآية السابقة أن كل نفس تُجْزَى بما كسبت يوم القيامة، أَمَرَ الله نبيّه ﷺ بأن يحذِّر كفَّار قريش من أهوال هذا اليوم، فقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ إلى آخر الآيات.

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

﴿ ٱلْآزِفَةِ ﴾ يوم القيامة، وأصل معنى ﴿ ٱلْآزِفَةِ ﴾ القريبة، وسُمِّيَتِ القيامة بذلك لقربها.

قوله: ﴿ ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ ﴿ ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ جمع حنجرة وهي الحلقوم.

قوله: ﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ أصل الكظم الحبس والإمساك بالشيء، يعني يحبسون ويمسكون غضبه.

قوله: ﴿ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ المقصود بها النظرة الخائنة، التي يتسلَّل بها المتسلِّل ليطلع على ما حرّم الله الاطلاعَ عليه.

قوله: ﴿ حَمِيمٍ ﴾ الحميم هو الإنسان الذي يُحِبُّكَ، ويشفق عليك، ويهتمّ بأمرك، ومنه قيل لخاصّة الرجل: حامّته.

قوله: ﴿ شَفِيعٍ ﴾ الشفيع من الشفع، بمعنى الانضمام، يقال: شَفَعَ فلانٌ لفلان، إذا انضم إليه ليدافع عنه.

ثانيًا: الإعراب:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب على أنه مفعول به لـ﴿ وَأَنذِرْهُمْ ﴾.

قوله: ﴿ كَٰظِمِينَ ﴾ حال من أصحاب القلوب على المعنى.

قوله: ﴿ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ صفة لموصوف مقدر، أي: النظرة الخائنة.

قوله: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف.

ثالثًا: البلاغة:

في قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ﴾ تقديم المسند إليه، وهو المبتدأ -لفظ الجلالة- قُدِّم للتقوى، وجُوِّزَ أن يكون للحصر، يعني الله وحده هو الذي يقضي بالحقّ.

وفائدة العدول عن المضمَر إلى المظهَر، والإتيان بالاسم الجامع عُقيب ذكر الأوصاف وما أُشير إليه، من إرادة الموصوف بتلك الصفات؛ كل ذلك لتربية المهابة في قلوب الناس.

قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ أسلوب تهكّمي، فهنا تهكمٌ بآلهة الكفَّار؛ لأن الجماد لا يقال فيه: "يقضي" أو "لا يقضي" وجعله بعضهم من باب المشاكلة، وأصله لا يقدرون على شيء، يعني وأصل ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ أي: لا يقدرون على شيء، لكنّ المختار الرأي الأول، وهو أنّ هذا أسلوبٌ تهكميٌّ فيه تهكم بآلهتهم؛ لأنَّ التهكم أبلغ؛ ولأنه ليس المقصودُ الاستدلالَ على عدم صلاحيتهم للألوهية.

وقرأ نافع وهشام بالتاء في قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ قرأ نافع وهشام بالتاء، يعني "تَدْعُونَ" على سبيل الالتفات، أو إضمار "كل" يعني الالتفات من الغيبة ﴿ يَدْعُونَ ﴾ إلى الخطاب "تَدْعُونَ" أسلوب التفات.

رابعًا: المعنى العام:

وأنذر أيُّها الرسول الناسَ، وحذِّرْهم من أهوال يوم عظيم قريب الوقوع، هذا اليوم تكون قلوبُهم فيه مرتفعةً عن مواضعها من صدورهم، ومتشبثةً بحناجرهم، ويكونون كاظمين عليها وممسكين بها؛ حتى لا تخرج مع أنفاسهم، كما يمسك صاحب القربة فمَها؛ لكي لا يتسرّب منها الماء.

فالآية الكريمة تصويرٌ بديعٌ، لما يكون عليه الناس في هذا اليوم من فزع شديد، وكرب عظيم، وخوف ليس بعده خوف.

والحديث عن قرب القيامة جاء في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقوله سبحانه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وليس للظالمين في هذا اليوم قريبٌ أو محبٌّ يعطف عليهم، ولا شفيع يطيعهم في الشفاعة لهم؛ لأنَّهم في هذا اليوم يكونون محلَّ غضب الجميع ونقمتهم؛ بسبب ظلمهم، وإصرارهم على كفرهم؛ فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذي يهتمُّ بأمرهم، والشفيع الذي يشفع له، والإنسان الذي تكون له أيَّةُ كلمة تُسْمَعُ في شأنهم.

ثم أكّد سبحانه شمول علمه بكل شيء فقال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ أي: هو سبحانه يعلم نظرة الخائنة من الأعين، وهي التي يُوجدها صاحبها في تسلُّلٍ وخفيةٍ إلى محارم الله تعالى، كما يعلم سبحانه الأشياءَ التي يُخفيها الناسُ في صدورهم، وسيجازيهم على ذلك في هذا اليوم بما يستحقّون.

أما النبي ﷺ فكان من كمال خُلُقِه أنه ليس له خائنةُ أعينٍ، يعني لا يجعل نظره يتسلَّل إلى أشياء غير مستحبَّة.

قال القرطبي: ولمّا جيء بعبد الله ابن أبي سرح إلى رسول الله ﷺ بعدما اطمئنّ أهل مكة، وطلب له الأمان عثمانُ بن عفان، صمت رسول الله ﷺ طويلًا، ثم قال: ((نعم))، فلما انصرف قال ﷺ لمن حوله: ((ما صمتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عنقَه)) فقال رجل من الأنصار: فهلّا أومأت إليّ يا رسول الله؟ فقال ﷺ: ((إن النبيّ لا تكون له خائنةُ أعين)).

والقضاءُ الحقُّ يوم القيامة مردُّه إلى الله وحده، فالله تعالى يقضي بين عباده قضاءً ملتبسًا بالحق الذي لا يحوم حوله باطلٌ، والآلهة الذين يعبدهم الكفار من دون الله تعالى لا يقضون بشيءٍ أصلًا؛ لأنهم لا يعلمون شيئًا، ولا يقدرون على شيء؛ وإذن فهم أعجز وأتفه من أن يُلتفت إليهم، إنَّ الله تعالى هو السميع لكل شيء، العليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

خامسًا: المعاني المستفادة من هذه الآيات:

١. قرب يوم القيامة؛ ولذلك سُمِّيَتْ بالآزفة لأزوفها -وهي القرب- لأن كلُّ آتٍ قريب، وإن استبعد اليائسُ أمده ووقوعه.

٢. شدّة الفزع يوم القيامة؛ فإن القلوب ترتفع عن أماكنها من شدة الفزع فتلتصق بحلوقهم، فلا تعود فيستريح ويتنفّس، ولا تخرج فيستريح بالموت، ولا يمكن أن ينطقوا ويصرحوا بما عندهم من الحزن والخوف؛ من شدّة الكرب وغلبة الغم عليهم، يقول تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾.

٣. لا شفاعة للكفار؛ فالظالمون هم الكافرون، وإنما أُطلق عليهم الظالمون تسجيلًا عليهم للظلم.

٤. أما عُصَاة المسلمين فلهم حميمٌ وشفيعٌ ومشفعٌ، وهو النبي ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين، والأولياء المقربين، والملائكة أجمعين.

٥. خيانة العين هي ألا يغضّها عن المحارم، ويرسلها إلى الهوى والشهوات.

٦. أفعال القلوب معلومةٌ لله تعالى، وكذلك أفعال الجوارح؛ قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾.

٧. إن الآلهة التي يعبدها الكفار من دون الله -وهي الأصنام وغيرهم- عريانون عن التلبّس بصفة السمع والبصر، اللّتين هما أساس القضاء بالحق: فكيف يكونون معبودين؟! هذه هي أهمّ المعاني المستفادة من تلك الآيات.

٢. تفسير الآيتين (٢١، ٢٢):

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

أ. المناسبة:

بعد أن بيَّن الله سبحانه في الآية السابقة أن القضاء الحقّ في هذا اليوم مردّه إليه وحده، بعد ذلك وبّخ سبحانه هؤلاء الظالمين على عدم اعتبارهم واتّعاظهم بمن كان قبلهم، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى آخره.

ب- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مَن يدفع عنهم عذابه، أو يقيهم من بأسه، ويحفظهم منه.

قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات والأحكام الظاهرة.

قوله: ﴿قَوِىٌّ﴾ أي: متمكن غاية التمكن.

قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لا يُعْتَدّ بعقابٍ عند عقابه ﷻ.

ثانيًا: الإعراب:

كلمة ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ إما أن تكون مجزومة بالعطف على ﴿يَسِيرُواْ﴾، أو منصوبة بجواب الاستفهام.

قوله: ﴿وَءَاثَارًا﴾ عطفٌ على ﴿قُوَّةً﴾.

قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة تعود إلى ما تقدَّم من الأخذ، أي: مِن أخذ الله لهم وعقابه لهم.

قولهم في ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ الباء للسببية.

والضمير في قوله: ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ الضمير المنفصل الذي هو "هم" توكيد للضمير المتصل في ﴿كَانُواْ﴾.

ثالثًا: البلاغة:

على قراءة ابن عامر "كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ" فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ تقديم الجار والمجرور للاهتمام.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ.

رابعًا: المعنى العام:

أبلغت الجهالة والغفلة وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين من قومك أيّها الرسول، أنهم لم يعتبروا، ولم يتَّعظوا، بالظالمين السابقين الذين دمرناهم تدميرًا؟! إنهم يمرُّون عليهم مُصبحين وبالليل، وإنهم ليشاهدون آثارهم ماثلةً أمام أعينهم، يُشاهدون آثار قوم صالح، ويُشاهدون آثار غيره، ولقد كان هؤلاء السابقين أشدَّ من مشركي قريش قوةً وبأسًا، وأشدّ منهم في إقامة المباني الفارهة والحصون الحصينة، ولكنهم مع هذه القوة والعمارة كانوا ضعافًا أمام بأس الله، وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة والحقيقة، وتستعدي عليهم قوى الإيمان، ومعها قوة الله العزيز القهار، فلما استمرّوا في جحودهم وكفرهم أخذهم الله تعالى أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ بسبب ذنوبهم، وما كان لهم من دون الله من يدفع عنهم عذابَهم، أو يقيهم بأسَه، فلا واقي إلا الإيمان، والعمل الصالح، والوقوف في جبهة الإيمان والحق والصلاح.

ذلك الأخذ من الله للكفَّار من أسبابه: أنهم كانت رسلهم تأتيهم بالدلائل الواضحات على صدقهم فيما يبلغونهم عن ربِّهم، فكفروا بالرُّسل بما جاءوهم به، فأهلكهم الله سبحانه إنه سبحانه قوي، لا يحول بين ما يريد أن يفعله حائل، فهو شديد العقاب لمن كفر به وأعرض عن دعوة رسله.

خامسًا: المعاني المستفادة:

١. عجبًا لأهل الشرك! رغم أنهم قد شاهدوا مَصَارِعَ من سبقهم من الأمم، وشاهدوا آثار هلاكهم وتدميرهم، ومع ذلك أَمِنُوا أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من العذاب.

٢. إن أهل السعادة قد شَكَرُوا اللهَ على نعمة الوجود؛ فزادهم نعمة الإيمان، فشكروا نعمة الإيمان؛ فزادهمُ اللهُ نعمةَ الولاية، فشكروا نعمةَ الولاية؛ فزادهمُ القرب والمعرفة في الدنيا، ونعمة الجِوار في الآخرة، وأهل الشقاوة قد كفروا نعمة الوجود، فعذبهم الله بالكفر والبعاد والطرد واللعن في الدنيا، وعذبهم في الآخرة بالنار.

٣. إن الله قويٌّ شديد العقاب في الانتقام من الأعداء، فلا يلحق ضعفٌ في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلا يمسّه نَصَب ولا تعب، ولا يدركه قصورٌ ولا عجز.

سادسًا: أسئلة حول الآيات:

قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جيء بضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ مع أن حقَّه التوسُّط بين معرفتين، كقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]؟

الجواب: ذلك لمضاهاة "أَفْعَل مِن" للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه. يعنى أنه أعدَّ أشدّ منهم قوةً أنها تُضاهي المعرفة في امتناع دخول اللام عليها.

وبهذا يتَّضح من الآيات أن الأمم السابقة عاقبها الله ﷻ بسبب كفرها، مع أنهم كانوا أشدّ من كفَّار قريش قوةً وآثارًا في الأرض؛ وفي ذلك عِبرة وعِظة لكفَّار قريش،

وتحذير أيضًا لكفَّار قريش، إذا استمرُّوا على كفرهم، فإنهم يُعْجِزُونَ اللهَ ﷻ وسينزِّل عليه عقابَه كما أنزله بالأمم السابقة؛ لأن الله ﷻ قويٌّ شديدُ العقاب.

٣. تفسير الآيات من رقم (٢٣) إلى (٢٧):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

أ. بيان المناسبة:

بعد أن وَبّخَ اللهُ سبحانه في الآية السابقة الظالمين على عدم اعتبارهم واتِّعاظهم بمن كان قبلهم، ذكر بعد ذلك جانبًا من التهديدات التي وجّهها فرعونُ إلى موسى وقومه، وكيف أن موسى # ردَّ ردًّا قويًّا محكمًا، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ إلى آخر الآيات.

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ المراد بالآيات هي تلك الآيات التسع التي أعطاها الله لموسى # وهي: العصا، واليد، والسِّنُون، والبحر، الطوفان، الجراد، القُمّل، الضفادع، والدّم.

قوله: ﴿ وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ السلطان المبين هو الحجة الواضحة الظاهرة.

قوله: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالمعجزات والنبوة والدعاء إلى الإيمان بالحق.

قوله: ﴿ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ أي: ابقوا نساءهم بدون رجال للخدمة والاسترقاق.

قوله: ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي: وما مكر الكافرين وعداوتهم إلا في ضياع وبطلان، فالضلال المقصود به الضياع والبطلان، يقال: ضَلّ فُلَانٌ الطريقَ إذا ضاع منه الرشد، والتبست عليه السُّبل، وصار تائهًا لا يُعْرَف عليه طريق.

﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ لقب لكل ملك من ملوك مصر في تلك العهود السابقة، والمراد به ذلك الملك الجبار الظالم الذي أرسل في عهده موسى # .

﴿ وَهَٰمَٰنَ ﴾: وزير فرعون.

﴿ وَقَٰرُونَ ﴾ قيل: هو الذي كان من قوم موسى # وقيل: هو غيره.

قوله: ﴿ ذَرُونِىٓ ﴾ أي: اتركوني.

قوله: ﴿ عُذْتُ ﴾ أي: التجأت إلى ربِّي ﷻ.

ثانيًا: الإعراب:

قرأ الكوفيون ويعقوب ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ ﴾ بـ﴿ أَوْ ﴾ التي للإبهام، والمعنى أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين في قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾، وقرأ الباقون "وَأَنْ يُظْهِرَ" بدون ألف على معنى وقوع الأمرين جميعًا. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، بفتح الياء في قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ﴾ أي "إِنِيَ أَخَافُ".

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص: ﴿يُظْهِرَ﴾ بضم الياء وكسر الهاء من أَظْهَرَ، وفاعله ضمير موسى # .

و﴿ٱلْفَسَادَ﴾ منصوب على أنه مفعول به. وقرأ الباقون بفتح الياء والهاء "يَظْهَرَ" إذن ﴿ٱلْفَسَادَ﴾ على هذه القراءة تكون مرفوعةً على الفاعلية. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي "عُدتُّ" في ﴿عُذْتُ﴾ بإدغام الذال، وقرأ الباقون بإظهار الذال يعني ﴿عُذْتُ﴾ .

أيضًا قوله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ اللام في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إما للعهد أو للجنس، ويكون المذكورون داخلين فيه دخولًا أوليًّا، والجملة اعتراض، جيء بها في تضاعيف ما حُكِيَ عنهم من الأباطيل.

قوله: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أظهر ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في موضع الإضمار؛ لذمِّهم بالكفر والإشعار بعلة الحكم.

ثالثًا: المعنى العام:

ذكر الله تعالى قصة موسى # وما دار بينه وبين فرعون؛ تسليةً لرسول الله ﷺ وبيانًا لعاقبة من هو أشدّ الذين كانوا من قبل وأقربهم زمانًا؛ وتحذيرًا لقريش أن يحلّ بها ذلك العذاب لو استمرّت في عنادها وكفرها. واللهِ لقد مَنَحْنَا موسى # بفضلنا وقدرتنا معجزاتٍ باهراتٍ، ومنحناه حُجّةً قويةً واضحةً يدمِّر بها حُجَجَ أعدائه، وهي التوراة.

أرسل الله موسى # إلى فرعون وهامان وقارون، وخصّ -سبحانه- هؤلاء الثلاثة بالذكر، مع أن رسالة موسى # كانت لهم ولأتباعهم؛ لأنهم هم الزعماء البارزون الذين كانوا يدبِّرون المكائد لموسى # فيتّبعهم العامة من أقوامهم.

هذا هو موقف اللِّقاء الأول: موسى ومعه آيات الله، ومعه الهيبة المستمدة من الحق الذي بيده، وفرعون وهامان وقارون ومعهم باطلهم الزائف، وقوتهم الظاهرة، ومركزهم الذين يخافون عليه من مواجهة الحق صاحب السلطان، عندئذٍ لجئوا إلى الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق، فقالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: قال القوم الكافرون: موسى ساحر يُمَوِّه على الناس بسحره، وأنه كذّاب في دعواه أنه رسول من رب العالمين، وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد، والحرص على دنياهم وملكهم، ثم لم يكتفوا بهذا القول، بل انتقلوا إلى مرحلة أشد وأطغى، فقالوا ما حكى القرآن عنهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: فحين وصل إليهم موسى # بدعوته، وخاطبهم بما أمره الله تعالى أن يخاطبهم به، وجابههم بالحق الذي زوَّده الله تعالى به، ما كان منهم أن قالوا على سبيل التهديد والوعيد: اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ودخلوا في دينه، واتركوا الإناث بدون قتل لخدمتكم؛ وليكون ذلك أبلغ في إذلالهم؛ إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة وذل عظيم، وما كيد الكافرين ومكرهم وعداوتهم إلا في الضلال والضياع والبطلان، إنَّه منطق الطغيان الغليظ، كلما أعوزته الحجة وخذله البرهان، وخاف أن يستعلي الحق بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح، وهو يخاطب الفطرة فتصغي له وتستجيب، كما استجاب السّحَرة الذين جيء بهم ليغلبوا موسى ومن معه، فانقلبوا أول المؤمنين بالحق في مواجهة فرعون الجبار.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وإنَّما قال ذلك لأنه كان في خاصة قومه من يمنعه من قتل موسى # مخافة أن يُنْزِل بهم العذاب.

قال صاحب الكشاف: ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ ﴾ كانوا إذا هَمَّ بقتله كَفُّوه بقولهم: ليس موسى بالذي تخاف، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، وأنك إذا قتلته أدخلتَ الشبهة على الناس، واعتمدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة.

ثم تبجح فرعون وقال: ﴿ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي: ليدعُ موسى ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا فليمنعه من القتل.

ثم بعد ذلك علّل فرعون كلامه هذا بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ أي: اتركوني لأقتل موسى، وليدعُ ربه لكي يخلصه مني إن أمكنه ذلك؛ فإني أخاف إن لم أقتلْه أن يبدِّل دينكم الذي أنتم عليه بدين آخر، أو أن يظهر في الأرض التي تعيشون عليها الفساد، عن طريق بثِّ الفتن بينكم، وإيقاظ نار العداوة في صفوفكم، والعمل على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم.

حينئذٍ لمّا سَمِعَ موسى # تهديدَ فرعون التجأ إلى ربه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ من كل رجل لا يذعن للحق، وهذا أقبح استكبار، ثم يضيف إلى تكبره أنه ﴿ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾، وإذا اجتمع في الرجل التكبّر بالتكذيب بالجزاء، وقلَّة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القوة والجراءة على الله وعباده، لم يترك عظيمةً إلا ارتكبها.

رابعًا: أسئلة حول الآية:

١. قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا ﴾ ماذا يُوحي التعبير بقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا ﴾؟

هذا التعبير يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ومساكنهم، وأنَّهم لم يخرجوا لطلبه، وإنَّما هو الذي جاءهم عن طريق موسى المؤيدِّ بآيات

الله تعالى، أيضًا نجد هنا قول الله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ حكايةً عن فرعون ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾.

٢. هل كان هذا القتل هو نفس القتل في ولادة موسى # ؟

قال الإمام الرازي: والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذي وقع في ولادة موسى # ؛ لأن القتل الذي وقع في ولادة موسى # كان بسبب أن المنجِّمين قد أخبروا فرعون بولادة عدوٍّ له يَظْهَرُ عليه، فأمر بقتل الأبناء في ذلك الوقت، وأما في هذا الوقت –أي: الأمر بالقتل في هذا الوقت- فموسى # كان قد جاء وأظهر المعجزات، فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه؛ لئلّا ينشئوا على دين موسى # فيقوى بهم، وهذه العلّة مختصًّا بالبنين دون البنات؛ فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء.

٣. لماذا قالوا عن موسى # بأنه: ﴿سَٰحِرٌ﴾ ولم يقولوا: إنه سَحّار؟

قالوا: ﴿سَٰحِرٌ﴾ ولم يقولوا: سحار؛ لأنهم يزعمون أنه ﴿سَٰحِرٌ﴾ وأن سَحَرَتَهم أسحرُ منه، كما قالوا: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٢].

٤. لماذا خصّ اسمَ الربِّ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؟

الجواب: لأن المطلوب هو الحفظ والتربية.

٥. لماذا أضاف الربَّ إليهم في قوله: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؟

أضاف الربَّ إليهم للحثِّ على موافقته في العياذ به تعالى، والتوكل عليه.

خامسًا: المعاني المستفادة:

١. تسلية الرسول ﷺ.

٢. بيان عاقبة من هو أشدّ من قريش بطنًا وأقربهم زمانًا.

٣. أن الله سبحانه يرسل أفضلَ خلقه في وقته إلى مَن هو أرذل خلقه، ويبعث أخصّ عباده إلى أخسِّ عباده، ليدعوه إلى حضرة جلاله؛ لإصلاح حاله بفضله ونواله، والعبد من خسّة طبعه وركاكة عقله يقابله بالتكذيب، وينسبه إلى السِّحْر، والله تعالى يغفر له إظهارًا لكرمه، ولا يُعَجِّلُ عقوبته، بل يمهله إلى أوان ظهور شقوته، فيجعله مظهر صفة قهره، ويبلغ موسى # كمال سعادته.

٤. إن منطق الطغيان كلّما أعوذته الحجة، وافتقر إلى الدليل والبرهان التجأ إلى القوَّة والبطش.

٥. توهينُ شأن الكافرين في كل زمان ومكان، وتشجيع المؤمنين على أن يسيروا في طريق الحقِّ دون أن يرهبهم وعدٌ، أو وعيدٌ؛ فإن النصر سيكون لهم في النهاية، قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

٦. إن من عَمَى قلب فرعون ظنّه أن الله يتركه أن يقتل موسى بحوله وقوَّته، ولم يعلم أن الله يهلكه ويهلك قومه، ويحيي موسى وقومه، وقد خاف فرعون من تبديل الدين، أو الفساد في الأرض على يد موسى #، ولم يَخَفْ هلاك نفسه، وهلاك قومه، وفساد حالهم في الدارين.

٧. لم يسمِّ موسى فرعون في قوله: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ فاكتفى بذكره بوصفٍ يعمّه، ويعمّ غيره من جبابرة حاشيته؛ كان ذلك لتعميم الاستعاذة، والإشعار بعلَّة القساوة والجراءة على الله، وهي التكبر وما يليه من عدم الإيمان بالبعث.

٤- تفسير الآية رقم (٢٨):

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾.

أ- المناسبة بين هذه الآية وما قبلها:

بعد أن ذكر الله في الآية السابقة وعيد وتهديد فرعون وملَئِه لموسى # ذكر الله بعد ذلك أنه قيّض لموسى # رجلًا مؤمنًا من آل فرعون كان يُخْفِي إيمانَه، هذا الرجل أخذ يُدافع عن موسى # دفاعًا حكيمًا مؤثّرًا، يحمل الترغيب تارةً والترهيب أخرى، والإرشاد تارةً والتأنيب أخرى، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾ إلى آخر الآية.

ب- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ قال الحسن، ومقاتل، والسُّدِّي كان قبطيًّا، وهو ابن عمّ فرعون، وهو الذي نَجَا مع موسى # وهو المراد بقوله: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ [القصص: ٢٠]، وقيل: كان من بني إسرائيل، ولم يكن من آل فرعون. قال القشيري: ومن جعله -أي ومن جعل هذا الرجل- إسرائيليًّا ففيه بُعْدٌ. وقد رجّح ابن جرير -رحمه الله- القول بأن هذا الرجل المؤمن من آل فرعون، ولم يكن من بني إسرائيل. فقال -رحمه الله: وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي الذي قال: بأن الرجل المؤمن كان

من آل فرعون؛ ولذلك فقد أصغى فرعونُ لكلامه، واستمع منه ما قاله، وتوقّف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله، ولو كان إسرائيليًّا لكان حريًّا أن يعاجَل هذا القائل له ولمَلَئِه ما قال بالعقوبة على قوله؛ لأنه لم يكن يستنصح بني إسرائيل لاعتداده إيَّاهم أعداء له، ولكنه -أي: ولكن هذا الرجل المؤمن- لَمَّا كان من مَلَئِ قومه استمع إليه، وكفَّ فرعونُ عمّا كان قد همَّ به من قتل موسى.

قوله: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات الواضحات الدالة على صِحّة فعله.

ثانيًا: الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ كلمة ﴿ مُّؤْمِنٌ ﴾ صفة لـ ﴿ رَجُلٌ ﴾، ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ صفة أخرى لـ ﴿ رَجُلٌ ﴾، ﴿ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ صفة ثالثة لـ ﴿ رَجُلٌ ﴾.

قوله: ﴿ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ في موضع المفعول لأجله، أي: أتقتلون هذا الرجل من أجل قوله هذا.

قوله: ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ يَقُولَ ﴾.

ثالثًا: البلاغة:

الاستفهام في قوله: ﴿ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾ الاستفهام للإنكار عليهم والتبكيت لهم؛ حيث قصدوا قَتْلَ رجلٍ كلُّ ذنبه أنه عبدٌ لله وحده، وقد جاءهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صفة فعله.

١. قوله ﴿ مُّؤْمِنٌ ﴾ صفة لـ ﴿ رَجُلٌ ﴾ وتقدّمت الصفات الأخرى ﴿ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ والسؤال: لماذا قدّم صفة ﴿ مُّؤْمِنٌ ﴾؟

الجواب: قدّم صفة ﴿مُّؤۡمِنٞ﴾ على باقي الصفات الأخرى لكونه أشرف الأوصاف.

٢. قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ لماذا قال: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾ ولم يقل: من ربه -يعني من ربي؟

الجواب: لأنَّ القوم إذا سمعوا أنه جاءهم بالبيِّنات من ربهم؛ دعاهم ذلك إلى التأويل في أمره والاعتراف به، وترك المكابرة معه؛ لأنَّ ما كان من قِبَلِ ربِّ الجميع يجب اتباعه وإنصاف رسوله.

٣. في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ لِمَ قال: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ وهو -أي: موسى # نبيٌّ صادقٌ لابدّ لما يعدهم أن يصيبهم العذاب كلّه لا بعضه لماذا؟

الجواب: في ذكره البعض كفاية لهلاكهم، فذكر البعض ليوجب الكل لا أن البعض هو الكل. ويجوز أن يكون المعنى يصيبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا، وهو بعض ما يعدهم؛ لأنه كان يتوعّدهم بعذاب الدنيا والآخرة. وقد يكون البعض بمعنى الكل.

رابعًا: المعنى العام:

وَقالَ رجلٌ مؤمنٌ من آلِ فرعونَ وحاشيته، وكان يكتم إيمانه عنهم حتى لا يصيبه أذًى منهم، قال لهم عندما سمع فرعون يقول: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ أتقتلون رجلًا لأنه يقول: ربِّي الله وحده. وقد جاءكم بالحجج البينات وبالمعجزات الواضحات من عند ربكم، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه.

قال الإمام ابن كثير: وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القِبَط، فلم يَظْهَر إلّا هذا اليوم حين قال فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ فأخذت الرجل غضبةً لله تعالى، ثم إن ذلك الرجل المؤمن لم يكتفِ بالإنكار على قومه قصدَه موسى بالقتل، بل أخذ في محاولة إقناعهم بالعدول عن هذا المقصد بشتَّى الأساليب والحجج، فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ أي: أنه قال لهم: إنْ كان موسى -على سبيل الفرض- كاذبًا فيما يقوله ويفعله، فعليه وحده يقع ضررُ كذبِه، وليس عليكم منه شيء، وإن كان صادقًا فيما يقوله ويفعله فلا أقل من أن يصيبكم بعضُ الذي يعدكم به، من سوء عاقبة مخالفة ما آتاكم به من عند ربه، إن سُنّة الله قد اقتضت أنه سبحانه لا يهدي إلى الحق والصواب من كان مسرفًا في أموره، متجاوزًا الحدودَ التي شرعها الله تعالى، ومن كان كاذبًا في إخباره عن الله تعالى، ولو كان موسى مسرفًا أو كذابًا لَمَا أيّده الله بالمعجزات الباهرة وبالحُجَج الساطعة الدالة على صدقه.

خامسًا: المعاني المستفادة من هذه الآية:

١. صدق موسى فيما يبلغه عن ربه.

٢. التعريض بما عليه فرعون من ظلمٍ وكَذِبٍ.

قال الْجَمَلُ في (حاشيته): "فالجملة الكريمة كلامٌ ذو وجهين نظرًا لموسى وفرعون:

الوجه الأولى: أن هذا إشارة إلى الرمز والتعريض بعلوِّ شأن موسى # والمعنى أن الله تعالى هَدَى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة، ومَن هداه الله تعالى إلى ذلك لا يكون مسرفًا ولا كذّابًا.

الوجه الثاني: أن يكون المراد أن فرعون مسرفٌ في عزمه على قتل موسى، وكاذبٌ في ادِّعَاء الألوهية، والله لا يهدي من كان كذلك" انتهى كلام الجمل في (الحاشية).

٥- تفسير الآية رقم (٢٩):

﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

ما زال الحديث موصولًا عن الرجل المؤمن الذي أخذ في تذكير قومه بنعم الله عليهم، وفي تحذيرهم من غضب الله عليهم، فقال: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ... ﴾ إلى آخر الآية.

التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿ ظَٰهِرِينَ ﴾ معنى ﴿ ظَٰهِرِينَ ﴾ الظهور على الناس، والغلبة لهم، والاستعلاء عليهم.

قوله: ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: أرض مصر.

قوله: ﴿ يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ ﴾ أي: يمنعنا من عذاب الله.

قوله: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ ﴾ أي: ما أشير عليكم.

قوله: ﴿ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أي: طريق الصواب والصلاح.

ثانيًا: للإعراب:

قوله: ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ حال، وصاحب الحال الضمير في ﴿لَكُمُ﴾.

وأتى بـ﴿مَآ﴾ و﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ للحصر والتأكيد.

والفاء في قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ للفصيحة.

أيضًا قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ الرؤية هنا هي القلبية لا البصرية، والمفعول الثاني هو قوله: ﴿إِلاَّ مَا أَرَى﴾ ويجوز أن تكون الرؤية بمعنى العلم؛ رآه بقلبه أي: علمه، والمعنى: لا أعلمكم إلا ما أعلم، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهره.

ثالثًا: اللطائف:

١. لماذا أدرج المؤمن نفسه في قوله: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَآءَنَا﴾؟

الجواب: أدرج الرجل نفسه في قوله: ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَآءَنَا﴾ لأنه منهم في القرابة، وليُعَلِّمَهُم أن الذي ينصحهم به هو مشاركٌ لهم فيه.

٢. لماذا نسب الرجل المؤمن إلى قومه ما يسرّه من المُلْكِ والظهور في الأرض دون أن يَسْلُكَ نفسَه معهم؟

الجواب: نَسَبَ الرجلُ المؤمن إلى قومه ما يسرُّهم من المُلك والظهور في الأرض دون أن يُسْلِك نفسه معهم؛ تطييبًا لقلوبهم؛ وإيذانًا بأنه ناصحٌ أمينٌ لهم.

رابعًا: المعنى العام:

قال الرجل المؤمن لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يا أهلي، ويا عشيرتي، أنتم اليوم لكم الملك حالة كونكم غالبين ومنتصرين في أرضِ مصرَ، عالين فيها على بني

إسرائيل، وإذا كان أمرنا كذلك فمن يستطيع أن ينصرَنا من عذاب الله إن أرسله علينا، بسبب عدم شكرنا له، واعتدائنا على خلقه.

وبعد أن استمع فرعون إلى نصيحة الرجل المؤمن أخذته العزة بالإثم، وقال ما يقوله كل طاغية معجب بنفسه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: قال فرعونُ لقومه في ردِّه على نصيحة الرجل المؤمن: يا قوم، لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صوابًا وخيرًا، وهو أنْ أقتل موسى # ، وما أهديكم برأيي هذا إلا عن طريق السداد والرشاد.

وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟ وهل يسمحون بأنْ يظنّ أحدٌ أنهم قد يخطئون؟ وهل يجوز لأحدٍ أن يرى إلى جوارهم رأيًا؟ وإلا فلم كانوا طغاة؟!

خامسًا: المعاني المستفادة من تلك الآية:

١. الناصح الأمين هو الذي يذكّر قومَه بنعم الله عليهم، ثم يحذّرهم بأسَ الله إن خالفوا أمره، قال تعالى حكايةً عن ذلك الرجل المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

٢. الطاغية لا يتواطأ لسانُه وقلبُه، بل يقول دائمًا خلاف ما يضمره، وهكذا كان عدوُّ الله فرعون مستشعرًا بالخوف الشديد من جهة موسى # لكنه كان يتجلّد ويتصبّر، ولولا استشعاره بالخوف ما استشار أحدًا، قال سبحانه حكايةً عنه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

٦- تفسير الآيتين (٣٠، ٣١):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ .

أ- المناسبة بين هاتين الآيتين والآية التي قبلها:

لّما رأى ذلك الرجل المؤمن ما لَحِقَ فرعونَ من الخوف حينما هدّده وحذّره أتى بنوع آخر من التهديد، وخوّف الرجلُ المؤمنُ فرعونَ وقومَه أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من استئصال شأفتهم وهلاكهم حين كذبوا رسله، وقويت نفسُ الرجل المؤمن حتى سرد عليهم ما سرد، ولم يهبْ فرعونَ وبطشه، وقال كما حكى الله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ الرجل المؤمن لم يتهيب فرعونَ، ووجد أن عليه واجبًا، وهو أن يحذِّر وينصح ويبدي من الرأي ما يراه، ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحقِّ الذي يعتقده كائنًا ما كان رأي الطغاة، ثم هو يَطْرِق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين، يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم، وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة.

ب- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

من هو الرجل المؤمن الذي قال ذلك: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ ؟

الجمهور على أن الذي قال ذلك القول: إنه الرجل المؤمن الكاتم إيمانه، القائل: ﴿إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ يعني نفس الرجل المؤمن من آل فرعون الذي قال قبل ذلك: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا﴾ هو الذي يقول الآن: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ هذا هو رأي الجمهور.

وقالت فرقةٌ: إن كلام المؤمن قد تَمّ، والمراد بـ﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ هنا في الآية هو موسى # نفسه، واحتجّت هذه الفرقة بقوّة كلامه.

لكن رأي الجمهور هو المعوّل عليه كما يقول المحقّقون من العلماء.

قوله: ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ المراد به تلك الأمم السابقة التي وقفت من أنبيائها موقف العداء والكراهية، وكأن تلك الأمم من حزبٍ والأنبياء من حزبٍ آخر، فالأحزاب هم الذين تحزّبوا على أنبياء الله.

والمراد بالـ﴿يَوۡمِ﴾ في الآية الأحداث والوقائع والعقوبات التي حدثت فيه، فالكلام على حذف مضاف.

قوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ ﴿مِثۡلَ﴾ هنا عطف بيان على ﴿مِثۡلَ﴾ الأول، أو بدل من ﴿مِثۡلَ﴾ الأول.

ثانيًا: اللطائف:

الظاهر أن يقال: مثل أيام الأحزاب، وليس ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ لماذا عدل عن ذلك؟ الجواب: بأن جمع الأحزاب مع تفسيره بالطوائف المختلفة المتباينة الأزمان، والأماكن أغنى عن جمع اليوم؛ إذ بذلك ارتفع الالتباس، وتبيّن المراد.

ثالثًا: المعنى العام:

قال لهم الرجل المؤمن: يا قوم، إني أخاف عليكم إذا تعرّضتم لموسى # بالقتل، أو التكذيب أن ينزل بكم عذابٌ مثل العذاب الذي نزل على الأمم الماضية التي تحزَّبت على أنبيائها، وأعرضت عن دعوتهم، فكانت عاقبتها خُسْرًا، إني أخاف عليكم أن يكون حالكم، وشأنكم كحال قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ، والذين من بعدهم كقوم لوطٍ، فهؤلاء الأقوام كذّبوا أنبياءهم فدمّرهم الله تدميرًا، فاحذروا أن تسيروا على نهجهم بأن تقصدوا موسى # بالقتل والإيذاء، فينزل بكم العذاب مثل ما نزل بهم، وما أنزله سبحانه بهم من عذابٍ إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم، وعلى الإعراض عن دعوة أنبيائهم، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

رابعًا: المعاني المستفادة:

١. الجهاد بالحُجّة والبرهان أكبرُ من الجهاد بالسيف والسنان، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ ولذلك قال رسول الله ﷺ: ((أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر)) لماذا كان أفضل الجهاد؟ لأنه يُقاوِم قهر السلطان وظلم السلطان، ولم يخشَ أحدًا إلا الله.

٢. من عدل الله سبحانه ألا يهلك أحدًا قبل ثبوت الحجة، ولا يعاقب بخيرِ ذنبٍ، ولا يخلي الظالمَ بغير انتقام، فقوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعِبَادِ ﴾ فيه مبالغةٌ في نفي الظلم؛ حيث علّقه بالإرادة، فإذا نفاه عن الإرادة كان نفيه عن الوقوع أولى وأحرى.

٧- تفسير الآيتين (٣٢، ٣٣):

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ .

أ- المناسبة:

بعد أن خوّفهم الرجل المؤمن بالعذاب الدنيوي أخذ في تخويفهم بالعذاب الأخروي، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ إلى آخره.

ب- التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ مصدر تَنَادَ القومُ أي: نادى بعضهم بعضًا، و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ هو يوم القيامة، سُمِّي بذلك لأنه يُنادي فيه بعضُهم بعضًا للاستغاثة، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور، أو لتنادي أهل الجنة وأهل النار، أو لأن الخلق يُنادَون إلى المحشر، أو لنداء المؤمنين ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] أو لنداء الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

قوله: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ أي: منصرفين أو فارين.

وقوله ﴿عَاصِمٍ﴾ أي مانع.

ثانيًا: الإعراب:

قوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ جملة في محل نصب حال.

ثالثًا: المعنى العام:

يُواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة، فيقول: إني أخاف عليكم يا قوم، يوم القيامة الذي يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار، ونداء أهل النار لأهل الجنة، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاء، إني أخاف عليكم ذلك اليوم، يوم تنصرفون عن موقف الحساب والجزاء، فتلقاكم النار بلهيبها وسعيرها، وتحاولون الهروب منها فلا تستطيعون؛ لأنه لا عاصم لكم ولا مانع في هذا اليوم من عذاب الله تعالى وعقابه، ومن يضلل اللهُ تعالى عن طريق الحقِّ، بسبب سوء استعداده واستحبابه العمى على الهدى، فما له من هادٍ يهديه إلى الصراط المستقيم.

ثالثًا: المعاني المستفادة من هاتين الآيتين:

١. إن الله تعالى إذا شاء بكمال قدرته إظهارًا لفضله ومنته يخرج الحي من الميت، كما أخرج من آل فرعون مؤمنًا، حيًّا قلبُه بالإيمان، من بين كفارٍ أموات قلوبُهم بالكفر؛ ليتحقَّق قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣]، وإذا شاء إظهارًا لعزته وجبروته، يعني ويصمّ الملوك والعقلاء مثل فرعون وقومه؛ لئلا يبصروا آيات الله الظاهرة، ولا يسمعوا الحجج الباهرة.

٢. أسند الإضلال إلى الله؛ لأنه هو خالق الضلالة.

٨. تفسير الآيتين (٣٤، ٣٥):

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ

مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

أ. المناسبة:

بعد أن حذّر الرجلُ المؤمنُ قومَه من عذاب يوم القيامة، أخذ في توبيخهم بسبب تكذيبهم للرسل قبل ذلك، فقال كما حكى الله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ .

ب. التفسير التحليلي:

أولًا: معاني المفردات:

﴿ يُوسُفُ ﴾ هو يوسف بن يعقوب.

قوله: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: الآيات الواضحات.

قوله: ﴿ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ أي: مستكثر في المعاصي، شاكٌّ في دين الله.

قوله: ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ ﴾ أي: بغير حجة واضحة.

قوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ أي: عَظُمَ بغضًا شديدًا ونفورًا قويًّا.

قوله: ﴿ يَطْبَعُ ﴾ أي: يختم.

ثانيًا: الإعراب:

الموصول في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ بدل مِنْ ﴿ مَنْ ﴾ في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ والجمع

باعتبار معناها، أو بيان لها، أو صفة، أو في محلِّ نصب بإضمار أعني، أو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين، أو مبتدأ وخبره ﴿يَطْبَعُ﴾.

قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾.

قوله ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفة لسلطان.

قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يحتمل أن يُراد به التعجب، ويحتمل أن يُراد به الذَّمَّ كـ"بئس"، وفاعل ﴿كَبُرَ﴾ ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ وقيل: فاعله ضمير يعود إلى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ والأول أولى.

قوله: ﴿مَقْتًا﴾ تمييز محوَّل عن فاعله.

قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿كَبُرَ﴾.

ثالثًا: القراءة:

قرأ الجمهور بإضافة ﴿قَلْبِ﴾ إلى ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ وفي الكلام حذف تقديره: كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر، فحذف كل الثانية لدلالة الأولى عليها، والمعنى: أنه سبحانه يطبع -أي يختم- على قلوب جميع المتكبرين من الجبارين.

وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام بتنوين ﴿قَلْبٍ﴾ على أن ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ صفة له، فيكون القلب مرادًا به الجملة؛ لأن القلب هو محل التكبر وسائر الأعضاء تبع له في ذلك.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يعود اسم الإشارة إلى الطبع، أي: مثل ذلك الطبع الفظيع.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾ ﴿قَبْلُ﴾ مبنيٌّ على الضم، والمضاف إليه محذوف، أي: من قبل مجيء موسى # إليهم، أي: جاء يوسف # إلى آبائكم، فجعل المجيء إلى الآباء مجيء إلى الأبناء.

رابعًا: اللّطائف:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨] ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ لكن في الآية "٣٤" من نفس السورة ختم الله الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ لماذا؟

الجواب على ذلك: نجد الآية الأولى خُتِمَت بقوله: ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، والثانية خُتِمَت بقوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾؛ لأنه لّما قال في الآية الأولى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ ناسب أن تُخْتَمَ بقوله: ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، ولّما قال في الآية الثانية: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ ناسب أن تُخْتَمَ الآيةُ بقوله: ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

خامسًا: المعنى العام:

لقد جاء يوسف # إلى آبائكم من قبل مجيء موسى إليكم، وكان مجيئه إلى آبائكم مصحوبًا بالمعجزات والبينات، والآيات الواضحات الدالة على صدقه، فما زال آباؤكم في شكٍّ مما جاءهم به من البينات والهدى، كشأنكم أنتم مع

نبيَّكم موسى # حتى إذا مات يوسف # قال آباؤكم الذين أنتم من نسلهم: لن يبعث الله من بعده رسولًا فهم قد كذّبوا رسالته في حياته، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته؛ لأنهم نَفَوْا أن يكون هناك رسول من بعده، مثل ذلك الإضلال الفظيع يضل الله تعالى من هو مسرف في ارتكاب الفسوق والعصيان، ومن هو مرتاب في دينه شاكٌّ في صدق رسوله؛ لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه، إن الذي يُجادلون في آيات الله الدالة على وحدانيته، وعلى صدق أنبيائه، بغير دليل أو برهان أتاهم من الله تعالى عن طريق رسله، هؤلاء الذين يفعلون ذلك كَبُرَ وعَظُمَ بُغْضًا جدالُهم عند الله تعالى، وعند الذين آمنوا، ومثل ذلك الطبع العجيب يطبع الله تعالى، ويختم بالكفر والعمى على قلب كلّ إنسانٍ متكبرٍ عن الاستماع إلى الحق، متطاولٍ ومتجبّرٍ على خلق الله تعالى بالعدوان والإيذاء.

هنا سؤال: لماذا عدل الرجلُ المؤمنُ عن مخاطبة فرعون وقومه بالاسم إلى الصفة؟

الجواب: لحسن محاورته لهم، واستجلاب قلوبهم.

سادسًا: بيان المعاني المستفادة:

١. المهتدي من يهديه الله بفضله وكرمه.
٢. كمال سعادة المؤمنين أن يؤمنوا بالأنبياء قبلهم.
٣. زيادة شقاوة الكافرين ألا يؤمنوا بالأنبياء قبلهم.
٤. الطابع هو الله، والمطبوع هو القلب، وسبب الطبع هو التكبر، ولقد حكم الله سبحانه ألا يخرج من القلب ما فيه من الكفر، والنفاق، والزيغ، والضلال، فلا يُدْخِلُ فيه ما في الخارج من الإيمان،

والإخلاص، والسداد، والهدى، وهو أعظم عقوبةً من الله، فعلى العاقل أن يتشبث بالأسباب المؤدّية إلى شرح الصدر، لا إلى طبع القلب، والعياذ بالله.

٥. ذمّ المتكبِّر والجبار، قال # : ((يُحْشَرُ الجبارون المتكبِّرون يوم القيامة في صورة الذَّرِّ، يطؤهم الناس لهوانهم على الله))، وذلك لأن الصورة المناسبة لحال المتكبِّر الجبار صورة الذَّرّ، كما لا يخفى على أهل القلب.

بذلك تبيَّن لنا الآيات بوضوح أن الكافرين كفروا بأنبيائهم ورسلهم، كعادة آبائهم في ذلك الكفر والجحود.

تفسير الآيات (٣٦- ٨٥) من سورة (غافر)

عناصر الدرس

العنصر الأول : تفسير الآيات (٣٦- ٥٤) من سورة (غافر) ٣٩٥
العنصر الثاني : تفسير الآيات (٥٥- ٧٠) من سورة (غافر) ٤٢٣
العنصر الثالث : تفسير الآيات (٧١- ٨٥) من سورة (غافر) ٤٤٩

تفسير الآيات (٣٦ - ٥٤) من سورة (غافر)

١ ـ تفسير الآيتين رقم: (٣٦، ٣٧):

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

المناسبة:

لما سمع فرعون التحذير من الرجل المؤمن رجع إلى تكبره وتجبره؛ معرضًا عن الموعظة؛ نافرًا من قبولها: وقال: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا ﴾.

معاني المفردات:

﴿ صَرْحًا ﴾ أي: قصرًا مشيدًا، والـ﴿ أَسْبَٰبَ ﴾ الطرق، وقيل: هي الأبواب؛ قوله: ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ بيان للأسباب، قوله: ﴿ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: سبيل الرشاد، قوله: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أي: وما تدبير فرعون إلا في هلاك وخسار.

الإعراب:

قوله: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ قرأ الجمهور بالرفع، أي: "فأطَّلعُ" عطفاً على: ﴿ أَبْلُغُ ﴾ فهو على هذا داخل في حيز الترجي، وقرأ الأعرج، والسلمي، وعيسى بن عمر، وحفص، بالنصب أي: ﴿ فَأَطَّلِعَ ﴾ على جواب الأمر في قوله: ﴿ ٱبْنِ لِي صَرْحًا ﴾ أو على جواب الترجي، كما قال أبو عبيد، وغيره.

قال النحاس: ومعنى النصب -يعني: معنى قراءة النصب: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ - خلاف معنى قراءة الرفع: "فأطَّلعُ" لأن معنى النصب: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ أي: متى بلغت الأسباب اطلعت، ومعنى قراءة الرفع: "فأطَّلعُ" أي: لعلي أبلغ الأسباب، ولعلي أطلع بعد ذلك، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جدًّا.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة يعود إلى التزيين، أي: ومثل ذلك التزيين زين الشيطان لفرعون سوء عمله، قوله: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قرأ الجمهور: "وَصَدَّ" بفتح الصاد، وقرأ الكوفيون: ﴿وَصُدَّ﴾ بضم الصاد.

المعنى العام لهاتين الآيتين:

قال فرعون لوزيره هامان: يا هامان ابن لي بناء ظاهرًا عاليًا مكشوفًا، لا يخفى على الناظر؛ لعلي عن طريق الصعود على هذا البناء الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة للسموات، فأدخل منها فأنظر إلى إله موسى، وإني لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذب في دعواه: أن هناك إلهًا غيري لكم، وفي دعواه أنه رسول إلينا، ومثل ذلك التزيين القبيح زين لفرعون سوء عمله، فرآه حسنًا؛ لفجوره، وطغيانه، وصد عن سبيل الهدى، والرشاد؛ لأنه استحب العمى على الهدى، وما كيد فرعون، ومكره، وتلبيسه، واحتياله في إبطال الحق إلا في هلاك، وخسران، وانقطاع.

المعاني المستفادة:

قول فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ المقصود منه: التلبيس، والتمويه، والتخليط على قومه؛ توصلًا لبقائهم على الكفر، وإلا فهو يعرف حقيقة الإله.

٢- تفسير الآية رقم (٣٨):

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٣٨].

المناسبة:

أن الرجل المؤمن من آل فرعون أعاد التذكير، والتحذير، كما حكى الله عنه بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ أي: طريقاً يؤدي إلى الصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

القراءات في هذه الآية:

﴿ ٱتَّبِعُونِ ﴾ وقع في المصحف: ﴿ ٱتَّبِعُونِ ﴾ بدون ياء، وكذا قرأ: أبو عمرو، ونافع بحذفها في الوقف، وإثباتها في الوصل، وقرأ: يعقوب، وابن كثير بإثباتها وصلًا، ووقفًا، وقرأ الباقون بحذفها وصلًا ووقفًا، فمن أثبتها فعلى -أي: فمن أثبت الياء- ما هو الأصل، ومن حذفها فلكونها حُذفت في المصحف.

المعنى العام لهذه الآية:

إن الرجل المؤمن قد تابع حديثه، ونصائحه لقومه، بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل، وغرور، فقال: اتَّبِعُونِ فيما نصحتكم به، فإن في اتباعكم لي هدايتكم إلى الطريق الذي كله صلاح، وسعادة، وسداد؛ أما اتباعكم لفرعون فيؤدي بكم إلى طريق الغي، والضلال.

المعاني المستفادة:

إن قول الرجل المؤمن من آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فيه تعريض؛ لأن ما يسلكه فرعون وقومه هو سبيل الغي والضلال، وفيه إشارة إلى أن الهداية مودعة في اتباع الأنبياء، والصالحين.

٣. تفسير الآية رقم (٣٩):

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

المناسبة:

حينما قال الرجل المؤمن من آل فرعون في الآية السابقة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ كأنهم قالوا: وما سبيلُ الرشاد؟ أي: كأن قوم هذا الرجل -وهو فرعون، وآل فرعون- قالوا: وما سبيل الرشاد؟ فقال لهم الرجل المؤمن: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿مَتَٰعٌ﴾ أي: تمتُّع، أو مُتمتِّع به يسيرٌ؛ لسرعة زواله.

قوله: ﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي: دار البقاء، والدوام، والخلود.

المعنى العام للآية:

يا قوم، إن هذه الدنيا متاع زائل، مهما طالت أيامها، فالدنيا بأسرها ساعة، فكيف عمر الإنسان الواحد؟ قال محمد بن علي الترمذي: لم تزل الدنيا مذمومة

في الأمم السابقة عند العقلاء منهم، وطالبوها مُهانون عند الحكماء، وما قام داع في أمة إلا حذر متابعة الدنيا وجمعها، والحب لها؛ أما الآخرة فهي دار القرار؛ لخلودها، ودوام ما فيها، قال بعض الصالحين: لو كانت الدنيا ذهبًا فانيًا والآخرة خزفًا باقيًا لكانت الآخرة خيرًا من الدنيا؛ فكيف والدنيا خزف فانٍ والآخرة ذهب باقٍ؟

عن ابن مسعود < : ((أن رسول الله ﷺ نام على حصير، فقام وقد أثَّرَ في جسده، فقال ابن مسعود < : يا رسول الله، لو أمرتنا أن نبسط لك لنفعل، فقال ﷺ: ما لي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها)).

وعن أنس بن مالك < أنَّ النبي ﷺ قال: ((يا بني، أكثر ذكر الموت، فإنك إذا أكثرت ذكر الموت زهدت في الدنيا، ورغبت في الآخرة، وأن الآخرة دار القرار، والدنيا غرارة، والمغرور مَن اغتر بها)).

٤- تفسير الآية رقم (٤٠):

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

المناسبة:

هذا ترغيب في الدار الآخرة، والاستعداد لها، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿سَيِّئَةً﴾ أي: معصية.

القراءات:

قرأ الجمهور: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح التحتية مبنيًّا بالفاعل، يعني: يدخلون؛ وقرأ ابن كثير، وابن محيصن، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو بكر، عن عاصم بضمها مبنيًّا للمفعول أي: ﴿يُدْخَلُونَ﴾.

المعنى العام الآية:

من عمل سيئة في هذه الدنيا فلا يجزى في الآخرة إلا مثلها؛ كرمًا من الله تعالى وعدلًا؛ ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثي وهو مؤمن بالله تعالى إيمانًا حقًّا فأولئك المؤمنون الصادقون؛ يدخلون الجنة، يرزقون فيها رزقًا واسعًا هنيئًا لا يعلم قدره إلا الله، ولا يحاسبه عليه محاسب؛ تفضل سبحانه على عباده أن يضاعف لهم الحسنات دون السيئات، وهذا كرم من الله سبحانه، وعدل منه.

المعاني المستفادة:

أولًا: عدل الله سبحانه، فخلود الكافر في النار حتى لو كان كفره ساعة هذا عدل من الله؛ وذلك لأبدية اعتقاد الكافر، أي: أنه لو عاش إلى يوم القيامة لظل على كفره؛ أما المؤمن الفاسق فعقابه منقطع، إذ ليس لديه عزم أن يبقى مصرًّا على المعصية.

ثانيًا: في الآية دليل على أن الجنايات سواء كانت في النفوس، أو الأعضاء، أو الأموال تظلم بأمثال، والزائد على الأمثال غير مشروع.

ثالثًا: لا عبرة بالعمل بدون الإيمان.

رابعًا: قسم الله العمال إلى ذكور وإناث؛ للاهتمام والاحتياط في الشمول؛ لئلا يتوهم أحد أن أجر النساء يكون ناقصًا.

ولكن ما الحكمة في أن الله ﷻ ذكر جزاء أعمال المؤمنين بجملة اسمية مصدرة باسم الإشارة وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾؟

الجواب: فعل الله ﷻ ذلك؛ تغليبًا للرحمة؛ وترغيبًا فيما عند الله ﷻ.

٥- تفسير الآية رقم (٤١):

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١].

المناسبة:

ما زال الرجل المؤمن من آل فرعون ينادي على قومه؛ تنبهًا لهم؛ وإيقاظًا لهم من غفلتهم، لكن النداء هنا هذه المرة يختلف عن سابقه، حيث صرح هنا بإيمانه فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

الإعراب:

قوله: ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ﴾ في موضع الحال من المنوي في الخبر، قوله: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾ عطف عليه، وهذا أسلوب تعجب: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ ومدار التعجب: دعوتهم إياه إلى النار، لا دعوته إياهم إلى النجاة.

البلاغة:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ توبيخ لهم، وتأنيب لهم على فعل ذلك؛ وكرر النداء في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ ثم كرر النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ وكرره مرة ثالثة في: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ إيقاظًا لهم عن سنة الغفلة؛ واهتمامًا بالمنادَى لهم؛ ومبالغةً في توبيخهم على ما يقابلون به دعوته.

ما الحكمة في ترك العطف في النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ وذكر العطف في هذه الآية وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؟

الجواب على ذلك: ترك العطف في النداء الثاني وهو: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾؛ لأن هذا النداء تفسير لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد، فإنها التحذير من الإخلاد إلى الدنيا والترغيب في إيثار الآخرة على الأولى، وقد أدى ذلك فيه على أتم وجه، وأحسنه.

وهنا لَمْ يترك العطف في هذا النداء في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأن النداء ليس بتلك المثابة التي كانت في الآية السابقة: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ وذلك للموازنة بين الدعوتين: دعوته إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوته إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وليس ذلك من تفسير الهداية في شيء، بل ذلك لتحقيق أنه هادٍ، وأنهم مضلون، وإنما عليه هو الهُدى، وما هم عليه من الضلال، فهو عطف على النداء الأول، أو مجموع النداءين، وقيل: هو عطف

على النداء الثاني، داخل معه في التفسير؛ لما أجمل في النداء الأول؛ تصريحًا وتعريضًا، ومن المعلوم أن النداء الأول متمثل في قول الله تعالى حكاية عنه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ [غافر: ٣٠].

المعنى العام للآية:

يستنكر الرجل المؤمن من آل فرعون موقف قومه منه يقول لهم: مالي أهديكم إلى طريق النجاة من العذاب الدنيوي والأخروي بأن آمركم بالإيمان، والعمل الصالح، وأنهاكم عن قتلِ رجل يقول: ربي الله، وقد جاءَكم بالبينات من ربكم، وهو موسى # وأنتم تدعوني لما يوصل إلى النار، وهو عبادة غير الله تعالى، والموافقة على قتل الصالحين، أو إيذائهم.

٦- تفسير الآية رقم (٤٢):

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ [غافر: ٤٢].

هذا تفسير للدعوتين المذكورتين في الآية السابقة، فقال تعالى حكاية عن ذلك الرجل: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ المراد: نفي المعلوم: وهو: عمومية ما يزعمون إياه شريكًا بطريق الكناية، وهو من باب نفي الشيء بنفي لازمه، قوله: ﴿ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾ أي: المستجمع لصفات الألوهية من كمال القدرة

والغلبة، وما يتوقف عليه من العلم والإرادة، والتمكن من المجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران، وخص هاذين الوصفين بالذكر -وإن كان كناية عن جميع الصفات- لاستلزامهما ذلك كما أشير إليه؛ ولما فيهما من الدلالة على الخوف، والرجاء المناسب لحاله وحالهم؛ هذا عن بيان معاني المفردات.

الإعراب:

قوله: ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ ﴾ بدل من ﴿ تَدْعُونَنِي ﴾ الأولى في قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾.

المعنى العام:

يقول الرجل المؤمن من آل فرعون: يا قوم، أنا أدعوكم إلى النجاة من النار، وأنتم تدعونني إلى الإشراك بالله تعالى، وإلى الكفر به، مع أني أعلم علم اليقين أنه سبحانه لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، وأنا أدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، الغالب لكل ما سواه، الواسع المغفرة، لمن تاب إليه بعد أن عصاه.

المعاني المستفادة:

نستفيد من هذه الآية هو أنَّ الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها، قال تعالى حكاية عن الرجل المؤمن من آل فرعون: ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾.

٧- تفسير الآية رقم (٤٣):

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر: ٤٣].

المناسبة:

لا يزال الرجل المؤمن من آل فرعون ينصح قومه، مؤكدًا لهم بصورة لا تقبل الشك أو التردد، أنَّ ما يطلبونه منه هو الباطل، وأن ما يطلبه منهم هو الحق، فيقول: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي: حقَّ ووجب عدم دعوة آلهتكم؛ لأن آلهتكم ليست لها دعوة إلى عبادة نفسها أصلًا، ومن حق المعبود أن يدعو الناس إلى عبادته بإرسال الرسل؛ وإنزال الكتب، وهذا الشكل منتفٍ عن الأصنام بالكلية؛ لأنها في الدنيا جمادات لا تستطيع دعاء غيرها، وفي الآخرة إذ أنشأها الله حيوانًا ناطقًا تبرأ من عبادتها؛ أو المعنى: حق وثبت عدم استجابة دعوة لها، أي: ليس لها استجابة لدعوة، لا في الدنيا بالبقاء، والصحة، والغنى، ونحو ذلك، ولا في الآخرة بالنجاة، ورفعة الدرجات، وغيرها، كما قال تعالى: ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤] فكيف تكون الأصنام ربًّا، وليس لها قدرة على إجابة دعاء الداعين، ومن شأن الرب استجابة الدعوات، وقضاء الحاجات؟

وقيل: ﴿ جَرَمَ ﴾ بمعنى: كسب، وفاعله: مستكن فيه، أي: كسب ذلك الدعاء إلى الكفر والإشراك، وهذا بطلان لدعوة المدعو إليه، فكأنه قيل: إنكم تزعمون أن دعاءكم إلى الإشراك يبعثني على الإقبال عليه، وأنه سبب الإعراض، وظهور الباطل، وقيل: ﴿ جَرَمَ ﴾ فعل من الجرم، وهو القطع، والمعنى: لا قطع لبطلان ألوهية الأصنام، أي: لا ينقطع في وقت ما فينقلب حقًّا.

قولـه: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مرجعنـا إلى الله، قولـه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازمون للنار.

الإعراب:

قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: ﴿جَرَمَ﴾ فعل ماضٍ، بمعنى: حق، وثبت، ووجب، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن في خمسة مواضع، وفي كل موضع جاءت متلوة بـ"أن" واسمها، وجمهور النحاة على أنها مركبة من "لا"، وجرم تركيب خمسة عشر، ومعناه بعد هذا التركيب معنى الفعل: حق وثبت، والجملة بعدها هي الفاعل لهذا الفعل، ومن النحاة من يرى أن: ﴿لَا﴾ نافية للجنس، و﴿جَرَمَ﴾ اسمها، وما بعدها خبرها، أي: حق، وثبت لدي بما لا يقبل الشك أن آلهتكم التي تدعونني لعبادتها آلهة باطلة، لا وزن لها، ولا قيمة، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: ﴿وَأَنَّ﴾ في الموضعين: عطف على: "أَنَّ" في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾.

المعنى العام للآية:

يقول الرجل المؤمن من آل فرعون: لقد حق، وثبت لدي، بما لا يقبل الشك أن آلهتكم التي تدعونني لعبادتها آلهة باطلة، لا وزنَ لها، ولا قيمة، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، وأن مرجعنا إلى الله في الموت، ومفارقة الأرواح الأجساد، وأن المسرفين في الضلال والطغيان كالإشراك وسفك الدماء، هم الملازمون للنار.

٨- تفسير الآية رقم (٤٤):

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

المناسبة:

لا يزال الرجل المؤمن يخوف قومَه، ويهددهم بنزول العذاب عليهم، فيقول سبحانه حكاية عن الرجل المؤمن: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ حقيقة التفويض: تعطيل الإرادة في تدبير الله تعالى، وكمال التفويض: ألا يرى لنفسه، و للخلق جميعًا قدرة على النفع والضرر، وقال بعضهم: التفويض قبل نزول القضاء، والتسليم بعد نزوله.

المعنى العام:

يقول الرجل المؤمن لقومه: فستذكرون يا قوم ما أقول لكم، إذا نزل بكم العذاب، وتعلمون أني قد بالغت في نصحكم، وتذكيركم، ولكن لا ينفعكم الذكر حينئذٍ -وفي هذا الإبهام من التخويف والتهديد ما لا يخفى- وأتوكل على الله، وأسلم أمري إليه، قيل: إنه قال هذا لما أرادوا الإيقاع به، إن الله يعلم الحق من الباطل؛ فيَحْرُسُ مَن يلوذ به من المكاره.

المعاني المستفادة:

الله ﷻ مطلعٌ على العباد، وأحوالهم، فلا بد من تصحيح الحال، ومراقبة الأحوال؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، فيجب على العباد

أن يصلحوا من شأنهم ؛ حتى يراهم الله ﷻ في الحالة التي يحب أن يراهم عليها ، وهذا ما ذكَّر به الرجل المؤمن حينما قال لهم : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ .

٩ـ تفسير الآية رقم (٤٥) :

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٥].

المناسبة :

لما أراد فرعون وقومه الإيقاع بالرجل المؤمن ، والانتقام منه ، حماه الله ﷻ ونجاه من كيدهم ، قال سبحانه : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

معاني المفردات :

قوله : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ أي : حفظه الله ، قوله : ﴿ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي : ما دبروا من مؤامرات للكيد لهذا الرجل ، وقوله : ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي : أحاط بهم ، ونزل عليهم عذاب الله ؛ قال الكسائي : يقال : حاق ، يحيق ، حيقًا ، وحيوقًا ، إذا نزل ولزم ؛ قوله : ﴿ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ ﴾ آل فرعون : هم أهل فرعون ، والمقصود بهم : فرعون ، وترك التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ؛ لكونه أولى بذلك منهم ، من حيث كونه متبوعًا لهم ، ورئيسًا ضالًّا مضلًّ.

المعنى العام للآية :

لقد كانت نتيجة إيمان هذا الرجل وجهره بكلمات الحق ، ونصحه لقومه ، أن حفظه الله ﷻ مما أراده الظالمون به من أذًى ، وعدوانٍ ، ومن مكر سيئ ، ونزل

وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب، بأن أغرقهم الله تعالى في اليم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر، وقوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ : ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب السوء.

١٠ـ تفسير الآية رقم ٤٦ :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

المناسبة :

هذه الآية بيان لما أُجمل من سوء العذاب في الآية السابقة، فقال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ .

معاني المفردات :

قوله: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ الغدو: أول النهار، والعشي: آخره.

الإعراب :

﴿ ٱلنَّارُ﴾ : مبتدأ، وجملة: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ خبر، ويجوز أن تكون النار بدلًا من سوء العذاب، وقوله: ﴿يُعْرَضُونَ﴾ في موضع الحال منها، أو من الآل، ويجوز أن تكون النار خبرًا لمبتدأ محذوف هو الضمير في: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ ، كأنه قيل: ما سوء العذاب؟ فقيل: هو النار، وذهب الجمهور إلى أن هذا العرض في البرزخ. ففي (صحيح البخاري ومسلم) من حديث ابن عمر أن

رسول الله ﷺ قال: ((إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)).

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾: ﴿وَيَوْمَ﴾ معمول لفعل مضمر، والجملة عطف على ما قبله - والمعمول يعني: ظرف لفعل مضمر- أي: اذكر يوم تقوم الساعة، وهذه الجملة عطف على ما قبلها، أي: ويوم تقوم الساعة يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

القراءات:

قرأ حمزة، والكسائي، ونافع، وحفص: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ بفتح الهمزة، وكسر الخاء، وقرأ الباقون: "ادْخُلوا" بهمزة وصل، من دخل يدخل، وذلك أمر لآل فرعون، بتقدير حرف النداء أي، أي: ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب.

المعنى العام لهذه الآية:

تعرض أرواح فرعون وملئِه على النار بعد موتهم، وهم في قبورهم، في الصباح والمساء، ويوم تقوم الساعة يقال لملائكة العذاب: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وهو عذاب جهنم، وبئس المصير.

المعاني المستفادة من هذه الآية:

قال مجاهد، وغيره: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألا ترى الله سبحانه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وفي الحديث عن ابن مسعود: "إن أرواح آل فرعون، ومَن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشي، فيقال: هذه دارُكم".

من المعاني المستفادة أيضًا: يُعذب الروحُ والجسدُ في القبر، لكن إذا صعدت الروح إلى أعلى فتختص الروح بالنعيم والعذاب، هكذا قال أهل السنة.

١١ـ تفسير الآية رقم ٤٧:

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧].

المناسبة:

بعد أن بين الله سبحانه في الآية السابقة مصير آل فرعون، وهو النار، ذكر بعد ذلك جانبًا مما يدور بين أهل النار من مجادلات، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ يَتَحَآجُّونَ ﴾ التحاجّ بالتشديد: التخاصم، كالمحاجة، قوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ ﴿ تَبَعًا ﴾ جمع تابع، كخدم في جمع خادم، قال في (القاموس): التابع يكون واحدًا، أو جمعًا، أي: أتباع في كل حال، خصوصًا فيما دعوتمونا إليه من الشرك والتكذيب، قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾: ﴿ مُّغْنُونَ ﴾ من الغناء بالفتح، بمعنى: الفائدة، ﴿ نَصِيبًا ﴾ بمعنى: حصة.

الإعراب:

قوله: ﴿ نَصِيبًا ﴾ مفعول لما دل عليه من الدفع أو الحمل، أوله بتضمين أحدهما، أي: دافعين، أو حاملين عنا نصيبًا، ويجوز أن يكون نصيبًا قائمًا مقامَ المصدر.

البلاغة:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ المقصود من هذا الاستفهام: الطلب المصحوب بالرجاء، والعطف، والاستجداء.

المعنى العام لهذه الآية:

اذكر أيها الرسول لقومك؛ ليعتبروا ويتعظوا وقتَ أن يتخاصم أهل النار فيما بينهم، فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا في الدنيا، وكانوا رؤساء، وقادة: إنا كنا في الدنيا تابعين لكم، ومنقادين لهواكم، ومسخرين لخدمتكم، هذا هو حالنا أمامكم، وقد كنا في الدنيا منقادين لكم انقيادَ العبد لسيده، فادفعوا عنا شيئًا من هذا العذاب المهين الذي نزل بنا، فطالما دافعنا عنكم في الدنيا، وسِرنا وراءَكم بدون تفكير، أو معارضة.

١٢- تفسير الآية رقم (٤٨):

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨].

المناسبة:

هذه الآية فيها بيان رد المستكبرين على الضعفاء في النار، أي: في يوم القيامة، فهنا يرد عليهم المستكبرون بضيق، وملل؛ ويحكي القرآن ذلك فيقول: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

معاني المفردات:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ أي: رؤساء الكفر في الدنيا.

الإعراب:

قوله: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ رفع: ﴿كُلٌّ﴾ على الابتداء، وهو مضاف تقديرًا؛ لأن المراد: إنَّا كلنا فيها، و﴿فِيهَآ﴾ خبره، والجملة من المبتدأ والخبر: خبر إن.

المعنى العام لهذه الآية:

قال الذين استكبروا للضعفاء الأتباع في الدنيا يوم القيامة: نحن وأنتم جميعًا في جهنم، فكيف ندفع عنكم شيئًا من العذاب؟ وإننا لو كانت عندنا القدرة على دفع شيء من العذاب لدفعناه عن أنفسنا، إن الله تعالى قد حكم بين العباد بحكمه العادل، فجعل للمؤمنين الجنة، وللكافرين النارَ، وقدَّر لكل منا ومنكم عذابًا، لا تغني فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئًا.

١٣- تفسير الآية رقم (٤٩):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

المناسبة:

بعد أن يأس الكل من نصرة بعضهم لبعض، أي: بعد أن يأس أهل النار من نصرة بعضهم لبعض، اتجهوا جميعًا نحو خزنة جهنم؛ لعلهم يشفعون لهم عند ربهم، ويحكي القرآن ذلك، فيقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: القائمين على تعذيب أهل النار، قوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: يخفف عنا مقدار يوم من أيام العذاب.

الإعراب:

كان الظاهر أن يقول: وقال الذين في النار لخزنتها، لكنه قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ وذلك لتهويل عذاب جهنم.

المعنى العام:

قال الضعفاء، والمستكبرون في النار للملائكة المكلفين بتعذيب الكافرين: ادعوا ربكم أن يخفف عنا يومًا واحدًا من الأيام الكثيرة التي ينزل علينا العذاب فيها بدون انقطاع؛ لعلنا في هذا اليوم نستطيع أن نلتقط أنفاسنا التي مزقها العذاب الدائم.

١٤ـ تفسير الآية رقم (٥٠):

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

المناسبة:

بعد أن استعطف أهل النار ملائكة جهنم، أن يدعو ربهم؛ فيدفع عنهم هذا العذاب، هنا يردُّ عليهم خزنة جهنم بقولهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ أي: في ضياع وخسران.

الإعراب:

قوله: ﴿ قَالُواْ فَٱدۡعُواْ ﴾ الفاء فاء الفصيحة، أي: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإن الدعاء لمن يفعل فعلكم ذلك مستحيل صدوره عنا.

البلاغة:

الاستفهام في قوله: ﴿ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ الاستفهام هنا: للتوبيخ، والتأنيب، أي: أولم تك رسلكم في الدنيا تنذركم بسوء مصير الكافرين، وتأتيكم بالمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم.

المعنى العام في هذه الآية:

يبين الله ﷻ أن خزنة جهنم ترد على الكافرين حينما طلبوا منهم أن يسألوا ربهم تخفيف العذاب عنهم؛ قالوا لهم: ألم تُنبهوا على هذا، ولم تك تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة، الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾ [الزُّمَر: ٧١] وأرادوا بذلك إلزامهم، وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء، وتعطيل أسباب الإجابة، قالوا: بلى، أي: قال أصحاب النار من الكافرين: بلى، أي: أَتَوْنَا بالحجج والبراهين الدالة على صدقهم، فكذبناهم، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴾ [المُلك: ٩] وإذا كان الأمر كذلك يا

أصحاب النار، فادعوا أنتم، فإن الدعاء لمن يفعل فعلكم ذلك مستحيل صدوره عنا، وما دعاء الكافرين إلا في ضياع، وخسران.

المعاني المستفادة:

استدل بالآية التي هي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ مطلقًا من قال: إن دعاء الكافر لا يستجاب، وأنه لا يمكن من الخروج في الاستسقاء -أي: في صلاة الاستسقاء- والحق أن الآية في دعاء الكفار يوم القيامة، وأن الكافر قد يقع في الدنيا ما يدعو به ويطلبه من الله تعالى إثر دعائه؛ أما أنه هل يقال لذلك إجابة أم لا؟ فيقول صاحب (روح المعاني): إن ذلك بحث لا جدوَى له.

١٥- تفسير الآية رقم (٥١):

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

المناسبة:

هذا كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى؛ لبيان ما أصاب الكفرة من العذاب، حكم كلي، تقتضيه الحكمة هو أن شأننا المستمر -أي: شأن الله المستمر- أنه ينصر رسله، وأتباعه، قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ النصر: هو العون، قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ الأشهاد: جمع شهيد، أو جمع شاهد، والظاهر أنه من الشهادة، وقيل: هو من

المشاهدة بمعنى الحضور؛ والنصر للرسل والذين آمنوا في الحياة الدنيا يكون بالحجة، والظفر، والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال، والقتل، والسبي، وغير ذلك من العقوبات، ولا يقدح في ذلك ما قد يحدث للمؤمنين من هزائم؛ امتحانًا، إذ العبرة إنما هي بالعواقب، وغالب الأمر؛ وأيضًا ما يقع في بعض الأحيان من الانهزام إنما كان بأمر عارض، كمخالفة أمر الرسول ﷺ في غزوة أحد، وكمطلب الدنيا، والعجب، والغرور، كما في بعض وقائع المؤمنين.

وأيضًا أن الله تعالى ينتقم من الأعداء ولو بعد حين، كما بعد الموت، أقصد: كأن يكون بعد الموت، ألا ترى أن الله تعالى انتقم ليحيى # بعد استشهاده من بني إسرائيل بتسليط "بختنصر" حتى قُتل به سبعون ألفًا، إن وعد الله قاطع جازم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل، ومنهم من يهاجر من أرضه، ويخرج من بين قومه مكذبًا، مطرودًا، وأن المؤمنين فيهم من يُسام العذاب، وفيهم من يُلقَى في الأُخدود، وفيهم مَن يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب، وشدة، واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ بذلك يدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بالنفس الأفاعيل.

الإجابة على ذلك: هو أن الناس يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم، قريبة الرؤيا لأعينهم، ولكن صور النصر شتى، وقد يَلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة؛ فإبراهيم # وهو يلقى في النار، نراه لا يرجع عن عقيدته، ولا عن الدعوة إليها، أكان في موقف نصر، أم في موقف هزيمة؟ ما من شك في منطق العقيدة أنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار، كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار، فهذه صورة، وتلك صورة، وهما في الظاهر بعيد من بعيد؛ فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب.

والحسين > وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، والمفجعة من جانب آخر، أكانت هذه نصرًا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة، وبالمقياس الصغير، كانت هزيمة؛ فأما في الحقيقية الخالصة وبالمقياس الكبير، فقد كانت نصرًا، وكم مِن شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده، وما كان يملك أن يودع في القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة، التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزًا محركًا للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزًا محركًا لخطا التاريخ كله على مدى أجيال وأجيال.

إن وعد الله قائم لرسله، وللذين آمنوا، ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب، التي ينطبق هذا الوعد عليها، وحقيقة الإيمان كثيرًا ما يتجوز الناس فيها، وهي لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك في كل صوره وأشكاله، وإن هنالك لأشكالًا من الشرك خفية، لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وَحْدَهُ، ويتوكل عليه وحده، ويطمئن إلى قضاء الله فيه، وقدره عليه، ويحس أن الله وحده هو الذي يصرفه، فلا خيرة له إلا ما اختاره الله، ويتلقى هذا بالطمأنينة، والثقة، والرضا، والقبول، وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدي الله -أي: لا يفعل شيئًا إلا بأمر الله- ولن يقترح على ربه صورة معينة من صور النصر، أو صور الخير، فَسَيكِل هذا كله لله، ويلتزم، ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير، وذلك معنى من معاني النصر؛ وهو النصر على الذات، والشهوات، وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحالٍ من الأحوال.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: لننصر رسلنا، والذين آمنوا في الحياة، وكذلك يوم القيامة ننصر رسلنا بعذاب الكافرين، وبالانتقام منهم، وعبر عن ذلك بيوم القيامة؛ للإشعار بكيفية النصرة، وأنها تكون عند جمع الأولين

والآخرين، بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب، وهؤلاء الأشهاد هم الملائكة، والمؤمنون من أمة سيدنا محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] والنصرة في الآخرة لا تتخلف أصلًا، بخلافها في الدنيا، فإن الحرب فيها سِجال، وإن كانت العاقبة للمتقين؛ ولذا دخلت: ﴿ فِى ﴾ على الحياة الدنيا في قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ دون "عَلَى"، لم يقل: على الحياة؛ لأن الظرف المجرور بـ"في" لا يستوعب المنصوب على الظرفية كما ذكره الأصوليون.

١٦ـ تفسير الآية رقم (٥٢):

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢].

المناسبة:

هنا بعد أن بين الله ﷻ أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، وينصرهم كذلك في الآخرة بعذاب أعدائهم، بين بعد ذلك أن الظالمين -وهم الكفرة- يكونون في موقع صعب، يعتذرون، لكن لا تنفعهم هذه المعذرة، ولا تقبل معذرتهم، قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾.

المفردات:

﴿ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ هي: جهنم، قوله: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ المعذرة: هي العذر، أي: لا يُقبل عذر منهم على ما فعلوه في الدنيا، من كفر، وتكذيب

للرسل؛ لأن الدلائل كانت أمامهم واضحة، والبراهين كانت جلية، فلم يكفروا، ولم يكذبوا، لتقصير في الأدلة، والبراهين، وإنما هم كفروا لعنادهم، واستكبارهم.

الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ قوله: ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾: ﴿ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: لهم الدار السيئة؛ سيئة المآل، سيئة المصير، سيئة المكان، سيئة العاقبة، فهم في سوء.

القراءات:

قرأ الجمهور: "يَوْمَ لا تَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ" في قوله: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾، وقرأ نافع، والكوفيون، بالتحتية، أي: بالياء: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ والكل جائز في اللغة.

المعني العام:

إن الله ﷻ ينصر رسله، وينصر الذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يومَ يقدم الظالمون أعذارهم؛ لكي نعفو عنهم، فلا يُقبل منهم عذر واحد؛ لأنها أعذار ساقطة، وأعذار ليست مفيدة، وجاءت هذه الأعذار في غير وقتها، فقد كان أمامهم زمن طويل في الدنيا، لكنهم أضاعوه، ولم يستفيدوا منه، وجاءوا يوم القيامة يقدمون أعذارًا، هذه الأعذار لا تقبل منهم، وليس مصيرهم كذلك فقط، لكن لهم اللعنة من الله، والطرد من رحمة الله، والطرد من عباده

المؤمنين، ويا ليت الأمر اقتصر على ذلك، فلهم أيضًا في الآخرة جهنم، وما يسوءهم فيها من العذاب.

ولكن هل هناك تعارض بين هذه الآية التي هي قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٣٦]؟

الجواب: لا تعارض؛ لأن المقصود منهما واحد، وهو أنهم ليس لهم عذر مقبول، حتى يلتفت إليهم، وإنما عذرهم مرفوض رفضًا تامًّا.

١٧ـ تفسير الآيتين (٥٣، ٥٤):

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤].

المناسبة:

بعد أن بشر الله المؤمنين وتهكم بالكافرين في الآيتين السابقتين ذكر صورة من صور النصر، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

معاني المفردات:

﴿ ٱلْهُدَىٰ ﴾: ما يُهتدَى به من المعجزات والصحف والشرائع. قوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ المقصود بالكتاب التوراة. قوله: ﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ ﴾ أي: هداية وتذكرة. والفرق بين الهدى والذكر؛ أن الهدى: ما يكون دليلًا على شيء آخر، وليس من شرطه أن يذكر بشيء آخر كان معلومًا ثم

صار منسيًّا، وأما الذكرى فليست كذلك، وكتب الأنبياء مشتملة على هذين القسمين، فإن بعضها دلائل في أنفسها، وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الإلهية المتقدمة.

قوله: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لذوي العقول السليمة الخالصة من شوائب الوهم.

الإعراب:

قوله: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾: ﴿هُدًى﴾ مفعول لأجله، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي: من أجل الهداية، ومن أجل الذكرى، أو هما مصدران في موضع الحال.

البلاغة:

قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الإيراث مجاز مرسل عن الترك، أو هو استعارة تبعية له.

المعنى العام:

لقد آتينا عبدنا ونبينا موسى # ما يُهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع، وأورثنا من بعده قومه بني إسرائيل الكتابَ، وهو التوراةُ؛ لكي ينتفعوا بإرشاداته وأحكامه وتوجيهاته.

وفعلنا ما فعلنا من أجل أن يكون ذلك الكتاب هداية وذكرى لأصحاب العقول السليمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالهدايات، وهم الذين يتذكرون ويعتبرون دون غيرهم.

تفسير الآيات (٥٥ - ٧٠) من سورة (غافر)

١ـ تفسير الآية رقم (٥٥):

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥].

المناسبة:

هذه الآية مترتبة على قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١] وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ جملة معترضة للبيان والتأكيد لنصرة الرسل، كأنه قيل: إذا سمعت ما وعدت به من نصرة الرسل، وما فعلناه بموسى من نصرٍ، ومن هداية فاصبر على ما أصابك من أذية المشركين.

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ كأن هذه الجملة مترتبة على الآية التي هو قوله الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ ما دمت قد سمعت ما وعد الله به من نصرة الرسل في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، وبما سمعته من نصر لموسى # كنموذج لنصر الله ﷻ ما دمت قد علمت ذلك كله، أيها الرسول فاصبر على ما يفعله المشركون من استكبار، ومن إنكار، ومن إعراض عن دعوتك: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ الصبر هو حبس النفس عن المكروه.

قوله: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ أي: اطلب المغفرة تداركًا لما فرط منك من ترك الأولى في بعض الأحيان، فإنه تعالى كافيك في نصرة دينك، وإظهاره على الدين كله. وقيل: هذا تعبد من الله لرسوله، ليزيدَ به درجة، وليصير ذلك سنةً لمن بعده.

قوله: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ التسبيح: عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به.

قوله: ﴿ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾: قيل: صلاة العصر وصلاة الفجر، وقيل: ﴿ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ عبارة عن أول النهار إلى النصف، و﴿ بِٱلۡعَشِيِّ ﴾ عبارة عن النصف إلى آخر النهار، فيدخل فيه كل الأوقات.

وبالجملة فالمراد منه المواظبة على ذكر الله، وألا يفتر اللسان عنه.

قوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ الفاء هنا فاء الفصيحة، بمعنى: إذا سمعت أيها الرسول ما وعدت به من نصرة الرسل، والذين آمنوا في الحياة الدنيا، وكذلك نصرتهم في الآخرة: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾.

المعنى العام لهذه الآية:

إذا كان الأمر كما ذكرنا لك أيها الرسول، من أننا سننصر رسلنا، والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد يوم القيامة، والملائكة والمؤمنون يشهدون

على أنَّ الرسل قد بلغوا أقوامهم، فاصبر على ما أصابك من أعدائك، فإن ما وعدك الله به من النصر أمر ثابت لا شك فيه، وحق لا باطل معه، واستغفر لذنبك، فإن استغفارك هذا وأنت المعصوم من كل ما يغضبنا، يجعل أمتَك تقتدي بك في ذلك، وتسير على نهجك في الإكثار من فعل الطاعات، وبجانب استغفارك من الذنوب أكثِرْ من تسبيح ربك ومن تنزيهه عن كل ما لا يليق به، عند حلول الليل وعند تباكير الصباح، فإن هذا الاستغفار، وذلك التسبيح خير زادٍ للوصول إلى السعادة والفوز في الدنيا والآخرة.

المعاني المستفادة:

أولًا: لا بد للإنسان أن يصبر على ما يلقيه من أذًى، وخصوصًا الداعية إلى الله، الداعية إلى الله يواجه في دعوته شدائد وأذى، لا بد أن يصبرَ حتى يستطيعَ أن يبلغَ الدعوة كما أمر الله ﷻ.

ثانيًا: وعد الله حق مهما يطول الأمد ومهما تتعقد الأمور ومهما تتقلب الأسباب، إنه وعد من يملك التحقيق، لا بد للإنسان أن يؤمن بهذا تمامًا، مهما تعقدت الأمور من حوله، فإن وعد الله حق، ووعد الله هو نصر الرسل والذين آمنوا في الحياة الدنيا وكذلك نصرهم في الآخرة.

ثالثًا: زادُ الطريقِ الاستغفارُ والتسبيح، هذا هو الزاد في طريق الصبر، هذا هو الزاد في ذلك الطريق الطويل الشاق الذي يعين الإنسان على الصبر الاستغفار والتسبيح، كل ذلك ذاد مهم في حياة الإنسان، في هذه الحياة يستعين بالاستغفار والتسبيح على مواجهة الشدائد.

٢- تفسير الآية رقم (٥٦):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٦].

المناسبة:

بعد أن أمر الله سبحانه في الآية السابقة بالصبر والاستغفار والتسبيح للتغلب على الشدائد، عاد إلى توبيخ الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة أو برهان، وبيان الأسباب التي حملتهم على ذلك الجدل المذموم فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾.

معاني المفردات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ الجدل: هو محاولة التغلب على الخصم، والجدل نوعان: هناك جدل مذموم كجدال المشركين في آيات الله سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ وهناك جدل ممدوح كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله: ﴿ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ ﴾ أي: بغير حجة وبرهان.

قوله: ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾ أي: التجئ إلى الله.

الإعراب:

قوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ "إن" نافية، وأسلوب الحصر بـ"إن" النافية و"إلا"، يفيد أن قلوب هؤلاء المشركين خلت من كل شيء إلا الكبر، والعياذ بالله.

قوله: ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ صفة لـ﴿كِبْرٌ﴾ والضمير في قوله: ﴿بِبَالِغِيهِ﴾ راجع إلى: ﴿كِبْرٌ﴾، وهو دفع الآيات وعدم الإيمان بها، وإنكار آيات الله ﷻ سواء أكانت كونية أم آيات قرآنية.

المعنى العام:

إنَّ الذين يجادلون في آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته وصدق رسله، وليس عندهم دليل أو برهان على صحة دعواهم، هؤلاء المجادلون بالباطل ما حملهم على ذلك إلا التكبر والتعاظم والتطلع إلى الرئاسة، وإلى أن تكون النبوة فيهم أو في من يميلون إليه، هؤلاء جميعًا الذين يجادلون في آيات الله لن يصلوا إلى شيء من ذلك، ولن يبلغوا ما تتوق إليه نفوسهم المريضة؛ لأن العطاء والمنع بيد الله وحده، فهؤلاء يجادلون في آيات الله بغير حجة في ذلك أتتهم من جهته تعالى، ما هم ببالغي موجب الكبر ومقتضيه، وهو متعلق إرادتهم من دفع الآيات أو من الرياسة أو النبوة، هذا هو حال المجادلين بالباطل، وهذا هو الدافع إلى جدالهم، وما دام هذا هو حالهم فالتجئ إلى الله تعالى أيها الرسول؛ لكي يحفظك من شرورهم وكيدهم، إنه تعالى هو السميع لكل شيء، البصير بما ظهر وخفي من شئون عباده.

المعاني المستفادة:

أولًا: الكبر -والعياذ بالله- مرض سيئ، وخَصلة مذمومة، هو هذا الكبر الذي يحيق في الصدر وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه.

ثانيًا: لو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقية هذا الوجود لتواضع، وعاش في سلام مع نفسه، ومع الكون حوله، وفي استسلام لله وإسلام.

ثالثًا: الاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحي باستبشاعه واستفظاعه، أي: أن الكبر شيء بشع فظيع، ولذلك أمرنا الله ﷻ أن نستعيذ به من الكبر: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

٣. تفسير الآية رقم (٥٧):

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

المناسبة:

لما بيَّن الله سبحانه في الآية السابقة أنَّ الكبر هو سبب مجادلة الإنسان بالباطل في آيات الله بدون حجة أو برهان، ذكر الله بعد ذلك أنَّ هذا الإنسان ضئيل بالنسبة لخلق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ أي: أعظم في القدرة وأجل في الصدور.

المعنى العام:

إنَّ مجادلة المشركين في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحاجهم الله ﷻ بخلق السموات والأرض؛ لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض، وبأن السموات والأرض خلق عظيم، لا يقدر قدره، وخلق الناس بالقياس إلى خلقهما شيء قليل.

فمن قدر على خلق السموات والأرض مع عظمهما كان على خلق الإنسان مع ضآلته أقدر، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون أن الإعادة أهون من البداية.

وقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ إنما هو من باب تقريب الأشياء إلى الفَهم، فمن المعروف بين الناس أن معالجة الشيء الكبير أشد من معالجة الشيء الصغير، وإن كان الأمر بالنسبة إلى الله تعالى لا تفاوت بين خلق الكبير وخلق الصغير إذ كل شيء خاضع لإرادته كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

إن الإنسان ضئيل بالنسبة إلى بعض خلق الله الذي يراه الناس، يقول صاحب (الظلال): هذه الأرض التي نحيا عليها تابع صغير من توابع الشمس، تبلغ كتلتها ثلاثة من مليون من كتلة الشمس، ويبلغ حجمها أقل من واحد من مليون من حجم الشمس، وهذه الشمس واحدة من نحو مائة مليون من الشمس في المجرة القريبة منا، والتي نحن منها.

وقد كشف البشر حتى اليوم نحو مائة مليون من هذه المجرات متناثرة في الفضاء الهائل من حولها، تكاد تكون تائهة فيه، والذي كشفه البشر جانب ضئيل صغير لا يكاد يذكر من بناء الكون، وهو على ضآلته هائل شاسع، يدير الرءوس مجرد تصوره، فالمسافة بيننا وبين الشمس نحو من ثلاثة وتسعين مليونًا من الأميال،

ذلك أنَّها رأس أسرة كوكبنا الأرضي الصغير، بل هي على الأرجح أم هذه الأرض الصغيرة، ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة، أما المجرة التي تتبعها الشمس، فقطرها نحو من مائة ألف مليون سنة ضوئية، والسنة الضوئية تعني: مسافة ستمائة مليون ميل؛ لأنَّ سرعة الضوء هي ستة وثمانون ومائة ألف ميل في الثانية، وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبعد عنا بنحو خمسين وسبعمائة ألف سنة ضوئية.

يقول صاحب (الظلال): ونذكر مرة أخرى أن هذه المسافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام، هي التي استطاع علم البشر الضئيل أن يكشف عنها، وعلم البشر هذا يعترف أن ما كشفه قطاع صغير في هذا الكون العريض.

٤ـ تفسير الآيتين (٥٨، ٥٩):

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

المناسبة:

لما ذكر سبحانه الجدال بالباطل ذكر مثالًا للباطل والحق، وأنهما لا يستويان، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

معاني المفردات:

﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الغافل عن معرفة الحق في مبدئه ومعاده، و﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ من كانت له بصيرة في معرفة الحق في مبدئه ومعاده.

الإعراب:

زيادة "لا" في قوله: ﴿وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾ للتأكيد.

قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾: ﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: لا تتذكرون إلا تذكرًا قليلًا.

القراءات:

قرأ الجمهور: "يتذكَّرون" بالتحتية على الغيبة، وقرأ الكوفيون بالفوقية يعني: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ على الخطاب.

البلاغة:

قرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات أي: تذكرًا قليلًا ما تتذكرون، وفائدة الالتفات في مقام التوبيخ هو إظهار العنف الشديد والإنكار البليغ.

أسئلة حول الآية:

- لماذا قدم: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؟

قدم: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ لمناسبة العمى ما قبله من نفي العلم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأننا قلنا: ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ هو الغافل عن معرفة الحق في مبدئه ومعاده.

- لماذا قدم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ﴾؟

قدم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لمساواة البصير في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ وأيضًا قدم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لشرفهم.

- لماذا عدَل عن التقابل الظاهر في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ ولم يقل: "والمحسن ولا المسيء"؟

فعل ذلك إشارة إلى أن المؤمنين عَلم في الإحسان، يعني: المؤمنين إحسانهم أمر واضح وأمر ظاهر.

المعنى العام:

إنَّ الغافل عن الحق والبصير بالحق والمحسن والمسيء لا يستويان، فالبصير يرى ويعلم ويعرف قدره وقيمته، ولا يتطاول، ولا ينتفخ ولا يتكبر؛ لأنه يرى ويُبصر والأعمى لا يرى، ولا يعرف مكانه ولا نسبته إلى ما حوله، فيخطئ تقدير نفسه، وتقدير ما يحيط به، ويتخبط هنا وهناك من سوء التقدير، وكذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء، إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير.

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أبصروا وعرفوا، فهم لا يتكبرون بل يتواضعون، ولا يسيئون بل يحسنون، أما النصف الآخر فهو قد جهل وعمي، فهو يسيء إلى كل شيء، يسيء إلى نفسه، ويسيء إلى الناس، فيسيء إلى كل شيء قبل إدراك قيمته، وقيمة ما حوله، ويخطئ في قياس نفسه إلى ما هو حوله، فهو أعمى، والعمى عمى القلوب، لكننا قليلًا لا نتذكر، ولو تذكرنا لعرفنا، فالأمر واضح قريب، لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والتذكير.

المعاني المستفادة:

أولًا: كمال عدل الله، حيث لا يساوي بين الأعمى والبصير، وبين المحسن والمسيء، فالبصير له ثوابه والأعمى له عقابه، وكذلك المحسن له منزلته ومكانته عند الله، لكن المسيء لا قيمة له، ولا مكانة له عند الله، فمن كمال عدل الله أنه لا يساوي بين الأعمى والبصير وبين المحسن والمسيء: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

ثانيًا: الكافر لا يتذكر أصلًا؛ لأنَّه لا يستوي الأعمى والبصير ولا المحسن والمسيء، بل يظن أنَّه سيكون في منزلة أعظم من المؤمن في الآخرة إن أتت؛ لأنَّه لا يؤمن بالآخرة أصلًا.

٥- تفسير الآية رقم ٥٩:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

المناسبة:

بعد أن بين سبحانه في الآية السابقة، بأن من كمال عدله أنه لا يساوي بين الأعمى والبصير والمحسن والمسيء، ذكر في هذه الآية، وأكد مجيء الساعة في الوقت الذي يختاره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

معاني المفردات:

المقصود من: ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ هو يوم القيامة، ﴿لَّارَيْبَ﴾ أي: لا شك. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون. وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ أكد باللام؛ لأن المخاطبين هم المشركون، أما في سورة طه فجاءت غير مؤكدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥]؛ وذلك لكون المخاطب ليس بشاك في الخبر، وهو موسى # .

المعنى العام من هذه الآية:

إن الساعة لآتية لا ريب ولا شك في مجيئها في الوقت الذي يشاؤه ﷻ ولكن أكثر الناس لا يصدقون بذلك لغفلتهم وقصور نظرهم، واستحواذ الشيطان عليهم، فعلى العاقل أن يستعد ليوم القيامة بالإيمان والتوحيد والعمل الصالح.

٦- تفسير الآية رقم (٦٠):

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

المناسبة:

لما بيَّن سبحانه أنَّ قيام الساعة حق لا شك فيه ولا شبهة، أرشد عباده إلى الوسيلة والسعادة في دار الخلود، لكن ما الوسيلة والسعادة لكي يضمن الإنسان له مكانًا في دار الخلود؟

هنا أمر الله رسوله ﷺ أن يحكي عنه ما أمره بإبلاغه، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.

معاني المفردات:

﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أي: ذليلين صغيرين. ما معنى الدعاء في قوله: ﴿ ٱدْعُونِيٓ ﴾ هل هو الدعاء الحقيقي، بمعنى الطلب أو مجاز عن العبادة؟. هناك قوم قالوا بهذا وبذاك، والحقيقة أنه لا تنافي بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله، وبين تفسيرهم بالعبادة؛ لأن: ((الدعاء هو العبادة)) كما جاء في الحديث الشريف.

القراءات:

قرأ الجمهور: ﴿ سَيَدْخُلُونَ ﴾ بفتح الياء وضم الخاء مبنيًّا للفاعل، وقرأ ابن كثير وابن محيصن وورش وأبو جعفر بضم الياء وفتح الخاء مبنيًّا للمفعول أي: "سيُدخَلون".

المعنى العام:

وقال ربكم: أيها المؤمنون تضرعوا إليَّ بالدعاء، وتقربوا إلى بالطاعات، أستجب لكم ولا أخيب لكم رجاءً.

وللدعاء آداب لا بد أن تراعى:

أنه إخلاص القلب لله والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح صورة معينة لها أو تخصيص وقت أو ظرف، والاعتقاد بأنَّ التوجه للدعاء توفيق من الله والاستجابة

فضل آخر، أما الذين يستكبرون عن التوجه لله فجزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم، وهذه نهاية الكِبر الذي تنفتح به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة، وفي هذه الحياة الرخيصة، وتنسى ضخامة خلق الله، فضلًا على نسيانها عظمة الله ﷻ.

٧- تفسير الآية رقم (٦١):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١].

المناسبة:

بعد أن توعد سبحانه من ترك طلب الخير منه واستدفاع الشر به بقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِى سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على عباده، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي: لتستريحوا فيه، قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾ أي: يبصر فيه أو به، يعني: يبصر الإنسان فيه أو به، فالنهار إما ظرف زمان للإبصار أو سبب له.

البلاغة:

قال سبحانه: ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ وكلمة: ﴿فَضْلٍ﴾ جاءت منكرة للإشعار بأنَّه فضل عظيم لا تحيط به عبارة أو وصف.

المعنى العام لهذه الآية:

الله وحده هو الذي جعل لكم أيها الناس الليل لتسكنوا فيه، وتستريحوا من عناء العمل بالنهار، وهيأ الله ﷻ لهذه الاستراحة، بأن جعله مظلمًا ساكنًا، وجعل لكم بقدرته وفضله النهار مضيئًا مسفرًا، بحيث تبصرون فيه ما تريدون إبصاره من الأشياء المتنوعة.

إنَّ الله تعالى لصاحب فضل عظيم على الناس جميعًا، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على آلائه ونعمه؛ لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء والشهوات عليهم.

المعاني المستفادة:

أولًا: نعم الله على عباده كثيرة، لا تعد ولا تحصى.

ثانيًا: أكثر الناس لا يشكرون نعم ربهم ولا يعترفون بها، إما لجحودهم بها، وكفرهم بها كما هو شأن الكفار، أو لإغفالهم النظر وإهمالهم لما يجدّ من شكر المنعم، وهم الجاهلون.

لطائف هذه الآية:

أولًا: تكرر كلمة: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تخصيص لكفران النعمة بهم،

وأنَّهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الزُّخرُف: ١٥] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثانيًا: قال صاحب (الكشاف): فإن قلت: لم قرَنَ: ﴿ٱلَّيْلَ﴾ بالمفعول له الذي هو: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ وقرن: ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ بالحال حيث قال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؟ وهل كانا حالين أو مفعولًا لهما فيراعى حق المقابلة، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؟

قلت: -أي: قال صاحب (الكشاف)- هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدَّى الآخر؛ ولأنه لو قال: لتبصروا فيه -حينما تحدث عن النهار- يعني: قال: والنهار لتبصروا فيه، فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي -حينما قال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ حيث أسند الإبصار إلى النهار- ولو قيل في الليل: ساكنًا بدلًا من أن يقول: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ فإن الليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج، وساكن، لا ريح فيه، حينما يقولون ذلك لم تتميز الحقيقة من المجاز.

وقال الجلبي: إذا حملت الآية على الاحتباك، وقيل: المراد جعل لكم الليل مظلمًا لتسكنوا فيه، والنهار مبصرًا لتنتشروا فيه، ولتبتغوا من فضل الله تعالى فحذف من الأول بقرينة الثاني، ومن الثاني بقرينة الأول، فلم يحتج إلى ما ذكر في تعليل ترك المبالغة في القرينة الأولى، وهذا هو المشهور.

ثالثًا: في هذه الآية قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] هذا في سورة الزمر، وقال تعالى في سورة غافر: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى فيها أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فنجد هنا أن خاتمة كل آية اختلفت عن الآية الأخرى، فقال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾ و﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ و﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فما الحكمة من اختلاف خواتيم الآيات الثلاثة؟

الجواب:

في الآية الأولى -التي هي في سورة الزمر: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ختم الآية بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ لأنَّ من علم أنَّ الله تعالى خلق السموات والأرض مع عظمهما اقتضى ذلك علمه بقدرته على خلق الإنسان وإعادته ثانيًا؛ لأنَّ الإنسان أضعف من ذلك وأيسر ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أما الآية الثانية وهي التي ختمت بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فتعليل ذلك أنَّه لما ذكر الساعة وأنَّها آتية لا ريب فيها، قال: ﴿ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: لا يصدقون بها؛ لاستبعادهم البعثَ، لكن في الآية الأخيرة -التي هي في سورة غافر- والآية رقم ٦١: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ختمها بقوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لأنَّه لما ذكر تعالى نعمه على الناس وفضله عليهم، ناسب ختم الآية بقوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴾ فختمت كل آية بما يناسب الكلام الذي قبلها.

رابعًا: قال تعالى في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ وقال تعالى في سورة يونس: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠] ففي الآية -التي في سورة غافر- أظهر لفظ: ﴿ٱلنَّاسِ ﴾ وكرره فناسب الإظهار هنا أي: إظهار لفظ: ﴿ٱلنَّاسِ ﴾ للمشاكلة في الألفاظ، وفي

سورة يونس أضمر لفظ: ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وكرر ضمائرهم قبل ذلك، فناسب الإضمار في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لما ذكرناه من المشاكلة.

٨- تفسير الآيتين (٦٢، ٦٣):

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

معاني المفردات:

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تسرفون من الحق في الاعتقاد إلى الباطل ومن الصدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح، ومعنى رجل مأفوك أي: مصروف عن الحق إلى الباطل.

الإعراب:

قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ اسم الإشارة يعود إلى من سبقت صفاته ونعمه، وهو الله ﷻ وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ، وما بعده أخبار متعددة، أي: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هذه أخبار متعددة لاسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾.

البلاغة:

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ هذا استفهام والغرض منه التوبيخ والتعجب.

المعنى العام للآية:

ذلكم الذي أعطاكم من النعم ما أعطاكم هو الله تعالى ربكم خالق كل شيء في هذا الوجود، لا إله إلا هو في هذا الكون، فكيف تنقلبون عن عبادته سبحانه إلى

عبادة غيره، مع أنَّه ﷻ هو الخالق لكل شيء، وهو صاحب تلك النعم التي تتمتعون بها.

اللطائف في هذه الآية:

أولًا: قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وقال تعالى في هذه السورة -سورة غافر: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ نلاحظ تغييرًا في تركيب الآيتين، فنجد في سورة الأنعام أنه قدّم: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ على: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لكن في سورة غافر قدم: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لماذا؟!

الجواب: لّما تقدم في سورة الأنعام قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ناسب تقديم كلمة التوحيد النافية للشرك ردًّا عليهم، ثم ذكر الخلق.

ولما تقدم في هذه السورة -غافر- كونه خالقًا بقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ ناسب تقديم كلمة الخلق، ثم بعد ذلك أتبعها بكلمة التوحيد.

٩- تفسير الآية رقم (٦٣):

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦٣].

معنى الآية:

مثل ذلك الصرف العجيب عن الحق إلى الباطل بأن ينصرف وينقلب كل أولئك الذين انتكست عقولهم، والذين كانوا بآيتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا يجحدون ويكفرون.

١٠ـ تفسير الآيتين (٦٤، ٦٥):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤، ٦٥].

المناسبة:

بعد أن بيّن سبحانه مظاهر نعمه عن طريق الزمان الليل والنهار، أتبع ذلك ببيان نعمه عن طريق المكان، وهو الأرض والسماء، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [غافر: ٦٤] إلى آخره.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي: جعل لكم الأرض مكانًا لاستقراركم عليها والسعي فيها.

قوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أي: قبة، ومنه أبنية العرب لقبابهم التي تضرب.

قوله: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي: صور أشكالكم في أحسن تقويم، وأجمل هيئة.

قوله: ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي: من الحلال المستلذ.

قوله: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ أي: المنفرد بالحياة الدائمة الباقية.

قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾ أي: اعبدوه.

الإعراب:

قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ اسم الإشارة يعود إلى إعطاء النعم المتعلقة بالزمان والمكان، والمطعم والمشرب.

البلاغة:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ إطلاق البناء، أي: القبة على السماء ذلك على سبيل التشبيه، وهو تشبيه بليغ حيث شبه السماء بالبناء، وهي القبة المضروبة، وفي ذلك إشارة إلى كروية الأرض.

المعنى العام:

الله سبحانه هو الذي جعل لكم الأرض مكانًا لاستقراركم عليها والسعي فيها، وجعل لكم السماء بمنزلة القبة المبنية المضروبة فوق رءوسكم، فأنتم ترونها بأعينكم مرفوعةً فوقكم بغير عمد، وصوركم أشكالكم في أحسن تقويم وأجمل هيئة، ورزقكم من الرزق الحلال الطيب المستلذ، ذلكم الذي أعطاكم تلك النعم المتعلقة بزمانكم ومكانكم وذواتكم ومطعمكم ومشربكم، هو ربكم الذي تولاكم بتربيته ورعايته في جميع أطوار حياتكم، فتبارك الله تعالى وتعاظم في ذاته وصفاته، فهو رب العالمين، ومالك أمورهم، وهو سبحانه المتفرد بالحياة الدائمة الباقية، لا إله إلا هو، إذ لا موجود يدانيه، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

فاعبدوه أيها الناس عبادة خالصة لوجهه الكريم، وأطيعوه طاعة لا مكانَ معها للتردد أو التكاسل حالة كونكم قائلين: الحمد لله رب العالمين، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]

وعن أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي، قال: "كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال: وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة"، رواه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثتهم عن أبي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال: ((كان رسول الله ﷺ يقول في دبر الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له...)) وذكر تمام الحديث.

تفسير الآيات من رقم (٦٦) إلى (٦٨):

﴿ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٦- ٦٨].

المناسبة:

بعد أن أمر الله الناس بعبادته وحده في الآية السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لقّن الله نبيه ﷺ الردَّ الذي يوبخ به المشركين فقال: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾: ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ تشمل دلائل التوحيد العقلية والنقلية.

قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: أنقادُ لربي بالطاعة والخضوع.

قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ أصل النطفة الماء الصافي أو القليل من الماء الذي يبقى في الدلو أو القِربة، وجمعها: نُطَف ونِطاف، يقال: نَطَفَت القربةُ: إذا تقاطر ماؤها بقِلة، والمراد بها هنا المَني الذي يخرج من الرجل، ويُصَب في رحم المرأة.

قوله: ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ﴾ العلقة: هي قطعة من الدم المتجمد.

قوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ الطفل اسم جنس يصدق على القليل والكثير، أي: ثم يخرجكم أطفالًا.

قوله: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ أي: المرحلة التي تكتمل فيها أجسامكم وعقولكم.

الإعراب:

قوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ أو معمولة لمحذوف الجمل التي تقدمتها، أي: ثم يبقيكم لتكونوا شيوخًا.

قولـه: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ معطـوف علـى مقـدر، أي: فعـل بكـم لكـي تعيشوا، ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ تنتهي عنده حياتكم ثم تبعثون يوم القيامة.

واللام في قوله: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ اللام هنا لام العاقبة.

القراءات:

قرأ نافع وحفص وأبو عمرو وابن محيصن وهشام: ﴿شُيُوخٗا﴾ بضم الشين، وقرأ الباقون بكسرها أي: بكسر الشين "شِيوخا".

المعنى العام لهذه الآيات:

يقول تبارك وتعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ﷻ ينهى أن يعبدَ أحدٌ سواه من الأصنامِ والأنداد، والأوثان، وقد بيّن تعالى أنه لا يستحق العبادة أحدٌ سواه في قولـه جلّـت عظمتـه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ أي: هـو الـذي يقلبكم في الأطوار كلها وحده لا شريك له، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله: ومنكم من يتوفى من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطًا، ومنهم من يتوفى صغيرًا وشابًّا وكهلًا قبل الشيخوخة، كقولـه تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الحج: ٥] وقال ﷻ هـا هنا: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

قال ابن جريج: تتذكرون البعث، ثم قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المنفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه، فـ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥] أي: لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة.

١١ـ تفسير الآية رقم (٦٩):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر: ٦٩].

المناسبة:

بعد أن ساق سبحانه ما يدل على قدرته، ذكر بعد ذلك ما يسلي النبي ﷺ عمّا أصابه من المشركين بأن يبين له سوء عاقبتهم يوم القيامة، وأمره بالصبر على كيدهم، وبشره بأن الباقية ستكون له، ولأتباعه، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾.

البلاغة:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ للتعجب، وكذلك الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ للتعجب والتوبيخ.

المعني العام لهذه الآية:

انظر أيها الرسول إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها، الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يصرفون عنها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها، وانتفاء الصوارف عنها بالكلية.

١٢ـ تفسير الآية رقم (٧٠):

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٧٠].

الإعراب:

قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ ﴾ بدل من قوله في الآية السابقة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ بيان أو صفة له أو في محل النصب على الذم، أو في محل الرفع على أنه خبر محذوف أو مبتدأ خبره: ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾.

ونلاحظ هنا أنه وصل الموصول الثاني بالتكذيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ دون ذكر المجادلة؛ لأنَّ المعتاد وقوع المجادلة في بعض المواد لا في الكل.

ونلاحظ هنا أنَّه أتى بصيغة الماضي في قوله: ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ للدلالة على التحقيق، كما أتى بصفة المضارع في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ﴾ للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها.

والمراد: ﴿ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: بكل القرآن أو بجنس الكتب السماوية، فإنَّ تكذيبه تكذيب لها، وكذبوا أيضًا بما أرسلنا به رسلنا من سائر الكتب، والمعجزات، فَهُم لم يكتفوا بالتكذيب، بل أضافوا إلى ذلك تكذيبهم بكل كتاب ورسول.

وقوله: ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ هذا وعيد شديد لهم على تكذيبهم بالرسل وبكتبهم، أي: فسوف يعلمون سوءَ عاقبة تكذيبهم لأنبياء الله تعالى ولكتبه التي أنزلها عليهم، هذا جزاؤهم؛ لأنَّهم كذبوا بكل الكتب السماوية، وكذبوا بالرسل؛ لأنَّ تكذيب رسول إنَّما هو تكذيب لكل الرسل، ولذلك هددهم الله بقوله: ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾.

تفسير الآيات (٧١- ٨٥) من سورة (غافر)

١- تفسير الآيتين (٧١، ٧٢):

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

المناسبة:

بعد أن توعد الله ﷻ في الآية السابقة المكذبين بالرسل وقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فصَّل سبحانه هذا الوعيد، وبين ما أعده لهم من عذاب، فقال: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾.

الإعراب:

قوله: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ إذ ظرف لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بمعنى إذا، والمعنى: على الاستقبال سيحدث هذا يوم القيامة، والتعبير باللفظ الماضي للدلالة على تحققه؛ حتى كأنه ماضٍ حقيقة؛ فلا تنافر بين سوف وإذ، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أو الأغلال جمع غُل -بضم الغين- وهي القيد يوضع في اليد والعنق فيجمعهما، و﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: جمع سلسلة، وهي ما يربط بها الجاني على سبيل الإذلال له، و﴿ٱلْحَمِيمِ﴾: الماء البالغ أقصى درجات الحرارة.

وقوله: ﴿يُسْجَرُونَ﴾ مأخوذ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود، و﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ عطف على الأغلال، والجار والمجرور في نية التأخير، والجار والمجرور الذي هو في أعناقهم في نية التأخير، كأنه قيل: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم.

وقوله: ﴿يُسْحَبُونَ﴾: أي يجرون، وقوله: ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ حال من ضمير: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أو ضمير: ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أو جملة مستأنفة لبيان حالهم بعد ذلك، وجاز إعراب: ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ مبتدأ، وجملة: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ الخبر والعائد محذوف، أي: يسحبون بها.

معنى الآيات:

فسوف يعلم المكذبون بالرسل سوء عاقبة تكذيبهم وجدالهم بالباطل يوم القيامة وقت أن توضع الأغلال والقيود في أعناقهم، ثم يسحبون ويجرون إلى الحميم بعنف وإهانة، ثم يلقى بهم في النار التي تمتلئ بهم ويكونون وقودًا لها.

٢- تفسير الآيات من رقم: (٧٣) إلى (٧٦):

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٦].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ هذا تبكيت وتأنيب لهم، أي: ثم قيل -بعد هذا العذاب المهين للذين كذبوا بالرسل: أين تلك الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله لكي تدفع عنكم شيئًا من العذاب الأليم الذي نزل بكم؟ قال المكذبون: ضلوا عنا، بل لم نكن ندعو من قبل شيئًا، هذا حكاية لجوابهم

الذي يدل على حسرتهم وبؤسهم، أي: قالوا: ذهبوا وضاعوا وغابوا عنَّا، يعني: ذهبت الآلهة وضاعت وغابت عنا، ولم نعد نعرف لهم طريقًا، ولا هم يعرفون عنا طريقًا، ثم أضربوا على هذا القول؛ توهمًا منهم أن هذا الإضراب ينفعهم، فقالوا: بل لم نكن نعبد من قبل في الدنيا شيئًا يعتد به، وإنَّما كانت عبادتنا لتلك الآلهة هي أوهام وضلال.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مثل هذا الضلال البين والتخبط الواضح يضل الله الكافرين، ويجعلهم يتخبطون في إجابتهم على السائلين لهم، ثم بين سبحانه الأسباب التي أدت بهم إلى هذا العذاب المهين، فقال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: لكم الذي نزل بكم من العذاب بسبب فرحكم وبطركم في الأرض بالباطل، وبسبب مرحكم وغروركم في الدنيا، وحق عليكم أن يقال لكم -بسبب ذلك-: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يدل على أنهم خالدون في جهنم خلودا أبديًّا.

٣. تفسير الآية رقم (٧٧):

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

المناسبة:

بعد أن بين الله ﷻ حال المشركين بأن مثواهم جهنم؛ أمر الله رسوله أن يصبر ويداوم على الصبر، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ...﴾ إلى آخر الآية.

معاني المفردات:

﴿حَقٌّ﴾: أي كائن لا محالة.

الإعراب:

قوله: ﴿فَإِمَّانُرِيَنَّكَ﴾ أصله: فإن نريك، فزيدت "ما" لتوكيد "إن" الشرطية وجوابُها محذوف، وقوله: ﴿أَوْنَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ جوابه: ﴿فَإِلَيْنَايُرْجَعُونَ﴾.

المعنى العام:

إذا كان هذا حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك يا محمد؛ فاصبر على جدالهم بالباطل، إنَّ وعد الله تعالى بتعذيبهم وبنصرك عليهم حق، فإنْ نُرِكَ بعضَ الذي نعدهم بهم من القتل والأسر والهزيمة في الدنيا، أو نتوفينك قبل ذلك؛ فإلينا مرجعهم يوم القيامة؛ فنجازيهم بما يستحقون من عقاب.

المعاني المستفادة:

أولًا: مداومة الصبر مع العمل الجاد دون كلل أو ملل أمرٌ مطلوب من الداعية.

ثانيًا: ترك النتائج على الله بعد الصبر ومداومة العمل.

ثالثًا: المؤمن بين حالتين؛ إما أن يطلعه الله على ما توعد به أعداءَه من أسر أو قتل أو هزيمة، أو يتوفاهم قبل ذلك.

رابعًا: الكل مرجعه إلى الله بما فيهم المشركون؛ فيجازيهم بما يستحقون من عقاب.

٤- تفسير الآية رقم (٧٨):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

المناسبة:

لما أمر الله نبيه # بالصبر، بين له أنه قد أرسل رسلًا من قبله وصبروا على ما كذبوا وأوذوا؛ فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] فهذه الآية تبين أن الله ﷻ قد قص على نبيه محمد ﷺ قصص بعض الرسل، وهناك قصص آخر للأنبياء لم يقصصهم عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ المراد بالآية: المعجزة الخارقة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه، والمعنى: ما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتي بمعجزة من عند نفسه، وإنما يأتي بها بإذن الله تعالى ومشيئته؛ إذ المعجزات جميعًا عطايا الله ﷻ لرسله؛ لتأييدهم في دعوته.

قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: الوقت الذي حدده سبحانه لعذاب أعدائه.

قوله: ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ أي: قضي بين الناس جميعًا بالحق؛ فينجي الله سبحانه بقضائه العادل عبادَه المؤمنين.

قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: خسر عند مجيء الوقت الذي حدده الله لعذاب أعدائه خسر المبطلون، وهم الذين ماتوا مُصرين على كفرهم أو

فسوقهم عن أمره، وكما قال تعالى -في آية أخرى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٧].

٥- تفسير الآيات من رقم (٧٩) إلى (٨١):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

المناسبة:

لما هدد الله الكافرين في الآية السابقة؛ أتبع ذلك ببيان نعمه على عباده، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ... ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

﴿ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾: جمع نعم، وتطلق على الإبل والبقر والغنم، قالوا: والمراد بها هنا الإبل خاصة؛ لأن معظم المنافع التي ذكرت هنا توجد فيها.

﴿ ٱلْفُلْكِ ﴾: السفن.

الإعراب:

﴿ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ من الأولى للتبعيض ومن الثانية للتبعيض أيضًا. وقوله: ﴿ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ أي: منصوبة بقوله: ﴿ تُنكِرُونَ ﴾ وقدم الاستفهام وجوبًا؛ لأنَّ الاستفهام له صدر الكلام كما نعلم.

البلاغة:

الاستفهام في قوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ للتعجب من غفلة الكافرين عن هذه الآيات المبثوثة في الكون، والتي تدل جميعها على وحدانية الله تعالى وقدرته.

المعنى العام:

الله تعالى هو الذي خلق لكم بقدرته الإبل؛ لتركبوا بعضًا منها، ولتأكلوا بعضًا آخر منها، ولكم فيها –أي: في الإبل- منافع أخرى غير الأكل، وغير الركوب؛ كالانتفاع بألبانها وأوبارها وجلودها، ومن منافعها أيضًا أنكم تستعملونها في الأمور المهمة؛ كحمل الأثقال، والانتقال عليها من مكان إلى مكان: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تحملون، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٢].

وأنه سبحانه في كل وقت وفي كل حين يريكم آياته الدالة على قدرته ووحدانيته؛ فقولوا لي: أي آياتي الله تنكرون دلالتها علي ذلك؟ إنَّها جميعًا تنطق وتصرح بوجوب إخلاص العبادة لله ﷻ فكيف جحدتموها أو غفلتم عنها مع وضوحها؟!

فالآية الكريمة توبيخ شديد لأولئك الذين استحبوا العمى على الهدى؛ لأنَّ كل شيء في هذا الكون يدعو إلى الإيمان بالواحد القهار.

٦- الآية رقم (٨٢):

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

المناسبة:

بعد أن وبَّخَ الله الكافرين في الآية السابقة؛ لأنَّهم استحبوا العمى على الهدى؛ عاد ووبخهم بعد ذلك؛ لعدم اتعاظهم بمصارع الماضين، فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية.

الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ "ما" الأولى نافية، أو استفهامية في معنى النفي في محل نصب بـ"أغنى"، والثانية موصولة في موضع رفع أو مصدرية والمصدر الحاصل بالتأويل مرفوع به أيضًا، أي: لم يغنِ عنهم، أو أي شيء أغنى عنهم الذي كسبوه؟ على أساس هو المصدر، والفاء في قوله: ﴿ أَفَلَمْ ﴾ للعطف على مقدر، أي: قعدوا فلم يسيروا في الأرض.

البلاغة:

الاستفهام في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ للتأنيب والتوبيخ.

اللطائف:

في هذه الآية ذكر الله الأحوال الثلاثة للأمم الماضية بأنهم كانوا أكثر من المشركين الحاليين، وأشد قوة وآثارًا في الأرض، بينما في سورة "الروم"؛ ذكر حالتين فقط

للأمم الماضية في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩] وفي سورة "فاطر" ذكر حالة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فاطر: ٤٤] وذكر للماضيين في هذه الآية حالة واحدة، وهي القوة، أما في سورة "غافر" في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فذكر لهم شدة القوة، وكثرة العمران.

والجواب: لما تقدم قصةُ فرعون وتفصيلُ حاله وجبروته وما ذكر عنه؛ ناسب ذكر الكثرة والشدة والآثار في الأرض؛ فذكر لهم ثلاثة أحوال بخلاف الآيات التي ذكرت في سور أخرى.

المعنى العام:

أقعد هؤلاء المشركون في بيوتهم فلم يسيروا في أقطار الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الأمم المكذبة من قبلهم؛ كقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وغيرهم، ثم فسر سبحانه حال الذين كانوا من قبل: كفار مكة، فقال: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي: في العدد، ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ أي: في الأبدان والأجسام، ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: وكانوا أظهرَ منهم في العمران والحضارة والغنى، وهؤلاء الأمم الماضية عندما أحل بهم عذاب الله؛ لم تغنِ عنهم شيئًا كثرتهم أو قوتهم أو أموالهم، بل أخذهم الله أخذَ عزيز مقتدر في زمن يسير.

٧. تفسير الآية رقم ٨٣:

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣].

المناسبة:

بعد أن بين الله ﷻ أن هؤلاء الكافرين لم تغن عنهم كثرتهم وقوتهم وأموالهم شيئًا عن عذابهم؛ بين سبحانه موقف هؤلاء الجاحدين من رسلهم، فقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

المعنى العام:

فحين جاء الرسل إلى هؤلاء الجاحدين؛ فرحوا بما لديهم من علم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧] أي: فلما جاءهم الرسل -عليهم السلام- بعلوم الديانات؛ لم يلتفتوا إليها وصغروها، واستهزءوا بها، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للفوائد من علمهم؛ ففرحوا بما عندهم من العلم.

قوله: ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر: ٨٣] هذا بيان لما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم لرسلهم، واستهزائهم بهم، أي: ونزل بهؤلاء الكافرين العذاب الأليم؛ بسبب استهزائهم برسلهم وإعراضهم عن دعوتهم.

٨- تفسير الآية رقم ٨٤:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤].

المعنى العام:

نريد أن نبين أن الله ﷻ بين حال هؤلاء المكذبين المشركين عندما أحاط بهم العذاب، فقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا

﴿ كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ أي: حينما عاين هؤلاء المكذبون عذابَ الله النازل بهم، قالوا -بفزع وخوف: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ أي: وكفرنا بما كنا به مشركين في الدنيا من عبادة لغير الله تعالى، واعتماد على سواه.

٩- تفسير الآية رقم ٨٥:

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٥].

المناسبة:

لقد بين سبحانه أن إيمان هؤلاء المكذبين يوم القيامة لن ينفعهم؛ لأنه جاء في غير وقته؛ فقال تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾.

الإعراب:

﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ﴾ منصوبة على أنها مصدر مؤكِّد لفعل محذوف، أي: سن سنة.

المعنى العام:

هنا الله ﷻ يبين أن إيمان هؤلاء الكافرين يوم القيامة لم ينفعهم؛ لأنه إيمان جاء عند معاينة العذاب، والإيمان الذي يدعى في هذا الوقت لا قيمةَ له؛ لأنه جاء في وقت الاضطرار، لا في وقت الاختيار، وهذه سنة الله ماضية في الناس لا تتخلف في أي زمان أو مكان.

وفي هذا الوقت -الذي ينزل الله تعالى فيه العذاب على الكافرين- يخسرون كل شيء بحيث لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا آلهتهم التي كانوا يتوهمون شفاعتها.

المعاني المستفادة من هذه الآية:

الإيمان عند معاينة العذاب لا يقبل مثل إيمان فرعون؛ لأنه آمن عند معاينة العذاب حين قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فهذا إيمانه لا يقبل من الله ﷻ لأنه آمَنَ عند معاينة العذاب، أي: آمن في وقت الاضطرار، ولم يؤمن في وقت الاختيار.

بذلك نكون قد انتهينا من تفسير سورة "غافر".

تفسير الآيات (١ - ٢٩) من سورة (الفتح)

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : تمهيد، وتفسير الآيات (١ - ١٦) من سورة (الفتح) ٤٦٣

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (١٧ - ٢٩) من سورة (الفتح) ٥٠٠

تمهيد، وتفسير الآيات (١- ١٦) من سورة (الفتح)

١. تمهيد:

نأتي بعد ذلك إلى تفسير سورة أخرى من سور القرآن الكريم وهي سورة الفتح، وسورة الفتح عدد آياتها تسع وعشرون آية، وهي مدنية بالإجماع.

مناسبة هذه السورة لما قبلها:

السورة التي قبلها هي سورة محمد ﷺ وسورة محمد لّما ذكر فيها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] كان الخطاب في هذه الآية لكفار قريش، ولما كان الخطاب فيها لكفار قريش ناسب أن يخبر الله رسولَه بالفتح، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] وكذلك لما تقدم في سورة محمد قول الله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥] ناسب ذلك علو الإسلام بهذا الفتح العظيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

متى نزلت هذه السورة؟

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام؛ ليقضي عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع الرسولُ ﷺ عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة؛ منهم عمر بن الخطاب < فلما نَحَرَ الرسول ﷺ هَديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله ﷻ هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم،

وجعل ذلك الصلح فتحًا باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه، كما روي عن ابن مسعود > أو غيره أنه قال: ((إنكم تعدون الفتح فتحَ مكة، ونحن نعد الفتح صلحَ الحديبية)) وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر > قال: "ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية".

إذن هذه السورة نزلت في عام الحديبية.

المحاور التي دارت حولها سورة الفتح:

أولًا: بشرى رسول الله ﷺ بكل ما هو خير، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١- ٣].

ثانيًا: الامتنان على المؤمنين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق، وتبشيرهم بالمغفرة والثواب وعون السماء لجنود الله، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٤، ٥].

ثالثًا: بيان ما أعده الله لأعداء المؤمنين من الغضب والعذاب، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

رابعًا: التنويه ببيعة رسول الله ﷺ واعتبارها بيعة لله، وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٨ - ١٠].

خامسًا: كشف حال الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية وتوجيه الرسول ﷺ إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١١- ١٦].

سادسًا: بيان المعفيين من الجهاد لعذرهم عنه، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

سابعًا: رضوان الله وبشرياته لأصحاب الشجرة، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ

وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ١٨ : ٢٣].

ثامنًا: بيان حكمة الله في كف المؤمنين عن أعدائهم هذا العام؛ لأمر يراه، وهو أعظم مما يرون، وهو فتح مكة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٤- ٢٨].

تاسعًا: بيان الصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر وتفردها بسمتها الخاصة والتنويه بها في الكتب السابقة؛ التوراة، والإنجيل، وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم، قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

هذه هي المحاور التي تدور حولها السورة.

سبب تسميتها بهذا الاسم، وفضلها:

سميت السورة بسورة الفتح؛ لأن الله تعالى بشر المؤمنين بالفتح المبين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

فضل هذه السورة ومنزلتها:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب < قال: ((كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات، فلم يرد عليَّ. قال: فقلت لنفسي: ثكلتك أمك يا ابنَ الخطاب؛ نظرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك. قال: فركبت راحلتي فتقدمت؛ مخافةَ أن يكون نزل فيّ شيء. قال: فإذا أنا بمنادٍ: يا عمر، قال: فرجعتُ وأنا أظن أنه نزل فيّ شيء. قال: فقال النبي ﷺ: نزلت عليَّ البارحة سورة هي أحبُّ إلي من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾)) [الفتح: ١، ٢].

٢- تفسير الآيات من رقم (١) إلى (٣):

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١- ٣].

معاني المفردات:

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ الفتح: إزالة الأغلاق عن شيء، وفتح البلد المقصود به الظفر ووقوعه تحت سيطرة الفتح، والصلح الذي كان مع المشركين في الحديبية كان مسدودًا متعذرًا حتى فتحه الله ﷻ.

قوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ الغفر: هو الستر، أي: ستر ما بين النبي ﷺ والذنب، فلا يحدث منه، أو ستر ما بين غيره ﷺ وبين العقوبات، فالأول هو اللائق بمقام النبي ﷺ والمراد بالذنب هنا بالنسبة له ﷺ ما كان خلاف الأولى فهو من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

أو المراد بالغفران: الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها فلا يصدر منه ﷺ ذنب؛ لأنَّ غفران الذنوب معناه سترها وتغطيتها وإزالتها.

الإعراب:

قوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ اللام لام الصيرورة، أي: أنَّ الله جعل هذا الفتح علامة لغفران الله لرسوله ﷺ.

البلاغة:

نجد الطباق بين قوله: ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾ و﴿ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ وهذا من شأنه أن يزيد المعنى وضوحًا.

ما المراد بالفتح في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾؟

المراد بالفتح هنا صلح الحديبية؛ فإنَّه حصل بسببه خير جزيل، وآمَن الناس واجتمع بعضهم ببعض وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان.
قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا مجمع بن يعقوب، قال: سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن يزيد الأنصاري، عن عمه مجمع بن جارية الأنصاري، وكان أحدَ القراء الذين قرءوا القرآن، قال: ((شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها، إذ الناس ينفرون الأباعر فقال الناس بعضهم لبعض: ما

للناس؟ قالوا: أُوحي إلى رسول الله ﷺ فخرجنا مع الناس نضرب الخيل والإبل للسير، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم -موضع- فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قالوا: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله، وفتح هُو؟ -يعني: صلح الحديبية فتحًا؟- قال: إي، والذي نفس محمد بيده إنه لفتح، فقسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديبية، فقسمها رسول الله ﷺ على ثمانية عشر سهمًا، وكان الجيشُ ألفًا وخمسمائة؛ منهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل -أي: الذي يمشي على رجليه- سهمًا)).

لقد كان ذلك الفتح فتحًا عظيمًا، وكان فتحًا في الدعوة، فالعدد الذي دخل الإسلام في السنتين بين صلح الحديبية وفتح مكة كان أكثر من العدد الذي دخل الإسلام قبل ذلك، فلقد خرج النبي ﷺ إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف، وكان ممن أسلم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وكذلك أَمِنَ المسلمون في تلك المدة شرَّ قريشٍ، فاتجه الرسول ﷺ إلى تخليص الجزيرة العربية من باقي الخطر اليهودي، بعد التخلص من بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خيبر القوية التي تهدد طريق الشام، وقد فتحها الله على المسلمين وغنموا منها غنائمَ ضخمة جعلها الرسول ﷺ فيمن حضر الحديبية دون سواه.

يقول العلماء: لقد كان هناك إلى جانب هذا كله فتح آخر في النفوس والقلوب تصوره بيعة الرضوان التي < ا وعن أصحابها ذلك الرضا الذي وصفه القرآن، ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة، قال

تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ إلى آخر الآيات.

فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه وله دَلالتُه وله آثاره بعد ذلك في التاريخ.

اللطائف في هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قدم: ﴿لَكَ﴾ على المفعول المطلق: ﴿فَتْحًا﴾ للاهتمام بكون ذلك لنفعه ﷺ وقيل: لأن مدار الفائدة في هذا الإخبار العظيم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ نجد أن الله ﷻ أكد هذا الفتح بثلاثة أنواع من المؤكدات وهي: "إنا" والمصدر: ﴿فَتْحًا﴾ والوصف الثالث: ﴿مُّبِينًا﴾ وذلك للمسارعة إلى تبشير المؤمنين بتحقيق هذا الفتح، ولإدخال السرور على قلوبهم بعد تلك الشروط التي اشتمل عليها الصلح، والتي ظنها بعضهم أن فيها إجحافًا للمسلمين، وأسند سبحانه الفعل إلى نون العظمة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ لتفخيم شأن المخبر ﷻ وعلو شأن المخبر عنه وهو الفتح.

قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ﴾ إشارة إلى أن الله هو الذي يتولى أمر رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، وكذلك إشارة إلى أن النصر لا يكون إلا من عند الله ﷻ.

المعنى العام لهذه الآيات:

لقد يسرنا لك أيها الرسول هذا الفتح لإتمام النعمة عليك، وهدايتك إلى الصراط المستقيم، ولنصرك نصرًا عزيزًا، ولما امتن الله على رسوله ﷺ بهذه النعم صدرها بما

هو أعظم وهو المغفرة الشاملة؛ ليجمع له بين عزي الدنيا والآخرة، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ولقد كان ﷺ مع هذه المغفرة من الله تعالى له- أعبدَ الناس لربه، وأشدهم خوفًا منه، وأكثرَهم صلة به.

قال الإمام أحمد: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر، عن ابن قسيط، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه، فقالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال ﷺ: يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟)).

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي: يتم سبحانه نعمه عليك -أيها الرسول- بأن يظهر دعوته ويكتب لها النصر والخلود، ويعطيك من الخصائص والمناقب ما لم يعطه لأحد من الأنبياء، فضلًا عن غيره. وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يهديك ويرشدك، سبحانه بفضله وكرمه، إلى الطريق القويم والدين الحق والأقوال الطيبة والأعمال الصالحة، قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: نصرًا قويًّا منيعًا لا يغلبه غالب، ولا يدفعه دافع؛ لأنه من خالقك الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: إكرام الله لنبيه ﷺ حيث: منحه من الخير والفضل ما لم يمنحه لأحد سواه.

ثانيًا: فرح الرسول ﷺ بالفتح المبين، وفرحه بالمغفرة الشاملة، وبالنعمة التامة، وفرحه بالهداية إلى صراط الله المستقيم، وفرحه بالنصر العزيز الكريم.

ثالثًا: من خصائصه ﷺ: أن الله سبحانه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ فهذه الخاصة لا يشاركه فيها غيره، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ وهو -صلوات الله وسلامه عليه- في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله -تعالى- وأشدهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه، قال حين بَركت به الناقة: ((حبسها حابس الفيل))، ثم قال: ((والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم شيئًا يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها)) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

رابعًا: عفو رسول الله ﷺ عن قومه كان سببًا في عزه عند الله وكذلك تواضعه ﷺ عن أبي هريرة < أن رسول الله ﷺ قال: ((وما زادا لله عبدًا بعفو إلا عز، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)).

خامسًا: المعاملة مع الناس ينبغي أن تكون لله وليست لأحد من البشر، عن عمر بن الخطاب < قال: "ما عاقبت أحدًا عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه".

٣. تفسير الآيتين (٤، ٥):

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٤، ٥].

المناسبة:

بعد أن بين الله سبحانه في الآيات السابقة نعمة الله على الرسول ﷺ بهذا الفتح المبين، ذكر بعد ذلك نعمته على المؤمنين بالفتح، بإنزال السكينة على قلوبهم وما ادخره لهم في الآخرة من غفران وفوز ونعيم، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ ﴾ السكينة: الطمأنينة والثبات من السكون، والمراد بإنزالها، يعني: خلقها وإيجادها، وفي التعبير عن ذلك بالإنزال إيماء إلى علو شأنها قوله تعالى: ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي: يقينًا مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفوس عليها.

قوله: ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ أي: يغطيها ولا يظهرها.

الإعراب:

قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ إلى آخره اللام متعلقة بمحذوف، أي: أمر بالجهاد: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أو لفتحنا، يعني: فتحنا لك هذا الفتح المبين: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

قولـه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ اسـم الإشـارة راجـع إلى مـا ذكـر مـن الإدخـال والـتكفير في قولـه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ جملة معترضة بين جزاء المنافقين وجزاء المشركين.

قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حال من: ﴿فَوۡزًا﴾؛ لأنه صفة له في الأصل، فلما تقدم عليه صار حالًا أي: حالًا كائنًا في علم الله وقضائه.

المعنى العام لهاتين الآيتين:

لقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى، وتفور بانفعالات متنوعة، كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام، ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت أو عن زيارة البيت في هذا العام بعد الإحرام، وبعد إشعار الهَدي وتقليده، كان هذا أمرًا شاقًّا على نفوسهم، ما في ذلك ريب، حتى قد بلغ الأمر بعمر بن الخطاب < أنه أتى النبي ﷺ وقال له: ألست نبي الله حقًّا؟ قال: بلى، قال عمر: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال الرسول ﷺ: بلى، قال عمر: فلِمَ نُعط الدنية في ديننا إذن؟ قال رسول الله ﷺ: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، قال عمر: أَوَلست كنت تحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟. قال عمر: لا، قال الرسول ﷺ: فإنك آتيه ومطوف به.

قال عمر: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقًّا؟ قال: بلى، قال عمر: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعط الدنية في ديننا إذن؟ قال أبو بكر لعمر: أيها الرجل، إنه رسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به".

فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب، وكان المؤمنون ضيقي الصدور لشروط قريش الأخرى من رَد مَن يسلم ويأتي محمدًا ﷺ بغير إذن وليه، وكذلك كان المؤمنون ضيقي الصدور من حمية أهل الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحمن، وفي رد صفة رسول الله ﷺ.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، عن ثابت، عن أنس: "أن قريشًا صالحوا النبي ﷺ فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم؟ ولكن اكتب ما نعرف: بسمك اللهم. فقال ﷺ: اكتب: من محمد رسول الله. قال: لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: من محمد بن عبد الله. واشترطوا على النبي ﷺ أن مَن جاء منهم لا نرده عليهم، ومن جاءه منا رددتموه علينا. فقال: يا رسول الله، أتكتب هذا؟ قال: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله".

وكانت حمية لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة، ويبدو هذا في بيعتهم الاجتماعية، ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع، فلم يكن هينًا على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه، ويبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق حتى قالها الرسول ﷺ ثلاثًا.

قال الزهري: قال عمر: "فعملت لذلك أعمالًا، قال: "فلما فرَغَ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا، ثم احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل الرسول ﷺ على زوجه أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج الرسول ﷺ فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بيده ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا حتى كاد بعضهم يقتل بعضهم غمًّا".

لقد كان المؤمنون ضيقي الصدور من شروط قريش لدرجة أنهم تباطئوا في الحلق والنحر حتى قالها الرسول ﷺ ثلاثًا، وهم من هم طاعة لأمر رسول الله ﷺ وامتثالًا.

وهذا عروة بن مسعود الثقفي جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه فقال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره -يعني: سارعوا إلى تنفيذ أمره- وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه؛ تعظيمًا له، ومع ذلك لم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله ﷺ يفعل هذا بنفسه، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزهم القول وثابوا إلى الطاعة، كالذي كان في دهشة المأخوذ، وقد كانوا خرجوا من المدينة بنية العمرة لا ينوون قتالًا ولم يستعدوا له نفسيًّا ولا عمليًّا، ثم فوجئوا بموقف قريش، ومما شاع من قتلها لعثمان وبإرسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة، فلما عزم رسول الله ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيها.

ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجئة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له، وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات وهم ألف وأربعمائة وقريش في دارهم ومِن خلفهم الأعراب والمشركون.

من هذا كله نستطيع أن ندرك معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: هو -سبحانه بفضله ورحمته- الذي أنزل السكينة والطمأنينة والثبات في قلوب المؤمنين؛ فانشرحت صدورهم لهذا الصلح بعد أن ضاقت في أول الأمر، والطمأنينة: درجة بعد الحمية والحماسة، فيها الثقة التي لا تقلق وفيها الرضا المطمئن باليقين، ولما كان الله تعالى يعلم من قلوب المؤمنين يومئذٍ أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان والحمية الإيمانية، لا لأنفسهم، فقد تفضل عليهم بهذه السكينة: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي: أوجد السكينة وخلقها في قلوبهم؛ ليزدادوا يقينًا على يقينهم، وتصديقًا إلى صدقهم، وثباتًا على ثباتهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢] وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها أن الإيمان يزيد وينقص، قال الألوسي: قال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل؛ أما العقل: فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين في الفسوق والمعاصي مساويًا لإيمان الأنبياء، واللازم باطل فكذا الملزوم، وأما الدليل الثاني النقلي: فلكثرة النصوص في هذا المعنى، ومنها الآية التي معنا وأمثالها، ومنها ما روي عن ابن

عمر قال: ((قلنا: يا رسول الله، إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال: نعم، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخله النار)) وقال الإمام النووي، وغيره من العلماء: إن الإيمان -بمعنى: التصديق القلبي- يزيد وينقص أيضًا بكثرة النظر ووضوح الأدلة.

ولهذا كان إيمان الصديق أقوى من إيمان غيره، وبعد أن تفضل الله عليه بهذه السكينة: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يلوح الله بأن النصر والغلبة لم يكن عسيرًا ولا بعيدًا؛ بل كان هينًا يسيرًا على الله لو اقتضت حكمته يومئذٍ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون، فإن لله جنودًا لا تحصى ولا تغلب، تدرك النصر وتحقق الغلبة على الكافرين وقتما يشاء، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: ولله تعالى وحده جنود السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس؛ إذ الكل تحت قهره وسلطانه، فهو سبحانه الذي يدبر أمرهم كيف يشاء، ويدفع بعضهم لبعض، كما تقتضي حكمته وإرادته، وهو تعالى العليم بكل شيء، الحكيم في جميع أفعاله، وعن العلم والحكمة أنزل الله السكنية في قلوب المؤمنين؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم.

قال تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها خلودًا أبديًّا، ويكفر عنهم سيئاتهم التي فعلوها في دُنياهم، بأن يغفرها لهم ويزيلها عنهم، بل يحولها إلى حسنات لمن شاء منهم بفضله وكرمه وكان ذلك الإدخال للمؤمنين الجنة وتكفير سيئاتهم عند الله فوزًا عظيمًا، لا يقدر قدره؛ لأنه نهاية آمال المؤمنين وأقصى ما يتمناه العقلاء المخلصون.

ونلاحظ في الآية أن الله قدم إدخال المؤمنين الجنة على تكفير سيئاتهم مع أن الأمر بالعكس -أي: تكفير السيئات- ثم إدخال الجنات، هذا التقديم للمصارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى والمقصد الأسمى، ولا شك أنه المطلب الأعلى، والمقصد الأسمى للمؤمنين هو أن يدخلهم الله الجنة، وإذا كان هذا في حساب الله فوزًا عظيمًا فهو في حقيقته فوز عظيم في نفوس مَن ينالونه من عند الله مقدرًا بتقديره، موزونًا بميزانه.

ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم، وكانوا قد تطلعوا -بعدما سمعوا افتتاح السورة، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله ﷺ إلى نصيبهم هم وسألوا عنه، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضا والفرح واليقين، حيث قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

المعاني المستفادة:

أولًا: رحمة الله بالمؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، حيث كان المؤمنون في أشد الحاجة إلى هذه السكينة لتطمئن قلوبهم إلى ما يبلغهم به رسول الله ﷺ عن ربهم من إنزال السكينة في قلوبهم؛ ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، واطمئنانًا على اطمئنانهم.

ثانيًا: الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالسيئات، فكل واحد من المؤمنين إيمانه ليس كإيمان الآخر، بل هناك تفاوت، فأحدهم يزيد عن الآخر، مثلًا: أبو بكر الصديق < حيث أخبر رسول الله ﷺ عن إيمانه بقوله ﷺ: ((لو وضع إيمان هذه الأمة في كِفة وإيمان أبي بكر في كفة، لرجح إيمان أبي بكر)) فمعنى هذا أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالسيئات.

ثالثًا: نصر المؤمنين أَمْرٌ هين يسير على الله لو اقتضت حكمته يومئذٍ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون. إذن نصر الله متحقق وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين.

رابعًا: فرح المؤمنين بما أفاض الله عليهم من نعيم.

٤ـ تفسير الآيتين (٦ ، ٧):

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٦ ، ٧].

المناسبة:

بعد أن بيّن الله ﷻ حال المؤمنين، والفوز العظيم لهم عنده ﷻ أنبأ المؤمنين بجانبٍ آخر من جوانب حكمته فيما قدر في هذا الحادث -أي: صلح الحديبية- وهو مجازاة المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات بما يصدر عنهم من عملٍ وتصرف، فقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ إلى آخر الآيتين.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: ظنُّ الأمر الفاسد المذموم، وهو أنَّه ﷻ لا ينصر رسوله ﷺ والمؤمنين، وقيل: المراد ما يعم ذلك وسائل ظنونهم الفاسدة من الشرك أو غيره. قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الدائرة: عبارة عن الخط المحيط بالمركز، ثُمَّ استُعملت في الحادثة المحيطة بمن وقعت عليه، والجامع الإحاطة في كلٍّ.

الإعراب:

قوله: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ معطوفٌ على: "يُدخل"، وفي تقديم: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ على: ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ دَلالةٌ على أنهم أشد منهم عذابًا، وأحقُّ منهم بما وعدهم الله به. قوله: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ إما من إضافة الموصوف لصفته على مذهب الكوفيين، أو أن: ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف، أي: ظن الأمر السوء، فحذف المضاف إليه وأقيمت صفته مقامه.

قوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ كان الظاهر أن يكون العطف بالفاء في قوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ كان الظاهر أن يكون العطف بالفاء لكنه عدل عنه بالواو؛ للإشارة إلى أن كلًّا من الأمرين مستقل في الوعيد به من غير اعتبار للسببية فيه.

القراءات:

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ بفتح السين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بضمها يعني: "السُّوء".

البلاغة:

هناك مقابلة في الآية الخامسة من قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ﴾.

اللطائف:

ختم الله الآية الرابعة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وفي الآية السابعة بقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، فلماذا اختلف الختم في كلٍّ من الآيتين؟ وهل هناك تَكرار؟

الجواب: الحقيقة ليس هناك تكرار؛ لأن الآية الرابعة: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ المراد منها: أنه ﷻ المدبر لأمر المخلوقات بمقتضى حكمته؛ فلذلك ختمت الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أما في الآية السابعة أُريد به التهديد؛ لأن المشركين في قبضة يد المنتقم، ولذلك زيلت الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وقيل: إن الجنود جنود رحمة، وجنود عذاب، فالآية الأولى المقصود بالجنود فيها جنود الرحمة، والآية الثانية المقصود بالجنود فيها جنود العذاب، وبذلك ينتفي القول بالتكرار في الآيتين.

المعنى العام:

يعذب الله المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، يعذبهم الله في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام، وقهر المخالفين له، وبما يصابون به من القهر، والقتل، والأسر.

أما عذاب الآخرة للمنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، فيكون بعذاب جهنم، ثُمَّ وصف الله الفريقين فقال: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو ظنهم أن النبي ﷺ سيُغلب من المشركين، وأن كلمة الكفر تعلو كلمة الإسلام، ومما

ظنه ما حكاه الله عنه بقوله: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [الفتح: ١٢].

قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ﴾ أي: أن العذاب والهلاك الذي يتوقعونه للمؤمنين واقعان عليهم نازلان بهم، وليس عليهم دائرة السوء فقط، بل وفضلًا عن ذلك فقد غضب الله عليهم، وطردهم من رحمته، وأعد لهم في الآخرة نارَ جهنم، وساءت هذه النار نصيرًا لهم، ولله تعالى وحده جنود السموات والأرض، وكان سبحانه وما زال غالبًا على كلِّ شيءٍ، حكيمًا في كل أوامره ونواهيه، وفي كل تصرفاته وأفعاله، وكان الله تعالى ولا يزال عزيزًا -أي: غالبًا لا يُغلب- حكيمًا يضع الأشياء في مواضعها.

المعاني المستفادة:

أولًا: النفاق صفةٌ مرذولة لا تقل عن الشرك سوءًا، بل إنَّها أحط، لأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين، والمشركات، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه.

ثانيًا: إن قلب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات سيئ الظن بالله، أما قلب المؤمن فهو حسن الظن بالله يتوقع منه الخير دائمًا يتوقع منه الخير في السراء والضراء، ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين، وسر ذلك أن قلبه موصولٌ بالله، وفيض الخير من الله لا ينقطع أبدًا، فمتى اتصل القلب لمس هذه الحقيقة الأصيلة، وأحسها إحساس مباشرة وتذوق.

فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله، ومن ثَمَّ لا يحسنون تلك الحقيقة ولا يجدونها فيسوء ظنهم بالله، وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون

عليها أحكامَهم، ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا على غير ثقةٍ بقَدَرِ الله وقدرته، وتدبيره الخفي اللطيف.

ثالثًا: الله سبحانه هو الغالب على كلِّ شيءٍ، الحكيم في كلِّ أوامره ونواهيه، وفي كلِّ تصرفاته وأفعاله، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

٥- تفسير الآيات من رقم (٨) إلى (١٠):

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٨ - ١٠].

المناسبة:

بعد أن بيّن سبحانه في الآية السابقة ملكيته لكلِّ شيءٍ ذكر بعد ذلك الوظيفة التي كلف بها رسوله ﷺ وبشر المؤمنين الذين وفوا بعهودهم بالأجر العظيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من التبشير، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا عِلم له بهذا الأمر.

قوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ من الإنذار، وهو الإخبار بالأمر المخيف.

قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ من التعزير بمعنى النُّصرة مع التعظيم والتفخيم.

قوله: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعظموه وتقدروه. قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح بمعنى التنزيه تقول: سبحت الله تعالى أي: نزهته عمّا لا يليق به.

قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البكرة: أول النهار، والأصيل: آخره، والمراد: ظاهرهما، أو جميع أوقات النهار كما يقال: شرقًا وغربًا لجميع الجهات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ من المبايعة أو من البيعة بمعنى المعاهدة أو العهد، وسُميت المعاهدة مبايعة لاشتمال كلٍّ واحدةٍ منهما على معنى المبادلة، وعلى وجوب الصدق والوفاء. قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي: فَمَن نقض العهد بعد إبرامه وتوثيقه فإنما عاقبة نقضه يعود وبالها وشؤمها عليه، فقوله: ﴿نَّكَثَ﴾ مأخوذٌ من النِّكث بكسر النون، وهو فك الخيوط المغزولة بعد غزلها.

قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ مذهب السلف في هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات: أنه يجب الإيمان بها، وتفويض علم معناها المراد منها إلى الله تعالى، وترك تأويلها مع تنزيهه تعالى عن حقيقتها لاستحالة مشابهته تعالى بالحوادث كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

القراءة والإعراب:

قرأ الجمهور: ﴿لِّتُؤْمِنُوا﴾ بالفوقية، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: "لِيُؤْمِنُوا" بالتحتية، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته، وعلى

القراءة الثانية يكون المراد: المبشَرين والمنذَرين، وانتصاب: ﴿شَٰهِدًا﴾ و﴿وَمُبَشِّرًا﴾ على الحال المقدرة، والخلاف بين القراءة في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ كالخلاف في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟﴾ يعني فيه قراءة بالتاء وهي قراءة الجمهور، وفيه قراءة بالياء: "لِيُعَزِّرُوهُ ويُوَقِّرُوهُ ويُسَبِّحُوهُ" وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. وقيل: الضميران في الفعلين: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للنبي ﷺ وهنا وقف تام، ثُمَّ يبتدأ بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الله ﷻ قيل: والضمائر الثلاثة في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ كلها راجعة إلى الله تعالى، فيكون معنى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء. قوله: "وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ" هذه قراءة الجمهور بكسر الهاء، وقرأ حفص بضم الهاء يعني: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ وهذه قراءة حفص توصلًا إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المُشعِر به الكلام.

البلاغة:

هناك طباق بين قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، و﴿وَنَذِيرًا﴾، وهناك طباق بين: ﴿نَّكَثَ﴾ و﴿أَوْفَىٰ﴾ فهذا طباقٌ بين اللفظين. أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ في هذه الجملة استعارة تصريحية، تبعية، ومكنية، وتخيلية، ومشاكلة، فالتبعية في الفعل، وهو: ﴿يُبَايِعُونَ﴾؛ وذلك لأن المبايعة معناها مبادلة المال بالمال، فشبه المعاهدة على دفع الأنفس في سبيل الله؛ طلبًا لمرضاة الله بدفع السلع في نظير الأموال، واستُعير المشبه به للمشبه، واشتق من البيع: ﴿يُبَايِعُونَ﴾ بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، والاستعارة المكنية في لفظ الجلالة؛ وذلك لأن المعاهدين إذا كان هناك ثالث يضع

قوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ من الإنذار، وهو الإخبار بالأمر المخيف.

قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ من التعزير بمعنى النُّصرة مع التعظيم والتفخيم.

قوله: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعظموه وتقدروه. قوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من التسبيح بمعنى التنزيه تقول: سبحت الله تعالى أي: نزهته عمّا لا يليق به.

قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البكرة: أول النهار، والأصيل: آخره، والمراد: ظاهرهما، أو جميع أوقات النهار كما يقال: شرقًا وغربًا لجميع الجهات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ من المبايعة أو من البيعة بمعنى المعاهدة أو العهد، وسُميت المعاهدة مبايعة لاشتمال كلٍّ واحدةٍ منهما على معنى المبادلة، وعلى وجوب الصدق والوفاء. قوله: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي: فَمَن نقض العهد بعد إبرامه وتوثيقه فإنما عاقبة نقضه يعود وبالها وشؤمها عليه، فقوله: ﴿نَّكَثَ﴾ مأخوذٌ من النِّكث بكسر النون، وهو فك الخيوط المغزولة بعد غزلها.

قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ مذهب السلف في هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات: أنه يجب الإيمان بها، وترك تأويلها مع تنزيهه تعالى عن التمثيل؛ لأنه ﷻ لا ند له ولا شبيه ولا مثيل له كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

القراءة والإعراب:

قرأ الجمهور: ﴿لِّتُؤْمِنُوا﴾ بالفوقية، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: "لِيُؤْمِنُوا" بالتحتية، فعلى القراءة الأولى يكون الخطاب لرسول الله ﷺ ولأمته، وعلى

القراءة الثانية يكون المراد: المبشَرين والمنذَرين، وانتصاب: ﴿شَٰهِدًا﴾ و﴿وَمُبَشِّرًا﴾ على الحال المقدرة، والخلاف بين القراءة في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ كالخلاف في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ يعني فيه قراءة بالتاء وهي قراءة الجمهور، وفيه قراءة بالياء: "لِيُعَزِّرُوهُ ويُوَقِّرُوهُ ويُسَبِّحُوهُ" وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. وقيل: الضميران في الفعلين: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ للنبي ﷺ وهنا وقف تام، ثُمَّ يبتدأ بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الله ﷻ قيل: والضمائر الثلاثة في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ كلها راجعة إلى الله تعالى، فيكون معنى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تثبتون له التوحيد وتنفون عنه الشركاء. قوله: "وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ" هذه قراءة الجمهور بكسر الهاء، وقرأ حفص بضم الهاء يعني: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ وهذه قراءة حفص توصلًا إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المُشعِر به الكلام.

البلاغة:

هناك طباق بين قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، و﴿وَنَذِيرًا﴾، وهناك طباق بين: ﴿نَّكَثَ﴾ و﴿أَوْفَىٰ﴾ فهذا طباقٌ بين اللفظين. أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ في هذه الجملة استعارة تصريحية، تبعية، ومكنية، وتخيلية؛ فالتبعية في الفعل، وهو: ﴿يُبَايِعُونَ﴾؛ وذلك لأن المبايعة معناها مبادلة المال بالمال، فشبه المعاهدة على دفع الأنفس في سبيل الله؛ طلبًا لمرضاة الله بدفع السلع في نظير الأموال، واستُعير المشبه به للمشبه، واشتق من البيع:

﴿يُبَايِعُونَ﴾ بمعنى يعاهدون على دفع أنفسهم في سبيل الله، والاستعارة المكنية في لفظ الجلالة؛ وذلك لأن المعاهدين إذا كان هناك ثالث يضع يده فوق أيديهما ليحفظهما فشبه إطلاع الله ومجازاته على فعلهم بملك وضع يده على يد أميره ورعيته، وطوى ذكر المشبه، ورمز له بشيءٍ من لوازمه وهو اليد.

المعنى العام:

إنا أرسلناك أيها الرسول إلى الناس لتكون شاهدًا لمن آمن منهم بالإيمان، ولمن كفر منهم بالكفر بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغًا تامًّا كاملًا، ولتكون مبشرًا للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم، ونذيرًا للكافرين والعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم، لتكون على رأس المؤمنين بما أرسلناك به، وليتبعك في ذلك أصحابك، ومَن سيأتي بعدهم بأن يؤمنوا بالله ورسوله إيمانًا حقًّا، ولينصروك ويعظموك وليسبحوا الله تعالى في الصباح والمساء.

ثُمَّ مدح سبحانه الذين عاهدوا الرسول ﷺ ووفوا بعهودهم أكملَ وفاء، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: إن الذين يبايعونك أيها الرسول على الموت أو على عدم الفرار عند لقاء المشركين إنما يبايعون ويعاهدون الله - تعالى على ذلك- قبل أن يبايعوك أنت؛ لأن المقصود من هذه البيعة إنما هو طاعته سبحانه وامتثال أمره كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

نقول: نثبت لله يدًا، ونؤمن بهذا، ونصدق به، ولا نسأل كيف، ولا نعطل.

أهل الحديبية هم أهل الجنة:

عن جابر: ((أن عبدًا لحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكو حاطبًا، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: كذبت لا يدخلها، فإنه قد شهد بدرًا والحديبية)) انتهى.

ولهذا قال تعالى في الثناء على الذين شاهدوا وشهدوا الحديبية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، كما قال في آية أخرى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

المعاني المستفادة:

أولًا: الرسول ﷺ شاهدٌ على هذه البشرية التي أُرسل إليها يشهد أنه بلغها ما أُمر به، وأنها استقبلته بما اسقبلت، وأنه كان منها المؤمنون، ومنها الكافرون، ومنها المنافقون، وكان منها المصلحون، ومنها المفسدون، فيؤدي الشهادة كما أدى الرسالة ﷺ.

ثانيًا: وظيفة الرسول ﷺ التبشير بالخير والرضا، وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين، والإنذار بسوء المنقلب والغضب واللعنة والعقاب للكافرين، والمنافقين، والعصاة، والمفسدين.

ثالثًا: الغاية المرجوة للمؤمنين من الرسالة أنها الإيمان بالله ورسوله، ثُمَّ النهوض بتكاليف الإيمان، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته، ويوقرونه في نفوسهم بالشعور بجلاله، وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفي النهار في البكور والأصيل.

رابعًا: تأكيد الوفاء بحقِّ البيعة بيانٌ أنهم يبايعون الله.

خامسًا: الناكث هو الخاسر؛ لأنَّه يتعرض لغضب الله وعقابه.

سادسًا: إن الله يحب الوفاء ويحب الأوفياء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح من الآية: ١٠].

أسئلة حول الآيات من (٨) إلى (١٠):

- ما الحكمة في جعله ﷺ شاهدًا مع أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء؟

الحكمة في ذلك إظهار العدل الإلهي للناس في صورةٍ جليلةٍ واضحةٍ، وتكريمٌ للنبي ﷺ بهذه الشهادة.

- لِمَ جمع سبحانه من كونه ﷺ مبشرًا ونذيرًا؟

لأن من الناس من ينفعه الترغيب في الثواب، ومنهم من لا يزجره إلا التخويف من العقاب.

- ما المراد من المبايعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؟

المراد بهذه المبايعة ما كان من المؤمنين في صلح الحديبية عندما عاهدوا الرسول ﷺ على الثبات، وعلى مناجزة المشركين بعدما أشيع أنهم قتلوا عثمان >.

- ما المقصود بقوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؟

المقصود بذلك تأكيد وجوب الوفاء بما عاهدوا الرسول ﷺ من الثبات، وعدم الفرار، والطاعة له في كلِّ ما يأمرهم به.

- ما دلالة قوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؟

زيادة في تأكيد وجوب الوفاء.

٦- تفسير الآيات من رقم: (١١) إلى الآية (١٦):

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١١ - ١٦].

المناسبة:

بعد أن ذكر الله موقف المؤمنين الصادقين في بيعة الشجرة، قص الله الأعذار التي تعلل بها المخلفون من الأعراب من الخروج مع رسول الله ﷺ فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ إلى آخر الآيات.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾: ﴿ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ جمع مُخَلّف، وهو المتروك في مكانٍ خلف الخارجين من بلدٍ كالنساء والصبيان، فإنهم في العادة لا يخرجون مع الرجال للجهاد، وعبّر عنه بالمُخَلّفين على سبيل الذم

لهم، و﴿ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ اسم جنس لبدو العرب، واحده أعرابي، والأنثى أعرابي، والمقصود بهم هنا سكان البادية من قبائل غِفار، ومُزينة، وجُهينة، و أشجع، وأسلم، والدّيل، وكان الرسول ﷺ قد دعاهم إلى الخروج معه إلى مكة ليساعدوه على إقناع قريش في الإذن بدخول مكة للطواف بالبيت الحرام، ولكنهم اعتذروا.

قوله: ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ البور من بار، كالهالك من هلك بناءً ومعنى؛ ولذلك وصف به الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، ويجوز أن يكون جمع بائر -يعني: بور جمع لـ"بائر"-.

قوله: ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أي: اتركونا ودعونا.

الإعراب:

اللام في قوله: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ اللام للعهد، والمراد بهم السابقون الذين وصفوا أنهم من الأعراب.

قوله: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ بل تفيد الإضراب.

قوله: ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَآ ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾: ﴿ بَلْ ﴾ للإضراب، والفرق بين الإضرابين -كما يقول الزمخشري- أن الأول إضراب معناه: رد أن يكون حكم الله ألا يتبعهم وإثبات الحسد، والثاني إضرابٌ عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم منهم، وهو الجهل وقلة الفقه.

قوله: ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أَوْ للتنويع والحصر، وجملة: ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ مستأنفة للتعليل.

البلاغة:

قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ الاستفهام للإنكار والنفي.

قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ بين ضرًّا ونفعًا طباق.

اللطائف:

قال تعالى في هذه الآية: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وفي سورة "المائدة": ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ١٧] بدون لفظ: ﴿لَكُمْ﴾ لماذا؟

الجواب: لأن آية الفتح مع قومٍ مخاطبين بذلك فناسب التأكيد والتخصيص لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ أما آية المائدة فهي عامة لا تختص بقومٍ؛ ولذلك قال: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٨] دون أن يذكر أو يثبت لفظة: ﴿لَكُمْ﴾.

المعنى العام للآيات:

سيقول المخلفون لك -أيها الرسول: إننا ما تخلفنا عنك باختيارنا، ولكن انشغالنا بحفظ ورعاية أموالنا، ونسائنا، وأولادنا الصغار حال بيننا وبين الخروج معك إلى الحديبية، وما دام الأمر كذلك فاستغفر لنا الله لكي يغفر لنا ذنوبنا التي وقعنا فيها بسبب هذا التخلف الذي لم يكن عن تكاسلٍ أو معصيةٍ لك، ولما كان قولهم هذا هو قولهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ لم يكن صحيحًا؛ فقد رد الله تعالى بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ليسوا صادقين فيما يقولون، والحق أنَّهم يقولون قولًا من أطراف ألسنتهم دون أن تأيده قلوبهم، فإن السبب الحقيقي لعدم خروجهم معك هو ضعف إيمانهم، ومرض قلوبهم، وتذبذب نفوسهم.

ثُمَّ أمر الله تعالى أن يجابههم بقوله: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المُخَلّفين من الأعراب لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم قضاء الله إن أراد بكم ما يضركم من قتلٍ أو هزيمةٍ، أو إن أراد بكم ما ينفعكم من نصرٍ أو غنيمةٍ، لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم قضاء الله في الضر أو النفع أو النصر أو الغنيمة؛ لأن قضاء الله لا دافعَ له كما قال سبحانه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ١].

ثُـمَّ أضـرب سـبحانه عـن ذلـك، وقـال: ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أي: إن تخلفكم ليس سببه ما زعمتم، بل الحقُّ أن تخلفكم كان بسبب ضعف إيمانكم، والله تعالى مُطلعٌ على أحوالكم إطلاعًا تامًّا، وسيجازيكم بما تستحقون.

ثُمَّ أكد سبحانه كذبهم بإضرابٍ آخر عن أقوالهم، فقال تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم -أيها المخلفون- من أموالكم وأولادكم التي شغلتكم عن الخروج مع رسولكم ﷺ ولكن الحق أنكم ظننتم أن العدو سيستأصل شأفة المؤمنين بالقتل والإهلاك، وأنهم لن يعودوا بعد ذلك إلى أهليهم أبدًا، زين الشيطان هذا الظن الفاسد في قلوبكم، ومكنه من نفوسكم؛ فقبعتم في دياركم، وظننتم في كلِّ ما يتعلق بالرسول ﷺ وبأتباعه الصادقين الظن الذي كله سوء، وشر، ومنكر، وكنتم في علم الله وحكمه، أو من هذه الفاسدين لا تصلحون لشيءٍ من الخير، ولا تستحقون إلا الخزي والعقاب.

فأنت ترى أن الله تعالى قدم هؤلاء المخلفين وفضحهم وتوعدهم بسوء المصير، لأسبابٍ متعددةٍ: منها: سوء ظنهم بالله ﷻ وبرسوله ﷺ فقد توهموا أن الرسول والمؤمنين سيُقتلون على يد أعدائهم، وأنهم لن يعودوا إلى أهلهم أبدًا، ومنها: اعتذارهم الكاذب بانشغالهم بأهليهم وأموالهم، ومنها: تعمدهم الكذب، وتفوههم بالكلام الذي لا تؤيده قلوبهم.

ثُـمَّ خـتم سـبحانه هـذا الـذم والتهديـد للمُخَلّفـين بقولـه: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ أي: ومن لم يؤمن بالله تعالى إيمانًا حقًّا، ويصدق الرسول ﷺ في كلِّ ما جاء به من عند ربه، ويطيعه في كلِّ ما أمر به أو نهى عنه، عاقبناه عقابًا شديدًا، فإنا قد هيأنا للكافرين نارًا مسعرة تحرق الأبدان، وتشوي الوجوه.

ثم بيّن سبحانه أنه هو المالك لكلِّ شيءٍ، فقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ خلقًا وتصرفًا يغفر لمن يشاء أن يغفر له، ويعذب مَن يشاء أن يعذبه، ونلاحظ أن بين كلمتي: ﴿ يَغْفِرُ ﴾ و﴿ وَيُعَذِّبُ ﴾ طباقًا، وكان سبحانه وما زال غفورًا -أي: واسع المغفرة- رحيمًا -أي: واسع الرحمة.

ثُمَّ عادت السورة الكريمة إلى حكاية أقوال المنافقين، وإلى الرد عليهم، وذلك في قولـه تعـالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ بعـد أن قـال المنـافقون هـذا القـول في قولـه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ ﴾ إلى آخر الآية. المراد بالمُخَلّفُين هنا السابقون الذين وصفوا بأنهم من الأعراب أي: سيقول المُخَلّفُون عن الخروج معك -يا محمد- ولأصحابك إلى مكة -بعد أن خاب ظنهم فرجعتم سالمين إليهم بعد صلح الحديبية-: اتركونا لنسير معكم لنشارككم في جمع الغنائم التي تنالونها من أعدائكم، والمراد بالمغانم هنا مغانم "خيبر" كما عليه عامة المفسرين، و"خيبر" أقرب المغانم التي انطلقوا إليها من الحديبية، وقد كان رجوع النبي ﷺ وأصحابه من صلح الحديبية في ذي الحجة من السنة السادسة، وخروجه إلى "خيبر" في المحرم من السنة السابعة من الهجرة، وقد أصاب المسلمون من "خيبر" غنائم كثيرة، وقد جعلها النبي ﷺ لمن شهد معه صلح الحديبية دون غيرهم.

يريد هؤلاء المُخَلّفُون بقوله تعالى: ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ أن يغيروا حكمَ الله الذي حكم به، وهو أن غنائم "خيبر" خاصةٌ لِمَن شهد صلح الحديبية، أما هؤلاء المُخَلّفُون فلا نصيبَ لهم فيها.

ثُمَّ لقن الله نبيه ﷺ هذا الرد الذي يُخرِسهم: قل -أيها الرسول- لهؤلاء المُخَلّفين على سبيل الإقناط والتيئيس والزجر: لا تتبعونا ونحن متجهون إلى "خيبر" لفتحها، ومثل هذا النهي الصادر مِني قد قالها الله من قبل في رجوعنا من الحديبية، فقد أمرني بمنعكم من الخروج معي إلى "خيبر"، وبحرمانكم من غنائمها؛ عقابًا لكم على معصيتكم لي، وعلى سوء ظنكم بي وبأصحابي.

ثُمَّ حكى سبحانه ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد مجابهتهم بتلك الحقيقة، فقال تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: فسيقولون لك -أيها الرسول- بعد منعك إياهم من الخروج معكم إلى "خيبر"، وبعد أن ذكرتَ لهم حكم الله فيهم سيقولون لك على سبيل السفاهة وسوء الأدب: أنتم أيها المؤمنون تريدون بسبب هذا المنع من الخروج معكم إلى "خيبر"، أن تحسدوننا وتمنعوننا حقًّا في الغنيمة، والله تعالى لم يأمركم بمنعنا، وإنما أنتم الذين فعلتموه؛ حسدًا لنا، وليس الحقُّ كما زعموا، بل الحق أنهم قومٌ دأبهم الحُمق والجهالة، ولا يفقهون من أمور الدين إلا فقهًا قليلًا، لا يُسمن ولا يغني من جوعٍ.

ثُمَّ فتح الله سبحانه أمام هؤلاء المُخَلّفين من الأعراب فتح أمامهم باب التوبة، فأمر النبي ﷺ أن يدعوهم إلى الجهاد معه فإن صدقوا أفلحوا، وإن أعرضوا خسروا، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي: قل -أيها الرسول- لهؤلاء المُخَلّفين من الأعراب عن الخروج معك ستدعون في المستقبل إلى القتال معي لقومٍ أصحاب قوة وشدة في الحرب، فيكون بينكم وبينهم أمران لا ثالثَ لهما: إما القتال لهم، أو الإسلام؛ ولذلك يقول الله: ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾.

لكن من المراد بالقوم الذي وصفهم الله بأنهم أولو بأسٍ شديدٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ؟

لقد اختلف المفسرون في المراد بهؤلاء القوم أولي البأس الشديد، فمنهم مَن قال: فارس والروم، ومنهم من قال: بنو حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب، والذي عليه المحققون من العلماء أن المقصود بهؤلاء القوم: ﴿ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ هم هوازن وثقيف الذين التقى بهم المسلمون في غزوة "حنين" بعد فتح مكة، التي قال الله فيها: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

فالمسلمون في بداية الأمر اغتروا بكثرة عددهم فهجم عليهم هوازن وثقيف، فقد كان هناك عدد كبير من تلك القبائل المتخلفة اشتركت في تلك الغزوة -غزوة "حنين"- حتى لقد بلغ عدد المسلمين فيها ما يقرب من اثني عشر ألفًا، ولأن أهل هوازن وثقيف كانوا يجيدون الرماية والكر والفر، يعني: يعرفون متى يهجمون، ومتى يتقهقرون حتى يخدعوا الخَصم بأنهم منسحبون، ثُمَّ يهجمون عليهم مرةً واحدةً، فالنصر كان بجانب هوازن وثقيف في بداية المعركة، واستطاعوا في أول المعركة -بعد أن اغتر المسلمون بقوتهم- أن يفرقوا بعضَ صفوف المسلمين، لكن المسلمين جمعوا قوتهم بعد ذلك، فأنزل الله ﷻ السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

فقد قام المسلمون بجمع قوتهم بعد الهزيمة في أول المعركة، وانتصروا على هوازن وثقيف، ثُمَّ كانت النتيجة أن انتهت تلك الغزوة بإسلام هوازن وثقيف في نهاية الأمر كما هو معروفٌ في كتب السيرة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما بين المسلمين وبين هوازن وثقيف من قتال في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٧]. نلاحظ في هذه الآيات أن الله ﷻ امتنّ على المسلمين بالنصر وخاصة يوم "حنين"، وبيّن سبب الهزيمة في بادئ الأمر، وهو اغترار المسلمين بقوتهم وكثرتهم، فقال: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾.

ثُمَّ بعد ذلك ذكر الله ﷻ نعمه على المسلمين، فقال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

ثُمَّ بعد ذلك أشار في الآية إلى أن هوازن وثقيف قد أسلموا، وأن هذه الغزوة انتهت بإسلامهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٧].

ثُمَّ بعد ذلك وجه الله الكلام إلى المخالفين عن رسول الله ﷺ فقال: ﴿ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

المعاني المستفادة من هذه الآيات:

أولًا: اعتذار المخلفين من الأعراب عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية، لقولهم: ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ [الفتح: ١١] هذا الاعتذار ليس بعذر؛ لأنهم

يعتذرون بكونهم لهم أموال، فالناس كلهم لهم أهل وأموال، ولو كان هذا اعتذارًا عن تخلفهم لَمَا قام الناس لتكاليف العقيدة، وما نهض أحد قط بها.

ثانيًا: هؤلاء المخلفون من الأعراب: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ حين قالوا للرسول ﷺ: ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾.

ثالثًا: التوقف لا يدفع ضررًا ولا يؤخر نفعًا، وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله، ولا يؤثر في جزائه وفق علمه المحيط.

رابعًا: الله وحده هو الذي يملك المغفرة لمن شاء، وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تفسير الآيات (١٧- ٢٩) من سورة (الفتح)

١- تفسير الآية رقم ١٧:

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

المناسبة:

بعد أن بيّن الله حال المخلفين من الأعراب عن الحديبية بيّن حال أصحاب الأعذار، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

معاني المفردات:

قوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ المراد بالحرج هنا الإثم الذي كان سببًا في التخلف عن الجهاد.

البلاغة:

هناك إطناب بتكرار الحرج في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ هنا إطناب بتكرار لفظ: ﴿ حَرَجٌ ﴾ لتأكيد نفي الإذن عن أصحاب الأعذار.

المعنى العام:

ليس على هؤلاء إثم في التخلف عن الجهاد، أي: ليس على الأعمى ولا على الأعرج وعلى على المريض إثم في التخلف عن الجهاد لما بهم من الأعذار والعاهات المرخصة لهم في التخلف عن الجهاد، ومن يطع الله ورسوله فيما أمر به أو نهى عنه، ندخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومَن يتول عن طاعتهما يعذبه الله ﷻ عذابًا أليمًا لا يقدر قدره.

المعاني المستفادة:

أولًا: الأعمى والأعرج معهما عذر دائم، وهو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد.

ثانيًا: المريض معه عذر موقوت حتى يبرأ.

ثالثًا: من يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه.

رابعًا: مَن يتول عن طاعة الله ورسوله فالعذاب ينتظره.

٢. تفسير الآيات من رقم (١٨) إلى (٢٠):

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٨- ٢٠].

المناسبة:

بعد أن بيّن الله أصحابَ الأعذار، بشّرَ الله المؤمنين الصادقين ببشارات متعددة، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

معاني المفردات:

﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ المقصود بها هي شجرة كانت بالحديبية، وقد جلس ﷺ تحتها ليبايع أصحابه على الموت، أو على عدم الفرار، فبايعوه على ذلك ما عدا بعض المنافقين، وقد كان الناسُ بعد ذلك يترددون على تلك الشجرة، ويصلون تحتها ويدعون الله تعالى، فأمر عمر < بقطعها؛ خشيةَ الافتتان بها.

قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ المراد بالسَّكِينَة: الطمأنينة والأمان. قوله: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: أعطاهم ومنحهم فتحًا قريبًا، لكن ما المقصود بالفتح القريب في هذه الآية؟ هذا الفتح هو فتح خيبر الذي كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين، وقيل: المراد بهذا الفتح فتح مكة، لكن الأول -وهو

فتح خيبر- أرجح ؛ لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب منه ، ولأن المسلمين أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة.

في قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أي : منع أيدي الناس عنكم ، فلا أحد يعتدي عليكم ، ولا أحد يؤذيكم ، والمراد بالصراط المستقيم هو صراطُ الإسلام.

قوله : ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ اسم الإشارة في قوله : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ يعود إلى مغانم خيبر ، كما روَى مجاهد ، وعليه يكون المرادُ بـ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ في قوله : ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ أهل خيبر وحلفاءهم من بني أسد وغطفان حين جاءوا لنصرة يهود خيبر ، فألقى الله الخوفَ في قلوبهم جميعًا.

ويرى بعض المفسرين أن الإشارة في قوله : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ لصلح الحديبية ، وقد روي ذلك عن ابن عباس.

فحينما يعود اسم الإشارة في قوله : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ إلى صلح الحديبية ، يكون المراد بـ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ في قوله : ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ مشركي قريش أي : منعهم من حربكم بأن قذف في قلوبهم الرعب منكم ، لكن الرأي الراجح هو الأول الذي قاله ابن عباس وهو الحديبية ؛ لأن هذا الرأي هو الأقربُ إلى الصواب ؛ لأنه يتسع مع سياق الآيات ؛ ولأنه يؤكد أن صلح الحديبية كان فتحًا ومغنمًا ، كان فتحًا بدليل قول الرسول ﷺ لمن شك في ذلك ، أي : ((والذي نفسي بيده إنه لفتح)) وكان مغنمًا ؛ لأن المسلمين غنموا من ورائه انتشار الدعوة الإسلامية في آفاق الأرض.

قوله : ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اللام هنا متعلقة بمحذوف ، أي : فعل ما فعل من التعجيل والكف ؛ لتكون تلك النعم والبشارات علامات للمؤمنين على رعاية الله تعالى لهم ، ورضاه عنهم.

الإعراب:

اللام في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هي الموطئة للقسم، والمعنى: واللهِ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة.

البلاغة:

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لاستحضار صورة هذه المبايعة، وقوله: ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

المعنى العام:

لقد رضي الله تعالى عن المؤمنين الذين بايعوك -أيها الرسول- تحت الشجرة على الموت من أجل إعلاء كلمة ربهم، وفي هذه الجملة أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان، وهو رضا الله -تعالى- عنه، ودخوله في زمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته سبحانه ورحمتِه.

هنا هذه البيعة استحق عليها هؤلاء المبايعون رضا الله ﷻ الذي لا يعادله شيء، ويستتبع ما لا يكاد يخطر على البال، ويكفي ما ترتب عن هذه البيعة ما أخرجه أحمد عن جابر ومسلم عن أم بشر عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: ((لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة)) وصح برواية الشيخين وغيرهما في أولئك المؤمنين من حديث جابر أنه ﷺ قال لهم: ((أنتم خير أهل الأرض)).

وقد رضي الله عن هؤلاء المؤمنين الذين بايعوك تحت الشجرة -أيها الرسول- حيث علم ما في قلوبهم من الصدق والإخلاص، وإيثار الآخرة على الأولى، فأنزل السكينة والطمأنينة، والأمان عليهم: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ أي: أعطاهم ومنحهم فتحًا قريبًا، وهو فتح خيبر الذي كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين.

إذن هذه الآية بينت رضا الله ﷻ عن المؤمنين حيث بايعوه تحت الشجرة، فعلم ما في قولبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا، هذه بشرى للمؤمنين.

تليها بعد ذلك بشرى أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يعني: أثابكم الله مغانم كثيرة تأخذونها من خيبر، وكان الله تعالى وما زال عزيزًا أي: غالبًا، حكيمًا في كل أفعاله، وأحكامه.

اختلفت أقول المفسرين في المغانم الأخرى هذا، فمنهم مَن يرى أن هذه المغانم التي لم يقدروا عليها، والمقصود بها فتح مكة، ومنهم من يرى أنها فتح خيبر، ومنهم من يرى أنها مغانم هوازن وثقيف، ومنهم من يرى أنها مغانم المسلمين من الفرس والروم.

لكن أرجح هذه الأقوال هو فتح مكة؛ لأنه ترتب على هذا الصلح في الحديبية أن فتحت مكة بعد اثنتين منه، بسبب نقض المشركين له، وقد تم هذا الفتح بدون قتال يذكر، بعد أن حدث ما حدث بين المسلمين وبين مشركي مكة من قتال انتصر فيه المسلمون تارة كغزوة بدر، وانتصر فيه المشركون أخرى كغزوة أحد، فالمسلمون لم يقدروا على دخول مكة إلا في عام الفتح، وبعد أن أحاط الله تعالى بها بقدرته التي لا يغلبها شيء، وبعد أن استعصت على المسلمين زمنًا طويلًا وقد سلمها سبحانه لهم بأقل أنواع القتال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾.

والذي يتأمل في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله تعالى قد بشر المسلمين الذين شهدوا صلح الحديبية ببشارات متعددة؛ بشرهم أولًا: برضاه عنهم، وهذه أسمى بشارة وأعلاها، حيث قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وبشرهم ثانيًا: بتفضله عليهم بمنحهم السكينة والطمأنينة التي تجعلهم في ثبات وأمان، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. وبشرهم ثالثًا: بفتوحات وغنائم منها القريب العاجل، ومنها الآجل المتحقق، الذي يكاد لتحققه أن يشاهدوه بأعينهم؛ لأن الله تعالى وعد به ووعده لا يتخلف، قال تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

فالله ﷻ أعطى لهؤلاء المؤمنين الذين بايعوه تحت الشجرة مغانم كثيرة أخذوها من خيبر؛ لأن خيبرَ كان فيها مغانم كثيرة، حيث قال: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

لقد وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها أيها المؤمنون من أعدائكم في مستقبل أيامكم، وقد صدق الله تعالى وعده معهم، فلقد غنموا بعد ذلك من بلاد فارس والروم وغيرهما، ولقد فعل الله ما فعل من التعجيل والكف؛ لتكون تلك النعم والبشارات علامات للمؤمنين على رعاية الله تعالى لهم ورضاه عنهم، ويهديكم أيها المؤمنون صراطًا مستقيمًا، أي: طريقًا واضحًا قويمًا به تصلون إلى ما تبغونه من عزة وأمان.

إذن هذه الآية بينت أن الله ﷻ وعد المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة مغانم كثيرة لكن الله ﷻ عجّل لهم الفتح في صلح الحديبية، حيث كان فتحًا مغنمًا، وكف أيدي الناس عنهم، وبيّن لهم أن ما فعله الله من التعجيل، وكف أيدي الناس عنهم هو علامة من علامات المؤمنين، وأن الله ﷻ وفقهم إلى الصراط المستقيم.

٣. تفسير الآيات من رقم (٢١) إلى (٢٥):

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢١- ٢٥].

المناسبة:

بعد ذلك بشرهم الله ﷻ بأنهم هم المنصورون؛ لأن سنته قد اقتضت ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٢٢].

البلاغة:

نجد في قوله تعالى: ﴿ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾ كناية عن الهزيمة؛ لأن المنهزم يعطي ظهره لمن انتصر عليه.

المعنى العام:

ولو قاتلكم الذين كفروا وأنتم على تلك الحالة من قوة الإيمان وصدق العهد وإخلاص النية وحسن الاستعداد ومباشرة الأسباب، لولّوا الأدبار أمامكم، ثم لا يجدون وليًّا يعينهم، ولا نصيرًا لنصرهم.

إذن الله ﷻ يبشر المؤمنين الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت الشجرة بالنصر على أعدائهم؛ لأن سنة الله اقتضت ذلك. ثم بعد ذلك يؤكد الله هذا المعنى بقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٣] فهنا كلمة: ﴿ سُنَّةَ ﴾ منصوبة على المصدرية بفعل محذوف، أي: سن الله انتصار أهل الحق على أهل الباطل فهي سنة قديمة، وممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ وهذا زيادة في تثبيت هؤلاء المؤمنين و في إدخال السرور على قلوبهم، فسنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد أيها العابد لسنة الله تعالى تبديلًا أو تغيرًا أو تحويلًا، وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

بعد أن بين الله ﷻ بأن سنة الله اقتضت أن يكون النصر لعباده المؤمنين والهزيمة لهؤلاء الكافرين، ذكّرهم الله ﷻ بنعمة من نعمه التي أنعمها عليهم في رحلتهم هذه التي انتهت بصلح الحديبية، فقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٢٤] والمقصود بقوله تعالى: ﴿ بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ الحديبية وسميت بذلك؛ لأنها قريبة من مكة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: من بعد أن نصركم عليهم، فهذه نعمة من نعم الله ﷻ.

إن الله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أيدي المشركين عنكم، وأيدي المشركين: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فهو الذي منع المشركين بقدرته وحكمته من مهاجمتكم والاعتداء عليكم، ومنعكم من مهاجمتهم وقتالهم في هذا المكان القريب من مكة، وكان ذلك بعد أن نصركم عليهم وجعلكم أعلى منهم بالقوة والحجة والثبات، وكان سبحانه وما زال بما تعملون بصيرًا.

وقد ذكروا في هذا الظفر روايات؛ منها ما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن أنس، قال: ((لما كان يوم الحديبية هبَطَ على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلًا من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم، يريدون غزو رسول الله ﷺ فدعا عليهم، فأخذوا، فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾)).

فالآية الكريمة تذكير من الله تعالى لعباده المؤمنين بجانب من نعمه عليهم، ورحمته بهم، وهو تذكير يتعلق بأمور شاهدوها بأعينهم وعاشوا أحداثها، فحينما يأتي التذكير بالأمور المشاهدة المحسوسة يكون أدعى إلى شكر الله ﷻ فهؤلاء الناس أو كل مؤمن ينبغي أن يشكر الله ﷻ على النعم التي أنعم بها عليهم، ونعم الله كثيرة، ولذلك نجد أن الله ﷻ بعد أن ذكرهم بالنعمة السابقة ذكرهم سبحانه بنعمة أخرى من نعمه عليهم، وكشف لهم عن جانب من حكمته في منع القتال بينهم وبين مشركي مكة وفي هدايتهم إلى هذا الصلح، فقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

المراد بـ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في قوله: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ المراد مشركو قريش الذين منعوا النبي ﷺ من دخول مكة ومن الطواف في البيت الحرام.

قوله: ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾: ﴿ وَٱلْهَدْىَ ﴾ مصدر بمعنى المفعول أي: المهدي، والمقصود به ما يُهدى إلى بيت الله الحرام من الإبل والبقر والغنم؛ ليذبح؛ تقربًا إلى الله تعالى، وكان مع المسلمين في رحلته هذه الذي تم فيها صلح الحديبية ذبح سبعين بدنة، ولفظ: ﴿ وَٱلْهَدْىَ ﴾ قرأه الجمهور بالنصب؛ عطفًا على الضمير المنصوب في قوله: ﴿ وَصَدُّوكُمْ ﴾ وقرأه أبو عمر بالجر عطفًا على: ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ﴾.

قوله: ﴿ مَعْكُوفًا ﴾ أي: محبوس ومنه الاعتكاف في المسجد بمعنى الاحتباس فيه، والتعبير بقوله: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ تصريح بذمهم وتوبيخهم على موقفهم المشين من المؤمنين الذين لم يأتوا إلى مكة لحرب، وإنما أتوا لأداء شعيرة من شعائر الله ﷻ.

الإعراب:

في قوله: ﴿ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا ﴾: ﴿ مَعْكُوفًا ﴾ حال من: ﴿ وَٱلْهَدْىَ ﴾، وقوله: ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ منصوب بنزع الخافض، أي: عن أن يبلغ محله، وهو مكانه الذي يذبح فيه، وهو مِنًى: ﴿ أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾.

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ جواب: ﴿ وَلَوْلَا ﴾ محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، والمراد بالرجال المؤمنين وبالنساء المؤمنات؛ سبعة رجال وامرأتان بمكة، وقوله: ﴿ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ بدل اشتمال لرجال ونساء، والوطء المراد به هنا:

الإهلاك، قوله: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ﴾ المعرة: هي المكروه، ﴿مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المعرة هنا: هي المكروه، والمراد به هنا تعيير الكفار للمؤمنين بقولهم: لقد قتلتم مَن هم على دينكم، واللام في قوله سبحانه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ متعلقة بما يدل عليه جواب لولا المقدر.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ المحِل بالكسر غاية الشيء، وبالفتح: هو الموضع الذي يحله الناس، وكان الهدي سبعين بدنةً، ولكن الله تعالى لفضله جعل ذلك الموضع - وهو الحديبية- له محلًّا، وفي (صحيح مسلم) عن جابر بن عبد الله قال: ((نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة)) أي: الجمل عن سبعة، والبقرة عن سبعة، يعني: يجزئ ذبح البدنة عن سبعة أفراد، ويجزئ ذبح البقرة عن سبعة أفراد.

وفي (صحيح البخاري) عن ابن عمر قال: ((خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بدنة وحلق رأسه)).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

هذا بيان لحكمة الله تعالى في منع الحرب بين الفريقين، أي: لولا كراهة أن تهلكوا أيها المؤمنون أناسًا مؤمنين في مكة بين كفارها، وأنتم لا تعرفونهم فيصيبكم بسبب إهلاكهم مكروه، لولا كل ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة، بل لسلطكم عليهم لكي تقتلوهم، أي: لولا ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة، ولكنه سبحانه كف أيديكم عنهم ليدخل في رحمته بسبب هذا الكف من يشاء من عباده، وعلى رأس هؤلاء العباد المؤمنين والمؤمنات الذين كانوا في مكة، والذين اقتضت رحمته أن يتمم لهم أجورهم بإخراجهم من بين ظهراني الكفار، ويفك أسرهم ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب، كذلك قد شملت رحمته تعالى بعض كفار مكة الذين تركوا بعد ذلك الكفر، ودخلوا في الإسلام كأبي سفيان وغيره من الذين أسلموا بعد فتح مكة أو بعد صلح الحديبية.

قوله سبحانه: ﴿يَشَآءُ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هذا تأكيد لما دل عليه الكلام السابق من أن حكمته تعالى قد اقتضت كف أيدي المؤمنين عن الكافرين؛ رحمةً بالمؤمنين الذين يعيشون في مكة مع هؤلاء الكافرين.

ومعنى: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ﴾ أي: لو تميزوا، أو لو تفرقوا، فالمعنى: لو تميز هؤلاء المؤمنين والمؤمنات الذين يعيشون في مكة عن كفارها، وعرف الكافر من المؤمن، وفارقوهم وخرجوا منها، وانعزلوا عنهم: ﴿لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ تارةً عن طريق إهلاكهم، وتارةً عن طريق إذلالهم وأخذهم أسرى.

وخلاصة معنى هذه الآيات:

أن هؤلاء المشركين الذين منعوا الرسول ﷺ عن الدخول إلى مكة وأداء شعيرة العمرة، هم في ميزان الله واعتباره هم الكافرون حقًّا؛ لأنهم صدقوكم ومنعوكم

أيها المؤمنون عن دخول المسجد الحرام وعن الطواف به ولم يكتفوا بذلك، بل منعوا الهدي من أجل ذبحه على سبيل التقرب به إلى الله تعالى من الوصول إلى محله الذي يذبح فيه في العادة وهو مِنًى.

وهذا هو المقصود من قول الله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

٤. تفسير الآية رقم (٢٦):

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦].

معاني المفردات:

في هذه الآية يبين الله سبحانه ما كان عليه المشركون من جهالات وحماقات استولت على نفوسهم، والظرف في قوله: ﴿ إِذْ جَعَلَ ﴾ منصوب بفعل مقدر، أي: اذكر وقت أن تمسك الكافرون وقيدوا أنفسهم بالحمية الباطلة، وكلمة: ﴿ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ هي الأنفة والتكبر والغرور والتعالي بغير حق.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ أي: اذكر -أيها العاقل- وقتَ أن تمسك الكافرون، وقيدوا أنفسهم بالحمية الباطلة التي هي حمية الملة الجاهلية حيث منعوا المسلمين من دخول مكة، ومن الطواف بالمسجد الحرام، وحيث منعوا الهدي من أن يبلغ محله، وحيث أبَوْا أن يكتب في

الصحيفة التي عقدت بينهم وبين المسلمين: "بسم الله الرحمن الرحيم" أو "محمد رسول الله" ﷺ فهذا كله من حميتهم الجاهلية التي لا أساس لها من علم أو خلق أو دين.

قوله: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هذه الجملة معطوفة على ما قبلها للمقابلة بين حال الفريقين، مقابلة تتجلى فيها رعايته سبحانه للمؤمنين وغضبه على الكافرين.

ومعنى قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيان لحال المؤمنين في مقابل حال الكافرين، أي: هذا هو حال الكافرين؛ فقد رسخت الجهالات في قلوبهم حتى صرفتهم عن الرشد، أما حال المؤمنين: فإنهم قابلوا تصرفات هؤلاء الكافرين بالاحتقار والازدراء ومبايعة رسولهم ﷺ على الموت إذا لزم الأمر ذلك، كانت مكافأة الله لهم أن أنزل الله طمأنينته وسكينته على قلب رسول الله ﷺ وعلى قلوب أصحابه، حيث لم يجعلهم يقابلون سفاهات المشركين بسفاهات مثلها.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: وجعلهم ملتزمين بما تقتضيه كلمة التقوى -وهي شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله- من أناة وسكون وثبات ووقار وخلق كريم، وإخلاص في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله.

قوله: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: وكان المؤمنون أحق بهذه الكلمة من الكفار، وكانوا أهلًا لها دون الكفار؛ لأن المؤمنين استجابوا للحق، أما الكافرون فقد أنفوا منه، وتطاولوا عليه، بمقتضى حميتهم الجاهلية، وكان سبحانه وما زال بكل شيء عليمًا، لا يخفى عليه أمر، ولا يغيب عن علمه شيء.

المعنى العام:

حينما ننظر في هذه الآية الكريمة، وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ حينما نتأمل في هذه الآية الكريمة نرى ألوانًا من المقابلات التي تدل على مدح الله للمؤمنين، وعلى احتقاره للكافرين، فقد عبر سبحانه في جانب الكافرين بكلمة: ﴿ جَعَلَ ﴾ التي تشعر بأن الكافرين قد ألقوا هذه الحمية الجاهلية في قلوبهم إلقاءً بدون تعقل، أو تدبر بينما عبر في جانب المؤمنين بكلمة: ﴿ فَأَنزَلَ ﴾ التي تشعر كأن السكينة كانت في خزائنه تعالى، ثم أنزلها بعد ذلك على قلب رسوله ﷺ وعلى قلوب المؤمنين؛ ليزدادوا إيمانًا على إيمانهم. ونرى الفاعل لـ﴿ جَعَلَ ﴾ هو ﴿ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بينما الفاعل لـ﴿ فَأَنزَلَ ﴾ هو الله ﷻ ونرى المفعول لـ﴿ جَعَلَ ﴾ هو ﴿ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ وهي كلمة مشتعلة منفرة، وقد كررها ﷻ ليزدادَ العقلاءُ نفورًا منها، ونرى المفعول لـ﴿ فَأَنزَلَ ﴾ هو السكينة وهي كلمة فيها ما فيها من الوقار والسكون والثبات والطمأنينة.

ونرى الحمية قد أضيفت إلى الجاهلية، بينما السكينة أضيفت إلى الله تعالى، ونرى أن الله تعالى قد أضاف كل ذلك؛ مدحًا عظيمًا لعباده المؤمنين، حيث ألزمهم كلمة التقوى، وجعلهم أحق بها، وأهلًا لها دون أعدائهم الذين آثروا الغي على الرشد، والباطل على الحق، وفي ذلك من الثناء على المؤمنين والتحقير للكافرين.

٥- تفسير الآية رقم (٢٧) و(٢٨):

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٧، ٢٨].

المناسبة:

ثم أكد الله تعالى صدقَ ما شاهده النبي ﷺ في رؤياه، وبين الحكمة التي من أجلها أرسله إلى الناس كافةً، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

المعنى العام:

لقد رأى رسول الله ﷺ في المنام قبل خروجه إلى الحديبية، أنه هو وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا، فقص الرؤية على أصحابه، ففرحوا واستبشروا وظنوا أنهم سيدخلونها في عامهم هذا، وقالوا: إن رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال بعض المنافقين -على سبيل التشكيك والاعتراض- والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام؛ فنزلت هذه الآية.

وقد روي عن عمر < أنه قال نحو ذلك على سبيل الفَهم والاستكشاف؛ ليزداد يقينًا، والصدق يكون بالقول ويكون بالفعل، وما في الآية صدق بالفعل وهو التحقيق، أي: حقق سبحانه للرسول رؤيته.

الإعراب والمعنى العام:

قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ صفة لمصدر محذوف أي: صدقًا ملتبسًا للحق أو بمحذوف على أنه حال من الرؤية، أي: رؤية ملتبسة بالحق، والمعنى: لقد صدق الله رسوله الرؤيا الصادقة التي لا تتخلف ولا يحوم حولها ريب أو شك، وحقق له ما اشتملت عليه هذه الرؤيا من بشارات سارة وعطايا كريمة على حسب ما اقتضته حكمتنا وإرادتنا.

وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ جواب لقسم محذوف. وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ وما بعده حال من فاعل: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أي: والله لتدخلن -أيها المؤمنون- المسجد الحرام في عامكم المقبل -إن شاء الله- وحالة كونكم آمنين من كل فزع، وحالة كونكم بعضكم يحلق شعر رأسه كله، وبعضكم يكتفي بقص جزء منه، وحالة كونكم لا تخافون أذى المشركين بعد ذلك.

قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه ما فيه من الإشعار بأن الرؤيا مع صدقها، تحقيقها موكول إلى مشيئة الله تعالى، وإلى قدرته لا إلى أحد سواه، وفيه ما فيه من تعليم الناس، وإرشادهم إلى أنهم يجب عليهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه عند إرادتهم لفعل من الأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

قال بعض العلماء: إن الله تعالى استثنى فيما يعلم ليستثني الخلق فيما لا يعلمون، ويرى بعضهم أن الاستثناء هنا لتحقيق الخبر، وتأكيده واستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحلق غير متعين في النسك، بل يجزئ عنه التقصير، إلا أن الحلق أفضل.

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ((اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، والمقصرين؟ قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، والمقصرين؟ قال: اللهم اغفر للمحلقين. قالوا: يا رسول الله، والمقصرين. قال: اللهم اغفر للمحلقين. ثم قال بعد الثالثة: والمقصرين)).

واستدل بهذه الآية أيضًا على أن التقصير للرأس دون اللحية ودون سائر شعر البدن؛ إذ الظاهر أن المراد: ومقصرين شعر رءوسكم.

قوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ تأكيد وتقرير لقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: آمنين عند دخولكم مكة للعمرة، ولا تخافون بعد إتمامها؛ لأن عناية الله تعالى ورعايته معكم.

قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ بيان للحكمة في تأخير دخولهم مكة عام الحديبية وتمكينهم من دخولها في العام الذي يليه، والجملة الكريمة معطوفة على قوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: والله لقد حقق الله تعالى لرسوله رؤياه في دخول مكة، ولكن في الوقت الذي يشاء ويختار وتقتضيه حكمته؛ لأنه تعالى علم ما لم تعلموه أنتم من أن المصلحة في عدم دخولكم مكة في عام صلح الحديبية، وأن هذا الصلح هو خير لكم من دخولها، لِمَا يترتب عليه من منافع كثيرة لكم، وقد جعل سبحانه بفضله وإحسانه من دون ذلك، أي: من قبل دخولكم مكة، وطوافكم بالمسجد الحرام، فتحًا قريبًا هو فتح خيبر، الذي خرجتم منه بالغنائم الوفيرة، أو فتح خيبر ومعه صلح الحديبية الذي قال فيه الزهري: لا فتح في الإسلام كان أعظمَ من صلح الحديبية.

هذا وقد بسط الإمام ابن كثير ما أصابه المسلمون بعد صلح الحديبية من خيرات، فقال ما ملخصه: ورجع الرسول ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من السنة

السادسة، ثم خرج في المحرم من السنة السابعة إلى خيبر، ففتحها الله عليه، فلما كانت في ذي القعدة من السنة السابعة خرج إلى مكة معتمرًا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهَدي، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها، فدخلها وبين يديه أصحابه يلبون، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام ناقة الرسول ﷺ وينشد ويقول:

إلى شهيد أنه رسوله ❖ خلو بني الكفار عن سبيله

وخرج المشركون من مكة؛ لكي لا يروا الرسول ﷺ وأصحابه، أما النساء والأطفال فقد جلسوا على الطرق ينظرون إلى الرسول ﷺ وإلى المؤمنين ومكث الرسول ﷺ وأصحابه بمكة ثلاثة أيام اعتمر خلالها هو وأصحابه، ثم عادوا إلى المدينة، وهكذا تحققت رؤيا رسول الله ﷺ في الوقت الذي أراده سبحانه، ثم بيّن سبحانه الحكمة من إرساله لنبيه محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٨] أي: هو ﷻ وحده الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ إرسالًا ملتبسًا بالهدى، أي: بالدليل الواضح والبرهان الساطع الذي يهدي للطريق التي هي أقوم.

وأرسله ﷺ أيضًا بالدين الحق، وهو دين الإسلام، الذي هو خاتم الرسالات وأكملها، ليظهره على الدين كله، أي: من أجل أن يظهره ويعليه على جميع الرسالات؛ لِمَا فيه من هدايات وعبادات وآداب وأحكام وتشريعات، قد جمعت محاسن الرسالات السابقة التي جاء بها الأنبياء، وأضافت إليها جديدًا اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بهذه الأمة التي أرسل رسوله محمد ﷺ إليها.

وقد بين سبحانه أن دين الإسلام هو المقبول عنده دون سواه، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]

ولقد ظهر هذا الدين فعم المشارق والمغارب وسيبقى -بإذن الله- ظاهرًا على الدين كله، بقوة حجته ونصاعة براهينه، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، والباء في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] مزيدة لتأكيد هذا الإظهار، أي: وكفى بشهادة الله تعالى شهادة على حقيقية هذا الدين، وعلى هذا الإظهار الذي تكفل الله تعالى به لدين الإسلام.

٦- تفسير الآية رقم (٢٩):

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

المناسبة:

ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بهذه الآية التي فيها ما فيها من الثناء على الرسول ﷺ وعلى أصحابه الذين -رضي عنهم وأرضاهم- فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

المفردات، والمعنى العام:

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ وخبر، أو ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ بدل أو عطف بيان من هذا الاسم الشريف، أي: هذا الرسول الذي أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق هو محمد رسول الله ﷺ.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ هم أصحابه وعلى رأسهم من شهد معه صلح الحديبية وبايعه تحت الشجرة، من صفاتهم أنهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: غِلاظ عليهم، وأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أنهم مع إخوانهم المؤمنين يتوادون ويتعاطفون ويتعاونون على البر والتقوى، وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ فيه أسمى التكريم للرسول ﷺ حيث شهد له سبحانه بهذه الصفة وكفى بشهادته ﷻ وحيث قدم الحديث عنه؛ لأنه أرسله بالهدى، ودين الحق.

ثم أخر اسمه الشريف على سبيل التنويه بفضله، والتشويق إلى اسمه، وفي وصف أصحابه بأنهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ مدح عظيم لهم وجمع بين الوصفين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ على سبيل الاحتراس، فهم ليسوا أشداء مطلقًا ولا رحماء مطلقًا، وإنما الشدة في موضعها والرحمة أيضًا في موضعها، فشدتهم على أعدائهم، ورحمتهم بين إخوانهم المؤمنين، فهم يتوادون ويتعاطفون ويتحابون مع إخوانهم في العقيدة، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. قال الزمخشري: عن الحسن أنه قال: بلغ من تشددهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم، ويتحرزون من أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ مِن تراحمهم فيما بينهم أن الواحدَ منهم كان لا يرى مؤمنًا إلا صافحه،

وأسمى من هذا كله في بيان تراحمهم قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ثم وصفهم الله بوصف آخر بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: تراهم وتشاهدهم أيها المؤمن راكعين، ساجدين محافظين على الصلاة، ولا يريدون من وراء ذلك إلا التقرب إلى الله تعالى، والظفر برضاه وثوابه، ثم وصفهم بوصف ثالث فقال: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: علامتهم، وهو نور يجعله الله تعالى في وجوههم يوم القيامة، وحسن سمت يعلو وجوههم وجباههم في الدنيا من أثر كثرة سجودهم، وطاعتهم لله رب العالمين، فالمقصود بهذه الجملة بيان أن الوضاعة والإشراق والصفاء يعلو وجوههم من كثرة الصلاة والعبادة لله، وليس المقصود أن هناك علامة معينة كالنكتة التي تكون في الوجه، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان واختار سبحانه لفظ السجود في قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾؛ لأنه يمثل أعلى درجات العبودية والإخلاص لله تعالى.

قال الألوسي: أخرج ابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب، قال: ((قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ هو النور يوم القيامة)). ثم قال الألوسي: ولا يبعد أن يكون النور علامة على وجوههم في الدنيا والآخرة بالآثار السابقة، لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم خصه النبي ﷺ بالذكر.

واسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ يعود إلى جميع أوصافهم الجليلة السابقة، والمثل هو الصفة العجيبة والقصة ذات الشأن، أي:

ذلك الذي ذكرناه عن هؤلاء المؤمنين الصادقين من صفات كريمة تجري مجرى الأمثال، صفتهم في التوراة التي أنزلها الله على نبيه موسى # .

ثم بين سبحانه صفتهم في الإنجيل، فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ معطوف على ما قبله، وهو: ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه عيسى # .

والشطء: فروع الزرع، وهو ما خرج منها وتفرع على شاطئيه، أي: جانبيه.

قوله: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: فقوت تلك الفروع أصولها وآزرتها وجعلتها مكينة ثابتة في الأرض، ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى # : ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٩- ٣٢].

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: فسار الزرع غليظًا بعد أن كان رقيقًا. وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: فاستقام وتكامل على سيقانه التي يعلو عليها، وقوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب الخبراء بالزراعة لقوته وحسن هيئته. والمعنى: أن صفة المؤمنين في الإنجيل أنهم كالزرع يظهر في أول أمره رقيقًا ضعيفًا متفرقًا، ثم ينبت بعضه حول بعض ويغلظ ويتكامل؛ حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة العارفين بها، فكذلك النبي ﷺ وأصحابه؛ كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوةً حتى بلغوا مبلغًا عظيمًا.

وعلى هذا التفسير الذي سِرنا عليه يكون وصفهم في التوراة هو المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ويكون وصفهم في الإنجيل هو المعبر عنه بقوله سبحانه: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ إلى آخر الآية، ولا شك أن هذه

الأوصاف كانت موجودة في الكتابين قبل أن يحرفَا ويبدلا، بل بعض هذه الأوصاف موجودة في الكتابين حتى بعد تحريفهما.

ويرى بعض المفسرين: أن المذكور في التوراة والإنجيل شيء واحد، وهو الوصف المذكور إلى نهاية قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ وعلى هذا الرأي يكون الوقف تامًّا على هذه الجملة وما بعدها وهو قوله: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فيكون كلامًا مستأنفًا.

قال القرطبي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ قال الفراء: فيه وجهان إن شئتَ قلت: المعنى ذلك مثله في التوراة وفي الإنجيل أيضًا كمثلهم في القرآن، فيكون الوقف على الإنجيل. وإن شئت قلت: تمام الكلام: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ والحقيقة أن المثلين أحدهما مذكور في التوراة والآخر في الإنجيل هو الرأي الراجح؛ لأن ظاهر الآية يشهد له.

وفي هذه الصفات ما فيها من رسم صورة مشرقة مضيئة لهؤلاء المؤمنين الصادقين، وقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ تعليل لما يعرب عنه الكلام من إيجاده تعالى لهم على هذه الصفات الكريمة، أي: جعلهم سبحانه كذلك، بأن وفقهم لأن يكونوا أشداءَ على الكفار، وأن يكونوا رحماء فيما بينهم، ولأن يكونوا مواظبين على أداء الطاعات؛ لكي يغيظ بهم الكفار، فيعشوا وفي قلوبهم حسرة مما يرونه من صفات سامية للمؤمنين.

ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بهذا الوعد الجميل، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

المعنى العام:

"من" في قوله: ﴿مِنْهُم﴾ الراجح أنها للبيان والتفسير، أي: وعد الله تعالى بفضله وإحسانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم أهل بيعة الرضوان ومَن كان على شاكلتهم في قوة الإيمان وعدهم جميعًا مغفرة لذنوبهم وأجرًا عظيمًا لا يعلم مقداره إلا الله ﷻ ويجوز أن تكون "من" في قوله: ﴿مِنْهُم﴾ للتبعيض؛ لكي يخرج من هؤلاء الموعدين بالمغفرة والأجر العظيم أولئك الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر، وهم المنافقون الذين أبوا مبايعة رسول الله ﷺ وأبوا الخروج معه للجهاد، والذين من صفاتهم أنهم كانوا: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها وجوب احترام الصحابة وتوقيرهم والثناء عليهم؛ لأن الله تعالى قد مدحهم ووعدهم بالمغفرة وبالأجر العظيم، قال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

ثم قال الإمام القرطبي -رحمه الله-: قلت: لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله، فمن نقص واحدًا منهم أو طعن عليه في روايته، فقد رد على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين.

وبعد؛ فهذا تفسير لسورة الفتح، تلك السورة التي بشرت الرسول ﷺ وأصحابه بألوان من البشارات العالية، وأدبتهم بأنواع من الآداب السامية، فحينما ننظر إلى قوله سبحانه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ نجد هنا أن الله ذكر الاستثناء قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مع أنه قد سبق في الآية رقم (٢٦) بيان أنه بكل شيء عليم، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

فكان الأصل أن يقال: "لتدخلن المسجد الحرام آمنين" لأنه سبحانه يعرف أنهم داخلوه لكونه بكل شيء عليمًا، فلماذا ذكر الله الاستثناء في هذه الآية؟

هذه آداب سامية يعلمها الله لعباده من خلال سورة الفتح، إن ذلك تعليم لعباده وتأديب لهم في كل أمر سابق، ومستقبل يعزم عليه الإنسان أن يقول: إن شاء الله؛ لأنه لا يدري ماذا سيحدث بعد ذلك.

تفسير الآيات (١ - ٢٥) من سورة (ق)

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : تمهيد، وتفسير الآيات (١ - ١٥) من سورة (ق) ٥٢٩

العنـــصر الثـــاني : تفسير الآيات (١٦ - ٢٥) من سورة (ق) ٥٥٠

تمهيد، وتفسير الآيات (١- ١٥) من سورة (ق)

١ـ نبذة عن سورة "ق":

سورة "ق" هي السورة الخمسون في ترتيب المصحف، وترتيبها في النزول كان بعد سورة "المرسلات" وكان بداية نزول هذه السورة في أوائل العهدِ المكيِّ؛ لأن من يراجع ترتيبَ السورِ على حسبِ النزولِ يرى أنها لم يسبقها سوى اثنتين وثلاثين سورة، ومعظم السور التي سبقتها كانت من الجزء الأخير من القرآن الكريم، سورة "ق" من السورِ المكيةِ الخالصةِ، يعني: ليس فيها آية مدنية واحدة، وعدد آياتها خمس وأربعون آية، وتسمى أيضًا بسورة الباسقات.

بيان فضل السورة، وما اشتملت عليه:

وقد ذكر الإمام ابن كثير في مقدمة تفسيره لهذه السورة جملة من الأحاديث في فضلِهَا، منها: ما رواه مسلم، وأهل السنن، عن أبي واقد الليثي: ((أنَّ رسول الله ﷺ كان يقرأ في يوم العيد بسورة "ق" وبسورة "اقتربت الساعة")) وروى الإمام أحمد، عن أم هشام بنت حارثة قالت: ((ما أخذت "ق والقرآن المجيد" إلَّا عَلَى لِسَان رسول الله ﷺ كان يقرؤها كل يوم جمعة إذا خطب الناس)).

ثم قال ابن كثير: والقصد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار، يعني: في الأماكن التي يجتمع فيها الناس بكثرة، مثل: العيدين، وأيام الجمعة؛ لاشتمال السورة على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيامة والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، من أجل هذا كان رسول الله ﷺ يقرأ بهذه السورة في الأيام التي تجتمع فيها الناس.

والحق: أن المتأمل في هذه السورة الكريمة يراها قد اشتملت على ما ذكره الإمام ابن كثير بأسلوبٍ بليغٍ بديعٍ:

فالسورةُ تبدأ بالثناءِ على القرآنِ الكريمِ؛ حيث يقول الله سبحانه: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

ثم بعد ذلك تذكر السورة دعاوي المشركين، وترد عليهم بما يخرس ألسنتهم، قال تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٢: ٥].

ثم بعد ذلك توبخ السورة المشركين على عدم تفكرهم في أحوالهم، هذا الكون الزاخر بالآيات والكائنات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٦: ١١].

ثم تذكر السورة أيضًا المشركين بسوءِ عاقبةِ المكذبين من قبلِهم، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمود، وقوم فرعون وأخوان لوط، وأصحاب الأيكة، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٢: ١٥].

ثم بعد ذلك تذكر السورة المشركين بعلمِ اللهِ الشاملِ لكلِّ شيءٍ، وبسكرات الموت وما يتبعها من بعث وحساب وثواب وعقاب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا

ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ١٦ : ٢٢].

ثم بعد ذلك تذكِّر السورة بموقف المشركين يوم القيامة، وتبين حسرتهم على ما كان منهم من أعمالٍ سيئةٍ في الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٢٣ : ٣٠].

ثم بعد ذلك تُبَيِّنُ السورةَ حالَ الْمُتَّقِين يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣١ : ٣٥].

ثم بعد ذلك تذكِّر السورة المشركين بأن من قبلهم من الكافرين كانوا أشد منهم بطشًا وقوة، ومع هذا أهلكهم الله ﷻ فلستم يا كفار قريش بأشدَّ منهم، وهذا إنذارٌ من الله ﷻ للمشركين قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

ثم بعد ذلك تذكر السورة المشركين بأن الخالق هو الله ﷻ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

ثم تختم السورةُ الكريمةُ بتسليةِ الرسول ﷺ عما أصابه من قومه وترشده إلى العلاجِ الذي يعينه على مداومةِ الصبر كما تحكي للنبي ﷺ أحوال المشركين يوم القيامة ليزداد يقينًا على يقينهم، وتأمره السورة بالمواظبة على تبليغ المشركين بما أمره الله تعالى بتبليغه، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٣٩: ٤٥]

وهكذا تطوف بنا السورةُ الكريمةُ في أعماقِ هذا الكون، وفي أعماق النفس الإنسانية؛ منذ ولادتها إلى بَعْثِهَا إلى حسابها إلى جزائها، وذلك كله بأسلوبٍ مؤثرٍ بديعٍ يشهدُ بأنَّ هَذَا القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا..

٢- تفسير الآية الأولى:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾.

سورة "ق" من السور القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التهجي، وأقرب الأقوال إلى الصواب في معنى هذه الحروف: أنها جيء بها على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن، فكأنَّ اللهَ تعالى يقول لهؤلاء المعارضين في أن القرآن من عند الله: هاكم القرآن ترونه مؤلفًا من كلامٍ هو من جنسِ ما تؤلِّفُون

منه كلامَكُم، ومنظومًا من حروفٍ هي من جنسِ الحروفِ الهجائيةِ التي تنظمون منها حروفكم، فإن كنتم في شكٍّ في كونِ هذا القرآن منزلًا من عندِ اللهِ، فهاتُوا مثله أو عشر سور من مثلِهِ أو سورة واحدة من مثله. فعجزوا وانقلبوا خاسرين، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ﷻ هذا الرأي هو بعض آراء الخلف في تفسير هذه الحروف المقطعة، وكما نعلم: أن لهم أقوالًا كثيرة، لكنَّ القول الذي ذكرناه هو أقرب الأقوال إلى الصواب في معنى هذه الحروف.

أما السلف: فلهم رأيٌ آخرُ وهو: أن هذه الحروف المقطعة هي من المتشابهات الذي لا يعلم حقيقية معناها إلا الله ﷻ.

لكن هناك بعض الآراء في تفسير كلمة "ق" هي من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، فيجب أن ننتبه إلى أن هذا الكلام من الإسرائيليات، قال ابن كثير: وقد روي عن بعض الناس أنهم قالوا: "ق" جبل محيط بالأرض يقال له: جبل قاف، وكأن هذا -والله أعلم- من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس. انتهى كلام ابن كثير.

الإعراب:

الواو في قوله: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ للقسم، والمقسم به القرآن الكريم، وجواب القسم محذوف لدلالة ما بعده عليه، وهو استبعادهم لبعثة الرسول ﷺ وتكذيبهم للبعث والحساب.

وقوله: ﴿ ٱلْمَجِيدِ ﴾ صفة للقرآن، أي: أنَّ القرآنَ هو صاحبُ المجدِ والشرف وكثرة الخير، ولفظ "المجيد" مأخوذ من المجد بمعنى: السعة والكرم، وأصله من مجدت الإبل وأمجدت: إذا وقعت في مرعى خصب واسع الجنبات كثير الأعشاب.

المعنى العام:

﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ أقسم بالقرآن ذي المجد والشرف، وذي الخير الوفير الذي يجد فيه كلُّ طالبٍ مقصوده: إنك -أيها الرسول- لصادق فيما تُبَلِّغُهُ عن ربك من أن البعث حق والحساب حق والجزاء حق، ولكنَّ الجاحدين لم يؤمنوا بذلك فجواب القسم -كما علمنا- هو أنه لتبعثن ولتحاسبن يوم القيامة.

٣. تفسير الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ "بل" هنا للإضراب الانتقالي، يعني: انتقل من جملةٍ إلى جملةٍ، يعني: القرآن حق والبعث حق؛ لكنَّ المشركين عجبوا أن جاءهم منذر منهم، وهو أنت -أيها الرسول- فلم يؤمنوا بك بل قابلوا دعوتك بالإنكار والتعجب، وقالوا: ﴿ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ أي: هذا البعث الذي تخبرنا عنه -يا محمد- شيء يتعجب منه وتقف دونه أفهامنا حائرة. قال الألوسي: قوله: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ "بل" للإضراب عما ينبأ عنه، جواب القسم المحذوف، فكأنه قيل: إنا أنزلنا هذا القرآن لتنذر به الناس، فلم يؤمنوا به بل تعجبوا من أنه بَيَّنَ لهم أنهم سيبعثون ويحاسبون.

﴿ أَن جَآءَهُم ﴾ "أن" هنا للتعليل، أي: عجبوا بسبب أن جاءهم منذر منهم، و﴿ مِّنۡهُمۡ ﴾ أي: من جنسهم، وضمير الجمع في قوله: ﴿ مِّنۡهُمۡ ﴾ يعود إلى الكفار، وقول الله تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴾ تفسير لتعجبهم.

يلاحظ هنا أن الله ﷻ لم يظهر كلمة الكافرين حينما قال: ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾ لم يقل: بل عجب الكافرون أن جاءهم منذر منهم، لكنه أتى

بالضمير، وقال: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ثم بعد ذلك أظهره مرةً ثانية حينما قال: ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ وأخبر بالإضمار عنهم أولًا، ثم بالإظهار عنهم ثانيًا؛ للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم، أي: لم يعجب من أن جاء لهم منذر منهم إلا الكافرون، ولذلك أخبر بالإضمار وقال: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ثم أظهر مرةً ثانيةً فقال: ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ والإظهار هذا لتسجيل الكفر عليهم.

٤- تفسير الآيتين (٣، ٤):

قال تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ علاقة هذه الجملة بما قبلها تقريرٌ للتعجب، وتأكيد للإنكارِ الصادرِ عنهم، أي: أنهم تعجبوا من مجيء منذر منهم وهو الرسول ﷺ وتعجبوا من قوله: أنهم سيبعثون ويحاسبون، فينكرون البعث تمامًا ويستبعدونه بقولهم: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ فهذا الكلام تقرير للتعجب في الآية السابقة، وتأكيدٌ للإنكارِ الصادرِ عَنْهُم.

والعامل في قوله: ﴿ أَءِذَا ﴾ مضمر لدلالة ما بعده عليه، والمعنى: أحين نموت ونصير ترابًا وعظامًا نرجع إلى الحياة مرةً أخرى كما يقول محمد ﷺ وكما يقول القرآن الذي نزل عليه؟! لا، إننا لن نبعث ولن نعود إلى الحياة مرةً أخرى، وما يخبرنا به محمد ﷺ من أن الرجوع إلى الحياة مرةً أخرى حق كلام بعيد عن عقولنا وأفهامنا، فالغرض من الاستفهام في قوله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ للاستبعاد ولإنكار البعث مرة أخرى.

واسم الإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ يعود إلى محلِّ النزاعِ وهو الرجوع إلى الحياة مرة أخرى، والبعث بعد الموت هو الرجوع إلى الحياة مرةً أخرى، والمعنى: ذلك الرجوع إلى الحياة مرة أخرى، بعيدٌ عن الأفهام وعن العادة وعن الإمكان،

هذا هو موقف الكافرين من البعث، وقد حكاه الله عنهم بقوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ هذا هو فهم الكافرين، وهذا هو موقف الكافرين من البعث، وهو أنهم يستبعدون الرجوع إلى الحياةِ مرةً أخرى بعد أن يصيروا ترابًا في الأرض ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾.

وبعد هذا التصوير الأمين لحججهم وأقوالهم ساق سبحانه الردَّ الذي يدفع تلك الحجج والأقوال، فقال سبحانه: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾.

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي: قد علمنا علمًا دقيقًا ما تأكله الأرض من أجسادهم بعد موتهم، ومن علم ذلك لا يعجزه أن يعيدهم إلى الحياة مرةً أخرى، وقوله سبحانه: ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ تأكيد وتقرير لما قبله، أي: وعندنا بجانب علمنا الشامل الدقيق كتابٌ حافظٌ لجميع أحوال العباد مسجلة فيه أقوال وأفعالهم، والمراد بهذا الكتاب اللوح المحفوظ، فمن عنده علمٌ بذلك كله لا يعجزه أن يعيدهم إلى الحياة مرةً أخرى كما قال تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ ثم كشف سبحانه عن حقيقية أحوال الكافرين، وعن الأسباب التي دفعتهم إلى إيثار الحق على الباطل، فقال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾. أي: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بإنكارهم للبعث، بل جاءوا بما هو أشنع وأفظع منه، وهو تكذيبهم لنبوتك -أيها الرسول الكريم- تلك النبوة الثابتة للمعجزات الناصعة، ومن مظاهر هذا التكذيب أنهم تارةً يقولون عنك: ساحر، وتارةً يقولون عنك: كاهن، وتارة يصفونك بالجنون، ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ أي: في أمر فيه اضطراب وفيه اختلاط؛ بحيث لا يستقرون على حالٍ، يقال: مرج الأمر: إذا اختلط وتزعزع، وفَقَدَ الثَّباتَ، والاستقرار والصلاح، ومنه

قوله: مرجت أمانات الناس إذا فسدت وعمتهم الخيانة، ومرج الخاتم في أصبع فلان إذا تخلخل واضطرب بشدة هزال صاحبه.

وفي هذا الرد عليهم من قول الله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ في هذا الرد تصويرٌ بديعٌ معجزٌ؛ حيث بَيَّنَ سبحانه بأنه عليم بما تأكله الأرض من أجسادهم المغيبة فيها، وبتناقص هذه الأجساد رويدًا رويدًا، وأن كل أحوالهم مسجلة في كتاب حفيظ، وأنهم عندما فارقوا الحق الثابت وكذَّبوه مادت الأرض من تحتهم واضطربت، واختلطت عليه الأمور والتبست، فصاروا يلقون التُّهَمَ جُزَافًا دون أن يستقروا على رأي أو يجتمعوا على كلمة، وصدق الله حين قال: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾.

٥- تفسير الآيتين (٥، ٦):

شرعت السورة الكريمة في بيانِ الأدلةِ على قدرةِ اللهِ تعالى، وعلى أن البعث حق وعلى أن استبعادهم له إنما هو لونٌ من جهالتهم، وانطماس بصائرهم؛ فقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ الاستفهام هنا للإنكار، والتعجب من جهلهم، أي: فأعرضوا عن آيات الله في هذا الكون فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها هذا البناء العجيب بأن رفعناها بدون عمد وزيناها بالكواكب وحفظناها من أيِّ تصدعٍ أو تفتقٍ، فقوله تعالى: ﴿فُرُوجٍ ﴾ جمع فرج، وهو الشق بين الشيئين، والمراد: سلامتها من كل عيبٍ وخللٍ، ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٣، ٥].

إنَّ السماء وخلق السماء دليلٌ على قدرة الله ﷻ في هذا الكون فحينما نتأمل قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ ونتأمل قول الله تعالى في سورة لقمان: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان: ١٠] وحينما نتأمل قول الله تعالى في سورة الرعد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الرعد: ٢] نجد أن الله ﷻ بقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض والذي مسك السماء من أن تقع على الأرض إنما هي قدرة الله ﷻ وليس القول القائل بعدم إطباق السماء على الأرض لقيام السماء على عمد؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.

والله ﷻ يقول في سورة الرحمن: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ [الرحمن: ٧] ويقول سبحانه في سورة الحج: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج: ٦٥] إذن: قدرة الله ﷻ هي التي منعت السماء أن تقع على الأرض؛ فالله سبحانه يقول: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾.

ومعروف أن ابتعاد الأجرام السماوية على مسافات عظيمة ومتناسبة طرديًّا مع الكتل نفسها هذا التواجد يشكل أساس توازنها، فكلما تباعدت الأجرام وضعفت قوة جذب كل منها للأخرى وكلما تقاربت كان لكل منها تأثيرًا على الأخرى، تلك حالة القمر فهو لقربه من الأرض يؤثر بقانون الجاذبية على موقع الماء في البحار، ومن هنا تجيء ظاهرة المد والجذر: إنَّ التقارب الشديد بين جرمين سماويين يؤدي لا محالة إلى اصطدامهما أن الخضوع للتوازن هو الشرط الأساسي لعدم وجود اضطرابات.

ومن ثم فالقرآن كثير ما يذكر خضوع السموات لأمر الله؛ يقول الله للنبي ﷺ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦] وقد رأينا كيف

يجب أن نفهم أن السموات السبع تعني: سماوات متعددة، يقول سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٣] ويقول سبحانه: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ [الرحمن: ٥] ويقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗا ﴾ [الأنعام: ٩٦] ويقول سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٣٣] ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩].

٦- تفسير الآيات من رقم (٧) إلى (١١):

قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ بعد أن بين سبحانه قدرته في خلق السماء في الآية السابقة، بين سبحانه في هذه الآية مظاهر قدرته في بسط الأرض فقال سبحانه: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾ أي: بسطناها ومددناها بقدرةٍ، وجعلناها مترامية الأطراف والمناكب كما تشاهدون ذلك بأعينكم، وامتداد الأرض واتساعها لا ينافي كروية الأرض؛ لأن عظم سطح الأرض يجعل الناظر إليها يراها كأنها مسطحة ممدودة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ أي: ألقينا في الأرض جبالًا ثوابت تمنعها من الاضطراب، فقوله: ﴿ رَوَٰسِيَ ﴾ جمع راسية بمعنى: ثابتة، وهو صفةٌ لموصوفٍ محذوف، أي: ألقينا في الأرض جبالًا رواسي.

قوله: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ بمعنى: أنبتنا في الأرض من كلِّ صنفٍ حسن يسر الناظرين إليه، مأخوذ من البهجة بمعنى: الحسن، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج لماذا؟ يقول الله سبحانه: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ فـ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ ﴾ علتان لما تقدم من الكلام، وهما منصوبتان بفعلٍ مقدر، أيَّ: فعلنا من مدِّ الأرضِ، ومن تثبيتها للجبال، ومن إثبات كلِّ صنفٍ حسن من النبات فيها؛

لأجل أن نبصر عبادنا بدلائل وحدانيتنا وقدرتنا، ونذكرهم بما يجب عليهم نحو ربهم ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ بمعنى: أن هذه التبصرة والذكرى كائنة لكل عبدٍ كثير الرجوع إلى ربه بالتدبر في بدائع صنعه ودلائل قدرته.

فالآيات تتحدثُ عن قدرةِ اللهِ ﷻ في خلقه للأرض وتجهيزها للإنسان؛ لكي يستطيع أن ينتفع بها في حياته الدنيوية فيقول الله سبحانه: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾.

فحينما ننظر في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأرض نجد أنها تتوزع في كل القرآن مثلما هو الحال بالنسبة للموضوعات الأخرى فنجد الآيات الكثيرة تتحدث عن الأرض وهذه دعوى للإنسان بأن يتأمل في خلق الله ﷻ، فنجد في سورة البقرة يقول الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] ويقول سبحانه في سورة البقرة أيضًا: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] ويقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣] ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الحجر: ١٩: ٢١] ويقول: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا ﴾ [طه: ٥٣] ويقول

سبحانه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

إنَّ المشار إليه في هذه الآيات هو الاستقرار العام الذي تتسم به القشرة الأرضية، فمن المعروف: أنَّ القشرة السطحية للأرض لم تكن مستقرةً في عصورِهَا الأُولَى قبل أن تبرد، ومع ذلك فليس استقرار القشرة الأرضية مطلقًا بالتدقيق؛ إذ توجد مناطق تحدث بها زلازل بشكلٍ متقطعٍ، أما فيما يَخُصُّ الحاجز بين البحرين، فتلك صورةٌ لتبيين عدم اختلاط مياه الأنهار بماء البحر في بعض كبار مصاب الأنهار، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [تبارك: ١٥] وقال سبحانه في سورة النازعات: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٠: ٣٣].

ثم بعد أن تحدث الله سبحانه عن قدرتِهِ في خَلْقِ الأرض أتبع بذلك الحديث عن قدرته في خلق الماء وفي إنزالِهِ على الأرض لكي يحييها بعد موتها، فقال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: نزلنا من السماء ماءً كثير المنافع والخيرات للناس والدواب والزروع، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين كثيرة ذاخرة للثمار ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: وحب النبات الذي من شأنه أن يحصد عند استوائه كالقمح والشعير وما يشبههما من الزروع فالحصيد بمعنى المحصود، وهو صفة لموصوفٍ محذوفٍ، أي: وحب الزرع الحصيد، فهذا الترتيب من بابِ حذفِ الموصوفِ وإقامة الصفة مقامه للعلم به، وخص الحب بالذكر؛ لاحتياج الناس إليه أكثر من غيره، فصار كأنه المقصود بالبيان.

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ ﴾ ﴿ وَٱلنَّخۡلَ ﴾ معطوف على جنات و﴿ بَاسِقَٰتٖ ﴾ حال من ﴿ وَٱلنَّخۡلَ ﴾ ومعنى باسقات، أي: مرتفعات، والنخل اسم جنس يذكر ويؤنث، ويجمع، وَخَصَّ بالذِّكْرِ -مع أنه من جملة ما اشتملت عليه الجنات- لمزيد فضله وكثرة منافعه، وجملة ﴿ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾ في محل نصب على الحال من ﴿ وَٱلنَّخۡلَ ﴾ ، والطلع: أول ما يخرج من ثمر النخل، والنضيد بمعنى: المنضود، أي: المتراكب بعضه فوق بعض.

قوله: ﴿ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾ ﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ بيان للحكمة من إنزال المطر، وإنبات الزرع؛ ولذلك قال الله: ﴿ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ ﴾ أي: أنبتنا ما أنبتنا من الجنات، ومن النخل الباسقات ليكون ذلك رزقًا نافعًا للعباد.

قوله: ﴿ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا ﴾ أي: أحيينا بذلك المال الذي أنزلناه بلدة كانت أرضها مجدبة، وكانت خالية من النبات والزروع، وتذكير ﴿ مَّيۡتٗا ﴾ لكون البلدة بمعنى المكان، قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ جملة مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث، مثله كمثل هذا الإحياء للأرض التي كانت جدباءَ ميتةً بعد أن كانت تنبت من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، فالله ﷻ جعلها تنبت بعد أن كانت خالية من ذلك، فوجه الشبه بين إحياء الأرض للنبات بعد جدبها وبين إحياء الإنسان بالبعث بعد موته -استواء الجمع في أنه جاء بعد عدم، أي: فَكَمَا أنَّ الله ﷻ أحيا الأرض بعد موتها، وهذا إحياء جاء بعد عدم كذلك يحيى الله الإنسان بعد موته؛ لأنه إحياء أيضًا يجيء بعد عدم.

قال ابن كثير قوله ﴿ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا ﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، وذلك بعد أن كانت لا نبات فيها، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث،

كقوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

وبهذا نرى أن الله ﷻ ذكر خلقه للماء الذي كان سببًا في إحياء الأرض بعد أن كانت ميتًا؛ وسببًا في أن الأرض تنبت الزرع الجميل البهيج، كل هذا بقدرةِ اللهِ ﷻ إذن فالماء الذي أنزله الله من السماء هو ماء مبارك، بمعنى: أنه كثير المنافع والخيرات للناس والدواب والزروع كما بينت الآيات في قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾.

ونحن حينما نقرأ الآيات القرآنية الخاصة بدور المياه في حياةِ الإنسان؛ فإنها تبدوا لنا معبرة عن أفكارٍ واضحةٍ تمامًا؛ والسبب في ذلك بسيط ففي عصرنا نعرف كيف تتم دورةُ الماء في الطبيعة، أما إذا أخذنا في اعتبارنا ما كان عليه مختلف المفاهيم القديمة في هذا الموضوع؛ فإننا ندرك أن المعطيات القرآنية لا تحتوي على عناصرَ نابعةٍ من المفاهيم الأسطوريةِ التي كانت سائدة في ذلك العصر، والتي كانت للتفكير النظري فيها دور أكبر من معطيات الملاحظة، فالقرآن الكريم قد ذكر آيات قرآنية كثيرة عن الماء ففي سورة المؤمنون، نجد قول الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨، ١٩].

ويقول الله ﷻ: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: ٢٢] ويقول سبحانه في سورة فاطر: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩] ويقول الله سبحانه في سورة الروم: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى

ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨] يقول الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ويقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ۝٤٨ لِّنُحۡيِيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥] والرزق المقصود في هذه الآية: هو الماءُ الذي ينزل من السماء كما يشير السياق إلى ذلك.

ويقول سبحانه: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا ﴾ [الرعد: ١٧] ويقول سبحانه: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۢ ﴾ [الملك: ٣٠] ويقول سبحانه في سورة الزمر: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١] ويقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴾ [يس: ٣٤].

تؤكد الآيات الثلاث الأخيرة على أهمية العيون المائية وتموينها بماء المطر الذي يتجه إليها ويقول سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨: ٧٠].

الاستشهاد بأن الله كان يستطيع أن يجعل الماء الطيب بطبيعته مالحًا شديد الملوحة هو طريقة في التعبير عن القدرة الإلهية وطريقة أخرى عن التعبير أخرى في التعبير

عن هذه المقدرة نفسها ، تحد الإنسان أن ينزل الماء من السحاب ، ولكن إذا كانت الطريقة الأولى مجرد قولٍ بديهي ، أفلا تكون الثانية كذلك في العصر الحديث حيث سمحت التكنولوجيا بإطلاق المطر صناعيًّا ، أيمكن معارضة دعوى القرآن بطاقة البشر على إنتاج المطر؟ ليس الأمر كذلك ؛ إذ يبدو أنه لا بد من الأخذِ في الاعتبارِ بحدود إمكانياتِ الإنسانِ في هذا الميدانِ لا يستطيع الإنسانُ إلا أن يعجل بعمليةِ الهطولِ مستعينًا في ذلك بوسائلِ التقنيةِ الملائمةِ على شرط أن تكون الظروف الطبيعية ، لذلك جاهزةً سلفًا.

ولو كان الأمر غير ذلك لما كان الجفاف عمليًّا وهذا غير حادث ، كما هو واضح التحكم في المطر والطقس الجميل ما زال حتى اليوم حلمًا ، لا يستطيعُ الإنسانُ أن يقطع كيفما يشاء الدورة الثابتة التي تضمن حركة المياه في الطبيعة وعلى حسب التكنولوجيا الحديثة.

فيمكن تلخيص هذه الدورة كما يلي : يثير الإشعاع الحراري للشمس تبخر الماء في المحيطات وكل السطوح الأرضية المغطاة أو المشبعة بالماء ، يتصاعد بخار الماء بهذا الشكل نحو الجو ، ويشكل سحبًا عن طريق تكاثفه ، عندئذ تدخل الرياح لتؤدي دورها في نقلِ السحبِ بعد تشكُلِهَا إلى مسافات متنوعة ، وقد تختفي السحب دون أن تعطي مطرًا ، كَمَا يمكن أن تلتقي كتل السحاب مع كتلٍ أخرى ؛ لتعطي بذلك سحبًا ذاتَ كثافةٍ كبرى ، وقد تتجزأ لتعطي مطرًا في مرحلةٍ من تطوُّرِهَا وسرعان ما تتم الدورة بوصول المطر إلى البحار التي تشكل ٧٠٪ من سطح الكرة الأرضية ، أما المطر الذي يصل إلى الأرض فقد يمتص جزئيًّا بواسطةِ النبات مساهمًا بذلك في نموها ، وهذه بدورها تقوم من خلال ترشحها بإعطاء جزء من الماء إلى الجو ، أما الجزء الأخير فإنه يتسلل بمقدار قد يقل أو يكثر إلى التربة ، ليتجه نحو المحيطات عبر

مجاري الماء أو قد يتسرب في التربة ليعود نحو الشبكة السطحية، عن طريق الينابيع أو إلى الأماكن الأخرى التي يخرج منها الماء إلى السطح.

٧. تفسير الآيات من رقم (١٢) إلى (١٥):

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ لا تحزن أيها الرسول لما أصابك من أذى من هؤلاء المشركين الجاحدين المكذبين، لقد سبقهم إلى هذا التجديد والكفر والجحود قوم نوح # فإنهم قالوا في حقه: إنه مجنون كما حكى عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

فإذًا أقوام كثيرة كذبوا رسلهم؛ ولذلك يقول سبحانه في آياتٍ كثيرةٍ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤] فاصبر على ما أصابك: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ولقد كذَّب أيضًا قومُ عادٍ وقومُ فرعونَ وإخوانُ لوطٍ، أي: قوم لوط كذبوا قبل ذلك، وأصحاب الأيكة: هم قوم شعيب -عليهم السلام- كلٌّ هؤلاء كذبوا رسلهم.

فننظر إلى أصحابِ الرسِ، والرس في لغةِ العرب: هي البئر التي لم تُبْنَ بَعْدُ بالحجارَةِ، وقيل: هي البئر مطلقًا، وللمفسرين في حقيقةِ أقوالِ الرسِ أقوال، فمنهم من قال: إنهم من بقايا قبيلةِ ثمودِ بعث الله إليهم واحدًا من أنبيائهم فكذبوه وألقوه في تلك البئر فأهلكهم سبحانه بسبب ذلك، وقيل: هم الذين قتلوا حبيب النجار عندما جاء يدعوهم إلى الدين الحق، وكانت تلك البئر

بأنطاكيا، وبعد قتلهم له ألقوه فيها، وقيل: المراد بأصحاب الرس هم قومُ شعيب # واختار ابن جرير -رحمه الله-: أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذي جاء الحديث عنهم في سورة البروج.

والمراد بثمود، هم قوم صالح الذين كذبوه فأهلكهم الله تعالى، والمراد بعاد هم قوم هود # الذين اغتروا بقوتهم وكذبوا نبيهم؛ فأخذهم سبحانه أخذ عزيزٍ مقتدر، وفرعون هو الذي أرسل الله إليه موسى # فكذبهم، وقال لقومه: أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

قوله: ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ يعني: قوم لوط الذين أتوا بفاحشةٍ لم يسبقوا إليها، لقد وصفَهُم اللهُ بأنَّهُم إخوانه؛ لأنه كانت تربطه به رابطة المصاهرة، فإن امرأته # كانت منهم.

﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب # كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧].

والأيكة: اسم لمنطقةٍ كانت مليئةً بالأشجارِ، ومكانها في الغالب بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة، وكان قوم شعيب يعبدونَ الأوثان، ويطففون في المكيال، فنهاهم شعيب # عن ذلك؛ ولكنهم كذبوه فأهلكهم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تبع الحميري اليماني، وكان مؤمنًا وقومه كفار، وقد أشار القرآن إلى قصتهم في آياتٍ أخرى، منها قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧] والتنوين في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ عوض عن المضاف إليه أي: كل قومٍ من هؤلاء الأقوام السابقين كذبوا رسولهم الذي جاء لهدايتهم.

قوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ بيان لِمَا حَلَّ بهم؛ بسبب تكذيبهم لرسولهم، أي: كل واحد من هؤلاء الأقوام كذبوا رسولهم، فكانت نتيجة ذلك أن نَزَلَ بِهِم وعيدُ اللهِ، وهو العذاب توعدهم به، كما قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. قال ابن كثير: قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذَّب رسولَهُ، فكأنَّما كَذَّبَ جميعَ الرسل.

قوله تعالى: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التجديدِ من العذابِ والنكالِ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك. انتهى.

وبعد هذا العرض لِمَصَارِعِ المكذبين عادت السورة إلى تقريرِ الحقيقةِ التي كفر بها الجاهلون والجاحدون، وهي أن البعث حق، فقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الاستفهام في ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ هذا الاستفهام للإنكار والنفي، قوله: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ من العي بمعنى: العجز فالإنسان العيي هو الذي انقطعت حيلته ولم يهتد إلى طريقة توصله إلى مقصوده.

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ اللبس معناه: الخلط، يقال: لبس على فلان الأمر، إذا اشتبه واختلط عليه ولم يستطع التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزت قدرتنا عن خلقِ هؤلاءِ الكافرين وإيجادهم من العدم حتى يتوهموا أننا عاجزون عن إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم، أفعيينا بالخلق الأول؟

ثم بعد ذلك يقول الله: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: كلا إننا لم نعجز عن شيء في ذلك؛ لأن قدرتنا لا يعجزها شيء، ولكن هؤلاء الكافرين -

لانطماس بصائرهم واستيلاء الشيطان عليهم- قد صاروا في لبسٍ وخلطٍ من أمرهم ؛ بدليل أنهم يقرون بأننا نحن الذين خلقناهم، ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، ومع ذلك فهم ينكرون قدرتنا على الخلق الجديد، أي: على إعادتهم إلى الحياة الدنيا مرة أخرى بعد موتهم، فقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي: بل إن هؤلاء الكافرين في خلطٍ وشكٍ وحيرة من أن يكون هناك خلق جديد، أي: خلق مستأنف لهم بعد موتهم، مع أنهم لو كانوا يعقلون لعلموا أن القادر على الخلق من العدم قادرًا على إعادة هذا المخلوق من باب أولى، كما قال سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]

قال الألوسي: وقوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ عطف على مقدر يدل عليه ما قبله، كأنه قيل: إنهم معترفون بالأول أي: بالخلق الأول، غير منكرين قدرتنا عليه، فلا وجه لإنكارهم الثاني، بل هم في خلطٍ وشبهة في خلقٍ جديد.

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ قال بعض العلماء: في الآية أسئلة ثلاثة: لم عَرَّفَ الخلق الأول؟ في قوله: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ ولِمَ نَكَّرَ اللبسَ في قوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ولِمَ نَكَّرَ الخلقَ الجديد حينما قال: ﴿ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ إذن في الآية الخلق الأول جاء معرفًا، واللبس جاء منكرًا، والخلق الجديد أيضًا جاء منكرًا ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

وللإجابة على ذلك نقول: عرف الخلق الأول للتعميم والتهويل والتفخيم، ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ هذا اللفظ معرف للتعميم والتهويل والتفهيم، ومنه تعريف الذكور في قوله تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ [الشورى: ٤٩] وأما التنكير: فأمره منقسم، فأحيانًا يقصد به التفخيم من حيث ما فيه من الإبهام، وهو المقصود هنا من تنكيرِ لفظِ ﴿ لَبْسٍ ﴾ كأنَّهُ قيل: بل هم في لبسٍ، وهذا اللبس عظيم، هذا اللبسُ مفخم، هذا اللبس كثير، بل هم في لبس كثير، بل هم في لبس عظيم، بل هم في لبس أي لبسٍ. وأحيانًا يقصد به التقليل

والتهوين لأمره، وهو المقصود هنا بقوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ نَكَّرَ ﴿ خَلْقٍ ﴾ هنا؛ للتقليل والتهوين لأمره، بمعنى: أن هذا الخلق الجديد شيءٌ هينٌ بالنسبة إلى الخلق الأول، وإن كان كل شيء هين بالنسبة إلى قدرة الله تعالى.

وبهذه الإجابة عُلِمَ السر في أن هذه الآية فيها تعريف "بالخلق الأول"، وفيها تنكير "لبس"، وفيها تنكير "خلق جديد"، وذلك فيقوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

تفسير الآيات (١٦- ٢٥) من سورة (ق)

١. تفسير الآية رقم (١٦):

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾.

بيان المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها:

لقد بَيَّنَ اللهُ ﷻ في الآية السابقة أن الكافرين في خلطٍ شديدٍ بالنسبةِ لموقِفِهم من البعثِ، قال سبحانَهُ: ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥] ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بين علمِهِ ﷻ علمه الشامل لكل شيء، بين أنه سبحانه يعلم عن الإنسان كل شيء، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾.

نجد أن الله ﷻ أكدَّ الجملةَ بقولِهِ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾ فاللام موطئة للقسم، والله لقد خلقنا الإنسان. وأيضًا "قد" لأن "قد" تفيد التحقيق والتأكيد.

خلق الله ﷻ الإنسان من عدم، يعني: هذا الإنسان جاء عليه وقت لم يكن شيئًا مـــذكورًا: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنـــسان: ١] فـالمراد بالإنـسان في قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ جنس الإنسان، أي: كل بني الإنسان خلقهم الله ﷻ ويعلمُ ما توسوسُ بِهِ نفسُ كـلِّ واحـدٍ مـنهم، ومعنـى ﴿تُوَسۡوِسُ﴾ مـن الوسوسـة، وهـو الـصوت الخفـي، والمراد به: حديث الإنسانِ مع نفسِهِ، أي: أن الله ﷻ يعلـمُ حـديثَ الإنـسانِ مـع نفسِهِ دون أن يشعر به أحد، أو دون أن يسمع به أحد.

أما معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ﴾:

﴿مَا﴾ هنا موصـولة، أي: نعلـم الـذي توسـوس بـه نفسـه، والـضمير في قولـه: ﴿بِهِۦ﴾ عائـدٌ علـى ﴿مَـا﴾ يعـني: يعلـم الله ﷻ مـا توسـوس بـه الـنفس، أي: نفس الإنسان، والبـاء في قولـه: ﴿تُوَسۡوِسُ بِهِۦ﴾ صـلةُ، أي: نعلـم الأمـر الـذي تحدثه نفسه به، ويَصِحُّ أن تكون مـصدرية، والـضمير للإنـسان، والبـاء للتعديـة، أي: نعلم وسوسة نفسه إياه.

والمتدبر في هذه الآية: يجد أن افتتاحها يشير إلى مضمونها؛ لأن التعـبير بـ"خَلَقْنَـا" يـشعر بـالعلم التـام بـأحوالِ المخلـوقِ؛ إذ خـالقُ الـشيء وصـانعه أدرى بتركيـبِ جزئياتِهِ، ما دام الله ﷻ قد خلق الإنسان فهو يعلم كلَّ شـيءٍ عـن هـذا الإنـسان، أي: والله قد خلقنا الإنسان بقدرتنا، ونعلم علمًا تامًّا شاملًا ما تحدثه به نفسه من أفكار وخواطر.

ثم بعد ذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ هذا يؤكد علم الله ﷻ بما يدور في أفكار الإنسان وخواطر الإنسان.

فجملة: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هي تقرير وتوكيد لقوله -سبحانه-: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ وعلاقة قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ هي تقرير وتوكيد لها.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ومعنى ﴿ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾: عِرْقٌ في باطن العنق يَسْرِي فيه الدم؛ ونوع الإضافة في قوله: ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ إضافة هنا بيانية، أي: حبل هو الوريد، الذي هو عرق في باطن العنق يسرى فيه الدم.

قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ أي: بسبب علمنا التام بأحواله كلها؛ فنحن أقرب إليه من أقرب شيء لديه وهو عرق الوريد الذي في باطن عنقه أو أقرب إليه من دمائه التي تسري في عروقه.

المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ بيان أن علم الله تعالى بأحوال الإنسان أقرب إلى هذا الإنسان من أعضائه ومن دمائه التي تسري في تلك الأعضاء، والمقصود بالقرب في قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ المقصود بالقرب هنا: القرب عن طريق العلم، لا القرب في المكان.

نحن قلنا: إن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾ المراد: جنس الإنسان، أي: الناس جميعًا، وهذا ما قاله القرطبي في قوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ ﴾ يعني: الناس.

و"ما" في قوله ﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ ﴿ مَا ﴾ موصولة، أي: ويعلم الله ﷻ ما يختلج في سرِّ الإنسانِ وقلبه وضميره، وفي هذا زجرٌ عن المعاصي التي استخفى بها الإنسان.

قد يظن أنه مستخفٍ من الله ﷻ عند فعل المعصية، لكن الله ﷻ يقول له: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: أن كل ما يأتي في سره وقلبه وضميره الله ﷻ يعلمه؛ فلا داعي لأن تَفْعَلَ المعاصي، وتظن بذلك أنك مستخْفٍ عن اللهِ ﷻ.

يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: إن حبل الوريد معناه: حبل العنق، وهو ممتدٌ من ناحيةِ حلْقِهِ إلى عاتقِهِ، وهُمَا وريْدَانِ عن يمينٍ وشمال، والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه، والإضافة هي إضافة بيانية، أضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين.

والقرطبي يقول أيضًا: إن هذا تمثيل لشدة القرب، أي: ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو من نفسه، وهذا القرب هو قرب العلم والقدرة، وأبعاض الإنسان يحجب البعض البعض، ولا يحجب علم الله ﷻ شيء.

فهذا دليل على شدةِ علمِ اللهِ ﷻ بأحوال الإنسان كلها، وهو أقرب إليه من أقرب شيء لديه، وهو عرق الوريد الذي في باطن عنقه.

وقال القشيري: في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، حينما يعصي الناس الله ﷻ ويعلم أن الله ﷻ يعلم السر ويعلم ما هو أخفى من السر، ففي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقومٍ، وهذه الآية أيضًا روح وأنس وسكون قلبٍ لقوم، هذا معناه: أن الإنسان الذي يعصي الله ﷻ ثم بعد ذلك يعلم بأن الله مُطَّلِعٌ عليه، ففي هذه الآية هيبةٌ وفزعٌ وخوفٌ له، بمعنى: أنه لا يحاول أن يعود إلى المعاصي مرة أخرى؛ لأنه -حينما يعلم- بأن الله ﷻ مطلع عليه يحدث عنده هيبة وفزع وخوف بسبب ما يقدم عليه من معاصي، لكن الإنسان الذي يطيع الله ﷻ ويقوم بالليل والناس نيام، ويتصدق بالصدقة لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ويقضي حوائج الناس دون أن يطلع عليه أحد، لكن الله ﷻ مطلع عليه، وهو يعلم ذلك

كله، ففي قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ أنس وسكون قلبٍ لهذا الشخص الذي يعمل الطاعات.

وعلى هذا التفسير سار عليه جمهور المفسرين، فيكون الضمير في ﴿ وَنَحْنُ ﴾ يعود إلى الله ﷻ وجيء بهذا الضمير بلفظ: ﴿ وَنَحْنُ ﴾ على سبيلِ التعظيم.

ويرى الإمام ابن كثير: أن الضمير في قوله: ﴿ وَنَحْنُ ﴾ يعود إلى الملائكة، فقد قال -رحمه الله: وقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبلِ وريدِهِ إليه، وهو مقبول؛ لأن قرب الملائكة من العبد بإقدار الله لهم على ذلك، إلا أن ما ذهب إليه الجمهور: من أن الضمير في قوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ يعود إلى الله تعالى، هذا أَدَلُّ على قربِ اللهِ لأحوال عباده، وأظهر في معنى الآية، وأزجر للإنسان عن ارتكاب المعاصي.

الإمام ابن كثير لم يقل: بأن الضمير يعود على الله تعالى؛ لئلا يلزم حلول أو اتحاد، هذا ما يراه ابن كثير، وفي الحقيقة: اللفظ لا يقتضيه؛ فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنَّما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾.

إذن: الآية التي معنا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ الآية تدل دلالة صريحة واضحة بأن علم الله ﷻ محيط وشامل بكل أحوال الإنسان، وبكل أفكار الإنسان، وبكل خواطر الإنسان، فعلى هذا الإنسان الذي يفعل المعاصي -وهو يظن أنه مستخف من الله ﷻ لا يجوز له أن يعتقد ذلك؛ لأن الله ﷻ مطلع عليه، وكما قال بعض العلماء: إن هذه الآية تثير الهيبة والفزع والخوف عند العاصين، وتثير الاطمئنان، وسكون القلب عند الطائعين لله ﷻ.

٢- تفسير الآيتين: (١٧ ، ١٨):

قال تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ ﴿ إِذْ ﴾ هنا ظرف منصوب بقوله ﴿ أَقْرَبُ ﴾ أي: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ في الوقت الذي يتلقى فيه المتلقيان، وهما الملكان يتلقيان جميعَ ما يصدرُ عن هذا الإنسان، وهو سبحانه وإن كان في غير حاجةٍ إلى كتابةِ هذين الملكين لما يصدر عن الإنسان إلا أنه تعالى قضى بذلك لحكمٍ متعددةٍ، منها: إقامة الحجة على العبدِ يومَ القيامة، كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣ ، ١٤].

فالله ﷻ ليس في حاجة إلى كتابة هذين الملكين؛ لأن الله ﷻ عليم بكل أحوال الإنسان، لكن الله ﷻ أراد أن يقيم الحجة على العبد يوم القيامة.

فإذا ما وجد الإنسانُ أمامه الكتابَ مكتوبًا، وكل شيء موجود فيه سواء كان خيرًا أو شرًّا؛ فإنه لن يستطيع أن ينكر هذا الأمرَ عَلَى الإطلاقِ، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ نريد أن نعرف مفعول التلقي في الفعل الذي هو ﴿ يَتَلَقَّى ﴾ وهذا المفعول محذوف والتقدير: إذ يتلقى المتلقيان جميعَ ما يَصْدُرُ عن الإنسانِ فيكتبانه عليه، نحن علمنا أن المتلقيين هما الملائكة، فالمتلقيان يتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان، هذا هو المفعول المحذوف.

وقوله: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ هذه الجملة تبين يقظةَ الملكين، وحرصهما على تسجيل كلِّ مَا يصدرُ عن الإنسانِ؛ لأن قعيد بمعنى المقاعد، أي: الملازمُ للإنسانِ كالجليسِ، بمعنى: المجالس، والمعنى عن يمين الإنسان ملك ملازم له لكتابة الحسنات، وعن الشمال كذلك ملك آخر ملازم له لكتابة السيئات.

لكننا نلاحظ هنا أن كلمة ﴿ قَعِيدٌ ﴾ واحدة لكل من اليمين، ومن الشمال، ونجد أن ﴿ قَعِيدٌ ﴾ مذكورة لكلمة ﴿ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ ﴾ ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ وحذف لفظ ﴿ قَعِيدٌ ﴾ من قوله: ﴿ عَنْ الْيَمِينِ ﴾ لم يقل: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد؛ لدلالة الثاني عليه، وهذا معروف في لغة العرب، قال الشاعر:

نَحنُ بما عِندِنا وَأَنتَ بِما ❖ عِندَكَ راضٍ وَالرَأيُ مُختَلِف

نجد أنه حذف كلمة راضون بعد كلمة نحن، يعني كان الطبيعي أن يقول: نحن راضون بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلف، لكنه حذف كلمة راضون من الأول لدلالة الثاني عليه.

فالآية تبين بوضوحٍ بأن هناك ملكًا عن اليمين، وملكًا عن الشمال، الملك الذي عن اليمين يكتب الحسنات، والملك الذي عن الشمال يكتب السيئات.

والآية تبين -بوضوحٍ وبصراحةٍ- يقظةَ الملكين وحرصهما على تسجيلِ كلِّ ما يصدر عن الإنسان، والإنسان سيأتي يوم القيامة وأمامه كتابه بما فيه من حسنات، ومن سيئات؛ لأن ملك الحسنات يكتب كل الحسنات، وملك السيئات يكتب كل السيئات.

ولا حجة للعبد يوم القيامة، ولا يستطيع أن ينكر ما فعله من طاعاتٍ أو من سيئات.

ثم بعد ذلك يؤكد سبحانه كل هذه المعاني السابقة بقوله سبحانه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ يعني: ما يتكلم هذا الإنسان من كلامٍ، وما يفعل من فعلٍ إلا ولديه ملكٌ ﴿ رَقِيبٌ ﴾ أي: حفيظ يكتب أقوالَهُ ﴿ عَتِيدٌ ﴾، أي: مهيأٌ لذلك حاضر عنده لا يفارقه، بعض الناس يظنون بأن هناك ملكًا يسمى برقيب، وهناك ملكًا يسمى بعتيد، وهذا ليس من الصواب في شيء، فإن رقيب وعتيد صفتان للملك، أي: أن الملك الذي يكتب كل ما يصدر عن الإنسان هو ملك

حفيظ رقيب يكتب أقواله، وهو ملك عتيد، أي: مهيأ لذلك حاضر عنده لا يفارقه أبدًا بأيِّ حالٍ من الأحوالِ.

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ والمراد: أن الملكين اللذين أحدهما عن يمينه والثاني عن شماله كلاهما مراقب لأعمال الإنسان حاضر لكتابتها، أي أن كل ملك عن اليمين وعن الشمال فيه هاتان الصفتان، وهو رقيب عتيد، أي: مراقب لأعمال الإنسان حاضر لكتابتها.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠: ١٢].

وشبيه بهذه الآية أيضًا: قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقوله ﷻ: ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩].

لكن نريد أن نعلم: هل الملكان يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض؟

هذه المسألة خلافية بين العلماء، فبعض العلماء يرى: أن الملكين يكتبان كل شيء، حتى الأنين في المرض، ما دليل هؤلاء العلماء؟ يقولون: إن قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ كلمة ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ نكرة وجاءت في سياق النفي، ومعلوم: أن النكرة في سياق النكرة تعم، فمعنى هذا: أن الملكين يكتبان كل شيء.

وبعضهم يرى: أن المَلَكَيْنِ لا يكتبان من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب، وقالوا: إن في الآية نعتًا محذوفًا سوغ حذفه العلم به؛ لأن كلَّ الناسِ يعلمون: أن الأمر الجائزَ لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف: ما يلفظ من قولٍ مستوجب للجزاء إلا ولديه رقيب عتيد.

والنفس تميل إلى الرأي الثاني ؛ لأن الكتابة الغرض منها حصر الأعمال التي يثاب الإنسان عليها أو يعاقب عليها ، وما دام الأمر كذلك فنحن نرى : أن الملكين لا يكتبان من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب ، وإلا سيكون ما يكتبه الملكان خلاف ذلك -أي : ليس فيه ثواب أو عقاب- يكون لغوًا ويكون تضييعًا للوقت لا فائدة فيه.

فالآية التي معنا تقول : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ إذن : قوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ بيان للناس ؛ لأن كل إنسانٍ يمسك على لسانه لا يتكلم إلا بما فيه خير ، وأن الكلام محسوب عليه ، فقد يتكلم الإنسان بكلمة من رضوان الله ﷻ يرفعه بها درجات ، وقد يتكلم بكلمة من سخط الله ﷻ يهوي بها في دركات جهنم.

فعلى الإنسان أن يتنبه ، ويعلم : أن عن اليمين وعن الشمال ملكان يكتبان كل شيء على الإنسان بما فيه الثواب والعقاب.

٣. تفسير الآية رقم (١٩) :

قال تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ .

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ هذا بيان لحالة الإنسان عند الاحتضار ؛ لأن الإنسان دائمًا يغفل عن هذه اللحظة ، يغفل عن ساعة الاحتضار ، ويظن أن العمر ممدود أمامه ، ولا يفكر في الموتِ ولا في ساعةِ الاحتضار ، فأتت الآيةُ لتبين له حالته عند الاحتضار ، فقال سبحانه : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ المعنى : وجاءت لكل إنسان سكرة الموت ، وشدته ، وكربته ، ملتبسة بالحق الذي لا شك فيه ، ولا باطل معه ، هذا أمر حق.

﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ اسم الإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ تعود إلى الموت الذي هو نهاية كل حي، يعني: ذلك الموت ما كنت منه تحيد، الذي كنت منه تحيد، وتحيد، أي: تميل وتهرب، وتفر منه في حياتك، هكذا الإنسان، حينما يلقى شيئًا يؤدي إلى هلاكِهِ يفر، ويخافُ من الموتِ ساعةَ الاحتضار لا يستطيع أن يفرَّ ولا يستطيع أن ينقذه أحد: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ وتحيد: بمعنى تميل وتهرب وتفر منه في حياتك، يقال: حاد فلان عن الشيء يحيد حيدة إذا تنحى عنه وابتعد.

أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن عبد الله مولى الزبير بن العوام قال: لما حضرَ أَبَا بكرٍ الموتُ بكت ابنته عائشة، وتمثلت بقول الشاعر:

إذا حشرجت يومًا وضاق بها ❖ لعمرك ما يغني الحذارُ عن الفتى

فقال لها أبو بكر < لا تقولي ذلك يا ابنتي، ولكن قولي: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ الموت حق، لكنه الحقُّ المرُّ المكروهُ، الإنسان دائمًا ينسى لحظة الموت؛ لأنه يكون منشغلًا بالحياة بالمال بالأولاد بالمناصب بالجاه والسلطان، دائمًا يفكر: ماذا سيفعل غدًا أو بعد غدٍ؟ أو في المستقبل؟ لكنه قَلَّمَا يفكرُ في ساعة الاحتضار، ومَاذَا أَعَدَّ لَهَا؟ وَمَاذَا أَعَدَّ للآخرة؟ وهل هيأ نفسه للجنة أو هيأ نفسه للنار؟

هذه أشياء دائمًا تكون بعيدةً عن فكرِ الإنسانِ؛ ولذلك دائمًا يُذَكِّرُ اللهُ الإنسانَ بهذِهِ اللحظةِ التي كان يخشاها، ويخافها، ويتجنبها، ويحاول أن يهرب منها أو أن يبتعد عن الأماكن التي تؤدي به إلى الهلاك، لكن حينما يأتي انتهاء الأجل لا يستطيع أحد أن يتنحى، أو يهرب، أو يفر من الموت، هذه معجزة نبه عليها القرآن الكريم. ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

هل اعتبر أحد بهذا أو اتعظ؟ وعلم بأن القرآن من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] هل استطاع أحد أن يؤخر الموت أو يقدم الموت لحظة؟ ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أَمْرٌ جَازِمٌ من الخالق ﷻ خالق الكون خالق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

الله ﷻ يريد منا أن نفكر في تلك اللحظة الصعبة، تلك اللحظة الحرجة التي يمر بها كل إنسان، لم يستثن أحد من الموت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] كل هذا يؤكد المعاني التي وردت في قول الله سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ فليحذر الإنسان هذا الموقف، وليستعد له الاستعداد التام؛ ليكون في رضًا من الله ﷻ وليكون في جنته، وليكون في نعيمه، فإن الموت آتٍ لا محالة، وكل إنسانٍ مات فقد قامت قيامته؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] كل إنسان يموت فقد قامت قيامته لأن وجوده في الدنيا قد انتهى.

٤- تفسير الآية (٢٠):

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾.

ينبه الله ﷻ على كل إنسان بأن الدنيا ستنتهي، وأن الدنيا مدتها قصيرة، ولن تدوم لأحد، ولن تبقى لأحد، فالرسل جميعًا تركوا الحياة، ولم يخلدوا في الدنيا، فكل رسول لقي ربه، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ﴾ وإسرافيل # الموكل بنفخ الصور، ونفخ الصور المراد به هنا النفخة الثانية، وهي انتهاء الدنيا فإسرافيل # قد التقم القرن، واستعد

للنفخ فيه إيذانًا بانتهاء الحياة الدنيا، فكيف يطمئن الإنسان إلى هذه الحياة وقد التقم إسرافيل القرن استعدادًا للنفخ فيه إيذانًا بانتهاء هذه الحياة النفخة الأخيرة، حينما ينفخ في الصور يخرج الناس كلهم جميعًا من قبورهم يتحركون بسرعة إلى الحشر إلى الموقف.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ ونلاحظ أن: الفعل جاء مبنيًا للمجهول ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ النافخ في الحقيقة هو الله ﷻ؛ لأنه هو الذي يعطي الأمر لإسرافيل بالنفخ في الصور.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ اسم الإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ يعود إلى الوقت الذي يكون فيه النفخ الأخير في الصور، وهو الوقتُ الذي توعَّدَ الله تعالى فيه كل كافر بسوء المصير، كما وعد كل مؤمن بحسن الجزاء، وهذا عدل من الله ﷻ المحسن يأخذ جزاء إحسانه والمسيء يأخذ جزاء سيئاته وعقاب سيئاته، هذا عدل من الله ﷻ ولذلك كانت الآخرة أمرًا حتميًا تظهر فيها العدالة، ولتكون سببًا لإقبالِ الناسِ على الطاعاتِ وابتعادِهِم عن المَعَاصِي، وإلا لو كانت ليست هناك آخرة لكان الفالح هو العاصي والمسيء؛ لأنه ارتكب في الدنيا ما ارتكبه، ونهب أموال الناس، واغتصب حقوق الآخرين، ومع ذلك تساوى مع المؤمن، مع الطائع، مع المستقيم، لا، الآخرة أمر حتمي لبيان العدل الإلهي، قال تعالى: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

هل يتساوى المؤمن المسلم مع المجرم الكافر؟

لا، فالآخرة أمر حتمي؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾.

وخص ﴿ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ بالذكر ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ و خص الوعيد بالذكر؛ لتهويل هذا اليوم، وتحذير العصاة مما سيكون فيه من هول، ومن فزع، ومن خوف، قال

تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾ [الحج: ١، ٢].

إذن يوم الوعيد هو يوم الهول، يوم الفزع، يوم الخوف، اليوم الذي تغفل فيه المرضعة وقد التقم طفلها ثديها تغفل عنه في تلك اللحظة مع أننا جميعًا نعلم رحمة الأم، وشفقة الأم، لا تستطيع أن تترك ولدها بعيدًا عنها لكنها في هذا اليوم من شدة الفزع من شدة الخوف: ﴿ تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴾.

فالله ﷻ يبين نهاية هذه الدنيا فقال: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ المراد بالنفخة هنا النفخة الأخيرة، التي يكون فيها نهاية الدنيا، الكافر يتلقى جزاءَ إجرامِهِ، والمؤمنُ يأخُذُ جزاءَ حسنَاتِهِ وأعماله الصالحة.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ هذا تنبيه من الله ﷻ لكي يستعد الناس لهذا اليوم لعمل الطاعات والابتعاد عن المعاصي.

إذن الآيات بينت أن الله ﷻ عليم بأحوال الإنسان، وهو أقرب إليه من بعض أعضاء جسده إليه، وبينت الآيات الكريمة بأن هناك ملكين عن اليمين وعن الشمال ملازمان للإنسان في كل أحواله، ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ أي: حفيظ للأعمال التي تصدر عن الإنسان، حاضر ومهيأ لكتابة هذه الأقوال وهذه الأفعال.

ثم بعد ذلك بينت الآيات حالة الإنسان عند احتضاره، وهذا الأمر كان يفر منه في حياته، لكنه حينما جاء أمر الله وقضاء الله ﷻ لا يستطيع إنسان أن يرده بأي

حالٍ من الأحوال، فجاء قول الله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾.

وبين الله ﷻ بأن نهاية هذه الدنيا حينما يأتي النفخ في الصور النفخة الأخيرة، وأن هذا اليوم هو اليوم الذي يتلقى الكافر فيه عقاب عصيانه، والذي يأخذ المؤمن فيه جزاء حسناته وطاعاته.

قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ فلينتبه كل إنسان إلى هذا اليوم، وليتزود بالطاعات؛ حتى يرضى الله ﷻ عنه.

٥ـ تفسير الآيات من (٢١) إلى (٢٥):

قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨] ويقول سبحانه مبينًا النفخة الأخيرة: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس: ٥١].

من المعلوم: أن هناك نفختين:

النفخة الأولى: يصعق كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله.

النفخة الثانية: يقوم فيها الناس من قبورهم إلى يوم المحشر.

ولقد بيّن الله ﷻ بأن النفخة الأخيرة هو يوم الوعيد أي: هو الوقت الذي توعد الله فيه كل كافر بسوء المصير، كما وعد كل مؤمن بحسن الجزاء، وهذا ما فصلته سورة يس في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ

ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس: ٥١: ٥٩].

فنحن نجد في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي: أن هذا النفخ المقصود به النفخة الأخيرة، وهو الوقت الذي توعد الله فيه كل كافر بسوء المصير، كما توعد كل مؤمن بحسن المصير والعاقبة.

نأتي إلى قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ نجد كلمة ﴿ نَفْسٍ ﴾ نكرة، والمقصود: النفس المؤمنة والكافرة، والمطيعة والعاصية؛ كل نفس.

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ المقصود بالسائق: ملك يسوقها إلى المحشر، والمقصود بكلمة: ﴿ وَشَهِيدٌ ﴾؟ ملك آخر يشهد عليها، فكل نفس لا تستطيع أن تهرب من هذا الموقف، والله ﷻ يقول: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي: بقدرة الله ﷻ، إذن كل نفس معها ملك يسوقها إلى المحشر، وملك يشهد عليها، وكما قلنا في الآية السابقة في قول الله ﷻ: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق: ١٧] أي: أن هناك ملكين: ملك يكتب الحسنات، وملك يكتب السيئات، والداعي إلى هذا رغم علمه ﷻ بما يجري؛ حتى يكون ذلك حجة على العبد يوم القيامة، فلا يستطيع الإنكار، ولا يستطيع الجحود، هذه حجة على العبد يوم القيامة يوم يرى كل أعماله مسجلة، الحسنة والسيئة كل ذلك مسجل في كتابه، لا يستطيع أن ينكر وحينما يقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ وبالإضافة إلى هذا كل نفس تأتي معها سائق يسوقها إلى المحشر وشهيد يشهد عليها، ماذا تفعل النفس حينئذ؟ لا تستطيع أن تهرب، لا تستطيع

أن تنكر، لا تستطيع أن تفرّ بأيِّ حالٍ من الأحوال أمام حساب الله ﷻ، الذي كثيرًا ما نبه الله ﷻ الناس عليه، لكن الناس كانوا في غفلة عن يوم الحساب كما قال سبحانه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

ثم يقال للكافر في هذا اليوم العصيب: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ يعني: لقد كنت في غفلة تامة من هذا الذي تعانيه اليوم وتشاهده.

﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: فأنزلنا عنك في هذا اليوم تلك الغفلة التي كانت تحجبك عن الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح. ﴿غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: فبصرك ونظرك في هذا اليوم نافذ قوي، تستطيع أن تبصر به ما كنت تنكره في الدنيا من البعث والحساب والثواب والعقاب، يقال: فلان حديد مبصر إذا كان شديد الإبصار بحيث يرى أكثر مما يراه غيره.

الآية تبين بوضوح أن الإنسان كان في الدنيا غافلًا عن الحساب الذي سينزل به يوم القيامة، لكنه حينما خرج من الدنيا أزال الله ﷻ عنه تلك الغفلة التي كانت تحجبه عن الاستعداد لها، وأصبح يرى مما كان ينكره في الدنيا من البعث والحساب والثواب والعقاب.

وهناك آيات أخرى في القرآن الكريم تبين حالَ هؤلاء الكافرين حينما يحبسون على النار، وحينما يتمنون أن يردوا أو أن يعودوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى؛ تعليلًا منهم بأنهم لو عادوا لفعلوا الأفعال الصالحة وأطاعوا الله والرسول، لكن الله ﷻ كذّبهم في هذا بأنهم لو ردوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى لعادوا لما نهوا عنه وبين أنهم كاذبون في ذلك.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ [الأنعام: ٢٧] أي: حبسوا على النار: ﴿ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧: ٣٠].

انظر؛ هم يقسمون أن ما يرونه هو الحق، ونسوا ما كانوا ينكرونه في الدنيا فاستحقوا عذاب الله ﷻ: ﴿ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٠: ٣٢].

هذا هو موقف الكافرين يوم القيامة، يظهر لهم ما كانوا ينكرونه، ويقرون بل يقسمون بأن هذا هو الحق، وكانوا في الدنيا يسخرون ويستهزئون بالنبي ﷺ وبالمؤمنين الذين اتبعوه، ولذلك يقال للكافر في هذا اليوم العصيب: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت بأسلوب بليغ مؤثر شمول علم الله تعالى لكل شيء، كما بينت حالة الإنسان يوم القيامة، يوم تأتي كل نفس ومعها سائق وشهيد كما قال سبحانه: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾.

بعد أن بين الله ﷻ ذلك كله يحكي الله سبحانه بعد ذلك ما يقوله قرين الإنسان يوم القيامة فيقول سبحانه: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ والمراد بالقرين في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ الملك الموكّل بكتابة ما يصدر عن الإنسان في حياته، وجاء به مفردًا مع أن لكل إنسان قرينين؛ لأنَّ المراد به الجنس، أي: جنس الملك الموكل بكتابةِ ما يَصدر عن الإنسان في حياته، ومن المعلوم أن لكل إنسان

ملكين: ملك عن يمينه يكتب الحسنات، وملك عن شماله يكتب السيئات ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ ويصحّ أنّ يكون المراد بالقرين هنا شيطان الإنسان الذي أضلَّهُ وأغواه.

معنا رأيان في المراد بكلمة "قرين":

الرأي الأول: هو جنس الملك الموكل بكتابة ما يصدر عن الإنسان في حياته، والمقصود بـ"الملكين" الملك الذي يكتب الحسنات وهو الذي عن اليمين، والملك الذي يكتب السيئات وهو الذي عن الشمال، هذا رأي.

الرأي الآخر: هو شيطان الإنسان الذي أضلّه وأغواه، قال الألوسي وقوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانه الذي أضله وأغواه، وهو شيطانه المقيض له في الدنيا ففي الحديث: ((ما من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير)).

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ ومرجع اسم الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا﴾ اسم الإشارة يعود إلى الشخص الكافر نفسه، أي: هذا ما عندي قد هيأته لجهنم ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا الشخص الكافر هو هذا الذي قد هيأته لجهنم، وقال قتادة: قرينه الموكل بسوقه وبكتابة سيئاته يقول مشيرًا إلى ما في صحيفته وما فيها من سيئات: هذا الذي في صحيفتي من سيئات مكتوب عندي وحاضر للعرض، و﴿مَا﴾ نكرة موصوفة بالظرف أو موصولة والظرف صلتها، و﴿عَتِيدٌ﴾ خبر بعد خبر باسم الإشارة أو خبر لمبتدأ محذوف.

﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ ﴿مَا﴾ هنا نكرة موصوفة بالظرف وبقوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ يعني: موصوفة بالظرف وبـ﴿عَتِيدٌ﴾ في قوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ أو

أن ﴿ مَا ﴾ موصولة والظرف صلتها، و﴿ عَتِيدٌ ﴾ خبر بعد خبر لاسم الإشارة ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ ﴾ هذا الخبر الأول و﴿ عَتِيدٌ ﴾ هو الخبر الثاني، أو أن تكون ﴿ عَتِيدٌ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ ﴾ هذا المبتدأ والخبر ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي: هو عتيد قد هيأتُ صاحبه لجهنم، يعني: هيأت الكافر نفسه لدخول جهنم، هذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ إذن معنى هذا أن الإنسان يوم القيامة لا يستطيع أبدًا أن يكذب على ربه، لكنه قد يكذب على نفسه، يكذب على نفسه في الدنيا حينما كان موجودًا فيها ويتخيل شركاء أو غير ذلك، وذلك في قوله تعالى ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٤].

بعد أن بينا حال الإنسان والملك الذي يكون معه ويشهد عليه، ويبين أن ما كتب عليه من حسنات وأن صحيفته جاهزة للعرض يقال بعد ذلك للملكين الموكلين به أو للسائق والشهيد: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ﴿ أَلْقِيَا ﴾ يعني: اقذفا في جهنم باحتقار وغضب ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ أي: كل مبالغ في الجحود والكفر ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق مع علمه بأنه حق؛ إذن هذا الكافر ركب الخلاف والعصيان وأبى أن ينقاد للحق مع علمه بأنه حق، وهذا الشخص يستحق نار جهنم كما أخبر الله ﷻ: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ وهذا يشير إلى أن الكفار يوم القيامة لا تكون لهم حجة، ولا يكون لهم برهان، ولا يقبل منهم قول، ولا يعذرون بسبب كفرهم، فهم في الدنيا كفروا مع أنهم يعلمون أنه الحق، وهم يعلمون أن الرسول ﷺ حقّ، ويعلمون أن الكتاب الذي أنزله الله عليه حق، فهم يعرفون ذلك حق المعرفة، قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] هم يعلمون بأن القرآن حقّ، ومع ذلك أنكروا وعاندوا، وليس أدلّ على ذلك من موقف الوليد بن المغيرة حينما سمع القرآن من فم رسول الله ﷺ ذهب إلى قومه وقال لهم: "إن عليه لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله

لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى عليه" ولقد كانوا يتسابقون إلى استماع القرآن من الرسول ﷺ ومن المسلمين ولكن في خفية من بعضهم، فقد كان يتعاهدون على ألا يسمع أحد منهم القرآن، لكنهم كانوا يذهبون سرًّا إلى بيوت النبي ﷺ وبيوت المؤمنين لكي يسمعوا القرآن، لكنهم كانوا في كل مرة بعد أن كانوا يتعاهدوا على عدم الذهاب إلى استماع القرآن كان كلٌّ منهم يجد الآخر قد سبقه إلى استماع القرآن، وهذا يدل على أنهم كانوا يعلمون أن القرآنَ حقٌّ، وأن الرسول حقٌّ، وأنهم لم يجدوا فيه مغسمًا ولا مطعنًا ولا عيبًا، ولو وجدوا فيه مغمسًا أو عيبًا أو طعنًا لأذاعوه، ولانتشر هذا الكلام من عند أنفُسِهم، لكنهم لم يذكروا شيئًا من ذلك؛ فهذا يدل على أن الكافر منهم كان مبالغًا في الجحود والكفر، معاندًا للحق مع علمه بأنه حق، وصدق الله حينما قال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وهذا ما يستحقونه، وهذا من عدل الله؛ لأنه قد ترك لهم الوقت، وترك لهم الفرصة بعد الأخرى؛ لكي يجلسوا ويفكروا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٥] فهذا دليل على أن الله ﷻ قد أعطى لهم الفرصة بعد الفرصة، ولم يكن عندهم أيُّ شبهةٍ في عدمِ إيمانِهم بهذا القرآن، وبهذا الرسول ﷺ بل كانوا مبالغين في الكفر جاحدين معاندين للحق مع علمهم بأنه حق، قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

ثم بعد ذلك وصفهم بوصف آخر فقال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ هذه صفات أخرى لذلك الكافر المُلْقَى في جهنم ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: مبالغ في المنع لكل خير يجب فعله، وهو بعد ذلك كثير الاعتداء، كثير الشك فيما هو حقٌّ وصدق، هذه صفة الكافر في كل وقت وفي كل زمان، فهو لا يحب الخير للناس؛ لأنه يريد أن يستأثر الخير لنفسه، ولا يريد لأحدٍ أن يكون عنده خير فهو مَنَّاع للخير، بعكس المسلم الذي يتمنى الخير لكل الناس، لذلك يعطيه الله ويزيده خيرًا بعد خير، لكن يحاسب الكافر على ذلك ويمنع منه الخير، لكن أحيانًا قد نجد الكافر عنده نعم كثيرة، وهذا محل فتنة بعض ضعفاء الإيمان حينما يجدون الكافر يتمتع

بالخيرات ويتمتع بالنعيم، هذا استدراك للكافر، والذي يظنّ أن الكافر لكثرة الخير عنده فهو في درجة جيدة في الدنيا ومتقدم في الحضارة والرقي والتقدم، إنما هي نظرة قصار النظر فلا يعلمون الحقيقة، والحقيقة إنما هي استدراج لهذا الكافر؛ لأن الله ﷻ يزيل هذا، ويدمر هذا ثم بعد ذلك يعاقبه الله في الآخرة.

ثم بعد ذلك وصف الله هذا الكافر المقذف به في جهنم باحتقار وغضب بأنه كثير الاعتداء، لا يترك الناس في حالهم، وإنما يتطاول عليهم، يعتدي على أموالهم، يعتدي على أرضهم، يعتدي على أوطانهم، يعتدي على حرياتهم، فهو كثير الأذى للناس والله ﷻ لا يحب المعتدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون فيها، إنما يحب الله ﷻ الذين لا يعتدون على أحد ولا يؤذون أحدًا، ولا يتطاولون على أعراض الناس، إنما الكافر من صفتِهِ أنه كثيرُ الاعتداءِ على الناس، ولذلك استحقَّ دخول جهنم -والعياذ بالله ﷻ.

أيضًا من صفات هذا الكافر: أنه كثير الشك فيما هو حق، فالحق يكون أمامه أبلج وواضح والدلائل قوية، ولا يحتاج إلى بينة لكي يؤمن بما أمره به الله، لكنه مع ذلك يشك في هذه الأدلة، وفي هذه الحجج، وفي هذه البراهين، ويطلب من الرسول ﷺ خوارق للعادة مع أن الرسول لم يبعثه الله لكي يأتي بخارقة، وإنما بعثه الله ليبشر الناس إذا عملوا صالحًا؛ فإن الله سوف يثيبهم على ذلك، وينذر الناس ويخوفهم من عذاب الله ﷻ إذا ما استمروا على الكفر وعلى العصيان، فالكافر من شأنه أنه جاحد للحقّ مع علمه بأنه حق بأنه كثير الاعتداء على الناس، بأنه كثير الشك في الحق مع وضوح أدلته وظهور حججه.

تفسير الآيات (٢٦- ٤٥) من سورة (ق)

عناصر الدرس

العنصر الأول : تفسير الآيات (٢٦- ٣٥) من سورة (ق) ٥٧٣

العنصر الثاني : تفسير الآيات (٣٦- ٤٥) من سورة (ق) ٥٨٥

تفسير الآيات (٢٦- ٣٥) من سورة (ق)

١. تفسير الآية (٢٦):

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ .

من صفات الكافر المقذوف به في جهنم أنه جعل مع الله إلهًا آخر، جعل مع الله إلهًا آخر في العبادة والطاعة، يعبد الأصنام، وليس الشرك مقتصرًا على عبادة الأصنام، إنما الشرك له ألوان كثيرة وليس المقصود بها الأصنام فقط، إنما الأصنام رمز لعبادة غير الله حينما يأتي الإنسان غير المسلم ويأمر الإنسان المسلم بشيء لم يأمر الله ﷻ به، ثم بعد ذلك يطيعه الإنسان، فمعنى هذا أنه عبد غير الله فهذه عبادة مع الله ، حينما يتبع الإنسان هواه حين يأمره الله بشيء وهواه يأمره بشيء، ثم يطيع هواه ويعصِ الله، إذن يكون قد عبد هواه ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] فمعنى هذا: أن الإنسان قد يعبد أشياء أخرى من دون الله، ولا يقتصر هذا المعبود على الأصنام كما يقول الناس: هل من الممكن أن يعبد الإنسان الأصنام في القرن العشرين؟ نقول لهم: إن العبادة مع غير الله ﷻ لا تقتصر على الأصنام وإنما تمتد إلى الهوى، وإنما تمتد إلى طاعة الإنسان الذي يأمر بغير شرائع الله، وبغير أحكامه و قوانينه، هذه عبادة الله حينما يوسوس إليه الشيطان بمعصية، ثم بعد ذلك يطيع الشيطان، ويعصي الله ﷻ. فمعنى ذلك: أنه قد عبد الشيطان من دون الله.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠] إذن طاعة غير الله ﷻ، أو جعل غير الله يختصّ بخصائص الله

من الحكم، ومن الشرع، ومن إقرار النظام لكل إنسان: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] هذه كلها تعتبر شركًا بالله ﷻ، فالشرك ليس لونًا واحدًا، إنما ألوان متعددة، يقول تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [ق: ٢٦].

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ الخطاب في قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ ألقياه أيها الملكان في العذاب الشديد في جهنم الذي تدله والذي تهينه فهم يتمنون أن يخرجوا من النار ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] هم يتمنون أن يخرجوا من النار لحظة واحدة؛ لكي يستريحوا من العذاب، لكنهم لن يستريحوا؛ لأنهم فعلوا الكثير والكثير من الكفر والضلال، وإضلال الناس ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أي: نار جهنم، والاسم الموصول ﴿الَّذِي﴾ مبتدأ، وهذا المبتدأ يشبه الشرط في العموم؛ ولذا دخلت الفاء في خبره وهو قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ الخبر.

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ دخلت الفاء على الخبر ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ لأن اسم الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة كما نعلم أنها فعلية ومادام الخبر جملة فعلية فيقترن بالفاء؛ لأن الاسم الموصول ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ﴾ مبتدأ يشبه الشرط في العموم ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

مكان المشرك بالله ﷻ هو في العذاب الشديد، فلذلك يجب أن نعلم بأن الشرك نوعان: شرك أكبر وهو الشرك العقدي: أن الإنسان يجعل مع الله إله آخر، سواء أكان هواه أو ماله أو نفسه، أو رؤساء الكفر يطيعهم وينقاد إليهم دون الله ﷻ، لكن إذا حلف إنسان بغير الله فهذا الشرك الأعظم، فالإنسان ينبغي أن يوجه عمله إلى الله، وألا يجعل مع الله إلهًا آخر، يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] فالإنسان الكافر الذي

جعل مع الله آله آخر مكانه النار، مكانه جهنم وبئس المصير، الذي جعل مع الله إله آخر فألقياه -أيها الملكان- في العذاب الشديد.

٢. تفسير الآيات من رقم (٢٧) إلى (٣١):

قال تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ والمراد بكلمة ﴿ قَرِينُهُۥ ﴾ أي: شيطانه الذي كان يزين له السوء في الدنيا ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ والجملة مستأنفة؛ لأنها جواب عمّا يزعم الكافرُ يومَ القيامة من أن قرينه هو الذي أغواه، وحمله على الكفر، أي: قال الشيطان في ردِّهِ عَلَى الكَافِرِ: يا ربنا إنني ما أطغيته، ولا أجبرته على الكفر والعصيان، ولكن هو الذي كان في ضلالٍ بعيدٍ، دون أن أكرهه أنا على هذا الضلال أو على الكفر، فالشيطان يَتَمَلَّصُ من وسوستِهِ للإنسانِ يومَ الحسابِ وَيَتّهِمُ أو يلقي اللوم على الإنسان بأنه كان في الضلال المبين، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الشيطان يومَ القيامةِ يبيّن أنه ليس له صلةٌ ولا علاقةٌ بإضلالِ هذا الكافر، لكنَّ الكافرَ هو الذي كَانَ عِنْدَهُ استِعْدَادٌ لِذَلِكَ؛ وَذَلِكَ لِمُجَرَّدِ الوَسْوَسَةِ إِنْ انقَادَ وَسَارَعَ إِلى طَاعةِ الشَّيْطَانِ؛ وَلِذَلِكَ يَقُولُ الشيطانُ يوم القيامة كما يحكي الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾ لا أستطيع إنقاذكم من

نار جهنم ولا تستطيعون إنقاذي من نار جهنم فنحن جميعًا في النار، أَنَا وأنتم في النار؛ لأننا ابتعدنا عن منهج الله ﷻ، وابتعدنا عن طاعة الله ﷻ، وهذا ما يبينه قول الله تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

بعد أن تنازع الشيطان والكافر من الذي أضل الآخر، ومن الذي أهواه -جاء قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ لا تتنازعوا عندي في هذا الموقف؛ فإنَّ التنازع لا فائدة فيه ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ أي: والحال: أني قد حذرتكم على ألسنةِ الرسلِ من سوء عاقبة الكفر، والآن لا مجال لهذا الاعتذار أو التخاصم.

قوله: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ أي: لا خلف لوعدي ولا معقب لحكمي، بل هو كائن لا محال، وهو أني ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

قوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي: وما أنا من شأني أن أعذب أحدًا بدون ذنب جناه، وإنما أنا من شأني أن أجازي الذين أساءوا بما عملوا، وأجازي الذين أحسنوا بالحسنى، وأعفوا عن كثير من ذنوب عبادي سوى الشرك بي.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ يعني: اذكر أيها العاقل لتتعظ وتعتبر يوم نقول لجهنم: هل امتلأت من كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب؟ واكتفيت من كل من جعل معي إلهًا آخر؟ فترد جهنم، وتقول: يا إلهي هل من مزيدٍ، أي: يا إلهي هل بقي شيء مني لم يمتلأ من هؤلاء الكافرين، أنت تعلم يا خالقي أني قد امتلأت ولم يبق مني موضع لقدم.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يخبر الله تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت، وذلك أنه وعدها أنه سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقي فيها وهي تقول: هل من مزيد، يعني: هل بقي شيء تزيدني، هذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث، فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: ((يلقى في النار الكفرة وتقول: هل من مزيد، حتى يضع سبحانه فيها قدمه؛ فتقول: حسبي حسبي))

وعن ابن عباس: قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: وهل فيّ من مكان يزاد في. وعن عكرمة: قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ وهل فيَّ مدخل واحد قد امتلأت قد امتلأت.

وقال الشوكاني: وهذا الكلام على طريقةِ التخييل والتمثيل ولا سؤال ولا جواب كَذَا قيل، والأولى أنه على طريقة التحقيق، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع.

قال الواحدي: أراها الله تصديق قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فلما امتلأت قال لها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي: قد امتلأت ولم يبق فيّ موضع لم يمتلأ، وقيل: إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة، أي: إنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها، والمزيد إما مصدر كالمجيء، أو اسم مفعول كالمنبع، الأول بمعنى: هل من زيادة، والثاني بمعنى: هل من شيء تزيدني إياه، هل من شيء بقي فيّ حتى تزيدني يعني: قد امتلأت قد امتلأت لم يبق في موضع قدم.

وكَعَادَةِ القرآنِ في المقارنةِ بين عاقبةِ الأشرارِ والأخيارِ جاء بعد ذلك الحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم، فقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أزلفت من الإزلاف بمعنى القرب، يقال: أزلفه إذا قربه، ومنه الزلفة، وهي بمعنى القربة والمنزلة، وهو معطوف على قوله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ صفة لموصوف مذكر محذوف، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ولم يقل: غير

بعيدة، أي: وأدميت وقربت الجنة للمتقين في مكان غير بعيد منهم فصاروا يرونها ويشاهدون ما فيها من خيرات، لا يحيط بها الوصف.

وفائدة قوله: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ بعد قوله: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ للتأكيد والتقليل، كقولك: فلان قريب غير بعيد وعزيز غير دليل، والجنة لا تنقل لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمنِ والجنةِ؛ حتى لكأنها حاضرة أمامه، وذلك من باب التكريم والتشريف للمؤمن.

٣. تفسير الآية (٣٢):

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ نجد أن اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ اسم الإشارة هنا يعود إلى الجنة التي قُرِّبَتْ لَهُم؛ لأنه قبل هذه الآية مباشرة يقول الله سبحانه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ والجملة على تقدير القول، أي: قُربت الجنة ممن هم أهلها، ويقال لهم عند دخولها: هذا الذي ترونه من نعيم هو ما سبق أن وعد الله ﷻ به كل أواب، أي: رَجَّاعٌ إليه بالتوبة، حفيظ، أي: حافظ لحدودِهِ، وأوامره، ونواهيه، بحيث لا يتجاوزها.

الجنة هذه هي التي يقربها الله ﷻ بأهلها بأن الجنة لا تُنقل لكن الله ﷻ يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة، حتى لكأنها حاضرة أمامه، وذلك من باب التكريم والتشريف للمؤمن.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ إن الله ﷻ وعد أهل الجنة بالنعيم الدائم، وكما قال ﷺ: ((فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)) والآيات القرآنية الكثيرة تبين مدى ما أعده الله ﷻ للمؤمنين في الجنة، فمثلًا قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ

لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

إذن الله ﷻ يرغب المؤمنين في الجنة بما أعده لهم من نعيم دائم فيها، ومثلًا نجد في "سورة فاطر" قول الله ﷻ: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣] هذه الآيات تبين بوضوح مدى النعيم الذي أعده الله ﷻ للمؤمنين، وأيضًا نجد ذلك في قول الحق -تبارك وتعالى- في "سورة الدخان": ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥١ : ٥٧] .

فإذن هنا الله ﷻ قد رَغَّبَ عبادَهُ في الجنة، وفي نعيم الجنة، وهذا النعيم لكل أواب حفيظ، أي لكل إنسان رجاع إليه بالتوبة، إذا فعل ذنبًا واستطاع الشيطان أن يغويه بصنع ذلك الفعل القبيح، سرعان ما يرجع إلى الله ﷻ فهو يقبل توبة التائب من عباده، بل هو يرغب ويحث الناس على التوبة، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] هذه الجنة للتائب، لكل راجع، لكل أواب إلى الله حين يشرد عن طريق الله تعالى، وعن طاعة الله ﷻ.

هذه الجنة والنعيم الذي فيها، أعده الله لكل إنسان حفيظ، بمعنى أنه يحفظ حدود الله، بمعنى أنه يأتمر بأوامره، وينتهي بنواهيه، لا يتخطى أبدًا هذه الأوامر، وإنما يحافظ عليها، وقَّافٌ عند أوامر الله ونواهيه، يجاهد نفسه في سبيل أن يجعلها دائمًا مسخَّرة لطاعة الله ﷻ هذه الجنة أعدها الله لكل أواب حفيظ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾.

٤ـ تفسير الآية (٣٣):

قال تعالى: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ هذه تكملة لصفات الذين وعدهم الله بنعيم الجنة الدائم، وقال سبحانه في الآية السابقة بعض صفات هؤلاء، ثم بعد ذلك أكمل هذه الصفات في الآية التي تليها، ففي الآية الأولى بين لنا صفتين من أهل نعيم الجنة التي وعد الله بها عباده، فقال سبحانه: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾.

ثم بعد ذلك ذكر صفتين، وقال: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ أي: من خاف مقام ربه، دون أن يطَّلِعَ عليه أحدٌ من الناس، لكنه يعلم أن الله ﷻ مُطَّلِعٌ عليه، فهو ينظر إليه، وهو لا تخفى عليه خافية عنه، فهو يعلم كل ما يفعله الإنسان، سواء كان ذلك في السر أو في العلن، فهو يخاف الله ﷻ ويقف عند حدود أوامره ونواهيه، دون أن يراه أو أن يطلع عليه أحدٌ من الناس، لكنه في اعتقاده أن الله ﷻ مطلع عليه، والله لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ الجملة بدل، أو عطف بيان من قوله: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾. وقوله: ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ متعلق بمحذوف، حال من ﴿ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ أي: خشي وهو غائب عنه، لا يراه ولا يشاهده ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ بمعنى: أن هذا الإنسان الذي وعده الله ﷻ بالنعيم الذي في الجنة، جاء ربه يوم القيامة بقلب راجع إليه، بقلب مخلص في طاعته، مقبل على عبادته، فهو يرغب في نعيم الله ﷻ والإنسان الذي يرغب في نعيم الله ﷻ لا بد أن يطوع نفسه على طاعة الله ﷻ حتى يكون أهلًا لذلك النعيم، ولذلك التكريم؛ ولذلك جاءت الآية تبين هذه المعاني: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ فالخشية

هنا الخوف، لكنه الخوف مع التعظيم، حتى إذا كان الإنسان في خلوة من نفسه، ولم يطلع عليه أحد، ويستطيع أن يخرق الأوامر التي كلفها الله ﷻ بها، هنا تكمن عظمة الخالق في قلب هذا الإنسان، فهو لا يجرؤ، ولا يرضى أبدًا أن يعصى الله رغم أنه لم يره أحد، لكنه يعلم تمام العلم بأن الله مُطَّلِعٌ عليه، ولا تخفى عليه خائفة؛ ولذلك يقول الله -سبحانه: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾.

فالآية الأولى تبين أن ما وعده الله ﷻ من نعيم في الجنة، إنما هو لكل أواب حفيظ ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ فالآيتان فيهما بشارة للمؤمن الذي يقبل على الطاعات، ويبتعد عن المعاصي، ولا شك أن في ذلك ترغيبًا للمؤمن؛ لأن المؤمن إذا علم أنه سيكافأ على طاعته، وسَيُكَافَأُ على سلوكه المستقيم، لا بد أن يصنع ذلك حافزًا في قلب المؤمن، فَيَجِدُّ ويجتهد في فعل الطاعات، والإنسان حينما يجد ويجتهد في فعل الطاعات، سيجد المعونة والتوفيق من الله، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فمعنى هذا: أن الإنسان يجد ويجتهد؛ لكي يكون أهلًا للنعيم الذي وعد الله ﷻ به في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾.

٥- تفسير الآية (٣٤):

هؤلاء الذين يفعلون ذلك في دنياهم، يقال لهم يوم الحساب على سبيل التبشير والتكريم: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ الضمير في قوله: ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ الجنة، يعني: ادخلوا الجنة ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ يعني: أنكم تعيشون في سلام في الجنة، لا تعب فيها،

ولا لغو فيها، ولا مضايقات، ولا منغصات، وإنما هي حياة حقيقية، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] فهؤلاء أصحاب الجنة يعيشون في سلام و أمان اطمئنان، وأي نعم أفضل من هذه النعم؟! حينما يعيش الإنسان في سلام وأمان واطمئنان؛ فالإنسان إذا عاش في سلام، وفي أَمَانٍ واطمئنانٍ كان هادئ البال، لا ينشغل بأيِّ أمرٍ من الأمور، وإنما هو في سعادة، وهو في فرح، وهو في سرور، هكذا يعيش أهل الجنة حياتهم آمنين مطمئنين، فهم في سلامٍ دائمٍ، وهم في أمانٍ دائمٍ، وهم في اطمئنانٍ دائمٍ؛ ولذلك أهل الجنة يتنعمون كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ انظر في كلمة ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي: هم آمنون مطمئنون سالمون من كلِّ أذىً، أو من كل ما ينغص حياتهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥١ : ٥٧].

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ ذلك اليوم يوم القيامة، يوم الثواب، يوم العطاء الجزيل من الله ذلك اليوم هو يوم الخلود، لا انتهاء له، ولا موت بعده، وهذه وحدها نعمة عظيمة من الله ﷻ؛ لأن الإنسان في هذه الحياة يعيش دائمًا قلقًا، يعيش دائمًا مضطربًا، فهو يخاف أن يترك هذه النعمة التي هو فيها، إن كان منعمًا في الدنيا، يخاف أن يترك هذه النعمة، ويرحل عن الحياة الدنيا، أو يخاف أن تتركه النعمة فحتى الإنسان المُنَعَّم ظاهرًا في هذه الحياة الدنيا، هو إنسان قلق، هو إنسان مضطرب، أما في الحياة الآخرة فقد طمأن الله ﷻ أصحاب الجنة بأن ذلك اليوم هو يوم الخلود، فلا يقلقون، ولا يضطربون، وإنما هم يعيشون في أمان واطمئنان وسلام؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هـود: ١٠٨] يعني: لا نهاية لهذا الخلود، وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هذا استثناء صوري، أي: أن الأمر متعلق بمشيئة الله، وليس معنى هذا أنهم لا يكونون في خلودٍ دائمٍ، هذا الخلود لا ينقطع أبدًا؛ لأن الله وعد بذلك، وهذه هي الدار الآخرة، أو الحياة الحقيقية، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لهي الحياة الحقيقية التي فيها المتع، التي فيها النعيم، التي فيها اللذة، ليس فيها ما ينغصها، صحيح أن الدنيا فيها نعم، وفيها ملذات، لكن هذا النعيم وتلك الملذات منغص دائمًا، ينغص على الإنسان حياته، بمعنى أنه يكون قلقًا، يكون مضطربًا، أما الحياة الآخرة فهي خلود دائم، وهذا يعطي الأمان، وهذا يعطي الاطمئنان؛ ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي ادخلوا الجنة التي وعدكم الله إياها بسلام وأمان واطمئنان، ذلك اليوم، وهو يوم الثواب والعطاء الجزيل من الله تعالى، ذلك اليوم هو يوم الخلود، الذي لا انتهاء له، ولا موت بعده.

٦. تفسير الآية (٣٥):

وفضلًا عن أن هذه الحياة هي حياة خالدة لا موت فيها؛ فإن الله ﷻ وعده بأن لهم فيها ما يشاءون، هذه نعمة كبيرة من الله؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي: لهؤلاء المتقين ما يشاءون ويشتهون في الجنة؛ ولذلك يتمنى الكافرون أن يعودوا إلى الحياة الدنيا؛ لكي يعملوا من الصالحات، الأمر الذي رفضوه في الدنيا، ولذلك يقول سبحانه مصورًا هذا الموقف في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] إنهم يتحسرون على الوقت الذي ضيعوه، ويحسدون المؤمنين على أنهم عملوا وتعبوا في الخيرات، وعملوا الصالحات في الدنيا، فوجدوا جزاء عملهم ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾.

والضمير في قوله: ﴿ لَهُم ﴾ يعود إلى الصفات السابقة. ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

ثم هناك فضل آخر، وفضل الله لا حرج عليه، وفضل الله لا نهاية له، لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل انظر: يقول سبحانه: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ أي: أشياء أخرى لا تخطر لهم على بال، ولم تره أعينهم قبل ذلك، كما قال رسول الله ﷺ: ((فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) هذا هو نعيم الله ﷻ .

ولذلك يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٥ : ١٩].

هنا يبين الله ﷻ النعيم الذي أعده لأهل الجنة، فقال سبحانه: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ أي: وعندنا فضلًا عن كل هذا النعيم الذي يتنعمون فيه المزيد، الأمر لا يخطر لهم على بال، ولم تره أعينهم قبل ذلك، كما قال سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال ابن كثير: وقوله: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ ﴾ [يونس: ٢٦] يعني جزاء الذين أحسنوا الحسنى هي جنة، ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ ومعنى كلمة ﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾ هي النظر إلى وجه الله الكريم، فهذه نعمةٌ أخرى حينما يتمتعون بالنظر إلى وجه الله ﷻ كما قال سبحانه: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] أي: هي تنظر وجه الله ﷻ.

فهذه الآيات بينت بوضوح أن الله يطوى المسافة التي بين المؤمن والجنة، حتى لكأنها حاضرة أمامه، وذلك من باب التكريم والتشريف للمؤمن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ثم بعد ذلك بينت الآيات أصحاب أهل النعيم فقال سبحانه: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾.

تفسير الآيات (٣٦ - ٤٥) من سورة (ق)

١. تفسير الآية (٣٦):

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ هذه الآية تتحدث عن مظاهر قدرة الله ﷻ في إهلاكه للمكذبين، فبعد أن تحدثت الآيات عن خلود المؤمنين، وعن النعيم الذي هم فيه جاءت الآيات لتبين مصير الكافرين، مصير المكذبين، وكيف أهلكهم الله ﷻ ليأخذ كفارُ قريش من ذلك العبرة والعظة؛ لأنهم يعلمون تمام العلم أن الأمم التي سبقتهم وطغت وكفرت وأهلكها الله ﷻ كانت أشد قوة منهم، وكانت أكثر بطشًا منهم، ومن هنا لا بد أن يقف كفار قريش، ويقف كل كافر أمام هذه الأحداث؛ حتى يعتبر؛ وحتى يتعظ؛ ويعلم أن الله ﷻ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه هو العزيز أي الغالب، الحكيم الذي يضع الأشياء في موضعها.

تأتي هذه الآيات لتبين مصارع المكذبين السابقين، وتبين مظاهر قدرة الله ﷻ فيقول سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ و ﴿وَكَمْ﴾ هنا خبريةٌ بمعنى كثير، يعني: كثيرًا ما أهلكنا من القرون الماضية التي كذبت رسلها، كقوم نوح، وعاد، وغير ذلك ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ فـ﴿وَكَمْ﴾ هنا خبرية بمعنى كثير، وهي منصوبة بما بعدها، أي: هي منصوبة بالفعل الذي بعدها، وهو ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

وكلمة ﴿قَرْنٍ﴾ تُطْلَقُ عَلَى جَمَاعَةٍ مِن النَّاسِ تَعِيْشُ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ، ومقدار هذا الزمن مائة سنة على الراجح.

وإعراب كلمة ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييز ﴿كَمْ﴾ لأن ﴿كَمْ﴾ الخبرية تحتاج إلى تمييز وجملة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ صفة لهؤلاء الذين أهلكهم الله ﷻ. والبطش معناه: السطوة والأخذ بشدة ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ معنى ذلك أن الله ﷻ يخبر الرسولَ ﷺ ويخبر كل من بلغه هذا القرآن أننا أهلكنا كثيرًا من القرون الماضية التي كذبت رسلها، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقد كانوا أشد من قومك قوةً وأكثر جمعًا، يعني أن الله ﷻ أهلك تلك القرون التي كانت غاية في الشدة، فقومك لا يساوون شيئًا أمام قوتهم وأما بأسهم.

ومادام الأمر كذلك فلا تحزن ولا تبتئس -أيها الرسول- لما يصيبك من الكافرين المعاصرين لك، فنحن في قدرتنا أن ندمرهم تدميرًا، فلقد دمرنا من هم أشدُّ منهم قوةً وبطشًا، فهذا يجعلك مطمئنًا إلى أن قدرةَ الله قادرة على أن تدمر هذه القوى الكافرة من قريش، التي تناوئك، والتي تضطهدك، والتي تؤذي أتباعك، والتي تعرض عن الإيمان بدعوتك، ولا تكتفي بهذا، بل هي أيضًا تصد الناس عن الدخول في هذا الدين الذي يجلب لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

فقول الله ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ هذا يعطي الطمأنينة ويعطي الأمن للرسول ﷺ ويعطي الأمن ويعطي الطمأنينة للمسلمين المستضعفين، الذين يؤذون من قريش، ومن هم على شاكلتهم بأن الله ﷻ لن يترك هذه القوى تناوئ الإسلام وتحارب المسلمين، لكن الله ﷻ قادر على أن يدمرها، وقادر على أن يهلكها، كما أهلك الأمم الماضية في القرون التي سبقت، وكانت أشد قوة من هذه القوى الكافرة الموجودة في ذلك العصر، فهذا دلالة على قدرة الله ﷻ وهذا يعطي الأمن والأمان والطمأنينة للرسول ﷺ وللمسلمين المستضعفين.

ثم بعد ذلك يقول الله -سبحانه: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ الضمير في قوله: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ يعود إلى أهل تلك القرون المهلَكة الماضية، ومعنى التنقيب: هو السير في الأرض، والطواف فيها، والبحث بين أرجائها، يقال: نقب فلان في الأرض، إذا ذهب فيها، وأصل النقب: الخرق والدخول في الشيء، ومنه قولهم: نقب فلان الجدار، إذا أحدث فيه خرقًا، والمراد بالتنقيب في هذه الآية، في قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ المراد بالتنقيب: هو السير في الأرض والتفتيش فيها؛ ولذلك قال الألوسي: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: ساروا في الأرض وطوفوا فيها حذر الموت، فهم ساروا في الأرض وهربوا؛ خوفًا من الموت؛ ظنًّا منه أن ذلك السير في الأرض والهروب ينجيهم من الموت، وهذا فهم خاطئ؛ لأنهم مهما ساروا ومهم ذهبوا، ومهما هربوا؛ فإن الموتَ لاحقٌ بهِم، ولذلك جاء إهلاك الله ﷻ لهذه الأمم، رغم أنها نقبت في البلاد، وسارت في البلاد؛ هربًا من الموت، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ

كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء ٧٨] ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ ولذلك يقول الألوسي: قال الشاعر:

وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ ❖ نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ حَذَرَ الْمَوْتِ

وشاع التنقيب في العرف بمعنى: التنقير عن الشيء، والبحث عن أحواله، لكن المراد بالتنقيب -كما قلنا- هنا في الآية هو: السير، فتكون الفاء للتعقيب، فهم نقبوا في البلاد حينما جاءت علامات إهلاكهم، فساروا في البلاد بحثوا عن مكان آخر ينزلون فيه ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ المحيص: معناه المهرب، يعني هل من مهرب نجد فيه أمانًا؟ يقال: حاص فلان عن الشيء، يحيص حيصًا ومحيصًا، إذا عدل وحاد عنه، وحاول الهروب منه.

هنا استفهام، وهو قوله تعالى: ﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ الاستفهام هنا الغرض منه الإنكار، والنفي، يعني: لا مكان للهرب ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] أيضًا لا مكان لهم للهرب من عذاب الله يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] فالله ﷻ أهلك الأمم السابقة؛ لكفرها ولاعتدائها على رسلها، ولتكذيبها لرسلها، ولأذى رسلها ومحاربتهم، فكان جزاؤهم الإهلاك، هؤلاء المكذبون السابقون كانوا أشد من مشركي قريش قوةً، وأكثر، جمعًا، وكانوا أكثر ضربًا في الأرض، حاولوا الهرب وحاولوا الفرار، فلم يجدوا مكانًا يهربون فيه، بل نزل بهم عذاب الله ﷻ فدمرهم تدميرًا فعليكم -أيها المشركون- أن تعتبروا بهؤلاء، حتى لا يصيبكم ما أصابهم.

إذن الله ﷻ يبين في هذه الآية كيف أهلك الأمم السابقة، حينما كفرت بربها، وكفرت برسلها، هذا فيه تسلية للرسول ﷺ وتحذير لأعداء الله ﷻ من سوء

عقبة الكفر والعناد، ولذلك ذكر الله ﷻ قصص قوم كفروا، فكان جزاؤهم الهلاك، نجد في قول الله تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٩- ٤٣].

هذا كله تحذير للكافرين من قريش، وللكافرين في كل عصر من سوء عاقبة الكفر، ومن سوء عاقبة العناد، وليتأمل كل إنسان هذه الآية؛ لكي يراجع

نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

٢. تفسير الآية (٣٧):

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ اسم الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعود إلى الإهلاك للأمم المكذبة السابقة، كما قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ أي: لتذكرة وعبرة، ومعنى قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: لمن كان له قلب يعي ما يسمع، ويعقل ما يوجَّهُ إليه، ويعمل بمقتضي هذا التوجيه الحكيم.

قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: لمن كان قلب يعي الحقائق، ومن أصغى إلى ما يلقى إليه من إرشادات، وهو حاضر الذهن، صادق العزم، لتنفيذ ما جاءه من الحق، قال صاحب (الكشاف): ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلب واعٍ؛ لأن من لا يعي قلبُه فكأنه لا قلب له، وإلقاء السمع: الإصغاء.

ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر بفطنته؛ لأن من لا يحضر ذهنه، فكأنه غائب، أو هو مؤمن شاهد على صحته، وأنه وحي الله ﷻ.

إذن في كلمة ﴿شَهِيدٌ﴾ معنيان:

المعنى الأول: وهو شهيد أي: حاضر بفطنته.

المعنى الثاني: مؤمن شاهد على صحته، وأنه وحي الله ﷻ.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ يعني: إن ما حدث للأمم السابقة من إهلاك فيه عبرة، لكن العبرة تكون لمن؟ للذي له قلب يعي ويسمع ويعقل ما يوجه إليه، ويعمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم، أو يصغي إلى ما يُلقَى إليه من إرشادات، وهو حاضر الذهن، أو هو مؤمن شاهد على صحته، وأنه وحي الله ﷻ.

٣. تفسير الآية (٣٨):

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ القرآن هو الكتاب الوحيد السماوي الصحيح، لم تنله يد التحريف؛ ولذلك معلوماته ليست متناقضة، وليست مضطربة، بخلاف الكتب السماوية الأخرى التي أصابتها يد التحريف والتغيير والتبديل؛ ولذلك حينما نعتمد أو نقرر أمرًا لا بد أن نأخذه من القرآن؛ لأن الله قد تعهد بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] ولذلك حينما ينظر العلماء المُحْدثون في القرآن يجدون فرقًا شاسعًا بين المعلومات هنا والمعلومات هناك، ويقررون بوضوحٍ أن القرآن لا تناقض فيه، ولا تضاد بينه وبين الواقع الذي يعيشون فيه.

القرآن يقول: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ والمقصود بالستة أيام

العلماء المحدثون حينما قرءوا في التوراة وقرءوا في الإنجيل وجدوا أن القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لا يتناقض مع العلم، فقالوا: تذكر رواية التوراة دون أي غموض تمام الخلق في ستة أيام، يتبعها يوم الراحة يوم السبت، وذلك بالتجانس مع أيام الأسبوع، يقول العلماء: ولقد رأينا أن هذه الطريقة في السرد

التي استخدمها كهنة القرن السادس قبل الميلاد تستجيب لنيات الحض على ممارسة سبت الراحة، فعلى كل يهودي أن يستريح يوم السبت، كما فعل الرب بعد أن عمل طيلة أيام الأسبوع الستة.

إن كلمة "يوم" كما يفهم من التوراة تُعرف بالمسافة الزمنية بين إشراقين متواليين للشمس، أو غروبين متوالين، وذلك بالنسبة لسكان الأرض، إن اليوم وقد تحدد بهذا المعنى يرتبط وظيفيًّا بدوران الأرض حول نفسها، وواضح تمامًا أنه من المستحيل منطقيًّا أن نتحدث عن الأيام بهذا المعنى الذي تحدد.

هكذا يقول العلماء المحدثون، على حين أن العملية المركبة التي ستؤدي إلى ظهورها -أي: وجود الأرض ودورانها حول الشمس- لم تكن قد أُنشئت بعد عند أولى مراحل الخلق، وذلك بحسب رواية التوراة.

يقول العلماء المحدثون: أما إذا رجعنا إلى نصوص غالبية ترجمات القرآن، فإننا نقرأ فيها بالتجانس مع ما تعلمنا التوراة به؛ إن القرآن يقول هو أيضًا بامتداد عملية الخلق على مدة ستة أيام، ولا يمكن بالطبع أن نعتب على المترجمين أنهم قد ترجموا كلمة "يوم" بالكلمة المعادلة لأكثر المعاني شيوعًا للكلمة العربية، وهكذا تعبر عنها الترجمات عادة. ما دمنا نقرأ في "سورة الأعراف" من الآية (٥٤) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقليلة حقًّا ترجمات القرآن أو التعليقات التي تنبه إلى أن كلمة "أيام" في الواقع يجب أن تُفهم على أنها تعني مراحل، بل لقد ادعى البعض القول بأنه إذا كانت نصوص القرآن الخاصة بالخلق قد قسمت مراحل الخلق في أيام، فقد كان ذلك بهدفٍ عن قصد إلى استئناف ما كان الكل من يهود ومسيحيين في فجر الإسلام يعتقد به؛ وذلك تجنبًا لمجابهة اعتقاد منتشر.

الواقع ودون أي رفض مطلق لهذه الطريقة في الرؤية، ألا يمكن أن نرى المشكلة عن قرب أكثر، وأن نفحص المعاني الممكنة في القرآن نفسه، وفي لغة العصر عامة لتلك الكلمة التي يستمر عدد من المعلقين في ترجمتها بيوم، والجمع أيام، إن الكلمة مفردة تنحو إلى الدلالةِ عَلَى النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين غروب الشمس وغروبها في اليوم التالي، أما إذا جُمعت فلا تعني فقط أيامًا، أي: وحدات تتكون كل منها من أربع وعشرين ساعة، بل تعني أيضًا دهرًا طويلًا، أو فترة من الزمن غير محدودة، وإن طالت.

ومن ناحية أخرى: فمعنى فترة زمنية التي يمكن للكلمة أن تدل عليه موجود أيضًا في القرآن في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] ومما هو جدير بالملاحظة: أن الآية السابقة على الآية الخامسة في "سورة السجدة" تذكر بالتحديد الخلق في ست أيام، في "سورة المعارج": ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾. [المعارج: ٤].

وكون أن كلمة "يوم" كان يمكن أن تدل على فترة زمنية، تختلف تمامًا عن تلك التي نعطيها لمعنى اليوم -قد بهر كثيرًا من المفسرين القدامى الذين كانوا لا يملكون بالطبع، أي معارف من تلك التي نملكها اليوم عن عدة مراحل تكون الكون، فبهذا الشك في القرن السادس عشر الميلادي ظن أبو السعود -الذي لم يكن يملك معرفةً عن اليوم كما يحدده علم الفلك بالاستناد إلى دورة الأرض- أن من الواجب تصور تقسيم مراحل ليس إلى أيام، بالمعنى الذي يُفهم عادة، بل إلى نوبات. وهناك مفسرون محدثون قد أخذوا بهذا التفسير، بأن المراد بستة أيام هي مراحل، باعتبار أنها تعني فترات طويلة، أو عصورًا، ليست كأيام الدنيا، فمن حقنا أن نقبل فيما يتعلق بخلق العالم.

يقول القرآن ضمنًا بفترات زمنية طويلة رقمهما بالعدد ستة، ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات المعقدة، التي أدت إلى تشكل العالم هو ستة مراحل، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جدًّا، تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها، وتصبح شيئًا تافهًا.

إن واحدة من أطول فقرات القرآن التي تتناول الخلق تذكر ذلك واضعةً جنبًا إلى جنب رواية خاصة بأحداث دنيوية، وأخرى سماوية، في "سورة فصلت" يقول الله ﷻ للنبي ﷺ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩- ١٢].

المقصود من الآية: التعبير عن خضوع السموات والأرض للأوامر الإلهية، بعد تشكلها.

ولقد رأى بعض النقاد في هذه الفكرة تناقضًا مع التصريح القائل بفترات الخلق الستة، ذلك أنه إذا جُمعت فترتا تشكيل الأرض، والفترات الأربع الخاصة بتوزيع أسباب الرزق لسكانها، وفترتا تشكيل السموات، تنتهي إلى ثمان فترات، وهذا يناقض الفترات الست المعروفة أعلاه، وفي الحقيقة أنه لا تناقض؛ لأن الله ﷻ بين أن خلق الأرض، وجعل الرواسي، وتقدير الأقوات في أربعة أيام، ومن غير المعقول أن نجمع اليومين في أول الآية ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم بعد ذلك نضيف أربعة أيام، يكون العدد ستة، ثم بعد ذلك خلق السموات في يومين، إذن يكون العدد ثمانية، هذا غير معقول؛ لأن الله ﷻ يبين أن خلق الأرض، وجعل الرواسي، وتقدير الأقوات، كل ذلك استغرق أربعة أيام، وهذا معروف في لغة العرب، ولا تناقض على الإطلاق.

فهذا النص الذي أمامنا يدعو الإنسان لتأمل القدرة الإلهية، ابتداءً من الأرض، حتى يكمل تأمله الخاص بالسموات، يقدم جزأين معطوفين بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ التي تعني زيادة على ذلك، فالكلمة قد تتضمن إذن معنى ترتيب ينطق على سلسلة متوالية من الأحداث، أو على ترتيب في تأمل الإنسان في الأحداث المشار إليها هنا، وقد يكون المقصود أيضًا مجرد الإشارة إلى أحداث مرتبة جنبًا إلى جنب، دون نية إدخال معنى التوالي على هذه الأحداث، وأيًّا كان الأمر فتستطيع فترات خلق السماء أن تكون مصاحبة تمامًا لفترتي خلق الأرض؛ إذن لا تناقض أبدًا بين هذه الآية وبين الآيات التي تصرح بأن الخلق في ستة أيام.

وكما اتفقنا وكما قال العلماء المحدثون: أن المراد بـ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي فترات زمنية طويلة جدًّا، تتضاءل إلى جانب الأيام كما نفهمها، وتصبح شيئًا تافهًا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

هذا رد على اليهود الذين زعموا أن الله تعالى خلق العالم في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، هذا ما تقوله رواية التوراة، لكن الحقيقة هي ما يقوله القرآن: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ فهذا ما نظره العلماء المحدثون في الموازنة بين ما يقوله القرآن الذي تكفل الله بحفظه، والذي خلق هذا الكون كله، وهو الذي يخبر في هذا القرآن بأنه خلق الأرض في ستة أيام، هو الشيء الواقع، والشيء الذي لا يتناقض ولا يختلف مع الكون؛ لأن خالق الكون هو الذي أنزل القرآن على النبي ﷺ.

الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ القرآن لا يحدد ترتيبًا في خلق السموات والأرض، كما في "سورة الأعراف" وكما في "سورة فصلت" لكن هناك عدد صغير من الآيات تشير إلى أن خلق الأرض أولًا، كما هو الحال في قوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ

﴿ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وعلى العكس من ذلك يوجد عدد أكبر من الآيات يشار فيها إلى السموات قبل الأرض، كما في "سورة الأعراف" وكما في "سورة يونس" وكما في "سورة هود" وكما في "سورة الفرقان" وكما في "سورة السجدة" وكما في "سورة ق" وكما في "سورة الحديد" و"سورة النازعات" و"سورة الشمس".

في الحقيقة باستثناء "سورة النازعات" ليس في القرآن أي فقرة تحددُ بشكلٍ قاطعٍ أيَّ ترتيب، فحرف العطف "و" هو الذي يربط طرفي الجملة، أو كلمة "ثم" لكن في فقرةٍ واحدةٍ في القرآن تقرر بشكل واضح وجود ترتيب في أحداث الخلق، وهذه الآيات هي: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣].

إِنَّ وَصْفَ نِعَمِ اللهِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَلَى النَّاسِ، ذَلِكَ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْهُ الْقُرْآنُ فِي لُغَةٍ تُنَاسِبُ مُزَارِعًا أَوْ بَدَوِيًّا من شبه الجزيرة العربية، مسبوق بدعوة للتأمل في خلق السماء، ولكن المرحلة التي مد الله فيها الأرض، وأخصبها تأتي بالتحديد زمنيًا بعد إنجاز عملية توالي الليل والنهار.

المذكور هنا إذن هو مجموعتان من الظاهرات، جزء منها أرضي، والآخر سماوي، وقد حدث كلاهما في اتصال مع الآخر، وبالتالي فذكر هاتين المجموعتين من الظاهرات، يعني: أنَّ الأرض كانت بالضرورة موجودة ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١] هذا بعد خلق السماء، كانت موجودة، وعليه فقد كانت الأرض موجودة حين بنى الله السماء، وينتج من هذا فكرة المصاحبة الزمنية لنمو كل من السموات والأرض، بشكل تتداخل فيهما الظاهرتان.

وبناء عليه فلا يجب أن نرى أي دلالة خاصة في إشارةِ النَّصِّ القرآني إلى خلق الأرض قبل السموات، أو خلق السموات قبل الأرض، فمواضع الكلمات لا تبين وجود ترتيبٍ تحقق الخلق في إطاره، إلا أن تكون تفصيلات أخرى معطاة، فالله ﷻ يبين كمال قدرته في أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، أي في فترات زمنية لا يعلمها إلا الله ﷻ، و يرد على اليهود الذين زعموا أن الله تعالى خلق العالم في ستةِ أيامٍ، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت.

فالآية تبين أنه لا نستطيع أن نرتب خلق الأرض أولًا، أو خلق السموات أولًا، فالمصاحبة الزمنية لنموّ كل من السموات والأرض بشكلٍ تتداخل فيهما الظاهرتان، لا نستطيع أن نقول: الأرض خُلقت أولًا، أو السماء خلقت أولًا؛ لأن الآيات القرآنية تدل على أن عملية الخلق كانت متداخلة، ولا يمكن لنا الآن أن نبين أيهما أسبق من الآخر في الخلق.

٤- تفسير الآيات من رقم (٣٩) إلى (٤٥):

قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾ ما معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

الفاء للنصيحة أي: إذا كان الحال كما بينا لك يا محمد فاصبر على ما يقوله هؤلاء الضالون المكذبون من أقوال لا يؤيدها عقل أو نقل ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ المكذبون كانوا يقولون أشياء غريبة في الرسول ﷺ رغم أنه معلوم عندهم بالصادق الأمين ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ كان يقولون: ساحر، شاعر، كذاب، مفتر، وأشياء كثيرة، فالله ﷻ يأمره بأن يداوم على الصبر: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ثم بعد ذلك يقول له: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ

﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ هذا إرشاد للنبي ﷺ إلى ما يعينه على الصبر، الذي يعينه على الصبر هو التسبيح ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ إذن الإنسان حينما يسبح الله ﷻ هذا أمر يعينه على الصبر ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ أي: اصبر -أيها الرسول الكريم- على أقوال هؤلاء الكافرين، ونزه ربك تعالى عن كل ما يليق به، وتقرب إليه بالعبادات والطاعات قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب، وهما وقتا الفجر، والعصر، وخصهما سبحانه بالذكر لفضلهما وشرفهما.

ثم بعد ذلك يقول الله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي: ونزهه عن كل ما يليق به ﴿ وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ يعني في أعقاب الصلوات أكثر من تسبيح الله ﷻ وتقديسه.

إذن هي أشياء كلها تعين على الصبر: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ ثم بعد ذلك يقول له: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي: في أعقاب الصلوات، المراد بالسجود هنا الصلاة ﴿ وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ يعني: الصلوات.

ومن الأحاديث التي وردت في فضل التسبيح بعد الصلوات المكتوبة، ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة < أنه قال: ((جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله ذهب أهل القصور بالدرجات العلا، والنعيم المقيم، فقال: وما ذلك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولا نتصدق. فقال ﷺ: أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من فعل مثل ما فعلتم: تسبحون، وتحمدون، وتكبرون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة -التسبيح، والتحميد، والتكبير، كل واحدة ثلاثة وثلاثين مرة- قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله، فقال ﷺ: ذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء)) فهذا يدل على التنافس في فعل الخيرات، هم يتسابقون إلى فعل الخيرات ويسارعون، كما قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] فهذا أمر للمسارعة إلى فعل الخيرات، وكذلك في قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] إذن التسبيح عقب الصلوات، والتحميد، والتكبير، هو خير كثير، يعادل التصدق بالأموال التي في أيدي الأغنياء، لكن انظر حينما سمع الأغنياء بذلك، فأخذوا في التسبيح، والتحميد، والتكبير، عقب الصلوات، فذهب الفقراء إلى الرسول ﷺ فقالوا له: ((يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله)) هذا يدل على الحرص على الخير الذي يبقى معهم في الآخرة، لكن الله ﷻ نبههم بأن هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)) وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠] فإذن التسبيح بصفة عامة هو خير، يعين الإنسان على الصبر على مضايقات الناس، وعلى أذى الناس، وعلى الشدائد التي تقابله، فالتسبيح وسيلة إلى الصبر، يعين الإنسان على الصبر.

ثم بعد ذلك أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يلقي سمعه لما يخبره به، يعني يصغي إلى ما يخبره به الله ﷻ من أهوال يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ لكن نلاحظ أن الأمر المستمَع إليه محذوف، لم يقل له: استمع إلى كذا، لكنه حذف المستمع إليه، ما السر في الحذف هنا؟ السر في الحذف هنا التهويل، والتعظيم، بمعنى: استمع -أيها الرسول- أو -أيها العاقل- لما سأخبرك به من أهوالٍ يوم القيامة ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾

يقصد: واستمع استماع، تنبه وتيقظ وأنصت إلى ما يلقى إليك يوم ينادي المنادي، والمنادي هو إسرافيل # قال ابن كثير: قال قتادة: قال كعب الأحبار: ((يأمر الله ملكًا أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء)) ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ يلاحظ أن الأمر بالاستماع في الأول جاء مطلقًا، ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ ﴾ ثم بعد ذلك تم توضيح هذا الاستماع بما بعده، ماذا يفيد هذا؟ يفيد التهويل والتعظيم للمخبر به؛ لما في الإبهام، ثم التفسير، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه، ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ الأول جاء الأمر بالاستماع مطلقًا، ثم بعد ذلك وضحه ما بعده، وهذا يفيد التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴾ المقصود بالمكان القريب أي: من مكان قريب بحيث يسمع نداءه الناس جميعًا، وكما في الأثر الذي ذكره ابن كثير: أن المنادي -وهو إسرافيل # يقف على صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَيَقُوْلُ: "أَيَّتُهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ، وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطِّعَةُ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُنَّ أَنْ تجتمعن لفصل القضاء".

قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ هذه بدل من قوله: ﴿ يُنَادِ ﴾ أي: يوم يسمعون صيحة البعث من القبور، والحشر للجزاء سماعًا ملتبسًا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل، والمراد بهذه الصيحة النفخة الثانية.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴾ أي ذلك اليوم هو يوم الخروج من القبور، كأنهم جراد منتشر، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس: ٥١، ٥٢].

ثم بين -سبحانه- ما يدل على كمال قدرته فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي: إنا بقدرتنا وإرادتنا نحيي ونميت من نشاء إحياءه أو إماتته، وإلينا وحدنا مرجع العباد ومصيرهم، لا يشاركنا في ذلك مشارك.

اذكر أيضًا -أيها العاقل: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ يعني: يوم تشقق الأرض عن من في باطنها من مخلوقات، فيخرجون إلينا سراعًا، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢].

قوله: ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أي: ذلك التشقق للأرض، وما يترتب عليه من بعث وجمع وحشر -يسير وهين علينا؛ لأن قدرتنا لا يعجزها شيء.

ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بهذه الآية، التي فيها من التسلية لرسول الله ﷺ ومن التحديد الدقيق لوظيفته فقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أي: نحن نعلم بما يقوله هؤلاء المشركون في شأنِكَ، وفي شأن دعوتك، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقاب، فاصبر على أقوالهم، وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحدًا سواه، وأنت لست بمسلط عليهم لتجبرهم على اتباعك وتقهرهم على الدخول في الإسلام، وإنَّما وظيفتك التذكير بهذا القرآن لمن يخشى عذابي ويخاف وعيدي.

قائمة المراجع العامة

١. (إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم)

أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفي، المكتبة الحسينية المصرية، ١٩٢٩م

٢. (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)

محمد الأمين الشّنقيطي، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م

٣. (أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل)

ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٨م

٤. (البحر المحيط في تفسير القرآن الكريم)

أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٨٣م

٥. (تفسير القرآن العظيم)

عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م

٦. (تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى)

محمود شلتوت، طهران، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ٢٠٠٠م

٧. (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب)

فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م

٨. (تفسير المنار)

محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م

٩. (**التفسير الوسيط**)

محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م

١٠. (**جامع البيان في تأويل القرآن**)

محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م

١١. (**الجامع لأحكام القرآن**)

أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكاتب العربي للطباعة و النشر، ١٩٦٧م

١٢. (**حاشية الصاوي على تفسير الجلالين**)

أحمد الصاوي، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م

١٣. (**روائع البيان في تفسير آيات الأحكام**)

محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، ١٩٨٠م

١٤. (**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني**)

أبو الفضل شهاب الدين الألوسي، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م

١٥. (**سيرة ابن هشام**)

أبو محمد عبد الملك بن هشام، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م

١٦. (**صحيح البخاري "الجامع الصحيح"**)

أبو عبد الله البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، المكتبة السلفية، ١٤٠٠هـ

١٧. (**صحيح مسلم**)

مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ١٩٨٢م

١٨. (**فتح البيان في مقاصد القرآن**)

صديق بن حسن القنوجي النجاري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م

١٩. (**فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**)

محمد على الشوكاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م

٢٠. (**في ظلال القرآن**)

سيد قطب، دار الشروق، ١٩٧٨م

٢١. (**الكشاف**)

أبو القاسم الزمخشري، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م

٢٢. (**محاسن التأويل**)

محمد جمال الدين القاسمي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م

٢٣. (**تفسير الصافي**)

المولي محسن الفيض الكاساني ، طهران، مكتبة الصدر، ١٤١٦هـ

٢٤. (**كشف المعاني في المتشابه من المثاني**)

محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني، المنصورة، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2011